دراسات في النبوة والرسالة

الشيخ
عبد العزيز بن ابراهيم العسكر
كلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية

مكتبة المعارف
الرياض

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

مكتبة المعارف - ص.ب: ٣٢٨١ - هاتف ٤٠١٣٧٠٨ - ٤٠٢٣٩٧٩
الرياض - المملكة العربية السعودية

دراسات
في
النبوة والرسالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. وبعد:

فقد شاءت إرادة الله جل وعلا، أن أكون على علاقة وثيقة بقضايا هذا الموضوع الجليل (النبوة والرسالة) وذلك منذ فترة من الزمن حين اخترت إحدى قضايا هذا الموضوع لبحث صفي في المرحلة الجامعية، وكان علي وأنا حديث عهد بالبحث آنذاك، أن لا أتطرق للقضايا والتفصيلات والخلافات الفرعية والجزئية في هذا الموضوع الواسع.

لكن كثرة المراجع والمصادر التي توفرت أمامي حول موضوع (النبوة والرسالة) لمذاهب شتَّى تناولت هذا الموضوع، بعضها ينتسب للإسلام، وقد ضل أصحابها الطريق إليه. وبعضها من أهل الإسلام، لكن من أصحاب هذه المذاهب من اجتهد فأخطأ، أو تأول فضلّ، فضلاً عن أولئك الملاحدة الذين أدلوا بدلوهم في العصور الحديثة، بتأثير وهم مزاعم ومفتريات جاءوا بها تحت ما أسموه: علم النقد وعلم الاجتماع وعلم النفس وغيرها من المسميات التي نسبوها للعلم الحديث، ليجعلوا منها أداة لهم في إنكار عمل النبوة والأنبياء في دنيا الناس. كل ذلك دفعني إلى التوسع في دراسة هذا الموضوع الجليل، فعقدت العزم مستعيناً بالله على أن أتناول مجمل القضايا التي تتصل بموضوع

النبوة والرسالة الإلهية، ووضعت مخططا لقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بكلية أصول الدين، طرحت فيه تصوري في معالجة هذا الموضوع على ضوء جهود علماء الإسلام السابقين إلى الخير في هذا المضمار.

ومنذ تمت موافقة مجلس الكلية (مشكورة) على تصوري في معالجة موضوع (النبوة والرسالة) وأنا أستهدف بعد الاحتساب، أن أضع أمام الأجيال المؤمنة بعضاً من أنعم الله على الخلق ببعثه للأنبياء والرسل، هداة مهديين، يصلحون من أمر العباد، ما يحققون به السعادة في دنياهم والأجر والثواب في أخراهم. ومن هنا قمت باعداد مجموعة لا بأس بها من المراجع والمصادر التي تتصل بهذا الموضوع، فضلاً عن تلك التي عنيت به من كتب التفسير والحديث والسير وتراجم الرجال وكتب العقيدة والمذاهب، إضافة إلى رحلة علمية لجامعتيْ القاهرة والأزهر، وبعض دور الوثائق بمصر، ومقابلات ومناقشات مع ذوي الاختصاص والإهتمام بهذا المضوع، حتى يسَّر الله لي من أمر المادة العلمية ما ارتأيته مناسباً لصياغة صفحات هذا البحث، الذي رتَّبت بناءه على ضوء الخطة العامة للبحث مضيفاً بعض الأبحاث والقضايا ومتوسعاً في بعضها الآخر، ليجيء البحث على النحو التالي:

الباب الأول: (دراسة في الإنسان والإيمان والحياة)

وهو يشتمل على فصول ثلاثة تضامنت في إبراز افلاس العقل البشري عن وضع قواعد السعادة والأمن لبني الإنسان وأنه لا بد لسعادة الإنسان وأمنه من قانون إلهي يقود سفينـة حياته إلى مرفئها الأمين.

وقد جاءت فصول هذا الباب على النحو التالي:

الفصل الأول: بعنوان (نظرة الإسلام إلى الإنسان) لكي يكون هذا الفصل تمهيداً للفصل الثاني الذي جاء بعنوان: (علم الغيب في الإسلام وموقع الإنسان منه) تهيئة لابراز دور الفطرة في الإنسان في الفصل الثالث الذي جاء بعنوان (الحياة على الأرض تشهد بوجود الله). وفي هذا الفصل بالذات إستعنا

في التدليل على ما ذهبنا إليه ببعض بحوث علوم الطبيعة والكمياء والنبات بهدف البرهنة على أن الكون تجري الحياة فيه وفق سنة الله في الخلق.

أما الباب الثاني: فهو بعنوان **(النبوة والرسالة في العقيدة الإسلامية).** ويتضمن فصولاً خمسة جاءت على النحو التالي:

الفصل الأول: التعريف للنبوة والرسالة على ضوء ما في المعاجم العربية ورجحت بعض الدلالات، ومن ثم تناولت مصطلحات العلماء في التعريف بالنبي والرسول وعرضت لأقوال العلماء في هاتين المسألتين واختلاف العلماء حولها، إجتماعاً وإفتراقاً، ورجحت الرأي الصواب إن شاء الله.

أما الفصول الأربعة، فقد جاءت قضاياها في نطاق الوحدة الموضوعية للبحث وعلى الترتيب الآتي:

الفصل الثاني: حاجة البشر للنبوة والرسالة الإلهية،

الفصل الثالث: ضرورة الإيمان بالأنبياء.

الفصل الرابع: المعجزة ودلالتها في النبوة.

الفصل الخامس: مذاهب الناس في حكم النبوة.

أما الباب الثالث فهو بعنوان: **(آدم بين الخلق والنبوة)** ويشتمل على فصلين هما:

الفصل الأول: من مظاهر خلق الله للإنسان في القرآن الكريم.

الفصل الثاني: نبوة آدم عليه السلام.

والباب الرابع بعنوان: **(ابرز الرسل والأنبياء بين رؤية أهل الكتاب ونبأ القرآن الكريم)** ويشتمل على سبعة فصول هي:

الفصل الأول: النبوة والرسالة على يد نوح عليه السلام.

الفصل الثاني: إبراهيم عليه السلام بين زيف الدعوى وحقيقة الإنتماء.

الفصل الثالث: اسماعيل وإسحاق عليهما السلام في كنعان.

الفصل الرابع: اسحق ويعقوب عليهما السلام بين تزييف التوراة وصدق القرآن.

الفصل الخامس: قصص النبي موسى عليه السلام في عطاء القرآن الكريم.

الفصل السادس: قصص داود وسليمان عليهما السلام بين كتب اليهود والنصاري وبين عطاء القرآن الكريم.

الفصل السابع: نبوة عيسى عليه السلام.

والباب الخامس بعنوان: **(الرد على منكري النبوة من الماديين)** ويشتمل على ثلاثة فصول هي:

الفصل الأول: التدين غريزة (فسيولوجية).

الفصل الثاني: العلم الحديث ودلائل النبوة.

الفصل الثالث: العلم الحديث أسقط الفكر المادي.

ثم **الباب السادس** والأخير وهو بعنوان: **(دعوة الرسول محمد ﷺ وخصائصها)** ويشتمل على أربعة فصول هي:

الفصل الأول: دراسة لأحوال أهم الرسالات السابقة، وصلة الدعوة الإسلامية بها.

الفصل الثاني: البشارة بالنبي محمد ﷺ في التوراة والإنجيل.

الفصل الثالث: العالم كان ينتظر محمداً ﷺ.

الفصل الرابع: خصوصية دعوة الرسول محمد ﷺ.

الخاتمة: وتتضمن ملخصاً لأهم الأفكار، التي انتهى إليها البحث والتي تتلخص في عجز العقل البشري عن أن يحقق الخير والسعادة للناس دون توجيه من النبوة والرسالة والإقتداء بمعطياتها بين بني الإنسان.

هذا ومن الجدير بالذكر أن دواعي ومقتضيات البحث أثناء فترة الاعداد والجمع اقتضت بعض التعديل في المخطط الذي بنيته على ضوء تصوري الأول للموضوع. غير أن هذا التعديل لم يهمل شيئاً من القضايا الرئيسية للمخطط الذي اعتمد كإطار للبحث وكنت أرجو أن أتعرض لقضيتي عصمة الأنبياء وختم النبوة، إلا أن مجلس الكلية استبعدهما لأنهما قد عولجتا من قبل في دراسة مستقلة بالقسم.

ومع كل الجهد الذي بذلت أسجل أنني أمام سعة الموضوع وتعدد جوانبه ما أوفيته إلا بعض ما يستحق لكن عذري أنني بذلت أقصى جهدي وقدمت ما أستطيع وأرجو أن يكون عملاً مقبولاً أمام الله تعالى ومساهمة متواضعة في مجال البحث العلمي.

وقد تنقلت بين كثير من المكتبات العامة والخاصة بل واطلعت على بعض المخطوطات في هذا المجال في جامعات الأزهر، والقاهرة، والامام محمد بن سعود، وقد استفدت كثيراً من هذا الأحتكاك العلمي ولله وحده الحمد والشكر والعرفان.

وإذا كان لا بد من كلمة في هذا المجال، فبعد الحمد لله على توفيقه إذ أعانني على مواصلة بذل هذا المجهود، فإنني أشكر كل من وجهني وأعانني على إنجاز هذه الدراسة، وأسأل الله لهم الأجر والثواب. وفي مقدمتهم والدي العزيز الذي شجعني على مواصلة التعليم، وبذل في سبيل ذلك كل غالٍ ونفيس، أسأل الله له الصحة والعافية، وأن أكون قرة عين له ولوالدتي إنّه سميع مجيب.

ثم أسجل الشكر لجامعتنا الحبيبة- جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- التي أتاحت هذه الفرص الكبيرة لطلاب العلم. لإثراء المكتبة الإسلامية بالجديد والنافع، إن شاء الله.

أما أستاذي الدكتور صابر عبد الرحمن طعيمة الأستاذ المساعد بقسم

العقيدة والمذاهب المعاصرة في كلية أصول الدين، فإني أدعو الله أن يثيبه، على حسن رعايته وتوجيهه وإشرافه، ولئن تشدد معي في بعض قضايا البحث، فقد كان تعاونه وتشجيعه، وسعة صدره، من أكبر العوامل - بعد عون الله - التي حفزتني لإنجاز هذا العمل.

وفي الختام أتقدم بالشكر والتقدير إلى الشيخ الدكتور عبد الكريم اللاحم عميد كلية أصول الدين السابق، وأشكر شيخنا رئيس قسم العقيدة الشيخ سالم الدخيل، فقد أشارا على حفظهما الله بضرورة البحث في هذا الموضوع وشجعاني على المضي والاستمرار فيه.

ولا يفوتني أن أسجل خالص التقدير والعرفان لفضيلة الشيخ عبد العزيز بن زيد الرومي عميد كلية أصول الدين الحالي، الذي دأب مشكوراً في الأونة الأخيرة حاثاً ودافعاً وموجهاً إلى سرعة إنجاز هذه الدراسة، فله خالص الشكر. كما أتوجه بالشكر والتقدير للأساتذة أعضاء لجنة المناقشة والحكم. لحسن توجيههم وملاحظتهم، وأخص الاستاذ الدكتور عبد السلام محمد عبده الاستاذ المشارك بكلية أصول الدين على اشرافه ورعايته لطباعة هذا البحث بعد حصولي على الدرجة العلمية.

وختاماً استغفر الله عن الخطأ والزلل والتقصير، فذلك طبع البشر وما كان من خير في هذه الدراسة فمن الله سبحانه، وما كان من تقصير فهو من نفسي، والله من وراء القصد، وهو حسبي ونعم الوكيل.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه:

(عبدالعزيز بن إبراهيم العسكر)

المحاضر بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

كلية اصول الدين - جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية

الرياض ٧ - ٥ - ١٤٠٣هـ

الباب الأول
دراسة في الإنسان والإيمان والحياة

الفصل الأول:

نظرة الإسلام إلى الإنسان

الفصل الثاني:

علم الغيب في الإسلام وموقع الإنسان منه.

الفصل الثالث:

الحياة على الأرض تشهد بوجود الله.

تمهيد

الأصل في الإنسان أنه يملك في مواجهة الدنيا وعيه المنسجم مع سننها،هذا الوعي هو « فطرته » أي هو طبيعته السليمة التي تتولد منها الأفعال.ورد ود الأفعال فيا بينه وبين الطبيعة المحيطة به وبينه وبين أفراد نوعه، بطريقة سليمة تحفظ عليه حياة الذات والنوع دون قصور أو عدوان.

هذه الفطرة في الإنسان في حالة سلامتها هي مصدر وعيه بأن وراء الحياة والوجود خالقاً يشمله بمشيئته، وهي التي تجعله يطلب الحرية بضوابطها، كما تدفعه إلى رفض الظلم، سواء أكان منه أو عليه، وهي التي تدفعه في ضوء هذه الحرية التي تأبى الظلم إلى الألفة إلى نوعه وإلى استحسان العون للآخرين، الأمر الذي يقوده إلى استحسان التعاون مع الناس في أعباء العمل المشترك وفي مقاسمتهم جميعاً ثمار ما يعملون.

إن الإنسان بهذه الفطرة الحية يدرك أنه في صميم انسانيته « يأنس » إلى اخوته من البشر فهو « إنسان » بمعنى أنه كائن حي يعلن بسلوكه الإجتماعي أشواق نفسه ليأتنس بغيره، وهكذا تميز الإنسان عن غيره من الكائنات باللغة التي تمهد لفكره أن يتقبل ويتداخل في فكر غيره لينشأ من ذلك فكر عام أو عقل عام للمجتمع. وفي اللغة العربية لغة الفطرة تعبر كلمة « الإنس » عن البشر أو الناس للدلالة على النزوع الاجتماعي المؤنس للأفراد باجتماعهم ولهذا كان التجمع أو تفاعل الأفراد لصناعة مجتمع ميلاً طبيعياً في الأفراد ويكون بقدر سلامة فطرتهم لكي يحقق كل منهم ذاته بطريقة أفضل، وكي يواجهوا الطبيعة في خيراتها ومواردها في مجتمعات أو كيانات بشرية نوعية أقدر على استثار هذه الخيرات، وعلى ردها على أفرادها بالحق والعدل الذي شرعه الله لخلقه.

هذا الإنسان الفطري المؤمن بالله، الواعي لمفهوم الحرية والعدل، هو الذي يرفض القهر منه أو عليه، والذي يستجيب لدعوة الله والذي يلتزم بشريعته ويرى أن العمل لعمران الحياة هو سبب الحياة وامتحانه في الحياة. هذا الإنسان هو الذي يبني بأفراد المجتمع السليم الذي يتمثل فيه كياناً بشرياً حياً يتحرك بحصيلة جهد أفراده ومعتقداتهم بينما يرتبطون بالمجتمع ارتباطاً عضوياً بحكم علاقاتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية عن طريق نظام عام تقره الفطرة، وتنشط به قابليات هؤلاء الأفراد للإيمان بشريعة الله.

على أنه يحدث لأسباب بيئية أو زمنية أو لأخطاء في الممارسات الإجتماعية أو نتيجة لتحول المجتمع الفطري المؤمن السليم نفسه إلى مرحلة من الغنى والترف بعد النجاح تنحل بها علاقاته، وتتولد بها خلافاته وتناقضاته، يحدث أن تفسد فطرة الكثيرين من أفراده فيقبل الفرد أن يظلم نفسه بالكفر، أو أن يظلم غيره بالعجز، وبذلك يتأكد فساد المجتمع الذي هو دائماً حصيلة عمل أفراده متحدين أو منقسمين، بقدر ما يتزايد فيه التظالم بين الأقوياء وبين الأغنياء والفقراء.

إن فقدان الفطرة أو غيبة الدين الحق يؤدي بفساد الأفراد إلى فساد المجتمعات وإلى صراعاتها المستمرة التي تصبح بها هذه المجتمعات كالمحموم الذي يتقلب من جنب إلى جنب، ومن نظام إلى نظام، حيث تقوم قلة نشطة أو طبقة قوية على تشكيل أخلاق جديدة للأفراد تحبب إليهم الطاعة بالخداع أو القسر بينما تضع على وجهها وإرادتها قناع سلطة المجتمع لتكسب. شرعية وجودها وهي تجعل من النظام الإقطاعي الخانق مثلاً بركة على العبيد والفلاحين، أو من النظام الرأسمالي الطبقي المبتز مسرحاً من الحياة والحضارة يبنيه الاحتكاريون وأصحاب الملايين على أجساد المحرومين والمخدوعين والملونيين، أو تجعل من القهر المنظم والإلحاد الموجه في أشكال النظم الماركسية تقدماً رفاقياً لتخلص العالم من الإستعمار الرأسمالي.

إنه في حالة فقدان الفطرة وفي غيبة الدين الحق الذي هو الفطرة نفسها مسلحة بشريعة الله تضعف قوة الفرد وتنثني إرادته، ويعجز عن سلامة الرؤية والتعبير، مما يضطره إلى المساومة على لقمة الخبز وجدار المسكن وأمن المواطن وبقبول ما يساق إليه، وبالعجز عن فهم ما يجري من حوله، وبانقسام إرادته إلى إرادتين، وشخصه إلى شخصيتين: أحدهما يقول بها بأعلى صوته «نعم» والأخرى يقول بها بأقصى صمته «لا»، وهكذا تمضي أمثال هذه المجتمعات العلمانية والالحادية غير المؤمنة بهذه الأساليب التي تقوم بها النظم والمصالح القوية فيها على تشكيل الأفراد باسم المجتمع ولا يملك فيها الأفراد أن يقوموا وفق مطالب الفطرة السليمة ببناء المجتمع السليم في وجه إرادة النظم.

الفصل الأول: نظرة الإسلام إلى الإنسان

أ- بناء الفرد في الإسلام:

من أجل هذا كان هدف الدين المباشر هو بناء الفرد أساساً لبناء المجتمع. وكان اتجاه الدين إلى بناء الفرد هو ايقاظ فطرته، واستعادة قدرتها على توجيه حياته، وتمكنه بها من الحكم الصحيح على الأشياء والأفعال، من حيث أن الفطرة هي سند الدين، ومن حيث أن الدين كما يقول الله تعالى هو ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾.

والدعوات الدينية قد ظهرت كلها بين أقوام وأمم كان عهدها قبل الدعوة قريباً بحياة الفطرة، وقريباً من تصور حياة دينية مستقيمة في دعوة سابقة، حياة مارس فيها أسلافهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتقرب الصادق إلى الله، كما حدث أيام اسماعيل وأبنائه حول الكعبة(١). وعندما تنزل القرآن الكريم كان أفراد هذه القبائل الفطرية في مجتمعاتهم وبخاصة في قرى الحجاز الكبير قد أصابهم ضعف الفطرة، وكنتيجة لذلك أصابهم ضعف الالتزام نحو الله، وانتشار عادة التقرب إليه بالأصنام، مما أدى إلى بداية تخلخل الالتزام الصارم بمبادىء الأخلاق والمعروف، وذلك بما طرأ على الفرد من ضعف الإرادة، والميل إلى جمع المال لا لإنفاقه على ذوي القربى والناس وإنما لكنزه والإستعانة به على الناس أو لانفاقه على الأهواء والخمر والنساء أو للدعوة به

---

(١) (هنري برستيد): (فجر الضمير) ترجمة سليم حسن: (الألف كتاب): القاهرة عام ١٩٦٩م- صفحة ١٠٢.

إلى سرعة الاحتكام إلى السيف والحرب مع بني عمه لأسباب تقبل الاحتكام إلى المعروف والتحكيم فيها بالعدل.

ب- مسئولية الفرد في الإسلام:

ان بداية بناء الدين لشخصية الفرد هو جمع هذه الشخصية في مقوماتها الأساسية المتكاملة التي نذكر منها خمسة فيما يلي:

١ - الرجوع للمعروف والرجوع بذلك عن القيم والعادات المكتسبة في فترة الفتور والوهن إلى الأخلاق والمبادىء الثابتة في فطرة الإنسان والتي لا تتبدل معاييرها لأنها فطرة الله والتي تجمعها كلمة «المعروف» وتتجمع في الموقف المضاد لها كلمة المنكر.

فالمعروف بالفطرة من المبادىء والأخلاق الكريمة هو في يقظة النفس إليه أول مقوم لشخصية الفرد المؤمن الذي يبنيه الدين، وهو يرده إلى سهولة الوعي والتذكر لأخلاقه الطبيعية قبل أن يدركه الضعف فينقسم على نفسه وينسى المعروف ويحسن في عينه المنكر.

والمعروف هو الالتزام بكل خلق كريم بغير حد، وهو الدعوة إليه، وهو الإنتهاء والنهي عن غيره،وقد ورد ذلك في صفة المؤمنين في القرآن الكريم، يقول الله تعالى:

﴿والمُؤمنونَ والمُؤمناتِ بعضُهم أَولياءُ بَعْضٍ يأْمُرُونَ بالمعروفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكرِ وَيُقيمونَ الصَّلاةَ ويُؤتونَ الزَّكاةَ ويُطيعونَ اللهَ ورسولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهم اللهُ إنَّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ﴾.(١)

---

(١) سورة التوبة: الآية رقم ٧١

٢ - التذكر للمسئولية عن العمل، فالمؤمن مسئول عن كل ما يقوم به من عمل باختياره، وهو مسئول أيضاً عن قصوره عن بعض الأعمال التي يجب عليه بحكم الإيمان أن يقوم بها كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإصلاح بين الناس.

عن هذه المسئولية التي وضعها القرآن في عنق الفرد ولم يجعلها مسئولية المجتمع يقول تعالى: ﴿كلُّ امرئٍ بما كَسَبَ رهينٌ﴾[١] ويقول: ﴿فمَنْ يعمَلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ خيْراً يرَهُ وَمَنْ يعْمَلْ مثِقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يرَهُ﴾[٢].

بسبب هذه المسئولية أصبح بناء الدين للافراد هو المقدمة الصحيحة لبناء المجتمع السليم بأفراده، وأصبح كل فرد يرى أن مسئوليته ممتدة بامتداد إيمانه إلى المجتمع فهو مسئول عنه بقدر ما يجعل مناخه صالحاً لكل فرد مؤمن يحقق ذاته المؤمنة فيه، حتى وإن يكن غير مسئول أمام الله عن أوزار غيره ﴿أَنْ لا تَزرُ وازرةٌ وزْرَ أُخرى﴾[٣]، فهو مسئول عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣ - وفي منهج الدين لبناء الفرد كانت المساواة في الإنسانية بين الناس مفهوم وقاعدة أساسية لإرجاع الفرد إلى أفضل صياغة يكون بها قادراً على بناء المجتمع. ذلك لأن المجتمع لا يستطيع أن يفرض المساواة على أفراده بالشعارات ولكن الأفراد يستطيعون إذا نشأوا بالتزام صارم لهذه المساواة في إطار الإيمان أن يفرضوا سلوك المساواة المبدئية على حياة المجتمع، وأن يجعلوا منها البنية الأساسية لكل أعمالهم ومشروعاتهم، وأن يشيدوا المجتمع على هيئة المسجد الذي يسع الناس صفوفاً متكافئة للصلاة، كما يسعهم في الأسواق وساحات القتال فرقاً متراصة متآخية لا تفاوت بينهم إلا بمقياس درجات ومسئوليات العمل، وهو تفاوت لا ينقص أحد حقاً، ولا يسقط عنه واجباً، والله يقول في هذه

---

(١) سورة الطور: الآية رقم ٢١

(٢) سورة الزلزلة: الآية رقم ٧، ٨.

(٣) سورة النجم: الآية رقم ٣٨.

المساواة بين جميع الناس في انسانيتهم أساساً للمساواة بينهم في الإيمان والتقوى:

﴿يا أيُّها النَّاسُ اتقوا ربّكُمْ الذي خلقكُمْ منْ نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجَها﴾.[1]

٤- ومن أجل دعم هذه المساواة بين الناس في مفهوم ومقومات شخصية الفرد كان لزاماً أن يتشدد الدين في قضية الظاهر والباطن وهو يفسر حقائق الإيمان وأحكام الشريعة في كل نصوص الدين وأصوله من الكتاب والسنة.

فالإنسان المؤمن يتحرر بإيمانه أساساً من «النفاق الإجتماعي» ومن أن يكون في حياته وجهان متناقضان يلقى بأحدهما كل الناس في حياته العامة ويلقي بالآخر نفسه أو خاصته في حياته الخاصة.

وهذا التحرر لا يكون إلاَّ إذا تحرر قلبه من المرض وتحررت نفسه من الإحساس بالقهر، أو من النزوع للعدوان، فهذه الحرية النابعة من قلب سليم ونفس حرة، وغاية كريمة لا يتأتى معها أن يكون للكلمة الواحدة معنيان أحدهما ظاهر والآخر باطن، وأن يتناقض المعنيان تناقض الخصومة والخلاف، كما يكون من المحال أن يقع مثل هذا التصور لتناقضات الظاهر والباطن في معاني آيات القرآن الكريم التي تنعكس بالعلم والرحمة والسكينة واليقين على قلوب المؤمنين بالله رب العالمين.

إن المؤمن الصادق يدرك أن الله قد أنعم عليه في الظاهر والباطن بغير تعارض ﴿وأسْبَغَ عليكُمْ نعمَهُ ظاهرةً وباطنةً﴾[2] كما أنه حين دعاه إلى اجتناب الاثم حذر المؤمنين قائلاً: ﴿وذَرُوا ظاهرَ الإثمِ وباطِنَهُ﴾[3] كذلك فإن المؤمن الصادق يدرك أن الله الخالق المدبر الذي يؤمن به لا يتغير مهما تعددت صفاته اذ هو الأول والآخر والظاهر والباطن.

---

(١) سورة النساء: الآية رقم ١.

(٢) سورة لقمان: آية رقم ٢٠.

(٣) سورة الانعام: آية رقم ١٢٠.

إن المؤمن الحق الذي يتحد فيه الظاهر والباطن بالإيمان كما يتحد فيه السر والعلن أمام الله هو الذي يحمل مسئوليته بأمانة عن المجتمع تجاه الله الذي يعلم ظاهره وباطنه، أكثر مما يحملها تجاه المجتمع الذي لا يعرف منه أكثر من الظاهر.

وهذه المسئولية التي يتحد فيها الظاهر والباطن في بناء شخصية المؤمن هي التي تزيد من قدرته ليكون كما يبنيه الدين جزءاً في المجتمع معبراً عن الكل، وعاملاً للكل، ومجاهداً عن الكل... وليس العكس.

٥- واللغة المبينة هي كذلك مقوم في شخصية المؤمن. فاللغة التي هي تعبير الكلمة هي في طبيعة اللغة العربية عبور، إنها عبور للمعاني في قوالب ألفاظها السليمة من عالم الغيب إلى عالم الشهادة. إنها عبور واعراب وابانة يتحرر بها المؤمن من قيد الصمت، وربقة العي، وظلمة العجمة ليعبر عن ذاته ويشهدها ويسمعها في أصوات ملزمة وأعمال ملتزمة، يسهم بها في بناء المجتمع الذي أعده الإيمان والقرآن له بمنهج الدين[١].

إنه لا غنى لأي إنسان عن لغته، كما أنه لا غنى للإنسان المؤمن عن اللغة العربية مقوما لشخصيته وقد ربط الله بينها وبين خلق الإنسان وهدايته وذلك حيث يقول: ﴿الرحمنُ علَّمَ القرآنَ★ خلَقَ الإِنسانَ★ علَّمَهُ البيانَ﴾[٢].

جـ- أبعاد الإيمان:

كذلك فإن الدين في تكوينه للفرد يتناول المركز الأول وهو الإيمان فيدعمه ويرسي قوائمه على خمسة أبعاد يصبح بها التصديق المطلق والوعي الفطري بأن الله الواحد الذي ليس كمثله شيء هو القائم على الوجود والحياة ذا نظرة شمولية.

---

(١) دكتور: محمود حجازي: (اللغة العربية عبر القرون). سلسلة اقرأ- القاهرة عام ١٩٦٩ م صفحة ٨١.

(٢) سورة الرحمن: آية ١- ٤

والبعد الأول في الإيمان هو نواته ومركز الاعتقاد فيه بوحدانية الله، واشراق صفاته على نفس المؤمن من كل آفاق الحياة فالإيمان لا يكون كاملاً بالوراثة أو بمجرد السماع إلى المواعظ.

الإيمان يكمل وتتفتح منابعه بالسير في الأرض، وملاحظة النفس والآفاق، وإكتشاف النظرة العلمية السليمة من متابعة هذا الاتساق في ظواهر الطبيعة ومن مطابقة ذلك على تدبر كتاب الله وطول مذاكرته والإستماع إليه ومن حث الفطرة على التنبه لبرهانه والالتزام به.

والقرآن الكريم مليء بالشواهد التي منها: ﴿أَفَلَمْ يسيرُوا في الأرض فتكُون لهمْ قلوبٌ يعقلونَ بِها﴾(١).

والبعد الثاني في صرح الإيمان هو البعد الاجتماعي الذي تمتد به مسئولية المؤمن عن نفسه إلى المسئولية عن مجتمعه. وهو البعد الذي يتحرر به من الوساوس ومن سلطان الهوى والشركاء والآلهة الكاذبة لكي يسهم بكلمة صادقة، ويد أمينة في مجتمع الاستخلاف الذي يقول الله فيه: ﴿هوُ الَّذي جعلكُمْ خلائفَ الأَرضِ ورفَعَ بعضَكُمْ فوقَ بعضٍ درجاتٍ ليبلوكُمْ فيما آتاكُمْ﴾(٢).

والبعد الثالث في صرح الإيمان كما هو في تكوين الدين للفرد هو البعد التاريخي حيث تمتد نظرة المؤمن الشاملة إلى قانون الله الذي لا يتبدل في قيام الأمم وهلاكها وفي نشأة الحضارات وانحلالها.

فالأُمم تنشأ وتزدهر حياتها وتقوى وتعتز بالإيمان والله في ذلك يقول: ﴿وَلَوْ أنَّ أهل القرى آمنو واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض)(٣).

وكذلك فإن الأمْ التي تنسى ذكر الله وتلهو بحياتها الدنيا تنحل حتما

(١) سورة الحج: الآية رقم ٤٦

(٢) سورة الانعام: الآية رقم ١٦٥.

(٣) سورة الاعراف: الآية رقم ٩٦.

وتصيبها ألوان القوارع والقواصم التي تقضي عليها من خارجها أو تفتتها من داخلها بتفجير متناقضاتها واثارة صراعاتها، وفي مثل ذلك يقول الله ﴿ضربَ اللهُ مثلاً قريةً كانتْ آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقُها رغداً منْ كلِّ مكانٍ فكفرتْ بأنعُمِ اللهِ فأذَاقها اللهُ لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يصنعونَ﴾(١). والتاريخ الديني كله دعم لهذه القوانين في إيمان المؤمن.

وأما البعد الرابع في دعائم صرح الإيمان فهو البعد الجغرافي حيث يبسط الدين للمؤمن تصور الأرض التي كانت مهد الدين، والتي نشأت عليها دعوات الرسل. فهذه الأرض هي قاعدة كل ما جرى عليها من التاريخ الديني، ومن قصص الأنبياء ومن أخبار الأمم التي تقبلت رسالات الله، أو تنكرت لها، كما أنها الأرض التي كانت الكتاب المفتوح أمام المؤمنين لقراءة الآيات المبنية بالعين والسمع والحس على أن القائم بالحق والأمر في هذا الوجود وفوق هذه الحياة هو الله.

على هذه الأرض شهد الإنسان العربي في مراحل حياته الإجتماعية، ولا يزال يشهد آيات رحمة الله به ونعمه عليه. لقد شهد ذلك في الصحاري الواسعة التي كانت درعاً له ضد الغزو ومسعى له بين آفاق السموات والأرض حيث عاش مع الحرية الكاملة، والإبل الصابرة، والخيل المغيرة، والنخل الودود الذي يؤتي أكله كل حين بإذن الله. مستخفاً في رحلات بداوته بيوت الشعر التي جعلها الله ثمرات الانعام: ﴿بيوتاً تستخفونَها يومَ ظعنكُمْ ويومَ إقامتكُمْ﴾(٢).

لقد كان لكل هذه الكائنات في صحبة الإنسان العربي أعمال وبطولات ومواقف شاركته بها صنع تاريخه، وأسعفته فيه عندما خرج من جزيرته لتحرير وطنه الكبير، وتصحيح مسيرة العالم أجمع، استجابة لدعوة الله تعالى.

---

(١) سورة النحل: الآية رقم ١١٢.

(٢) سورة النحل: آية رقم ٨٠.

وعلى هذه الأرض وهذا الأهم أتيح للإنسان العربي أن يصنع من ملخصات الطبيعة العظيمة المحيطة به، لغته الخالدة العظيمة التي لا تزال بعد نزول القرآن مشرق شمس الدين، ومجمع علامات الهدى وعلوم اليقين.(١)

ثم يأتي البعد الخامس في صرح الإيمان وهو البعد التطبيقي الذي يعلم به المؤمن بصدق التدبير للقرآن الكريم أن الإيمان عمل وسلوك، وليس تزكية للنفس وكلاماً في الهواء، فالإسلام هو الإيمان مجسداً في عمل. والعبادة ليست طقوساً ينعزل بها المؤمن في التكايا والخلاوي والكهوف فقط، وإنما هي سيادة الإيمان والعمل على كل ساحات الحياة.

الدين هو العمل بشريعة الله بالليل والنهار وملءُ حدود المجتمع حتى أقصى ما يتسع له من أنواع الأعمال وأحجامها، وليست العبادة هي هذا الاجترار الخالي من الحياة والإرادة والتدبير لكلمات محفوظة بعيداً عن عباب المجتمع وأمواجه وحاجاته وضرورة فرض إرادة الإيمان بالأعمال عليه.

إن الإسلام بغير تطبيق عملي لشرائعه، والقعود بالإيمان بعيداً في ابتهالات مبتورة عن حركة المجتمع ومعزولة وراء الجدران إنما يعجل بما تريده التيارات العلمانية والعقلانية والالحادية لمجتمع المؤمنين من تعريض الإيمان نفسه للشلل بعد الحركة وللموت بعد الشلل حيث الصراع العالمي الظاهر والخفي يدور من أجل إنهاء دولة الشريعة، وإزاحة ملكوت الله في الناس ودفع بقايا المؤمنين من خلال ما عندهم من الإيمان النظري ومن التفاخر بالمقامات الصورية والوهمية إلى خاتمة من الوهن والشتات وبحر من الظلمات والخرافات.

وبهذا البعدِ التطبيقي في صرح الإيمان يتأكد أن العمل هو جوهر الإنسان وأن لكل عمل جزاءه في الدنيا والآخرة كما يقول الله ﴿إنِّي لا أضيعُ عملَ

---

(١) دكتور (جلال نجم): (جلال اللغة العربية في وجه التحديات) القاهرة عام ١٩٦٤م صفحة ٣٢٥. [بتصرف].

عاملٍ منكُمْ منْ ذكرٍ أَوْ أُنثى﴾[1] وترتفع أسوة النبي ومن سَبَقَهُ من الأنبياء أمام المؤمنين إذْ يقول الله: ﴿لَقَدْ كانْ لكُمْ في رسول اللهِ أُسوةٌ حَسَنةٌ﴾ وإذ يقول سبحانه: ﴿ليكونَ الرسولُ شهيداً عليكُمْ وتكونوا شُهداء على النَّاس﴾.[2]

(١) سورة آل عمران: آية رقم ١٩٥.
(٢) سورة الحج: آية رقم ٧٨.

الفصل الثاني:

علم الغيب في الإسلام وموقع الإنسان منه

١ ● - العقل الإنساني قيمته وحدوده

٢ ● - الغيب في الإسلام

٣ ● - الخشية بالغيب

٤ ● - الإيمان بالغيب

٥ ● - الفطرة والغيب

٦ ● - بين الغيب والشهادة في الإسلام

٧ ● - علاقة الملائكة والجن والرسل بالغيب

الفصل الثاني:

علم الغيب في الإسلام وموقع الإنسان منه

تمهيد:

إنَّ شغف الإنسان عبر تاريخه الطويل لاستكْناه ما حوله من مظاهر الطبيعة الحية وما يعتورها من تغير وصيرورة، لم يقف به عند حد معين من التعيين والتثبيت، ورغبة الإنسان في معرفة السر وراء فيضان النهر وموج البحر وزلزال الأرض هي التي كانت وراء تعلقه بهذه النماذج من المخلوقات حتى اعتبر مقوماتها (غيباً) تحول بين إدراكه وبين الإنسان العوائق والمواقع، فعبدها فترة ثم عزف عنها ثم مارسها فترة أخرى وهكذا.(١)

ولقد ظلت محاولات معرفة الغيب شغل الإنسان منذ قديم الزمان. إذ نجد هذه المحاولات أول محاولات للإنسان بعد عمليات توفير غذائه واستقرار حياته، فأقدم ما عرف من العلم هو ما يسمى بعلم (التنجيم) الذي يحاول الربط بين حركة النجوم وبين ما يقع من أحداث العلم نتيجة اقتراب كوكب من آخر او ابتعاد نجم عن آخر. أو وقوع الأرض في برج معين أو خروجها من برج محدد، ولما لم يشبع ذلك رغبة الإنسان فهو في حاجة إلى تنجيم يدل على ما قد يصادفه هو نفسه. ويبين ما سيقع له هو بشخصه. راجت لذلك عمليات مختلفة الأشكال متعددة الأسماء وكلها تهدف إلى محاولة التأثير على الإنسان بإعلانها أنها من علوم الغيب والمعرفة، فمن ضارب للرمل إلى قارىء للورق. ومن متابع للأثر إلى حاسب للاسم. ومن راصد للنجم. إلى فاحص للكف، وتنزل كل

(١) (هنري برستيد): (فجر الضمير) ترجمة سليم حسن: (الألف كتاب): القاهرة عام ١٩٦٩م- صفحة ٨١.

كلمة تقال للإنسان منزل التقدير طالما أنها تحمل صبغة النبوة بما سيقع أياً كانت درجة تعصب الإنسان ضد كل هذه المحاولات. وما من كلمة يرمي بها أي إنسان عابر غيره تخصّ غيبه وتمسّ مستقبله إلاّ وتدبرها وتفكّر فيها. وما ذلك إلاّ للرغبة الدفينة في نفس الإنسان التي خلقت معه والتي تطالب بمعرفة الغيب والوقوف على أسراره وكل مختص بفن يورد الأدلة التي يحاول أن يثبت فيها صدق علمه. وكل مجتهد يحاول أن يربط بين ما يقوله وما يقع. فقارىء الكف يقرر أن خطوط يد الإنسان التي تختلف من فرد لآخر إنما هي قصة حياته قد سطرها الله جل شأنه في كفه. وأنها تحمل أسراره منذ مولده إلى مماته. وأن القارىء الممتاز للكف يستطيع ترجمة هذه الخطوط إلى أحداث المستقبل وحوادث الماضي، وحاسب الإسم يقول: إن الإسم يلهم به الأب وأن جملة حروف الإسم وإسم الأب مع حساب النجوم ساعة المولد. وساعة الكشف أنه تقرير لحالة صاحبها.

وبتقدم الإنسان. وتطور أساليب معرفته. واستخدام العلم في كافة شئونه، حاول جاهداً أن يستخدم العلم في محاولة معرفة الغيب فوجدنا محاولات للربط بين الأحلام وبين مستقبل الإنسان وماضيه. باعتبار أن الأحلام سياحات روحية تتم بانطلاق الروح خارج الجسد حيث تجوب آفاقاً بعيدة هي مشارف ما سوف تكون عليها في مستقبلها. ويربطون بين أحلام رأى فيها الإنسان مكاناً بعينه لم يكن رآه من قبل وعرف تفاصيله، وتمكن من أوصافه في منامه ثم لا يلبث في المستقبل القريب أو البعيد أن يراه فعلاً. فكأن هذا الحلم إنما كان نوعاً من الكشف عن المستقبل.

ثم نجح العلم في التنبؤ بالأحوال الجوية. إذ أمكن عن طريق الاحصاءات ومتابعة الكتل المتحركة من الهواء ورصد درجات الحرارة والرطوبة في مختلف أنحاء العالم وعلى كافة الارتفاعات رسم خريطة للأحوال الجوية التي سيقوم عليها العالم في خلال الأيام المقبلة لمدة خمسة أيام. ولكن لا يمكن اعتبار معرفة درجات حرارة الجو نوعاً من الغيب. إذ أن هذه الكتل الهوائية

بدرجاتها المختلفة موجودة في الجو وأمكن معرفة اتجاهات حركاتها وبالتالي معرفة ما يكون عليه الجو نتيجة حركة هذه الكتل شمالاً أو جنوباً شرقاً أو غرباً.

ولم يجرؤ العلم بعد على محاولة معرفة الغيب بالنسبة للعالم. وبالنسبة للإنسان فإن مستقبل الإنسان فعلاً قد سطّر ولكن بطريقة. وفي مكان. لا يمكن أن يصل إليه الإنسان مهما أوتي من العلم.

فالله سبحانه وتعالى قد أخفى عن الإنسان غيبه، وقررت آيات القرآن صراحة ذلك في مثل هذه الآية الشريفة:

﴿وما كانَ اللهُ ليطلِعَكُمْ على الغيبِ ولكنَّ اللهَ يجتبي مِنْ رُسُلِهِ من يشاءُ﴾(١)

وهذا نبي الله نوح يقرر ذلك بالنص الكريم إذ يقول ﷺ كما حكى الله عنه:

﴿ولا أقولُ لكُمْ عندي خزائِن اللهِ ولا أَعْلَمُ الغيبَ﴾(٢).

وهذا خاتم الرسل والنبيين سيدنا محمد ﷺ يقرر ذلك أيضاً في النص الشريف كما وجهه ربه في القرآن الكريم بقوله:-

﴿قلْ لا أملِكُ لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاءَ اللهُ ولو كُنتُ أعلم الغيب لاستكثرتُ منَ الخيرِ وما مَسَّنيَ السُّوءُ﴾(٣).

وقرر القرآن الكريم أن الأحلام قد يكون تأويلها حقاً إذا أراد الله، كما حدث في قصة سيدنا يوسف ﷺ إذ رآى حلماً فسَّره أبوه في نفسه وذلك بالنص الشريف:

﴿إذْ قالَ يوسف لأبيهِ يا أبتِ إنِّي رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهُمْ

(١) سورة آل عمران: الآية رقم ١٧٩.
(٢) سورة هود: الآية رقم ٣١.
(٣) سورة الاعراف: الآية رقم ١٨٨.

لي ساجدينَ. قال: يا بنيَّ لا تقصصْ رُؤياكَ على إخوتِكَ فيكيدُوا لَكَ كيداً إنَّ الشيطانَ للإنسانِ عدوٌّ مبينٌ﴾[1].

وقد تحقق الحلم كما فُسِّر ولذلك قال سيدنا يوسف بنص ما جاء في القرآن الكريم:

﴿وقالَ يا أبتِ هذا تأويلَ رؤيايَ منْ قبلُ قدْ جعلَهَا ربِّي حقاً﴾[2].

هذا الغيب الذي يشغلُ بالَ كل إنسان. والذي أراد الله فجعله غيباً لا يعرفه الإنسان، ترى لماذا وجب أن يغيب عن الإنسان؟؟.

إنه لو عرف الإنسان أن الله سبحانه وتعالى قد حجب عنه غيبه رحمه به. وشفقة عليه، لوجب عليه أن يشكر الله، ويحمده، ولا يحاول أن يستطلع الغيب، لا لأنه لن يصل، بل لأن الله جل شأنه حجبه عنه.

ويكفي لو تفكر الإنسان بضع لحظات فيما يكون عليه حاله لو عرف مستقبله جملة أو تفصيلاً. لآمن أن جهله بهذا المستقبل إنما هو من ضمن السعادة التي أراد الله أن يحيطه بها في حياته الدنيا. وأن احتجاب الغيب هو سبيل قيام الحياة. ودورة الأيام.

ترى لو عرف الإنسان قدر مكسبه يومياً. هل يسعده هذا المكسب وهو يعلمه؟ ولو عرف يوم تخرجه. ولحظة عمله إلى حد يصل إليه هذا العمل. وتصورات حياته. يوماً بيوم. هل يجد لحياته طعماً؟ أو حركة؟ بل هل يجاهد في عمله؟ وهل يعيش بأمل وأي أمل؟! هو لا يطمع في شيء؟. ولو عرف تاريخ مرضه. وتطوراته. هل يسعده يا ترى ذلك؟! وهل لو عرف تاريخ موته. ألا يشقيه ذلك.. أيا كان هذا التاريخ بعيد؟! وهل لو عرف ما سيحدث له من حوادث إذا خرج. هل يخرج؟! وهل ترى تستمر الحياة بعد ذلك؟. أغلب الظن أن كل الناس. سيقبعون في دورهم. في تكاسل وأسف وفي بؤس وشقاء! في إنتظار

(١) سورة يوسف: الآية رقم ٤، ٥.

(٢) سورة يوسف: الآية رقم ١٠٠.

الحدث الأكبر الذي سيبقى الجميع يترقبونه. بقلقٍ وفزعٍ. وسيعيشون مر خوف الموت في موت.[1]

إن الصغير. يسعده أن يحلم بأنه سيكون كبيراً. والمريض يساعده على الشفاء تخيله أن الشفاء أصبح قريباً منه. والفقير يحلم بثروة تهبط عليه من السماء فتمضي أيامه. وتسعد لياليه بالحلم الجميل.

وكل إنسان مهما يكن يعيش بأمل. أمل كبير. وأمل عريض يصوره خياله. وينميه وجدانه. وتتسع آماله وتتشعب اتجاهات هذا الأمل. حتى يملأ الأمل حياته فهل توجد حياة بلا أمل؟.

إن معرفة الغيب والأمل، نقيضان لا يجتمعان، فهل يعيش الإنسان عالماً غيبه ودون أمل؟ أم يعيش جاهلاً بغيبه وبكل أمل؟!

★ إن الغيب هو صورة من صور رحمة الله بعباده، وبذلك فهو دليل على وجود الله جل جلاله، وصدق الله العظيم إذ يقول في كتابه:

﴿وقل الحمدلله سيريكم آياته فتعرفونها﴾[2].

١ - العقل الإنساني قيمته وحدوده:

في كتاب «الكون والفساد» «لأرسطوطاليس» الذي ترجمه «لطفي السيد» وكتاب «الجمهورية» لأفلاطون قديماً «والعقل والسلطان» لبرتراند راسل حديثاً درسات متوسعة حول التدليل على رغبة الإنسان في معرفة وظائف العقل في المجتمع وفي الحياة. وظل الإنسان منذ هذا التاريخ الطويل قبل الميلاد بأكثر من خمسة قرون وحتى اليوم وهو لم يكف عن محاولة معرفة حدود ودائرة إدراك هذا الذي اسمه «العقل» عند الإنسان ولما قال الفلاسفة القدماء عن الإنسان إنهّ (حيوان ناطق) أرادوا (ناطق) أي مفكر فلم يكونوا

(١) (ادوارد سبنسر كولز) (لا تخف) دار الهلال- القاهرة عام ١٩٥٨م. مترجم. صفحة ٨٦.
(٢) سورة النمل: الآية رقم: ٩٤.

قد توصلوا بعد إلى ما حاوله العلم الحديث عن معرفة الذكاء والذاكرة والفكر والإدراك والتصور والشعور والمخ وغير ذلك مما يتصل بالعقل.

هذا وقد ظل العقل موضوع دراسة الإنسان منذ بدأ يكتشف نفسه ويبحث عن وجوده. واختلفت الآراء حوله إختلافاً كبيراً فقد قيل إن العقل جوهرة مكانها داخل رأس الإنسان، وقيل بل إنه تموجات واهتزازات أثيرية خارج جسم الإنسان وتعلو منطقة رأسه، وقيل إنه من عطاء الله للإنسان وكما تختلف الناس في أرزاقها وتتباين في أشكالها فإنها تتفاوت في عقولها. وأن لكل فرد بذلك عقله المحدود الذي كتبه الله له كما كتب عليه رزقه وصحته وعمره. وآخر ما قيل في العقل إنه منطق فهو يستمد حقائقه من البيئه التي يعيش فيها الإنسان ويؤثر فيه غذاء الإنسان وطريقة معيشته ويتوقف إلى حد كبير على ما يتلقاه من علم ومعرفة وعلى ما يسمارسه من عمل وتجربة ولكن لماذا يختلف الإخوة في قدراتهم العقلية وهم من أصل واحد وفي بيئة واحدة وظروفهم العلمية متشابهة؟.

ولعل الشيء الوحيد الذي استطاع العلماء بدراسته أن يتقاربوا في تعريفه ويضيفوا في معلوماتهم عنه هو المخ[1] إذ أنه مادة أمكن رؤيتها وتشريحها ومراقبتها ووضع الدراسات المستفيضة عنها.

فالمخ يزن ثلاثة أرطال من مادة هلامية مغلّفة في مكان دافىء مظلم من الرأس وهي ذات لون رمادي مائل إلى الحمرة تشبه المطاط في ملمسها. والمخ في حجم الكرة الصغيرة ويحميه سائل خاص تختلف طبيعته عن كافة السوائل الأخرى ويتميز بميزة تجعله ينفرد عن غيره من السوائل فهو يمتص الصدمات التي قد تصيب المخ نتيجة سقوط صاحبه أو تلقي ضربات على رأسه ويغلف المخ والسوائل غشاء خارجي يتميز بالصلابة الشديدة بل إنه أكثر أجزاء الجسم صلابة ليكون المخ في حماية تامة من أي أثر لما قد يحدث له نتيجة

(١) «الإنسان ذلك المجهول» الكسيس كاريل تعريف شفيق أسعد فريد مكتبة المعارف الطبعة الثانية ص ١٥٣.

حوادث قد تصيب الإنسان بل لما تسببه بمجرد اهتزازات الإنسان وهو يمارس شئونه العادية التي لا بد أن يتحرك بدرجة ما بها طوال اليوم ويوجد ستة وثمانون نوعاً عصبياً تربط المخ بسائر الجسم وتتفرع هذه الأعصاب إلى أخرى أدق وتتشعب وتنتشر حتى تصل أقصى مكان في الجسم إلى أبعد جزء فيه فتربط المخ بجذر كل شعرة في الرأس وباظافر القدم[1]. وبذلك فإن مجموع أطوال هذه الشبكة من الأعصاب لا يمكن التكهن بها. إلا أن الخلايا العصبية الموجودة بالمخ عددها ١٣ بليون من الخلايا أي ما يوازي خمسة أضعاف عدد سكان العالم في مخ كل إنسان. ونشاط مركز القيادة لهذه الشبكة من المواصلات العصبية فوق الوصف. فلا يقتصر هذا النشاط على تلقي الحركة والألم واصدار ما يتبع بشأنها في كل مناطق الجسم بل إنه يتلقى مقدما صورة صادقة للمتاعب المتوقع حدوثها ومن ثم يقدر ما يجب عمله لمواجهتها ويستقبل أيضاً سيلاً مستمراً من المعلومات عن كل التفاعلات الإنسانية في الإنسان.

وتوجد صحيفة رمادية من الخلايا تغطي المخ وهي ذات ثنيات متجمدة. ولو قمنا بفرد هذه القشرة لشغلت مساحة تزيد عن قدمين وبذلك فإن مساحتها تبلغ صحيفة من الجرائد اليومية[2].

ويقول العلماء إن هذه القشرة هي العقل. والمخ أجزاء كثيرة أهمها المخ الرئيسي وهو أكبرها والمخيخ المخ الصغير ثم النخاع المستطيل وهو الجزء الذي يصل ما بين المخ والنخاع الشوكي.

هذا هو الوصف العلمي للمخ والذي تتفق فيه آراء العلماء. ولكن هل أمكن معرفة كيف يعمل هذا المخ؟. لقد ظلت المحاولات التي بذلها العلماء للوقوف على سر المخ تتلاحق منذ أن بدأ الإنسان يدرس نفسه لمعرفة الحياة حتى الآن. وكلما تعمق في دراسته ازداد الغموض وتشابكت الأسرار وازداد الجهل بالمخ. فمنذ آلاف السنين والإنسان يحاول أن يعرف سر المخ فيقول

(١) (أحمد البطراوي) الجنس البشري في معرض الاحياء. طبع مصر عام ١٩٥٦ صفحة ٢١.
(٢) (دين وفكر) (عيد الرزاق نوفل) صفحة ٤٣.

أبوقراط في المخ منذ ٢٣٠٠ سنة (يجب على الناس أن يعلموا أن البهجة والسرور والضحكة والرياضة والحزن والكآبة واليأس والنواح لا تأتي إلا من المخ وأننا بواسطة المخ وبطريقة خاصة نتعلم الحكمة والمعرفة ونرى ونسمع ونعرف الطيب من الرديء والصالح من الطالح والحلو من المر وأننا بواسطة المخ نميز كذلك بين الأشياء اللذيذة وأن نفس الأشياء ذاتها لا تسرنا دائماً وإننا بواسطة العضو ذاته نصبح مجانين[١].

ويقول الدكتور الكسيس كاريل الحائز على جائزة نوبل في الطب والجراحة في عصرنا الحديث عن المخ[٢]: يتكون المخ من كتلة رخوة بيضاء هشة جداً تملأ الجمجمة والعمود الفقري وهو يستقبل الأعصاب الحسية التي تصل إليه من سطح الجسم ومن أعضاء الحس ويتصل عن طريقها إتصالاً مستمراً بالكون كما يتصل في الوقت نفسه بكافة عضلات الجسم عن طريق أعصاب الحركة وبكافة الأعضاء عن طريق الأعصاب الفرعية التي تتجه صوب الجهاز السمبتاوي[٣] الكبير وعلى هذا الكائن العضوي يتخلله من كل جانب عدد هائل من الأعصاب وتنتشر الأعصاب الفرعية المجهرية بين خلايا الجلد وحول أغلفة الغدد وقنواتها وداخل مسالك الشرايين والأوردة والأغلفة القابضة في المعدة والأمعاء وعلى سطح الألياف العضلية.

انها تبسط شبكتها الدقيقة في الجسم بأسره وهي جميعاً تنبثق من الخلايا التي تقطن الجهاز العصبي المركزي والسلسلة المزدوجة من العقد السمبتاوية والتجمعات الصغيرة المنتشرة في الأعضاء.

وهذه الخلايا هي أسمى وأرق عناصر الجسم وتترابط الخلايا العصبية فيما

---

(١) (الكون والفساد) أرسطو طاليس ترجمة «لطفي السيد» طبعة دار الكتب المصرية عام ١٩٢١ صفحة ٣٢٠.

(٢) (دين وفكر) عبد الرزاق نوفل (بتصرف) ما بين صفحات ٤٠- ٤٦.

(٣) الجهاز العصبي.

بينها بفضل شبكة كهربائية وهي تنقسم إلى طائفتين تشمل إحداهما الخلايا العصبية المستقبلة والمحركة التي تستقبل مؤثرات العالم الخارجي أو الأعضاء وتوجه العضلات وتشمل الطائفة الأخرى خلايا الترابط العصبية التي تضفي بعددها الهائل على المراكز العصبية في الإنسان غناها وتعقدها. نحن نجهل ما يحدث في الأعصاب في حالة الألم أو الحركات الإرادية وكل ما نعرفه هو أن تغيراً في الطاقة الكهربائية يتنقل على طول العصب أثناء نشاطه ويعجز إدراكنا عن الإحاطة بمجال المخ عجزه عن الإحاطة بعالم النجوم وتحتوي المراكز العصبية أكثر من أثني عشر ملياراً من الخلايا تتحد فيما بينها بألياف تنبثق من كل منها تفرعات متعددة وهي بفضل هذه الألياف تجتمع بعضها مع بعض عدة ترليونات[1] من المرات وهذا الجمع الهائل على الرغم من تعقده الذي يفوق بساط الآلات والأدوات الدقيقة كظاهرة عجيبة فوق متناول الأفهام، أو يقول العالم «والدمار كمفرت»[2]: ولم يوفق إنسان بعد إلى الكشف عن الطريقة التي تعمل بها هذه الكتلة العجيبة من المادة ذات اللون الرمادي والتي تسمى بالمخ الذي يقوم بعملية التفكير وقشرته البالغة التعقيد وكل ما تأكد حتى الآن أن المخ ما هو إلاَّ جهاز كهروكيمائي وليس بمحرك أو بآلة حاسبة أتوماتيكية ولن نستطيع مطلقاً أن نقلد خلق المخ عن طريق الأجزاء الميكانيكية والأنابيب الاكترونية المستخدمة في آلاتنا الحاسبة فالمشكلات لا تدفع إلى هذه الآلات إلا بعد أن يصوغها علماء الرياضة ويوقعوها على شكل أشرطة أو بطاقات مثقوبة أما إذا تمكنت الآلة الحاسبة من صياغة مشكلاتها فإنها عندئذ تنبض بالحياة وقد تشابه المخ)[3].

هذا هو المخ الذي يهيمن وينظم كل أمور الإنسان ويدير حركة الناس في أنحاء العالم وبالرغم من ذلك فليس في استطاعة البشر أن يعرف كيف يعمل

(١) جمع ترليون، وهو وحدة حسابية كالبليون إلاّ أنه أكبر منه.

(٢) المصدر السابق صفحة ٤٣.

(٣) (الكسيس كارليل) (الإنسان ذلك المجهول). دار المعارف - بيروت الطبعة الثالثة صفحة ٥٧.

المخ وكل ما كتب عنه يجعل من أمره قضية غامضة وكل ما عرف عنه يزيده تعقيداً أو غرابة.

والأعاجيب التي يلاحظها الدارسون والعلماء على عمل المخ تزيد أمره تعقيداً وتجعله من الأسرار التي تشير إلى قدرة الله وعظمته وتنطق بأدلة وجوده جل شأنه.

ونمو الإدراك وزيادة المعرفة وتنمية الذكاء أمر عجيب الشأن غريب الحال وفي ذلك يقول الدكتور الكسيس كاريل.

(يوجد تفاوت كبير في مقدار الذكاء الذي ينفرد به كل شخص ونوعه فإذا نظرنا إلى الناس من هذه الزاوية وجدنا بعضهم عمالقة وأكثرهم أقزام)[1].

ويولد كل إنسان مزوداً بقوى عقلية منوعة. على أن هذه القوى كبيرة كانت أو صغيرة تتطلب لكي تظهر مراناً متواصلاً كما تطلب أيضاً أحوالاً في الوسط لم تحدد بعد على وجهها الصحيح وهناك أمور تنمي المقدرة العقلية. وهناك عوامل أخرى تسير أو تعوق نمو الذكاء وتوجد على الأخص في نمط الحياة وفي العادات الغذائية ولكن أثرها غير معروف على وجهه الصحيح. والعقل حتى يبلغ أوجه يتطلب طائفة من الأحوال على أن البشرية لم تحاول في أي وقت من الأوقات. اكتشاف طبيعة تلك الأحوال. ولسنا ندري شيئاً عن منشأ الذكاء ونحن نتصور أنه يمكن تنمية وتدريب الذاكرة بالتمرينات العملية في المدارس.

ويؤكد العلماء ان للدراسة والبيئة والغذاء أثرها الفعال على قدرة الإنسان في اكتساب الذكاء ولكن كم من الآلاف من التجارب وملايين المشاهدات اثبتت عكس ذلك وأكدت عدم صحة هذه الأقوال على الأقل في بعض الحالات. وكم للإنسان منا تجارب شخصية تشير إلى أن الذكاء إنما هو موهبة وعطاء من الله سبحانه وتعالى دون أن يكون للإنسان أو الظروف أياً كانت أي دخل فيها. ومن التجارب العملية التي تحتويها الدراسات العلمية حادث السيارة

---

(١): المصدر السابق. ص ٥٨.

النقل المحملة بالبضائع والتي انحشرت داخل نفق بحيث أصبح من المتعذر حركتها تماماً، وتجمع أمامها وخلفها عشرات الناس من مختلف الثقافات والأعمال ولم تخرج مقترحاتهم لإنقاذ الموقف أكثر من محاولة توسيع النفق بمعالجة الجدران بالآلات، ولكن كيف يمكن ومن المستحيل اخراج شحنة السيارة لأنها تكون مع السقف كتلة واحدة أو تحطيم جسم من الخلف أو الأمام،حتى خرج اقتراح من طفل لا يتجاوز العاشرة هو ابن حمال متجول يساعد والده في نقل بعض الأحمال، ولم ينل من الدراسة شيئاً يجعله على المستوى المألوف لطفل في أي مرحلة من مراحل التعليم، فإذا به يقترح اطلاق بعض الهواء من إطارات السيارة،ولقد كان: إذ انخفض ارتفاع السيارة إلى درجة سمحت لها بالمرور داخل النفق، ولم يصدر هذا الاقتراح من أي فرد من الجمع المحتشد والذي كان يضم مختلف العقول والأفهام.

ويحتار العلماء في الذاكرة: وكيف تخزن ملايين الصور المختلفة الحوادث بل والتفاصيل الدقيقة لكل حادثة وأحياناً الأصوات التي صاحبت كل حادثة ودرجتها والألوان التي لازمت هذه الحوادث ثم كيف تضعف وتهرم هذه الذاكرة بمرور الزمن وكيف يختار الإنسان صورة بعينها من ملايين هذه الصور ليربطها بحادث وقع. بل الحقيقة أنه لا اختيار للإنسان لما يقع ولكن تتداعى الصور المناسبة للحادث لتخرج في ربط دقيق بين الماضي والحاضر. ومما يزيد أمر الذاكرة غرابة ويجعلها موضع العجب أن الإنسان لا يذكر شيئاً في حياته إلا منذ فترة تصل إلى السنوات الأولى ولا تقل عن الثلاث السنوات الأولى من عمر الإنسان في الغالب، فهل يا ترى لا تنطبع على مخ الطفل الصور إلا في سنته الثالثة أوالثانية، أو أنها تنطبع ولكن لا يستطيع المخ استرجاعها إلا منذ هذا العمر للإنسان؟ لقد توصل العلماء والاطباء إلى اكتشاف مرض يصيب الإنسان،ومن أعراضه أنه يرجع بذاكرته إلى أيامه الأولى في حياته بل إلى لحظات مولده يتذكرها تفصيلياً، ولا يمكن للإنسان أن يصل بذاكرته إلى هذه الفتره من حياته إلا عن طريق إصابته بهذا المرض.

ويحاول العلماء حالياً إيجاد وسائل علمية تقوم مقام هذا المرض ليسترجع فيها الإنسان بذاكرته حوادث ميلادهوما وقع له في اللحظات التالية لمولده إلى ما قبل السن التي يستطيع أن يتذكرها عادة ويتذكر ما وقع له فيها، إن كل ما هو حول العقل وكل ما وراءه عجيب وغريب: وأي غرابة؟ ترى لماذا ينبغ هذا الطفل نبوغاً مزيداً بينما شقيقه لا يلاحظ عليه أي أثر للنبوغ؟ وكيف أن الطفل دون الحلم يؤلف القطع الموسيقية التي يعجز عنها كبار أساتذة الموسيقى وكيف يحل غيره المسائل الحسابية المعقدة؟ والأعجب أن نجد مخ العباقرة الذين سادوا العالم باكتشافاتهم العلمية أو بهروا الناس بخططهم العسكرية أو لفتوا الأنظار بروائع كتاباتهم لا يختلف إطلاقاً عن أي مخ لإنسان عادي.

وإذا كان الإنسان يستطيع أن يحيا لفترة ما بلا غذاء. أو لدقائق بلا هواء فإن المخ لرفاهيته ورقته لا يستطيع الحياة بلا غذاء أو هواء. بل إنه العضو الوحيد في الجسم الذي يطلب دائماً الهواء ومزيداً منه، وأي نقص في الأوكسجين الذي يصل إليه يسبب إصابات شديدة قد تؤدي إلى الموت، فهو في حاجة دائمة إلى أوكسجين يتجدد. وبالرغم من وجود هذه العملية المغلقة تماماً والمغلقة بأصلب أنواع العظام وبالرغم من دقة الشرايين التي توجد فيه فإنها تنقل إليه الأوكسوجين دائماً وأبداً ومهما تدق هذه الشرايين وتضيق بمرور الزمان فإنها تعمل دائماً على نقل الأوكسوجين إلى المخ. ولشدة رقة المخ ورفاهيته كذلك فإن خلاياه أول ما يموت من خلايا الجسم، وبموتها يتأكد موت الجسم ولا سبيل لعلاجه. فقد يقف نبض الإنسان؛ وقد يتعطل قلبه؛ وقد تتلف رئته؛ وقد تموت كليته، ويمكن بالرغم من ذلك الحفاظ على حياته. أو إعادة عمل هذه الأعضاء، إلاّ المخ فإنه إذا ماتت خلاياه أو أصيبت أنسجته بالتلف استحال علاج الإنسان ومات يقيناً.

هذا هو المخ. الجهاز العجيب الغريب. الذي وهبه الله للإنسان ليسيطر به على الحياة وليدير به شئونه. وليشير به إلى آيات قدرته وعظيم حكمته وبديع صنعه وعميق رحمته. وكل دراسات فيه إنما تزيده عمقاً وتجعله من

الأسرار التي قد لا يصل الإنسان إطلاقاً إلى الكشف عنها. فالمخ وما حوله وما وراءه. من الأعاجيب التي لا ينتهي عرضها. والتي لا يمكن الوصول إلى نهايتها. وهو العضو الذي دائماً يشتغل. حتى عندما تغفو الأعضاء الأخرى. وهو العضو الذي ينقذ الإنسان دائماً في أحرج مواقفه وأخطر ما يتعرض له. دون أن يتدخل الإنسان في ذلك وبدونه لا يصبح الإنسان إنساناً.

ومع ذلك فإن هذا المخ والذي هو مركز الإدراك العقلي محدود القدرة، محدود الاستيعاب، غير قادر على أن يحقق للإنسان كل ضروب الخير والسعادة التي يمكن أن يحيا بها في هذا الحياة ويرجو بها ثواب ربه يوم يقوم الناس لرب العالمين.

٢- الغيب في الإسلام

على ضوء ما سبق من التدليل على عجز العقل وقصوره داخل الكون المعجز لقدرات الإنسان الفسيولوجية والإجتماعية فإن التعلق بالغيب والإيمان به ليس له إلا مصدر واحد صحيح وسليم وهو الإسلام الذي يغذي دائرة الذين يخشون ربهم بالغيب أولئك الذين لهم مغفرة وأجر كثير ففيهم يقول رب العالمين في سورة الملك:

﴿إنَّ الذينَ يخشونَ ربهمْ بالغيبِ لهمْ مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ﴾(١)

وفيهم أيضاً يقول رب العالمين في سورة البقرة ﴿آلم ★ ذلكَ الكتابُ لا ريبَ فيهِ هدىً للمتقينَ ★ الذينَ يؤمنونَ بالغيبَ ويقيمونَ الصَّلاةَ ومما رزقناهمْ يُنفقونَ﴾(٢).

هذا وتدور كلمة «الغيب» ومشتقات مادتها اللغوية في القرآن الكريم حول معنى «الخفاء» لما وراء قدرة الشهود والاحاطة بالنسبة للبشر في الخلق

---

(١) سورة الملك: الآية رقم ١٢

(٢) سورة البقرة: الآية رقم ١، ٢، ٣.

المحيط بهم، زماناً ومكاناً، وذلك بسبب قصور حواسهم وعقولهم عن الإدراك والعلم بما وراء حدها المحدود ولذلك فإن الغيب في القرآن الكريم يذكر بإعتبار الناس، وبالنسبة إليهم وليس بالنسبة إلى الله، الذي لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء فهو عالم الغيب، أي ما يغيب عن الناس وعن الخلق جميعاً.

ومن هنا فإن الغيب في معناه العام بالنسبة للناس يكوّن الأمر الخفي الذي لا يدركه الحس المستطلع، ولا يبلغ إليه مجال عمل العقل الباحث وإنما يقع به للمؤمنين وحيٌ من الله إلى رسله إليهم، سواء مما غاب عنهم من حقائق أنباء الأولين أو مما هو غائب من أنباء المستقبل القريب أو البعيد.

من هذا الغيب الذي أوحى الله به إلى رسوله قبل وقوعه نبأ انتصار الروم على الفرس وكانت الحروب الدائرة بينهم منذ بعثة الرسول تهدد خطوط تجارة قريش من الشام إلى اليمن، كما أن انتزاع الفرس «بيت المقدس» من الروم سنة ٦١٤ وهم مجوس في ذلك الوقت كان سبباً في إشاعة الضيق والقلق بين المؤمنين والمشركين على السواء، كما في سورة الروم التي نزلت بمكة بعد هذه الأحداث المقلقة في سنة ٦٢٢م وكان قد ذاع أن هرقل امبراطور الروم تنازل عن سلطاته وسلمها إلى بطريرك القسطنطينية وأن الإنهيار في معسكر الروم بلغ مداه.

في هذه السورة أنبأ الله المؤمنين من علم الغيب الذي لم يظهر بعد، - بل كانت الظواهر تقول بعكسه - أن الروم سينتصرون على عدوهم في بضع سنين وعندئذ يغتبط المؤمنون بنصر الله الذي يتحرر به بيت المقدس من أيدي الفرس، كما تتحرر طرق التجارة أمام العرب وذلك في قوله تعالى:

﴿آلم ★ غُلبتِ الرومُ ★ في أدنى الأرضِ وهمْ منْ بَعدِ غَلبهمْ سَيغلبونَ ★ في بضع سنين ★ للهِ الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصرِ اللهِ ينصرُ منْ يشاءُ وهوَ العزيزُ الرحيمُ﴾[1] ★

---

(١) سورة الروم: الآيات من ١ - ٥

وهذا هو ما وقع تماماً كما أنباء الله به من الغيب في القرآن الكريم. ففي سنة ٦٢٨م أي بعد نزول سورة الروم ببضع سنين، حاقت الهزيمة التامة بالفرس واستعاد الروم «بيت المقدس» لكي يحررها المسلمون على يد عمر بن الخطاب سلماً وصلحاً سنة ٦٣٨م، فيكون هذا هو النصر الكامل الذي بشرت به المؤمنين آيات سورة الروم. في الغيب الذي أنبأهم الله سبحانه به من طريق الوحي بالقرآن الكريم.

كذلك كان من الغيب الذي وقع العلم به للمؤمنين قبل وقوعه فيما أوحى الله به إلى رسله وعلمهم بعلمه. ما كان من تأويل يوسف لرؤيا الملك، وذلك فيما جاء به القرآن الكريم في قوله تعالى على لسان يوسف من غيب السنوات القادمة كما علمه الله.

﴿قالَ تزرعونَ سبعَ سنينَ دأباً فمَا حصدتمْ فذروهُ في سنبلهِ إلاَّ قليلاً مِّما تأكُلونَ. ثمّ يأتي منْ بعدِ ذلكَ سبعٌ شدادٌ يأكلنَ ماَ قدمتمْ لهنَّ إلاّ قليلاً ممّا تُحصنونَ. ثمّ يأتي منْ بعدِ ذلكَ عامٌ فيهِ يُغاثُ الناسُ وفيهِ يَعصِرونَ﴾[١].

مثل هذه الأنباء كانت غيباً قبل أن يخبر عنها رسل الله حتى إذا ما أخبروا بها من وحي الله لهم، لم تعد غيباً حتى قبل وقوعها في فترة انتظارها. وإلى هذا المعنى يشير القرآن الكريم في قوله تعالى إلى الأمين:

﴿تلكَ منْ أنباءِ الغيب نوحيها إليكَ مَا كنتَ تَعلمُها أنتَ ولا قومُكَ منْ قبلِ هذا فاصبِر إنّ العاقبةَ للمتقينَ﴾[٢].

٣- الخشية بالغيب:

في ضوء هذا المعنى العام لكلمة الغيب في القرآن الكريم يأتي الجواب عن معنى كلمة الغيب في قوله تعالى:

---

(١) سورة يوسف: الآيات من ٤٧- ٤٩

(٢) سورة هود: الآية رقم ٤٩

﴿إنّ الذينَ يخشونَ ربهمْ بالغيبِ لهمْ مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ﴾[1].

والمعنى نأخذه من الدلالات التي يعطيها قوله تعالى «لهمْ مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ» فهذا الوعد ممن خلق فسوى وقدر فهدى إنما يعني أن الموعودين بمنزلة تتكافأ في إيمانهم وعملهم بهذا الوعد العظيم. وهي المنزلة التي بلغوها بأنهم يخشون ربهم، تصديقاً بوحيه، وإدراكاً لآياته، بينما الله سبحانه وتعالى في غيب بذاته عنهم لا يرونه عياناً، ولا يرون جنته ولا عذابه على مدى البصر منهم.

إن هؤلاء الذين يخشون ربهم بالغيب كما لو كان الله حاضراً في العيان أمامهم. هم هؤلاء الصادقون. الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وفاضت بالدمع أعينهم، وهم الذين جعل الله جزاءهم أن يظلهم يوم لا ظل إلا ظله، وهو يرفعهم إلى منزلة خشيته بالغيب، ليكون لهم حسن الثواب والمغفرة، والأجر الكبير.

إن هؤلاء الذين يخشون ربهم بالغيب، هم في خشية من الحرمان من نعيمه وفي خشية من الوقوع في عذابه، وإن لم يروا ذلك النعيم أو العذاب، وإنما صدقوا بهما وهما في غيب عنهم إن هؤلاء الذين رغبوا في ثواب الله، وتورعوا عن عذابه لم ينتظروا حتى يروا العذاب بأعينهم فيؤمنوا، كما فعل فرعون الذي ظل على الكفر والكبر والاستعلاء حتى إذا أدركه الغرق قال:

﴿آمنتُ أنهُ لا إلهُ إلاّ الذي آمنتْ بهِ بنو إسرائيل﴾[2]

كذلك فهم في تصديقهم بغيب الله من العذاب الراصد في الدنيا والآخرة للظالمين والمكذبين لم يكونوا كهؤلاء الذين جعلهم الله سلفاً ومثلاً للآخرين وهو يأخذهم بأعمالهم في مثل قوله تعالى:

﴿وكَمْ منْ قريةٍ أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو همْ قائلون. فما كانَ دعواهمْ إذْ جاءهمْ بأسنا إلا أنْ قالوا إنّا كنّا ظالمين﴾[3].

(١) سورة الملك: الآية رقم ١٢
(٢) سورة يونس: الآية رقم ٩٠
(٣) سورة الاعراف: الآية رقم ٤، ٥

ولذلك لم ينفعهم الإيمان، ولم ينفعهم الدعاء كما جاء في قوله تعالى:

﴿فلمّا رأَوا بأسَنَا قالوا آمنّا باللهِ وحدَهُ وكفرنَا بَما كنّا بهِ مشركينَ. فلمْ يكُ ينفعُهمْ إيمانُهُمْ لمّا رأَوا بأسَنا﴾(1).

هؤلاء المبطلون خسروا أولاهم وآخرتهم لأنهم لم يخشوا الله حق خشيته بالغيب بينما أفلح أولئك المؤمنون الذين يخشوْن ربهم « بالغيب » مهتدين بالله إليه، وهم يصدقون بالغيب من وعده ووعيده، ومن رحمته وعذابه، وكما لو كانوا يعاينون ذلك على مرمى البصر منهم أينما تلفتوا، وأينما ساروا، تصديقاً بما نزل به الوحي على رسول الله إليهم، وعقلاً لآياته، وبذلك استحقوا أن يكون لهم من الله مغفرة وأجر كبير.

وكما أشرت من قبل فإن أساس هذه الخشية الصادقة لله « بالغيب » هي أنها تقع لهؤلاء المؤمنين وتوجه أقوالهم وأعمالهم إليه، بينما الله سبحانه وتعالى في غيب بذاته عنهم وبينما هم بتفكرهم في خلقه، وتعقلهم لآياته في السموات والأرض وفي أنفسهم وتدبرهم لآياته المفصلة في الكتاب قد استيقنوا الدلالات على أنه سبحانه:

﴿هوَ اللهُ الذي لاَ إلهَ إلاّ هوَ الملكُ القدوسُ السلامُ المؤمنُ المهيمنُ العزيزُ الجبارُ المتكبرُ سبحانَ اللهِ عمّا يشركونَ. هوَ اللهُ الخالقُ البارىءُ المصورُ لهُ الأسماءُ الحسنى يسبحُ لهُ ما في السماواتِ والأرضِ وهوَ العزيزُ الحكيمُ﴾(2).

بهذا الإيمان الذي تلين به من خشية الله جلود المؤمنين وقلوبهم لذكر الله وما أنزل من الحق يصبح هؤلاء المؤمنون ويمسون على طاعة الله بأقوالهم وأعمالهم فهم يقيمون الصلاة وينتفعون مما رزقهم الله، وفي هاتين العبادتين مدخل إلى كل الطاعات، والأعمال الصالحات الباقيات، أي مدخل إلى الدين الحق بأركانه وأخلاقه قولاً وعملاً، وبهذا الإيمان الذي يصدق في خشية هؤلاء المؤمنين لربهم « بالغيب » بكل وجوه الخشية ومن وراء حجب الغيب يتتابع في القرآن

---

(1) سورة غافر: الآية رقم ٨٤، ٨٥

(2) سورة الحشر: الآيات ٢٣، ٢٤.

الكريم وصف عطاء الله لهم بعد نعمة المغفرة من الأجر الكبير والوعد الناجز في مثل قوله تعالى وهو يصفهم بالمتقين والأوَّابين والمنيبين:

﴿وأُزلفتِ الجنةُ للمتقينَ غيرَ بعيدٍ. هذا ما توعدونَ لكلِّ أوَّابٍ حفيظٍ من خشيَ الرحمنَ بالغيبِ وجاءَ بقلبٍ منيبٍ. أُدْخلوها بسلامٍ ذلكَ يومُ الخلودُ. لهم ما يشاؤونَ فيها ولدينا مزيد﴾[1].

٤- الإيمان بالغيب:

وأما معنى كلمة الغيب في قوله تعالى:

﴿آلم ★ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ★ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾[2].

فهو معنى شامل لجميع الغيب الذي جاء به القرآن الكريم مع دلالة الصدق في هذا الإيمان بإقامة الصلاة والزكاة والتزكية لرزق الله، بالنفقة منه على أصحاب الحقوق في الرزق والمال.

الإيمان بالغيب هنا يعني الإيمان الصادق بالله وملائكته وكتبه ورسله كما جاء في قوله تعالى:

﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾[3].

وبهذا تتحدد وجوه الغيب التي يجب أن يؤمن بها المؤمن مع شروط صحة إيمانه بها على الوجه الآتي:

١- الإيمان بالله، عالم الغيب والشهادة، وإن كان غيباً في مجال حواس المؤمن.

---

(١) سورة قٓ: الآيات ٣١: ٣٥.

(٢) سورة البقرة: الآيات ١: ٣.

(٣) سورة البقرة: الآية رقم ٢٨٥.

٢- الإيمان بملائكته وهم غيب يصدق به، تأسيساً على إيمانه بالله.

٣- الإيمان بكتب الله التي نزل بها وحيه إلى رسله، لأنه تعقلها ووعاها وصدق بكل ما فيها من الغيب.

٤- الإيمان برسل الله الذين كانوا بأسوتهم وآيات الله معهم، آية لعقله ووعيه فآمن بما آمنوا به وصدق بما جاؤا به واقتدى بهم فيما عملوا وتخلقوا به.

٥- دلالة الصدق في هذا الإيمان وصحة الوعي والعقل لأدلته، إنهم لا يفرقون بين رسالات الرسل، من حيث أنها كلها من مصدر واحد حق هو الله العزيز الحكيم.

٦- ودلالة الصدق التي لا تخطىء في إيمان هؤلاء المؤمنين بهذا الغيب في شموله بالنسبة لهم هي: أنهم يؤمنون ويطيعون ﴿وقالُوا سَمعنا وأَطَعْنا﴾ أي سمعنا الآيات وصدقناها بالطاعة والعمل الصالح، في كل أمر يهمون به، وينصرفون عنه.

٧- هذه الطاعة بالقول الصادق، والعمل الصالح، هي في الحياة للمؤمنين بالله وغيبه، دلالة صدقهم وتصديقهم بأن الآخرة حق، والحساب حق، والجزاء حق،وان مغفرة الله وأجره لمن آمنوا به وصدقوا بغيبه لا يكونان إلا بدلالة هذا العمل الصالح ابتغاء وجه الله العزيز الحكيم ﴿غُفرانَكَ ربَّنا وإلَيْكَ المصيرُ﴾.

على إنه إذا كانت الآية السابقة التي وردت فيها صفة المؤمنين الذين «يخشون ربهم بالغيب» والذين لهم بذلك «مغفرة وأجر كبير» قد أظهرت جانب خشية الله بالغيب للمؤمنين فإن هذه الآية عن ﴿الذينَ يؤمنونَ بالغيبِ ويقيمونَ الصلاةَ ويؤتونَ الزكاةَ﴾ قد اختصت بإظهار جانب الإيمان بعموم الغيب وتقدير هذا الإيمان وتقدير أصحابه، مع عدم الفصل بين الجانبين، ذلك أن الإيمان والخشية مرتبطان فطرة وعقلاً، وفي هذا المعنى يقول ابن جرير الطبري:

وتدخل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالفعل، والإيمان كلمة جامعة للاقرار بالله وكتبه ورسله، وتصديق الاقرار بالفعل »[1].

إن كلمة الغيب في هذه الآية تحمل باضافتها للإيمان وبمجيئها في هذا السياق القرآني هذا المعنى الشامل للارتباط الفطري بين الإيمان بالمشهود والمسموع من آيات الله وبين الإيمان بالغيب الذي جاء به على لسان رسله عليهم الصلاة والسلام.

٥- الفطرة والغيب:

وهكذا كان إيمان المؤمنين بما أنزله الله على رسله من الوحي والكتاب وبما آتاهم من الآيات البينات مستحقاً رضي الله عنهم، وتزكيته لإيمانهم، وهم يشهدون بهذا الإيمان على تقوى أنفسهم وسلامة قلوبهم وصحة عقولهم، ونقاء فطرهم عليها وهي فطرة الإسلام، أي فطرة الدين الذين يتقبله أهل الطباع السليمة والأخلاق القويمة الذين لا تغرر بهم الأهواء، ولا تميل بهم الإنحرافات والمفتريات وفي هذا المعنى من سلامة الفطرة التي تؤهل لتقبل التدين بالإسلام يقول الله تعالى:

﴿فأقِمْ وجهَكَ للدينِ حنيفاً فطرةَ اللهِ التي فطرَ الناسَ عليها لا تبديلَ لخلقِ اللهِ ذلكَ الدينُ القيمُ﴾[2].

وكذلك يقول الله عن المستكبرين الذين انطمست فطرتهم، واستعبدتهم أهواؤهم:

﴿سأصرفُ عن آياتي الذين يستكبرون في الأرض بغيرِ الحقِّ وإنْ يَرَوا كلَّ آيةٍ لا يؤمنوا بها وإنْ يروا سبيلَ الرُّشدِ لا يتخذوه سبيلاً وإن يَرَوا سبيل الغي

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن) جـ ١ الطبعة الرابعة دار المعرفة بيروت عام ١٩٨٠ صفحة ٧٨.

(٢) سورة الروم: رقم ٣٠.

يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلينَ﴾ (١).

فهؤلاء الذين تبدلت فطرتهم لأهوائهم، واستكبارهم في الأرض، ليسوا في الحال الأمثل، والوعي الأرشد لتقبل الإيمان، بل هم الأقرب إلى التكذيب، والإسراع إلى المكابرة، واللجاجة والجدال، حتى يأذن الله فينجي رسله والذين آمنوا معهم، ثم يأخذ هؤلاء بعذاب شديد.

لا ريب أن مدى بعيداً في سلامة التكوين، وصحة الوعي، يفصل بين أولئك وبين هؤلاء المؤمنين الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر صادقين عاملين، بينما هذا الذي آمنوا به في غيب عنهم، ودونما انتظار لمثل هذه الآيات التي طلبها الأولون من رسلهم.

لقد آمنوا، وقدموا المثال على صدق استحقاقهم لهذا الوصف الكريم «الإيمان بالغيب» ومن هذا المثال الذي قدمه الصديق أبو بكر رضي الله عنه في مقدمة المؤمنين السابقين إلى الإسلام، الذين لم يأخذهم في الله شك، ولا في رسوله ريب، بل أقبلوا على الله ورسوله، عند أول البشير والنذير مؤمنين متقين محسنين.

وأود هنا أن أشير إلى صفة من أطيب الصفات التي تلازم هؤلاء الذين هدتهم فطرتهم إلى الإيمان بالغيب، وما نزل من الوحي على رسوله وهي هذه الصفة الراشدة القاصدة، التي عصمتهم في طاعة الله، وقصد السبيل، من التلفت والتساؤل عن أمور يبتدعها الخيال والظن والتأويل وراء قدرة العقول على الإدراك والتثبيت والتحميص. وهي أمور طرقتها بالعشوائية والخلط والهوى أكثر الفلسفات التي أقحمت نفسها على القول في «الله والوجود» فلم يبلغوا هدى، ولم يشهدوا غيباً، ولم يهتدوا سبيلاً لقد اعتصم هؤلاء المؤمنون بالقول الفصل، وأرخوا العنان وراء قدرة الخالق للتفكير في خلقه والنظر في سننه، والتدبر لآياته، متأسين بتوجيه القرآن الكريم والرسول ﷺ بالتفكر

(١) سورة الأعراف: آية ١٤٦.

في مخلوقات الله وترك التفكر في ذات الله سبحانه، فهو لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار.

بهذا الإيمان الراشد وبهذا التآسي بالرسول، وبهذا النظر في الخلق بغير فضول، وبهذا التدبر لآيات الله - بغير تأويل- حفظ الله على هؤلاء المؤمنين الصادقين سلامة فطرتهم وقلوبهم، وصدق إيمانهم وأعمالهم، كما احتفظوا في نعمة الله عليهم بكل ما وعدهم الله من نصرته ونعمته، ومغفرته وأجره في الدنيا والآخرة.

٦- بين الغيب والشهادة في الإسلام:

وأما معنى (الغيب) في قوله تعالى:

﴿عالِمُ الغيبِ فلا يظهر على غيبهِ أحداً﴾(١).

فنقول: إن الغيب هنا هو ما استأثر الله بعلمه من أمر السماوات والأرض، وأمر الخلق، وأمر الحياة وأمر الوحي، وما يتبع ذلك من أمر الموت، والبعث والحساب، والجنة، والنار، وما لا علم لأحد من خلقه به، من الملائكة والجن ومن الرسل والناس، إلاَّ ما شاء لهم الله من هذا العلم الذي علمه لكل منهم، بحسب ما يسره له، وما وجهه إليه، وهو قليل لا يقاس بشيء إلى علم الله الذي لا يحد.

يقول الله سبحانه في هذا العلم المحيط بكل شيء، وهو غيب بالنسبة لجميع خلقه، إلاَّ من شاء لهم بالقليل منه:

﴿قل لا يعلم من في السماوات والأرضَ الغيبَ إلاَّ اللهُ﴾(٢).

ويقول سبحانه:

﴿وما مِنْ غائبةٍ في السَّماء والأرض إلاَّ في كتابٍ مبينٍ﴾(٣)

(١) سورة الجن: آية رقم ٢٦.

(٢) سورة النمل: آية ٦٥.

(٣) سورة النمل: آية ٧٥.

ويقول سبحانه:

﴿وعندَهُ مفاتحُ الغيبِ لا يعلمُها إلاَّ هُوَ ويعلَمُ ما في البَرِّ والبحرِ وما تسقُطُ مِنْ ورقةٍ إلاَّ يعلمُها ولا حبةٍ في ظلماتِ الأَرضِ ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلا في كتابٍ مبينٍ﴾ (١)

وهو سبحانه يعلم من أمور خلقه ما لا يعلمونه من أمر أنفسهم فيما يسرون، وما يعلنون، وما يخفون، وما يظهرون، وعلى هذا العلم الذي هو غيب عن فاعليه، والذي لا يغيب منه شيء عن الله مهما ظنوا الاستئثار به، يكون حسابهم يوم الحساب عن مثقال الذرة من الخير أو الشر، وفق كتاب لا يغادر من عمل الإنسان في علم الله صغيرة ولا كبيرة أحصاها، وهو في هذا العلم لا يغيب عنه شيء من دقائق حركة عباده وأعمالهم، يقول سبحانه وتعالى وهو رب القسط والميزان والحساب:

﴿ونضعُ الموازينَ القِسْطَ ليومِ القيامةِ فلا تُظلم نفسٌ شيئاً وإنْ كانَ مِثقال حبةٍ من خردلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسبينَ﴾(٢).

ويقول في علمه سبحانه بكل هذا الغيب الواسع عن الناس من أعمالهم، وما يحبط بهم:

﴿يعلمُ ما يلجُ في الأرضِ وما يخرجُ منها وما ينزلُ من السَّماءِ وما يعرجُ فيها وهوَ معكُمْ أينما كنتمْ واللهُ بما تعملونَ بصيرٌ﴾(٣).

ويقول سبحانه في نفس المعنى:

﴿ما يكونُ من نجوى ثلاثةٍ إلاَّ هوَ رابعهمُ ولا خمسةٍ إلاَّ هوَ سادِسُهُم ولا أدْنى من ذلكَ ولا أكثَر إلاَّ هوَ معهُمْ أينما كانوا ثم ينبِّئهمْ بما عملُوا يومَ القيامَةِ إنَّ اللهَ بكلِّ شيءٍ عليمٌ﴾(٤).

---

(١) سورة الانعام: آية ٥٩.

(٢) سورة الأنبياء: آية ٤٧.

(٣) سورة الحديد: آية ٤.

(٤) سورة المجادلة: آية ٧.

ونعود مرة أخرى فنذكر بأن هذا الغيب الذي يحيط به علم الله تعالى بغير حد إنما هو غيب بالنسبة لخلق الله من الملائكة والجن، ومن الناس إلا ما شاء الله أن ينبيء بعلمه من يؤمنون به من طريق رسله إليهم، ووحيه الذي تنزل به كتبه لدعوتهم، ومعنى هذا أن الله الذي هو عالم الغيب بالنسبة لما يغيب عن خلقه، هو عالم الشهادة من أمر هذا الخلق كله في السموات والأرض.

الله إذاً - كما أوضحت الآيات السابقة - حاضر بعلمه وشهادته بالنسبة لجميع خلقه، في كل ما دق أو جل من علمهم أو نجواهم، أو حديث أنفسهم، وهو هذا الحضور الكلي الذي يدركه المؤمنون الصادقون ويعقله المتفكرون المتدبرون، فتدركهم الخشية من ربهم الحاضر بسلطانه وقدرته، وآياته ورحمته، وعلمه وإحاطته، فيما هو أقرب إليهم من أنفسهم وأنفاسهم وإن كان في «الغيب» عنهم بذاته التي لا تحد ولا تدرك كما آمنوا به سبحانه واحداً ليس له شريك، أو شبيه أو ولد وليس كمثله شيء.

وفي اقتران علم الغيب وعلم الشهادة فيما استأثر الله بعلمه دون خلقه يقول سبحانه وتعالى:

﴿عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾(١) ويقول سبحانه: ﴿عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم﴾(٢).

ويقول سبحانه:

﴿ثم تُردُّونَ إلى عالم الغيب والشَّهادةِ فيُنبِّئُكُمْ بما كنتمْ تعملونَ﴾(٣).

ويقول سبحانه:

﴿وسيرى اللهُ عملكُمْ ورسولُهُ ثُمَّ تُردُّونَ إلى عالم الغيبِ والشهادةِ فينبئُكُمْ بما كُنْتُمْ تعملونَ﴾(٤).

---

(١) سورة الرعد: آية ٩.

(٢) سورة الحشر: آية ٢٢.

(٣) سورة الجمعة: آية ٨.

(٤) سورة التوبة: آية ٩٤.

هذه الشهاده لكل شيء في علم الله المحيط بكل شيء مقترنة في معنى الحضور الكلي لله سبحانه بالرحمة لخلقه، فهو الله الرحمن، رب القسط والميزان، وهو صاحب السنن والقوانين التي أجراها برحمته وأبدعها بخلقه، وسخرها لمن شاء من عباده. وهذه الرحمة التي تقترن بعلم الله المحيط بكل شيء، رحمة لا تحد وسع الله بها كل شيء وذلك حيث يقول سبحانه على لسان ملائكته وهم دائبون من رحمته تعالى على الاستغفار للمؤمنين:

﴿ربنا وسعتَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم★ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ (١).

٧- علاقة الملائكة والجن والرسل بالغيب:

واستكمالاً لمعنى كلمة الغيب في قوله تعالى:

﴿عالمُ الغيب فلا يظهر على غيبهِ أَحداً﴾ (٢)

نقول بعد ما ذكرناه إن الله قد شاء لكل نوع من خلقه قدراً من علم الغيب يتوافق مع حكمة خلقه، ومع ما يسره الله له.

أما الملائكة من بين هذا الخلق فقد رضوا بما علمهم الله، ولم يسعوا الى طلب الزيادة فيه الا بما شاء الله لهم منه، وفي هذا المعنى يقول سبحانه على لسان الملائكة في قصة الخلق للإنسان:

﴿قالوا سبحانَكَ لا علم لنا الا ما علَّمتنا إنكَ أنتَ العليمُ الحكيمُ﴾ (٣)

وهم يشهدون من وحي الله ما شاء الله لهم أن يعلموه مما أنزل بعلمه على رسله وفي هذا المعنى يقول الله عن علمهم بما أنزل على النبي ﷺ:

---

(١) سورة غافر: آية ٧.

(٢) سورة الجن: آية ٢٦.

(٣) سورة البقرة: آية ٣٢.

﴿لكن الله يشهدُ بما أنزل إليكَ أنزله بعلمه والملائكة يشهدونَ﴾(١) والملائكة عباد مقربون بإيمانهم من الله في قوله تعالى:

﴿لنْ يستنكفَ المسيحُ أنْ يكونَ عبداً لله ولا الملائكة المقربونَ﴾(٢).

والملائكة كما شاء لهم الله، من طاعة ومن علم يسبحون بحمد الله ويستغفرون لعباده، وذلك حيث يقول سبحانه:

﴿والملائكةُ يسبحونَ بحمدِ ربهم ويستغفرون لمن في الأرض﴾(٣).

والملائكة في عموم ما وصفهم الله به من عبادتهم لأمره ووقوفهم عند حد ما شاء لهم الله من علمه هم كما جاء في قوله تعالى عنهم:

﴿وقالوا اتخذ الرحمنَ ولداً سبحانه بلْ عبادٌ مكرمونَ، لا يسبقونَهُ بالقولِ وهم بأمرِهِ يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خَلفهم ولا يشفعونَ إلا لمن ارتضى وهم من خشيتهِ مشفقونَ﴾(٤).

وأما الشياطين ومردة الجن فقد جهدوا فيما أملى الله لهم، وفيما أنظرهم من الأجل الى يوم البعث، أن يستزيدوا بالتلصص والتسمع على علم الغيب وفي هذا المعنى يقول سبحانه:

﴿لقدْ جعلنا في السَّماءِ بروجاً وزيناها للناظرين. وحفظناها من كلِّ شيطانٍ رجيمٍ. إلاَّ من استرقَ السَّمعَ فأتبعهُ شهابٌ مبينٌ﴾(٥).

ويقول سبحانه أيضاً في هؤلاء الشياطين وتهافتهم على غير جدوى لاستراق الغيب: ﴿إنَّا زينا السماءَ الدُّنيا بزينةٍ الكواكبَ. وحفظاً من كل شيطان مارد لا يسَّمعونَ إلى الملأ الأعلى ويُقذفونَ من كلِّ جانبٍ. دحوراً ولهمُ عذابٌ

---

(١) سورة النساء: آية ١٦٦.

(٢) سورة النساء: آية ١٧٢

(٣) سورة الشورى: آية ٥.

(٤) سورة الانبياء: آيات ٢٦: ٢٨

(٥) سورة الحجر: آيات ١٦: ١٨

واصبٌ. إلاّ مَنْ خطفَ الخطفةَ فأتبعهُ شهابٌ ثاقبٌ﴾[١]. ويقول سبحانه في الجن ومحاولاتهم التسمع وراء الغيب:

(إنَّا لَمْسنا السماءَ فوجدناها مُلئت حرساً شديداً وشهباً. وأنَّا كنا نقعدُ منها مقاعدَ للسمعِ فمنْ يستمعِ الآنَ يجدْ لهُ شهاباً رصداً)[٢].

ويقول سبحانه خطابا لهؤلاء الكفرة والمردة من الجن والإنس معا وهم على كفرهم وبما استكبروا به من علم ينسبونه الى قدرتهم، يظنون في الغيب ما يظنون ويقولون فيما لا يعلمون. وقد بلغ هذا التحالف بين مردة الجن والانس في هذا العصر حدا ظنوا معه اقترابهم من اختراق أقطار السماوات والأرض بهذه الأدوات العلمية، التي لا يقودها الايمان والتي هي بغير إيمان الانسان نقمة عليه، وليست نعمة له كما هو مشهود في عصرنا من تساقط الشعوب المتقدمة في العلم، بغير إيمان يقود العلم، في أمراض الرعب والقلق، وتمزق النفس فوق حطام الأخلاق، وتحت نير القهر، والاعتصار في قبضة اليأس من المستقبل القريب أو البعيد مما جعلهم أدنى الى التهلكة من شعوب أقل منهم علما، وابعد منهم عن المعصية والغرور والقلق. يقول سبحانه وتعالى من شهادته لهذا الغيب الذي نراه اليوم أكثر من مما رآه أسلافنا:

﴿يا معشرَ الجنِّ والإنسِ إن استطعتمْ أن تنفُذوا منْ أقطارِ السَّماواتِ والأَرضَ فانفُذوا لا تنفذونَ إلاَّ بسلطانٍ فبأيِّ آلاء ربِّكُما تكذبانِ★ يُرسل علَيكُما شُواظٌ من نارٍ ونحاسٍ فلا تنتصرانِ﴾[٣].

ويذكر سبحانه أن هؤلاء الجن بأنواعهم لو كانوا يعلمون الغيب، أو كانوا بسبيل العلم به، ما لبثوا يتجرعون العذاب المهين، وذلك حيث يقص الله من أمر جنَّةِ سليمان، ومن هوانهم في طاعته حتى بعد موته، وذلك حيث يقول:

---

(١) سورة الصافات: آيات ٦: ١٠

(٢) سورة الجن آيتا ٨، ٩.

(٣) سورة الرحمن: الآيات ٣٣: ٣٥

﴿فلما قَضَينا عليه الموتَ ما دلَّهم على موته إلا دابةُ الأرضِ تأكُلُ مِنسأتَهُ فلما خَرَّ تبينتِ الجِنُّ أنْ لو كانوا يعلمونَ الغيبَ ما لبثوا في العذابِ المهين﴾(١).

أما المؤمنون من الناس فهم يعلمون من الغيب بالقدر الذي ينزل به وحي الله على رسله اليهم، وهو غيب يعقلون صدقه بالتفكير في خلق الله، والتدبر لآياته، وهم بهذا العلم القليل من غيب الله الذي عقلوه، وآمنوا به، لا يتجاوزونه الى سؤال عما وراء ما يدركه الحس ويعقله العقل، من هذا الغيب المكنون عنهم في علم الله الذي لا يحد.

إنهم لا يسألون من الفضول أو الريبة عن ذات الله ولا كيف هو سلطانه في ملكه ولا كيف كان البدء، والخلق، ولا كيف يمضي الروح من أمره بالحياة للأحياء أو بالهداية والتأييد للمؤمنين، فلقد تنزهوا بصدق الايمان عن التعليق والالحاح، بما يتجاوز قدرتهم المحدودة على العلم، لينطلقوا من قيود هذا الفضول والادعاء الى ما أوسع الله فيه، وما دعاهم اليه، من النظر في مجال العلم بآياته، وسننه وقوانينه، في حركة الأشياء، وتغيرات المادة الحية في الأحياء وغير الأحياء، كما تمضي بها قدرة الله وحكمته، ومشيئته وذلك ليستثمروا بهذا العلم المتاح لهم، وبقيادة الايمان غير المتاح لغيرهم، نعمة الله في كل ما سخره لهم بالرحمة والتكريم في السماوات والارض، من الشمس والقمر، ومن الليل والنهار، ومن البحار والأنهار، مما انتشر على وجه الارض، أو استقر في باطنها من ظاهر نعمته ومكنونها، انهم بذلك هم المؤمنون: ﴿الذينَ يخشون ربهمْ بالغيبِ وهم من الساعةِ مشفقونَ﴾(٢).

واما عن رسل الله الذين انزل الله عليهم علم الغيب بوحيه وما خصهم باحتمال تلقيه، وما جعلهم الأمناء على تبليغه الى عباده ليؤمنوا به، فهو من غيب الله الذي لا يعلمه الا هو، وما كان لغير من اختارهم من رسله ان

(١) سورة سبأ: الآية رقم ١٤.
(٢) سورة الأنبياء: آية ٤٩..

يظهره الله عليه فهو خاص بهؤلاء الرسل عن طريق الوحى، ولا يستطيع مثله غيرهم، وفي هذا تبرئة لهم مما كان يفتري به عليهم من كذبوهم، حيث زعموا أن ما جاءوا به لم يكن الا من عمل الكهانة، أو السحر، أو الشعر، أو الشياطين. وفي دفع هذه المفتريات يقول الله عن تنزيله بالوحي إلى نبيه المصطفى:

﴿وما هو بقولِ شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون★ ولا بقولِ كاهنٍ قليلاً ما تذكرونَ★ تنزيلٌ منْ ربّ العالمينَ﴾(١). ويقول سبحانه في دفع هذه المفتريات أيضاً:

﴿وما تنزلتْ بهِ الشياطينُ★ وما ينبغي لهم وما يستطيعونَ. إنَّهم عنِ السَّمعِ لمعزلون﴾(٢). ويقول سبحانه مؤكدا على صدق التنزيل، وصدق الرسول، ومنزها للوحي عن مفتريات المكذبين الضالين:

﴿فلا أقسم بالخنَّسِ . الجوار الكنّسِ . والليّلِ إذا عسعسَ. والصبحِ إذا تنفّسَ. إنه لقولُ رسولٍ كريمٍ . ذي قوةٍ عند ذي العرشِ مكينٍ. مطاعٍ ثَمَّ أمينٍ. وما صاحبكم بمجنونٍ. ولقد رآه بالأفقِ المبينِ. وما هوَ على الغيبِ بضنينٍ. وما هو بَقولِ شيطانٍ رجيمٍ . فأينَ تذهبونَ. إنْ هوَ إلاّ ذكرٌ للعالمينَ. لمنْ شاءَ منكمْ أنْ يستقيمَ﴾(٣).

ومع ذلك فان ما جاء به هؤلاء الرسل المرتضون صلوات الله عليهم وسلامه ليس هو كل غيب الله كما أنهم بذلك لا يدعون أنهم أوتوا معرفة الغيب كما يقص الله عنهم في قوله تعالى:

﴿يومَ يَجمع اللهُ الرسلَ فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علَم لنا إنك أنتَ علامُ الغيوب﴾(٤).

---

(١) سورة الحاقة: آيات ٤١: ٤٣.

(٢) سورة الشعراء: آيات ٢١٠: ٢١٢.

(٣) سورة التكوير: الآيات ١٥: ١٨

(٤) سورة المائدة: الآية ١٠٩.

فإذا كان الله سبحانه قد أظهر رسله على ما شاء أن يظهرهم عليه من غيبه فيما تنزل به عليهم من وحيه ورسالاته، فإنه أبقى له من هذا الغيب والعلم الذي لا يجد ما لم يطلع عليه أحدا، حتى ولو كان هؤلاء الرسل الذين ارتضاهم لرسالاته ووحيه. وهو ما أشار اليه سبحانه في قوله:

﴿إنَّ اللهَ عندَهْ علمُ السَّاعةِ وينزلُ الغيث ويعلمُ ما في الأرحامِ وما تدري نفسٌ ماذا تكسبُ غداً وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموت إنَّ الله عليمٌ خبيرٌ﴾(١). وهذا هو غيبه سبحانه وتعالى كما اضافه إلى نفسه في قوله تعالى:

﴿عالمُ الغيبِ فلا يُظهر على غيبهِ أحداً﴾(٢).

يبقى أن نشير في معنى علم الغيب الذي يخص به من اختارهم من رسله بما شاء من علمه إلى (الرؤيا) ونصيبها من هذا العلم فنقول: إن الرؤيا إن كانت صالحة فليست علماً بغيب إلا في جانب الأنبياء وذلك لأن الرؤيا بالنسبة للأنبياء كانت كما ثبت طريقاً من طرق الوحى كما قال تعالى:

﴿لقدْ صدقَ اللهُ رسولَهُ الرؤيا بالحقِّ لتدخلُنَّ المسجدَ الحرامَ إنْ شاءَ اللهُ آمنينَ محلّقين رووسكُم ومقصِّرينَ لا تخافونَ فعلمَ ما لمْ تعلموا﴾(٣). كذلك كانت رؤيا ابراهيم عليه السلام أنه ذبح ولده اسماعيل، وحيا للإختبار والابتلاء وفي هذا يقول الله:

﴿وناديناهُ أنْ يا إبراهيم. قد صدقتَ الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنينَ﴾(٤)

وكذلك رؤيا يوسف في صغره وقد تحققت في كبره. ومن هذا القبيل أيضاً تعبير الانبياء للرؤيا، ولو كانت رؤيا غيرهم كتعبير يوسف رؤيا الملك وغيره، فهذا التعبير وحي من الله يخص به الانبياء عليهم الصلاة والسلام وفي بيان هذا وتأكيده يقول يوسف بعد تعبيره رؤيا صاحبيه في السجن:

---

(١) سورة لقمان: الآية ٣٤.

(٢) سورة الجن: الآية ٢٦.

(٣) سورة الفتح: آية ٢٧.

(٤) سورة الصفات: آيات ١٠٤، ١٠٥.

﴿ذلكما مما علمني ربي إني تركتُ ملةَ قومٍ لا يؤمنونَ باللهِ وهمْ بالآخرةِ همْ كافرونَ﴾(١).

ويبقى أخيراً أن نشير الى معنى حدود الغيب فيما بين علم الله الذي لا يحد وبين ما أظهر الله رسله عليه من هذا العلم عند حد لم يتجاوزوه، حتى وان رغب بعضهم في ذلك كما قصه القرآن الكريم، فنذكر موقفين متقاربين لكل من ابراهيم وموسى عليهما السلام، حين أبدى كل منهما وهو يتلقى الوحي من الله، في لحظة قرب، رغبته- مع صدق إيمانه وتورعه عن أن يتجاوز حده- في أن يعلم ويشهد أكثر مما علَّمه الله وما ألقى إليه بالوحي من علم الغيب.

فأما عن موقف إبراهيم من رغبة الإستزادة من اليقين بالغيب الذي صدق به وذلك بشهود بعض علمه، فيقصه القرآن الكريم مع جواب الله عنه في قوله تعالى:

﴿وإذْ قالَ إبراهيمُ ربِّ أرني كيفَ تُحيي الموتى، قال: أولمْ تُؤمنْ؟ قال: بلى ولكنْ ليطمئنَّ قلبي، قالَ: فخُذْ أربعةً منَ الطيرِ فصُرْهُنَّ إليكَ ثم اجعلْ على كلِّ جبلٍ منهنَّ جزءاً ثم ادعهنَ يأتينكَ سَعياً واعلم أن اللهَ عزيزٌ حكيمٌ﴾(٢).

ولقد فعل إبراهيم ما أمره الله به، وأطمأن قلبه، ولكن ماذا زاد علمه بما شهده بعينيه من إحياء الله هذه الطيور الأربعة من علم الغيب الذي لا يحد فيما استأثر الله به نفسه، ولم يطلع أحداً عليه، ولو كانوا رسله الى عباده؟ هل علم ابراهيم كيف يحيى الله الموتى؟ لقد شهد من إحياء الموتى ما شهده. وما يشهده المؤمنون المتدبرون لآيات الله في النبات والأرض والأنفس في قوله تعالى:

﴿يُخرجُ الحيَّ منَ الميتِ ويخرجُ الميتَ من الحيِّ ويحيي الأَرضَ بعدَ موتِها وكذلكَ تُخروجونَ﴾(٣). كذلك فقد شهد ابراهيم عليه السلام ما شهده من بعده

(١) سورة يوسف: آية ٣٧.
(٢) سورة البقرة: آية ٢٦٠.
(٣) سورة الروم: آية ١٩.

المسيح، ومن دعاهم الله به حين جعل من آياته إليهم إحياء الموتى بإذن الله وذلك حيث يقول الله تعالى:

﴿ورسولاً إلى بني اسرائيلَ أني قدْ جئتكم بآيةٍ منْ ربكُمْ أنّي أخلقُ لكم من الطينِ كهيئةِ الطيرِ فأنفخُ فيهِ فيكون طيراً بإذنِ اللهِ وأبرئُ الأكمَهَ والأبرصَ وأحيي الموتى بإذنِ الله﴾(١).

نعم، وكان ابراهيم عليه السلام مؤمنا أصدق الإيمان بأن الله يحيي الموتى وأنه يحيى ويميت، وكان إيمانه هذا هو بعض حجته على الملك الذي حاجه في ربه في قوله تعالى:

﴿ألمْ ترَ إلى الذي حاجَ ابراهيمَ في ربهِ أنْ آتاهُ اللهُ المُلكَ إذْ قالَ ابراهيمُ ربي الذي يُحيي ويميت قال أنا أحيي وأُميتُ قالَ ابراهيمُ فإنَّ اللهَ يأتي بالشمسِ من المشرقِ فأتِ بها من المغربِ فبُهتَ الذي كَفَرَ﴾(٢).

وأما عن موسى وما رغب فيه من التطلع إلى مدى من الغيب أعظم وأبعد وكان ذلك في موقف تقريب من الله له، فيقص الله من أمر ذلك، ومن جوابه عن هذه الرغبة التي لا قبل لموسى بها وان كان من رسل الله فيقول سبحانه:

﴿ولما جاءَ موسى لميقاتنا وكلَّمه ربهُ قالَ ربِّ أرني أنظرْ إليك، قالَ لَنْ تراني ولكنْ انظرْ إلى الجبلِ فإن استقرَّ مكانَهُ فسوفَ تراني، فلمَّا تجلَّى ربَّهُ للجبل جعلهُ دكاً وخرَّ موسى صعقاً، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين. قال يا موسى إني اصطفيتُكَ على الناس برسالاتي وبكلامي فخذْ ما آتيتك وكنْ من الشاكرينَ﴾(٣).

لقد أراد موسى في طمأنينة نفسه بتقريب الله له - بعد أن اصطفاه بالرسالة على بني اسرائيل، وقد جاء ليسمع كلامه، ويتلقى وحيه على موعد، بعيداً عن

---

(١) سورة آل عمران: آية ٤٩.
(٢) سورة البقرة: آية ٢٥٨.
(٣) سورة الأعراف: آيتا: ١٤٣، ١٤٤.

قومه- أن يرى من الغيب «ذات الله» فهاذا وهو يسمع كلامه في أن يرى ذات المتكلم ولو كان هو الله سبحانه وتعالى، فكان الجواب الذي لا ينسى هو ما رآه بعينه من اندكاك الجبل، وهو ما أحسه في ذاته البشرية من صدمة الصعق الماغت، ومن دخوله في غيبوبة الصعق، هناك تيقَّن موسى بعد أن أفاق أنه أنه ليس في حدود بشريته ولا في قدرة مخلوقيته، أن يرى من ذات الخالق أو أن يعلم من غيبه، إلاّ ما شاءه الله له بحسب قدرته، وبحسب مدى ادراكه من علم الغيب. لقد أفاق موسى من صلّة الصعق ليعلم أنه وإن كان رسولاً من الله إلى قومه فقد طلب ما لا قدرة له عليه من ربه، فتاب إليه من رغبة لم يحمله عليها الا استزادته من نعمة كلامه اليه، فيرى ما وراء كلام الله له من غيب مخترقاً حجاب هذا الغيب، ليرى كما لم ير بشر، وكما لن يرى أحد من خلق الله قط ذات الله. في هذه الحياة الدنيا.

ويتوب الله على موسى وقد أفاده الدرس ويذكره بأنه قد اصطفاه على قومه برسالاته وكلامه وان عليه أن يأخذ ما آتاه الله به من هذه النعمة الكبرى، وأن يكون من الشاكرين.

وبعد ذلك ينزل من وحي الله على رسوله الكريم ما يحدد به على وجه قاطع حدود كلام الله لرسله كلاما مباشرا، وعن طريق رسول ينزل بوحيه وكلامه اليهم فهو سبحانه وتعالى يقول وقوله الفصل:

﴿وما كانَ لبشرٍ أن يكلِّمَهُ اللهُ إلاّ وحياً أو مِنْ وراءِ حجابٍ أو يرسلَ رسولاً فيوحي بإذنِهِ ما يشاءُ إنَّه عُليمٌ حكيمٌ. وكذلكَ أوْحينا إليكَ روحاً من أمرنا ما كنتَ تدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكنْ جعلناهُ نوراً نهدي بهِ من نشاءُ من عبادِنا وإنَّكَ لتهدي إلى صراطِ مستقيمٍ﴾(١).

---

(١) سورة الشورى: آيتا ٥١، ٥٢.

الفصل الثالث:

الحياة على الأرض تشهد بوجود الله

تمهيد:

من الظواهر التي تشد انتباه الإنسان العادي أن رجلاً مشلولاً ينام في حضن أنثى فتنجب منه ولدا معافى. كذلك الأمر مع رجل أعمى أو مبتور الذراع، أو الساق، يأتي إمرأةً فينجب منها ولداً سليم البنية مكتمل الأطراف وقد يحدث العكس.

ومهما غاص علم الوراثة وقدم من تحاليل، ومهما فسر علم الحيوان، وسجل من علاقات، فإن الإنطباع الذي يخرج به الانسان السوي، وهو يسجل مثل هذه الظواهر، سينتهي به حتما إلى أن الحياة تجري على الأرض وفق مشيئةٍ أكبر من إمكانات الأحياء عليها.[1].

وعندما يدقق الإنسان نظرته ويغوص بها في علاقات الارتباط بين أنواع على الأرض، يعود منبهراً من عظمة الإرتباط المصيري الواحد في خدمة الأهداف العليا للحياة، على ضوء سنن الله في خلقه.

إن كل متتبع لسنن هذا الكون وآثارها يدرك أن لله سبحانه وتعالى وسائله التي تتناسب وعلمه الواسع. فخذ مثلاً أرقى الشبكات المائية ولك أن تغالي ما شئت في وصفها أو تصور ما قد تصل إليه في أرقى العصور المقبلة، وأنظر إلى هذه الشبكة المائية التي أنشأها الخالق المقتدر، حرارةُ قيظٍ متزايدةٌ تعم السطوح المائية فيتصاعد الماء بخاراً ليتحرر من جاذبية الأرض.

---

(١) د. (محمد الصادقي): (بين الإلهيين والماديين) منشورات مكتبة الصدق صفحة ١١٩

وان أجرينا الماء في أنابيب عاجزة محدودة فقد أجراه سبحانه وتعالى على متن الهواء متصاعداً ومندفعاً نحو اليابسة.

وعندما يصل للجهة المهيأة موسمياً لنزول المطر يتعرض البخار للبرودة فيكثف مرة أخرى، فتعاود الجاذبية فعلها فيهوي إلى الأرض رذاذاً أو مطراً غزيراً موزعاً بإحكام تقصر أجود المرشات عن توزيعه بهذه الكيفية، وليس على آلاف الأمتار المربعة كما تفعل أقصى جهودنا. بل يشمل مئآت الآلاف من الكيلو مترات المربعة، وبكميات تفي بالإرواء الفوري وتخزين الجزء الأعظم في باطن الأرض ليمتص منه النبات ما يلزمه، لا على مدار السنة فحسب بل لسنوات وليشرب منه حيوان الأرض لسنين طويلة على هيئة أبار وينابيع وسدود وبحيرات.

كما أنه جلت قدرته جعل حرارة اليابسة أيام الصيف أكثر من حرارة السطوح المائية مما تقل معه كثافة الهواء في الأجواء القريبة من الأرض، فتصعد هذه الطبقات إلى الأجواء العليا فيندفع هواء البحر المشبع بالبخار نحو اليابسة لملء الفراغ الذي حدث، وهذا يجعل حركة الهواء مستمرة نحو اليابسة فيستمر تجديد الهواء الذي على سطح الماء، وبهذا تتاح له القدرة على استيعاب كميات البخار المتصاعدة من السطوح بصفة مستمرة، لان الهواء لا يصل للدرجة القصوى من الشبع لسبب حركته المستمرة نحو اليابسة كما أبنا[1].

وهكذا تدور الآلة الربانية التي تضخ الماء من مصدره، ليوزع حيث يشاء صاحب الآلة الكبرى على أقسام المزرعة العظمى التي حان ميقات سقياها وما ذلك إلاّ لأن الشمس ترسل أشعتها الكونية بتوزيع دقيق يلائم الحياة على الأرض ويحقق أغراضها، إذْ يشع دفئها في المخلوقات جميعاً فيقبل على الحياة مخلوقات شتى تندفع نحو البحار والمحيطات ومصادر المياه التي يصعد بخارها

(١) انظر: (عواد سلمان أبو عاذرة) في كتابه القيم «العقيدة يقينا لا تلقينا» الصادر عن القاهرة الحديثة عام ١٩٧٢ صفحات ٣٥، ٤٩.

مكوناً السحاب الثقال تحمل الماء ركن الحياة الركين لشتى الجهات، فترتوي الأكباد الحرّي، وتربو الأرض، وتنبت من كل زوج بهيج، ونبات نزل عليه الغيث فدبت فيه الحياة وظهر ينعه وصلب عوده، وتفرعت أغصانه، وجاء أخيراً ينوء بحمله من ثمار مختلف مذاقها وألوانها، وحيوان يسعى على مائدة ربه الكبرى الممتلئة في الأرض، المحملة بما تشتهيه الأنفس من الخيرات الحسان التي يجدها جذوراً تحت السطح وثماراً بلا سيقان تفترش السطح، وأخرى تعلوها تدرجاً حتى تتجاوز العشرة أمتارا لينغمس في أنعم ربه من رأسه حتى أخماص أقدامه.(١)

وكأن رسالة الحياة على هذه الأرض قد نصفت بين كائنين حيين: كائن مستقر في مكانه لا يبرحه وهو النبات. وآخر يسعى في مناكبها وهو الحيوان. وعلى المقيم تزويد الساعي بعناصر هيكله وطاقة جهده، وبهذا تكون للنباتات رتبة الأساس في بناء صرح الحياة واستمرارها في هذه الأرض التي نستقر عليها.

والعلاقة بين الحيوان والنبات جديرة بالتوضيح لأنها مليئة بالحكمة الإلّهية والعلم العظيم الذي يتضح من تقصّي أمر هذا النبات الذي نذر نفسه بأمر ربه وسيلة للحيوان ينقب بلا كلل عن العناصر الممثلة في الأملاح المذابة في الأرض بواسطة الماء ،حيث ترفعها جذوره ليصعد في النبات الذي قد يصل ارتفاعه في بعض الأشجار إلى عشرات الأمتار. وذلك بأقوى رافعة ألا هو الضغط (الأسموزي) الذي يؤثر في كثافة العصارات، مما يعطي الشجرة القوة على رفع الغذاء إلى كل أجزائها بعد سحبه من الأرض على عمق بضعة أمتار، وعلى بعد من ساقها قد يتجاوز مئات الأمتار(٢).

---

(١) د. أحمد البطراوي (الجنس البشري في معرض الأحياء) سلسلة الألف كتاب القاهرة عام ١٩٦٦ صفحة ٢٨٣.

(٢) (أحمد قدامة): (قاموس الغذاء والتداوي بالنبات) دار النفائس الطبعة الأولى - بيروت عام ١٩٨١ صفحة ٦٦١.

حيث يوزع على الأوراق ليتم التمثيل الغذائي هنا بحضور الضوء واللون الأخضر ، فتختزن الطاقة من الضوء وثاني أكسيد الكربون من الهواء ، والايدروجين من الماء لينطلق الأوكسجين الذي يعطي للهواء بدلا مما أخذ منه ثاني أكسيد الكربون الذي اتحد مع ايدروجين الماء والطاقة وبقية العناصر ، مكونا الغذاء الذي تقوم الأوراق بتجهيزه كما تفعل معدة الحيوان وأمعاؤه ، ويعود عبر اللحاء ليغذي كل خلية في الشجرة من أعلى فرع فيها إلى أعمق جذير ، يبحث في ظلمة الأرض عن غذائها كما يفعل عمال المناجم وراء عروق المعادن[1] .

إذن هناك ثاني أكسيد الكربون الذي لا حياة للحيوان إن لم يطرده ، وعلى العكس هناك النبات الذي يقف له الموت بالمرصاد ان لم يحصل على ثاني أكسيد الكربون ، ولذا فهو يطرد الأوكسجين سراعاً في سبيل الحصول عليه ، وبالمثل فهناك الحيوان الذي طرد ثاني أكسيد الكربون ، فإن الموت لن يمهله أكثر من دقائق إن لم يحصل على الأوكسجين.

وبذا يتضح لنا الارتباط المصيري بين الحيوان والنباتات ، مما يجعل حياة أحدهما رهنا بحياة الآخر ، وموت أحدهما مرتبط بموت آخر . كقطبي الكهرباء السالب والموجب ، إلتقاؤهما فيه الضوء والحرارة والحركة وإنفصالهما فيه تعطيل لكل ذلك ، وهكذا قطبا الحياة النباتي والحيوان بإلتقائهما يتم نبض الحياة وضياؤها وازدهارها وعمرانها وانفصالهما فيه الموت والفناء للجميع .

بل إنك إذا تدبرت أمرهما وجدتهما ينهجان في الحياة نهجاً يكاد أن يكون واحداً فيه التآزر والتضامن ولذا لا بد من تشابه رئيسي في تكوينها وتمثيلها الغذائي وإطلاق الطاقة فيها . وهذا هو واقعهما فعلاً ولكن بطبيعة ليس فيها التزاحم ، بل التراحم والتئام.

فالحيوان في تنفسه يحتاج إلىالأوكسجين ليؤكسد ذرات الغذاء في خلاياه.

---

(١) (أحمد الخطيب) معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية بيروت صفحة ٢٨٠ .

لتنطلق الطاقة فتدور فيه فتدور فيه عجلة الحياة وكذلك النبات يحتاج إلى الأوكسجين وإن كان بقدر ضئيل يتناسب مع حجمه ونمائه وضرب جذوره في أعماق الأرض، ويُخال لنا هنا أن يكون هناك تزاحماً على هذا الأوكسجين، والحقيقة ان النبات من أكرم مخلوقات الله وأنفعها للمخلوقات الأخرى، فهو كالنحلة التي تجمع رحيقاً أكثر بكثير مما تحتاجه لغذائها، فتحوله إلى عسل فيه الغذاء والشفاء لها وللآخرين. وكذلك النبات فإنه يختزل كميات من الأوكسجين تحققْ له وللحيوان رصيداً لا يقل عن خمس الهواء، فإذا أضفنا هذا العمل الجليل الذي يقوم به النبات إلى ما سبق أن ذكرناه عن دوره في اختزان عناصر الأرض ليبني بها نفسه ثم يقدم كل جسمه، وجهد جسمه لحيوان الأرض وطيرها وحشراتها، علمنا ما لهذا النبات من دور خطير على هذه الأرض.(١)

وحتى يبقى الهواء نقياً من ثاني أكسيد الكربون الذي يعتبر العادم الذي تلفظه رئات الحيوان جعل الله للنبات خاصية الاستفادة من هذا العنصر، ولذا باتحاده مع الأيدروجين والطاقة وبقية العناصر يدخل في بناء جسمه، ولذا نلاحظ النماء السريع للنبات عندما تتوافر الشروط، ومن أهمها ثاني أكسيد الكربون، حتى إن بعض الناس يعمد لإطلاق الدخان بين الأشجار وقت اشتداد الضوء لقدرة النبات إذاك على استيعاب كميات أكبر من ثاني أكسيد الكربون، كما أنه يفضل أن يروى النبات قبل تدخينه بيوم لتتوفر في أجزائه كمية الماء اللازمة وبذا تكتمل للنبات كل أسباب التمثيل الضوئي.(٢)

ولما كان ثاني أكسيد الكربون مهما لهذه الدرجة للنبات فلا بد من مورد ثابت يتزود به، فاقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل هذا دور الحيوان بصفة رئيسية، وللنبات دور ضئيل في ذلك يتناسب وما أخذه من الأوكسجين الذي

---

(١) (أبو حنيفة الدنيوري) (كتاب النبات) القاهرة عام ١٩٥٠ صفحة ١٩٣.

(٢) (الأصمعي) (كتاب النبات والشجر) القاهرة صفحة ٩٥.

يفي قليله بإطلاق الطاقة في النبات ليقوم بحركته المحدودة. وأما دور الحيوان فهو المهم إذ أن رئته تختزن الأوكسجين من الهواء كما سبق أن ذكرنا، وخياشم الحيوانات المائية تختزنه من الماء فيحمل الدم العائد من الرئة والخياشيم الأوكسجين إلى كل خلية في الجسم فيؤكسد ذرات الغذاء في الخلايا فتنطلق الطاقة التي اختزلها النبات أصلا من الشمس، وينطلق أيضاً ثاني أكسيد الكربون الذي قلنا إنه اتحد مع أيدروجين الماء وبقية العناصر، وليس أمامه إلا أن يعود ثانياً للهواء ولكن عن طريق الحيوان في زفيره، فكأن ثاني أكسيد الكربون إناء استعاره النبات من الهواء ليعرف به طاقة الشمس وعناصر الأرض كي يوصلها للحيوان حرارة وحركة ونماء، والحيوان متكفل بإعادة هذا الإناء لصاحبه الأصلي وهو الهواء. وسبحان الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا.

القرآن يحسم قضية الحياة والاحياء:

في عصر العلوم التطبيقية بكل ما تفصح عنه، وما أبانته الدراسات من غموض الكون، وما عاون عليه البحث من فتح أسرار بعض مغاليق الكون حين يستحضر الباحث العطاء القرآني العظيم وهو يهدي الانسانية في مراحل رشدها من قلب جزيرة العرب وفي القرن السابع الميلادي، وكل الامكانيات العلمية والعقلية لم تكن بقادرة على ان تستوعب العطاء القرآني، فضلا عن أن تساهم فيما قرره منذ أربعة عشر قرنا على قلب النبي العربي محمد ﷺ ليبلغ الانسانية بهذا الاعجاز العلمي المبين يقف في خضوع يسبح بحمد القائل في محكم الذكر الحكيم:﴿واللهُ أَنبتكُمْ منَ الأَرضِ نباتاً ★ ثمَّ يُعيدكُمْ فيها ويخرجكُمْ إخراجاً﴾[1]. وهو القائل سبحانه: ﴿مِنها خلقناكُمْ وفيها نُعيدُكُمْ ومنها نُخرجكُمْ تارةً أُخرى﴾[2].

(١) سورة نوح: الآية رقم ١٧، ١٨.

(٢) سورة طه: الآية رقم ٥٥.

ويقول سبحانه:

﴿ومنْ آياتهِ أنْ خلقكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إذا أنتُمْ بشرٌ تنشرونَ﴾(١).

ويقول سبحانه:

﴿يآيُّها الناسُ إن كنتُمْ في ريبٍ منَ البعثِ فإنَّا خلقناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطفةٍ ثُمَّ مِنْ علقةٍ ثُمَّ مِنْ مضغةٍ......﴾(٢).

حقائق يقررها القرآن يوم نزل ويجيء العلم أخيراً ليفصل الآيات الجليلة المعجزة والكيفية التي خلقنا بها من التراب، فيقرر أن النطفة هي مجموعة هائلة من الحيوانات المنوية يكفي أحدها للاخصاب، وهذا الحيوان المنوي مكون من عناصر الأرض كأي خلية أخرى في الجسم، وعند الحمل يتحد الحيوان المنوي بالبويضة المكونة أيضا من عناصر الأرض، ويستقر الحمل في الرحم لينمو من غذاء أمه، مما يؤكد أن الله قد أنبتنا نيمن الارض نباتاً بعناصر تسري في النباتات لتواصل سريانها في أجسامنا عن طريق المشيمة ونحن أجنة، ومن ثم عن طريق امعائنا بعد الولادة، ومبادىء علم الاحياء تؤكد ذلك، فلمن يرد كل هذا؟ إنه برهان الله وآياته كمقدمة لفضله ومنه سبحانه في إرسال الرسول ونبوة النبي.

لقد وصلت قدرة الله من الكمال لأن يقول للشيء كن فيكون، ومثال ذلك الأجنة في الكائنين، الحيواني والنباتي، شاء الله أن توجد لتبني الحياة فتراها دائبة على ذلك منذ بدء الخليقة وحتى تنتهي الحياة، وكل ما حولنا بل وفي أنفسنا يدل على علم لا يدانيه علم فالانسان مثلاً تحمل أنثاه عند تلقيح البويضة بالحيوان المنوي، ومع أن هذا الحيوان وهذه البويضة لا يريان بالمجهر إلا أنهما يأخذان صفات الآباء والأمهات الذين انحدرا منهما مهما كانت هذه الصفات ثانوية كلون العين وفتحتها، وثلج رباعيات الأسنان وحتى نصبة الأذن وشكل صيوانها،

---

(١) سورة الروم: الآية رقم ٥٥.

(٢) سورة الحج: الآية رقم ٥.

وأنت ان لم تلمح في الوليد بعض صفات أمه وأبيه فإنك تلمح بعض صفات أجداده او أعمامه ،أو أخواله ومع هذا فإن له شخصيته التي يعرف بها وتميزه عما سواه . فكيف أمكن للحيوان المنوي والبويضة وهما من الضآلة بحيث لا يريان بالعين المجردة أن يحتفظا بصفات سلالتها وان اختفت في الأبناء فلا بد أن تظهر في الأحفاد أو أحفاد الأحفاد والعجيب أن احتفاظها بالصفات هذه يكاد أن يكون شاملاً : كالذكاء والعته ، والجمال والقبح والقوى والضعف والضخامة والضآلة ، وحتى بعض الأمراض قد يرثها ويورثها .

وإن جئنا بهذا مثلاً على الحيوان فان النبات الذي فيه من العجائب ما فيه لا يشذ عما وصفنا به الحيوان فشجرة الجميز التي قد تصل من الضخامة بحيث تعجز عن حملها السيارة بل يمكنك ان تعلق السيارة في احد فروعها فإن أصلها بذرة لو أكل الانسان ثمرة من ثمارها لأختفى بين اسنانه من بذورها ما يكفي لإنشاء بستان كبير من شجر الجميز الضخم الذي يختفي أهل قرية تحت إحدى أشجاره واذا فحصت تلك البذرة وجدت أن الجنين أصغر اجزائها ، ومع هذا يحتوي على صفات أشجاره وحتى الأمراض يحملها تماماً بين جوانحه .

ولكل نوع من الأجنة طريقته في الوصول إلى ذلك ، تماماً كاختلاف سعي أجناسها التي منها ما يحبو لغايته ، ومنها يطير ومنها المكب في مشيه أو السوي فيه ومنها ما يعوم في لجج البحار أو ما طريقه بطن الأرض ، كالهوام والحشرات أو ما هو حبيس الأرض محدود الحركة كالنبات الكل ملزم بالسعي لهدفه بوسيلته التي تناسبه وتلائم طبيعته التي فطر عليها .

ألا إن من أودع الأجنة هذه القدرة وزودها بكل ما يناسبها في دور حضانتها لهو صاحب علم تعجز البصيرة عن سبر اعماقه وإن كان للعلماء حظ في ادراك بعض ظواهره التي تملي عليهم خشيته ، فإن مبلغ علمهم لن يتعدى قدرة البشر التي هي بعض تطبيقات علمه .

بدهي أنه لو اجتمع صفوة العلماء في هذه الدنيا كي يصنعوا حشرة ما استطاعوا صنع جناحها ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

أما هو سبحانه فيبسطها فما أن يلتقي زوجان من أي جنس إلا حملت أُنثاه بعضوٍ ثالثٍ يحمل صفات جنسه كاملة وما أعقد صفات جنسه.

وقد خالف بين تكاثر الأزواج فمنها ما تحمل أنثاه في المرة الواحدة فردا ومنها ما تحمل الفا كل حسبما رسم له وليس البرهان والدليل على قدرة الخالق في هذا فحسب. بل في كل ما يتعلق به. فسبحان الذي وقَّت المواقيت لكل ما خلق وحدد دورات اخصابه ونضجه وفنائه، فلو لم يوضع ميقات كل شيء بحسبان لطغى هذا وفنى ذاك. ولك أن تتصور أنه لو كان عمر الانسان مائتي سنة كما يريد بعض الناس ويبلغ الرشد في عشر سنوات وأنثاه تلد أربعة أجنة في كل بطن وجاءت الظروف على هواه لا ينقص من الأربعة ولا يموت من نسله فرد إلا بعد المائتين، وهو يريد لهم أن يمنعوا بالغذاء الوفير المتعدد الأصناف فثق أنه لو كان الأمر كذلك لزاد البشر عن سعة الأرض في مدة وجيزة وأفنوا ما عليها أكلاً، ولما بقي لواقفهم موقف ولا لقاعدهم مقعد، ولا ضطرتهم غريزة البقاء لأكل بعضهم بعضاً ولصار سعر الم الاشخاص لا يعادل حفنة من تراب أو ضمة من عشب ولا نحطت المعايير الاجتماعية حتى تأتي بعد نظم السمك بالرغم من أنه يقتات ببعضه البعض.

ويتضح من هذا أن كل أمر في هذا الكون جاء عن تدبير وبإحكام دقيق، إذ لو نقص عما هو عليه أو تجاوز المرسوم له لاختلت الحياة وفقدت قيمتها ومعناها وكم مرة تمنينا أن يكون حظنا من الدنيا كيت وكيت. ولو أن الله استجاب لنا هذه الأمنية وأعطى لكل انسان مثلها لكانت الأمنية وبالا على البشرية فتبارك الذي يتولى الأشياء بهذه الدقة التي تؤلمنا أحيانا؟ وهذا التقنين الذي يضايقنا لأننا نأخذ الأمور بهوى النفس والهوى أخطر رائد، لكن الله سبحانه لم يتركنا لأنفسنا التي ستودي بنا لو رمي لها الحبل على الغارب.

لكن الحمد والثناء كله لله الذي لم يهمل شيئاً مما خلق، فهذا التقنين الذي تجده في كل شيء لو تدبرته لوجدته ينطق بالرعاية الشاملة التي توضح دلائل

رحمته سبحانه وتعالى بالجميع، فهذه الأجسام اللطيفة الرقيقة الحال لم يغفلها الكريم من لطفه ورحمته فهيأ لها المناخ المناسب ومع هذا لم تكن رحمته معطلة لمسيرة الكون لكي يدب على مهمله وئيدا مع رقاق الحشرات ولطاف المخلوقات الأخرى، بل هيأ الظروف المناسبة للجميع وزود كلاً بما يناسبه، وسبحان القائل في كتابه: ﴿تباركَ الَّذي بيدهِ المُلكُ وهوَ على كلِّ شيٍّ قدير الذي خلقَ الموتَ والحياةَ ليبلوكُم أيُّكُم أحسنُ عملاً وهوَ العزيزُ الغفورُ الذي خلقَ سبعَ سماواتٍ طباقاً ما تَرَىٰ في خلْق الرَّحمٰن مِنْ تفاوُتٍ﴾.

انظر لأي شيء نظرة المتقصي تجده مهما لطف جسمه ورقَّ حتى قارب العدم ومهما عظم حتى جاوز الفهم تجده قدأنشىءبإبداع لا يرقى إليه إبداع وفيه الإعجاز المحير للألباب، حتى إننا إذا حاولنا دراسة حشرة تائهة في هذه الأرض التائهة في هذا الكون، فإننا نرى العجب العجاب ونحتار كيف نحيط بتركيبها، مما يقتضي جهداً جهيداً واعداداً علمياً متقدماً بوسائله وتجاربه، كي نقف على كيفية تركيب أعضائها وغددها والأنزيمات التي تتدفق في جسمها وكيف يتم التمثيل الغذائي فيه وما الذي يولد فيه الحرارة والحركة وكيف قدرت قدرة كل شيء فيها حتى جاءت هذه الحشرة موزونة الوزن الدقيق الذي جعل لها هذه الخصائص التي ميزتها عن غيرها من الحشرات.

قارن أي شيء في أي كائن بمثله في كائن آخر من جنس غير جنسه كالأنسولين مثلاً، فإنك تجد اختلافاً واضحاً أو اختلافاً جزئياً بين أنسولين هذا وأنسولين ذاك وليس هذا وحسب. بل كل شيء يخضع لمثل هذا، فمثلاً خذ أية حاسة كحاسة السمع تجد أن مدى حساسيته في استقبال الموجات الصوتية تختلف من جنس لجنس والصوت هو الصوت ولكن موجاته تختلف من جنس لآخر كما تختلف من فرد لآخر من نفس الجنس.

وهكذا في كل وصف للقبائل الحيوانية والفصائل النباتية لا تجد صفة في أحدها هي الصفة ذاتها في غيره ابتداء من الجراثيم والفطريات المتراصة

بالملايين في السنتيمتر المربع، وانتهاء بأعظم ما توصلنا لمعرفته من آلاف المجّرات كل له ما يميزه ويحدد ذاته[١].

عش طول حياتك متفرسا في وجوه الخلق. فإنك ستميز بين الوجوه مهما خيل اليك أنها متشابهة، بل خذ شريحة من جلد حيوان ما أو من لحاء نبات ما وخذ ما يماثله من حيوان أو نبات آخر وافحصهما مجهرياً فلن تجد سطحاً يشبه سطحاً مثلما أن بصمة إبهام لا تشبه بصمة إبهام آخر.

أقطف أي ثمرة تشاء من شتى أنواع الفواكه ودربها على بساتين نوعها، فإنها ستجف بين يديك قبل أن تجد أختها التي لا تميزها منها شكلاً ولوناً وتوزيع ألوان ووزنا ونسب املاح، وليس هذا وحسب بل إنك تلمس التقنين في كل شيء حتى إن كل عضو في الجسم الواحد وكل غدة فيه لها طاقة محددة تتناسب والجسم الذي تحل فيه فمثلا: رئة الحيوان لو قدر لها ان تختزل من الاكسجين كمية زائدة عن الحد لا تتناسب وخلايا الجسم العاملة، وكمية الغذاء المشحونة بها تلك الخلايات لأغمي على الحيوان اغماءة الموت، وكذلك لو نقص هذا الأكسجين عن الحد المطلوب لخارت قواه وأنبت جهده وما استطاع حراكاً ومثل هذا يقال عن جميع أنزيمات الجسم. فإن أي أختلال فيها يخل بنبض الحياة في ذلك الجسم بل ويفقده هذا الجمال الناشيء عن تناسق أعضائه وأجزائه.

الرؤية الاسلامية للكون المادي:

بعد أن تفرعت بنا قضايا الفصول الماضية أمام تلك المداخل التي تؤدي بنا إلى معرفة موقع الفرد الانسان في هذا الكون الواسع. وعلاقة كل ذلك في عالم الحياة الفسيح نحب هنا أن ندلل هنا على نوعية نظرة الانسان المسلم إلى ذلك الوجود الكبير. ذلك أن الإسلام لا تقف نظرته إلى الوجود في نطاق ذلك

---

(١) (قصة السماوات) دكتور جمال‌الدين الرمادي القاهرة عام ١٩٥٦ صفحة ١٢١.

العالم المحسوس والمشهود. لأن هذا العالم، كما هو مشاهد، يتحرك في اتجاه التغيير الدائر أبدا نحو غايات لم نعرف عنها شيئا بعد، ونظرة الاسلام للكون تختلف تماما بل وتتناقض مع نظرة الماديين الى هذا الكون، ذلك لأن عقيدة الايمان في الاسلام تقوم على أن سنن الكون نفسه تقوم على حكمة الخالق لأنه في حركة وجوْدَةٍ تحتاج إلى تعليل وعلته هي سنن الله تعالى في نظام خلقه، بينما ينظر الماديون الى الحواس المشاهدة في هذا الكون دون ما نظر إلى حركته وارتباط أجزائه. واقتران أسبابه بمسبباته وانتظام قوانينه وسننه.

ويجل المسلم في خشوع هذه القوة التي تدفع كل جزء من هذا الكون الواسع والممتد إلى وجهته دون خلل أو تناقض ﴿ما تَرَى في خَلْقِ الرَّحمنِ مِنْ تفاوُتٍ﴾ ويتجلى أمام المسلم كون متكامل في عالم النبات وفي عالم الأحياء وفي عالم الفضاء فتتوارد على مخيلته القوة العظيمة المصممة والهادفة، والتي على ضوء إرادتها تتحرك القوانين والنظم التي تحرك وتوجه كل هذه القوى.

وتجيء الآيات القرآنية وتضع الانسان أمام هذه الحقائق الرائدة، حتى يدخل المسلم إلى كبريات مسائل الايمان وفي اعماقه يقين إيجابي بقدرة الخالق سبحانه. يقول تعالى مخاطباً المشركين في استفهام، فيه لفت لهم إلى كيفية خلقهم :-

﴿أَمْ خُلِقوا مِنْ غيرِ شيءٍ أَمْ هُمْ الخالقونَ﴾(١). ويقولُ سبحانَهُ:

﴿أَفَمَنْ يخلقُ كمنْ لا يخلقُ أفلا تذكرونَ﴾(٢). ويقول: ﴿أمْ خَلَقوا السماوات والأرضَ بلْ لا يوقنونْ﴾(٣).

ويتضح أمام بصيرة المسلم ووعيه أبعاد كونية كبرى يهيمن عليها الخالق جل شأنه حين يطلع على قول رب العزة في سورة البقرة(٤):

(١) سورة الطور: الآية رقم ٣٥.
(٢) سورة النحل: الآية رقم ١٧.
(٣) سورة البقرة: الآية رقم ١٦٤.
(٤) سورة الطور: الآية رقم ٣٦.

﴿إنَّ في خلقِ السماواتِ والأرضَ واختلافِ الليلِ والنهارِ والفُلكِ التي تجري في البحرِ بما ينفعُ النَّاسَ وما أنزلَ اللهُ منَ السَّماءِ منْ ماءٍ فأحيا بهِ الأَرضَ بَعدَ موتِها وبثَّ فيها مِنْ كلِّ دابةٍ وتصريفِ الرياحِ والسَّحابِ المسخَّر بينَ السَّماءِ والأرضَ لآياتٍ لقومٍ يعقلونَ﴾(١).

ويوجه القرآن الكريم النظر إلي عمليةٍ تتم فيها كل صور الخلق المتجدد والدائم والذي يؤكد قدرة الخالق سبحانه وتعالى: وهي عملية « الإنبات » إنبات الزرع، إن الانسانَ على الأرض منذ زمن سحيق، قبل أن يعرف الاشكال الحضارية والفكرية وهو في بساطته الأولى، يزرع البذر بغرسه في الارض ثم يسقيه أو ينزل الغيث من السماء فيرويه، ولا يملك الانسان ولا كل علوم الدنيا مجتمعة أن تفعل أكثر من هذا، أما الباقي. أما خاصية النمو في النبات. أما خاصية الانبات في التراب. أما الحلو والحامض، وكله يسقى بماء واحد، فإن قدرة الله تعالى هي المهيمنة والمسيطرة، وقد قوي إيمان المؤمنين من العلماء حين تليت عليهم هذه الآية:

﴿أفرأيتُمْ ما تحرثُونَ أأنتُمْ تزرعونَهُ أمْ نحنُ الزارعونَ﴾(٢).

وفي تقرير هذا المعنى وتأكيده يقول: (محمد المبارك في كتابه نظام الاسلام) « وعلى هذا فالكون أو الطبيعة وما في الكون من ضروب الارتباط بين ما يسمى بالأسباب ومسبباتها والعلل ومعلولاتها، كلها مخلوقة وهي متعلقة بوجود أعلى وأسمى وأكمل من وجودها، وهو وجود الله الخالق المبدع لها والمقدر لسننها وأسبابها، ولذلك لا يطلق على الله الخالق في العقيدة الإسلامية لفظ سبب ولا علة، لأنه خالق الأسبابْ والعلل ومقدر سننها وقوانينها »(٣).

والله في العقيدة الاسلامية كما يقتضيه منطق الفكر السديد يتصف بالقدرة

---

(١) سورة البقرة: الآية رقم ١٦٤.

(٢) سورة الواقعة: الآية رقم ٦٣، ٦٤.

(٣) محمد المبارك: (نظام الاسلام) دار التكرير « الطبعة الثانية » عام ١٩٧٠ صفحة ٨٠

والحياة والعلم، لأن نتائج خلقه وصنعه تدل على أنه خلق صدر عن عالم بما يخلق ﴿ألا يعلمُ مَنْ خَلَقَ﴾ محيط بالكون الذي خلقه مدرك لما قدره فيه من سنن. أما (إله الفلاسفة) فهو علّة نهائية أو قوة كامنة غير عاقلة ولا مدركة، افترضوا وجودها في الأشياء، وهي نفسها في حاجة إلى تفسير وتعليل ما دامت غير محيطة ولا مدركة ولا واعية.

الله في العقيدة الاسلامية وجود كامل مطلق يتصف بالحياة والعلم وغيرها من صفات الكمال، ذلك أن في الكون نفسه مخلوقات تتصف بهذه الصفات ضمن حدود محدودة كالحيوانات والانسان، فلا بد أن يكون الوجود الذي أوجدها متصفا بصفات أعلى منها وأشمل وأكمل في غير تحديد محدود، ومن هنا كان الاختلاف الواضح بين حياة ناقصة محدودة تبدأ بالولادة ويعتريها التوقف والتحديد والنقصان بالتخدير والنوم، وتنتهي بالموت أو الفناء، وحياة دائمة كاملة لا يعتريها شيء من ذلك وبين علم محدود ناقص يقبل الزيادة ويطرأ عليه ما يزيله دائماً أو مؤقتاً، كالخوف والنسيان وهو بطبيعته محدود بحدود لا يتجاوزها، وعلم كامل دائم لا يعتريه نسيان ولا غفلة ولا نقص ولا يتحدد بحدود مكانية أو زمانية.

ومن هنا كان الفارق الفاصل في العقيدة الاسلامية بين المخلوق، وهو ناقص مهما كمل، والخالق وهو الكامل الكمال المطلق في وجوده وفي سائر صفاته: ﴿ولله المثل الأعلى﴾ ﴿لَيْسَ كَمثلِهِ شيءٌ﴾.

ومن جملة كماله تفرده ووحدانيته فهو لا يحتاج الى شريك في خلقه وقدرته لأنه لو وجد له ند وشريك لأمكن الاستغناء عنه بشريكه، فلم يعد وجوده لازما وواجبا، ولوجب أن يكون كشابه المثلين ناشئاً عن وجود آخر، أو ناشئاً عن التماثل والتشابه، فلا يكون أحد من المتشابهين إلها خالقا.

لا شك أن النقطة البارزة الأولى التي ينطلق منها الفكر الإسلامي هي احتياج الكون الى موجد غير محتاج إلى موجد، أي أن وجود الكون مفتقر غير مستقل، فلا بد أن يتصور العقل وجوداً قائماً بذاته غير مفتقر الى سواه.

بل سواه مفتقر الى وجوده. وذلك هو وجود الله، وهذه الصفة نفسها تقتضي الوحدانية لأن التعدد يجعل وجود كل واحد من المتعددين المتساوين في الصفات غير لازم ولا ضروري، بحيث يمكن الاستغناء عنه بشريكه الآخر، وهكذا يكون هذا الوجود الذي يمكن الاستغناء عن وجوده ناقصاً غير كامل، فلا يكون صاحبه إلهاً خالقاً متصفاً بما اقتضاه العقل من صفات لوجوده.

الله في العقيدة الاسلامية هو ﴿اللهُ الذي لا إله إلاَّ هُوَ الحيُّ القيُومِ﴾ هو الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً ﴿خَلَقَ السَّماواتِ والأَرضَ وَمَنْ فيهِنَّ﴾ وهو الذي ﴿أحاطَ بكلِّ شيء علماً﴾ ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿وهوَ بكلِّ شيءٍ عليمٌ﴾. لا يعزبُ عن علمِهِ مثقال ذرةٍ في الأرضِ ولا في السَّماء... هو ﴿عالمُ الغيبِ والشَّهادةِ﴾ يتصف بالادراك بأوسع معانيه وأطلقها (وهوُ يُدركُ الأَبصارَ وهوَ اللطيفُ الخبيرُ﴾ وهو مطلق الارادة (فَعَّالٌ لما يُريدُ) وهو يملك طبعاً هذا الكون الذي خلقه ﴿لهُ ملكُ السَّماواتِ والأَرضَ﴾ يحكم في ملكه هذا كما يشاء ﴿لا معقِّب لِحُكمِهِ﴾ ﴿لَهُ الحُكْمُ وإليهِ المصيرُ﴾ والكون كله خاضع له ﴿للهِ يسجُدُ من في السماواتِ ومنْ في الأَرضَ﴾ ﴿وسخَّرَ الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخراتٍ بأمرهِ﴾.

وفي العقيدة الاسلامية يعتقد المسلم ويؤمن بأن الله تعالى هو خالق الكون ومقدر سننه ونظامه ﴿وخلقَ كلَّ شيءٍ فقدَّرَهُ تقديراً﴾ وما دام هو الخالق له فهو المالك وله والمتصرف به والقادر على توسعه وزيادته ﴿والسماءَ بنيناها بأييدٍ وإنَّا لُموسِعونَ﴾ وما دام هو الموجد لسننه وقوانينه فهو كذلك الحاكم ببقائه واستمراره والقادر على الغائه وتبديله ﴿لَهُ الخَلْقُ والأَمرُ﴾ فالمهندس الذي أشاد معملا على طريقة معينة ونظام معين يستطيع ان يعيد انشاء المعمل على نظام آخر. والمهندس مخلوق فكيف بمن خلق الكون والنجوم والكواكب ورسم لها مداراتها وحركتها وسكونها بمقتضى نظام معين لا يختل، فأقامها في موقعها فوقنا كما نراها ونحس بها ﴿بِغَيرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾ بل بقوى خفية لا نراها بالأبصار ربما كانت هي قوة الجاذبية فأمسكها بذلك ان تقع على

الأرض وجعلها في تلك المواقع التي ورد في القرآن القسم بها ﴿فلا أُقسِمُ بمواقعِ النّجومِ وإنهُ لقسمٌ لوْ تعلمونَ عظيمٌ﴾ إن هذا الخالق قادر، ديناً وفطرة وعقلاً بلا تردد ولا ريب أن يبدل هذا النظام كله فيجعل النجوم متناثرة في الفضاء ويجعل الشمس والقمر اللذين لا يصطدمان الآن ﴿لا الشّمسُ ينبغي لها أنْ تُدرِكَ القمرَ﴾ يجعلها يجتمعان في يوم من الأيام ﴿وجُمع الشّمْسُ والقمرُ﴾ فكل خصائص الكائنات وجميع سنن الكون ونواميسه ليست الا مخلوقة مقدرة، والله مسيطر عليها وليس هو سبحانه جزءا منها وليس هو سببا من جملة الأسباب ولا علة من العلل، فالأسباب كلها مخلوقة خاضعة مقدرة فهي من خلقه وتقديره وتدبيره.

والكون منتظم لا فوضى ولكن انتظامه مرتبط بإرادة الله وقدرته، واستمرار هذا النظام منوط بمشيئة الله العليا. إن كل تعليل لحوادث الطبيعة بقانونها تعليل ناقص لأن القانون واقع يحتاج الى تعليل، وليس القانون موجداً للحادثة من العدم ولا يتصف القانون بالوعي الهادف، وكل افتراض لقوة كامنة أو خفية إن صح فهو ناقص، يحتاج الى تعليل هذه القوة الكامنة غير الواعية ولا العاقلة، ولذلك كان الإيمان بالله الخالق متمماً ومكملاً لفطرتنا إلى الكون والطبيعة وما فيها من حركة وتطور ومن سنن وقوانين، فهي محتاجة إلى وجوده مفتقرة إلى استمرار امداده وعنايته مؤتمرة في مسيرها وكيانها بأمره ﴿ولله يسجُدُ منْ في السَّماواتِ والأرضْ﴾(١). فالكون كله بمادته وسننه منقاد لمشيئته ﴿كلٌّ لهُ قانتونَ﴾ وهو ملك له: ﴿بَلْ لهُ ما في السماواتِ والأَرضَ كلٌّ له قانتونَ﴾(٢). ﴿ولله يسجدُ منْ في السَّماواتِ والأرضَ طوعاً وكرْهاً﴾(٣). ﴿ثم استوى إلى السَّماءِ وهي دخانٌ فقال لها وللأرضِ ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾(٤).

---

(١) سورة الرعد: الآية رقم ١٣.
(٢) سورة البقرة: الآية رقم ١١٧.
(٣) سورة الرعد: الآية رقم ١٥.
(٤) سورة فصلت: الآية رقم ١١.

وعلى ضوء ما سبق يتأكد لنا أن هذا الكون الفسيح المخلوق لله. لا يمكن أن يقف فيه الإنسان بنفسه وجهده مستوعباً ومسيطراً. ومن هنا كانت رحمة الله به إذ أحاطه بنوع من العلم بدد جهله بما حوله وبما هو أكبر مما حوله حتى لا يضيع الانسان في هذا الكون الكبير.

وبهذا نكون قد عرفنا افلاس العقل البشري عن وضع نهج السعادة للانسان في دنياه وفي أخراه فكان لا بد من نور من الخالق يهدي الناس لما فيه صلاحهم وفلاحهم.

الباب الثاني

النبوة والرسالة في العقيدة الاسلامية

الفصل الأول:

التعريف اللغوي والاصطلاحي للنبوة والرسالة، والفرق بين النبي والرسول.

الفصل الثاني:

حاجة البشرية للنبوة والرسالة الآلهية.

الفصل الثالث:

ضرورة الايمان بالأنبياء.

الفصل الرابع:

المعجزة ودلالتها على النبوة والرسالة.

الفصل الخامس:

مذاهب الناس في حكم النبوة.

الباب الثاني

النبوة والرسالة في العقيدة الاسلامية

الفصل الأول:

التعريف اللغوي والاصطلاحي للنبوة والرسالة والفرق بين النبي والرسول

(١) تعريف النبوة والرسالة في اللغة:

كلمة النبوة أصلها «النّبوة» أو «النباوَة» من الإرتِفاع ومنها أي من النّباوة أخذ النبي. بمعنى أنه مرتفع على الخلق أي أنه أشرفهم.

وقيل إن النبيء «بالهمزة» مأخوذ من الفعل (أنبأ) بمعنى أخبر ومنه (النبأ) الخبر، وبذلك يكون معنى النبي: المخبر عن الله تعالى.

وهذا هو أغلب ما ذكره اللغويون حول تعريف النبي. ولا مانع من اجتماع التعريفين في مُعَرَّفٍ واحد: فالنبي: هو مخبر عن الله تعالى وهو أيضاً مرتفع المكانة وله الشرف والفضل في قومه.

يقول ابن منظور (النبأ) الخبر. والجمع أنباء. قال الجوهري: والنبيء: المخبر عن الله تعالى. ويجمع على أنبياء. قال الفراء: النبي هو من أنبأ عن الله.. فترك همزه. قال وإن أخذ من النّبْوة والنّبَاوة وهي الإرتفاع عن الأرض، أي أنه أشرف على سائر الخلق فأصله غير الهمز. والنبي: العلم من أعلام الارض يُهْتَدىٰ به. ومنه اشتقاق النبي لأنه أرفع خلق الله. لأنه يهتدىٰ به. وقال الكسائي: النبي: الطريق، والأنبياء: طرق الهدى[1].

(١) لسان العرب: جـ ٣ (ص ٥٧٣) طبعة لبنانية في ثلاثة مجلدات.

وقال صاحب القاموس (النبأ) محركةً الخبر. جمعه أنباء. يقال أنبأه إذا أخبره. والنبيء: المخبر عن الله تعالى. وترك همزه هو المختار[1].

وقال آخرون (إن كلمة نبي كلمة عبرية. أو آرامية الأصل. وتدل كلمة النبوة على مجرد الإخبار عن الله تعالى)[2].

ولنذكر بعد هذا ما قاله أهل اللغة في تعريف الرسول. قالوا: بأنه مأخوذ من الفعل أرسل ومصدره: الإرسال. وهو بمعنى التوجيه والبعث. وقالوا أيضاً: (إنه هو الذي يتابع أخبار من بعثه[3]). ويأتي الإرسال بمعنى الإطلاق والتخلية كما في قوله تعالى: ﴿ألم تَرَ أنَّا أرسلنا الشياطينَ على الكافرينَ تؤزُّهم أزًّا﴾[4]. بمعنى أطلقناهم عليهم وخلّينا بينهم وبينهم. ولكن المعنى المراد من إرسال الله لأنبيائه إنما هو وحيه إليهم: أن أنذروا عبادي[5].

نخلص من هذا كله بأن النبي هو في اللغة: «المخبر عن الله سبحانه الهادي لقومه. وهو أشرفهم منزلة وأعلاهم قدراً».

والرسول «هو الموجه»، والمبعوث إلى قوم ليؤدي إليهم رسالةً ويبلغهم أمراً».

(٢) التعريف الاصطلاحي:

عُرِّفَ النبي بعدة تعاريفٍ في كتب العلم. ونستطلع هنا ما قاله بعض العلماء ثم نحاول الجمع بين التعاريف والخروج بتعريف شامل بإذن الله.

كثير من العلماء يعرفون النبي بأنه من أوحي اليه بشرع ولم يؤمر بالتبليغ.

والرسول من اوحي اليه بشرع وأمر بتبليغه[6].

(١) ترتيب القاموس: جـ ٤ (ص ٣٠٨).
(٢) الموسوعة العربية: (ص ٨٦٨) الطبعة الثانية عام ١٩٧٢م.
(٣) لسان العرب مجلد ١ (ص ١١٦٦).
(٤) سورة مريم: آية ٨٣.
(٥) لسان العرب مجلد ١ (ص ١١٦٧).
(٦) روح المعاني للالوسي جـ ١٧ (ص ١٧٣).

وسيأتي التوسع في ذلك عند ذكر الفرق بين النبي والرسول.

أما من المتأخرين فيقول الدكتور عبدالكريم عثمان رحمه الله: النبي: «هو الإنسان الذي يختاره الله تعالى ليقوم بأداء رسالة معينة»[١]، وهو لم يفرق بهذا التعريف بين النبي والرسول.

ويقول مؤلف كتاب (مع الأنبياء في القرآن): «الأنبياء والرسل هم الذين اصطفاهم الله من بني البشر يحملون دعوته لعباده. يبشرون من آمن منهم وعمل صالحا بحسن الثواب والمكافأة في الحياة الدنيا وفي الآخرة. وينذرون من كفر وعمل سيئاً بالعقاب وسوء المصير»[٢].

وعرف الشيخ المودودي الرسول بأنه «من يؤدي إلى الناس رسالة ربهم ويهديهم الى صراطه المستقيم بإذنه»[٣].

(٣) الفرق بين النبي والرسول:

وكثيرون ممن كتبوا عن النبوة والرسالة قديما وحديثا يفرقون بين النبي والرسول في التعريف. فيعرفون النبي بتعريف مختصر جدا وهو: (من أوحي اليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه) أما الرسول فهو: (من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه)[٤].

فالنبي معناه المنبىء فوزنه فعيل مهموزاً ثم خفف وأدغم.[٥] ومصدره النبأ، وقيل النبي مشتق من النّبْوة وهو الإرتفاع يقال تنبأ فلان إذا علا وارتفع، وقيل غير ذلك. ومناسبة هذا التعريف للدلالة اللغوية قوية وهي واضحة للمعنى العربي ففي الأول إنباؤه وإخباره عن الله تعالى وفي الثاني علو

---

(١) معالم الثقافة الاسلامية (ص ٤٠) الطبعة الثالثة ١٣٩٤هـ الرياض.

(٢) مع الانبياء في القرآن (ص ١١) عفيف طبارة الطبعة الثالثة بيروت.

(٣) الحضارة الاسلامية (ص ١٦٧). الطبعة الثانية بيروت ١٣٩٠هـ.

(٤) انظر الأديان والفرق والمذاهب (ص ٦) عبدالقادر شيبة الحمد، طبعة جدة.

(٥) مختار الصحاح: الرازي الطبعة الأولى عام ١٩٦٧ صفحة ٦٤٢.

شأن المدعى وسطوع برهانه ومثله الرسول وقد يخص الرسول بمن أنزلت عليه شريعة كتاب وأمر بتبليغه.

هذا وقد اعترض على هذا التقسيم بما ورد في الحديث من زيادة عدد الرسل[1] على عدد الكتب فقيل هو من له كتاب نسخ بعض أحكام الشريعة السابقة. والنبي قد يخلو عن ذلك، كيوسف عليه السلام. وفي كلام بعض المعتزلة. ان الرسول صاحب الوحي بواسطة الملك والنبي هو المخبر عن الله تعالى بكتاب أو الهام.[2]

وقيل النبي من أوحى اليه بشرع يعمل به، والرسول يزيد عليه أن يؤمر بالتبليغ، وتلك اصطلاحات وكما يقولون (لا مشاحة في الاصطلاح).

ونحب هنا أن نتوسع قليلا مع العلماء حول هذه القضية التي كثر حولها الجدل، وهي هل هناك فرق بين النبي والرسول. وأيهما يفضل الآخر فنقول وبالله التوفيق:

ذهب الجم الغفير من العلماء الى أن العلاقة بينهما هي العموم والخصوص المطلق. فيجتمعان فيمن كان نبيا ورسولا. فكل رسول نبي ولا عكس[3].

فالرسول ذكر حر من البشر خصه الله تعالى بسماع وحيه وأمر بتبليغه وان لم يكن له كتاب ولا نسخ[4]، كإبراهيم عليه السلام وهذا هو المختار عند الاكثرين وذهب بعضهم الى أن الرسول من جاء بشرع جديد أي بالا يكون مقررا لشرع من قبله[5].

أما النبي فذكر حر من البشر أوحى إليه بشرع للعمل ولكنه لم يؤمر بالتبليغ[6]

---

(١) يشير الى حديث أبي ذر رضي الله عنه. وسوف يرد معنا في ص ٧٦.

(٢) المغني: للقاضي عبدالجبار جـ ٨ طبع بيروت صفحة ٢٨٠.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (ص ٤١) طبعة الرياض عام ١٣٩٦هـ.

(٤) تفسير المنار: جزء ١ صفحة ١٣.

(٥) شرح الشفا (١/٥٣٠) تأليف نور الدين القاري، مطبعة المدني بمصر.

(٦) المصدر السابق: (١/٥٣٠).

ودليل هؤلاء- الذين يقولون بالفرق بين الرسول والنبي- من القرآن الكريم قوله سبحانه وتعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبي﴾[1] فأثبت، سبحانه وتعالى التفريق بين الأسمين وهذا يدل ضرورة على كون المعطوف غير المعطوف عليه كما هو الأصل في تغاير المتعاطفين[2].

ولو كان الرسول والنبي شيئاً واحدا لما حسن تكرار الأسمين لا سيما مع وجود (لا) المزيدة التي هي للتأكيد والمبالغة[3].

وذهب فريق من العلماء الى أن النبي والرسول بمعنى واحد فيكونان لفظين مترادفين باعتبار أن النبي مأخوذ من الإنباء وهو الإعلام فيلزم من معنى النبوة إذا كانت من الإنباء معنى الرسالة التي معناها الاعلام والابلاغ.

واستدلوا على ما ذهبوا اليه بالآية السابقة نفسها حيث أن الله سبحانه وتعالى أثبت لهما الإرسال، مّما لا يجعل للعطف حكماً بمغايرة ما بينهما.

والراجح أن بينهما فرقا وأن الرسول أفضل من النبي بالاجماع جاء في (شرح الشفا): والصحيح وكذا الشهير والذي عليه الجم الغفير أن كل رسول نبي وليس كل نبي رسول، إذ النبي انسان أوحي اليه بشرع سواء أمر بالتبليغ أم لا بخلاف الرسول فإنه نبي مأمور بتبليغ الرسالة سواء تكون هذه الرسالة تقدمت أو تجددت.[4]

وانما غلب استعمال لفظ النبي على الرسول للشيوع وكثرة الاستعمال[5] فهذا دواد عليه السلام من أنبياء بني اسرائيل الكرام ومن سبط يهوذا (بن يعقوب)

---

(١) سورة الحج: الآية رقم ٥٢.
(٢) شرح الشفا: (٥٣٠/١). [بتصرف]
(٣) نفس المصدر.
(٤) شرح الشفا في شمائل صاحب الاصطفا ﷺ، تأليف نورالدين القاري الهروي الحنفي الشهير بملا علي القاري جزء ٢ صفحة ٥٣٠، مطبعة المدني بمصر.
(٥) المصدر السابق صفحة ٥٣٠.

عليه السلام[١]. وهو من المرسلين حيث ذكره الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: في عداد أنبيائه المرسلين قال سبحانه وتعالى ﴿إنا أوحينا إليك كما أوْحينا إلى نوحٍ والنبيِّينَ منْ بعدهِ وأوحينا إلى ابراهيمَ وإسماعيلَ واسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وعيسى وأيوبَ ويونُسَ وهارونَ وسليمانَ وآتينا داودَ زبوراً﴾[٢].

فذكره الله تعالى في مقام التشريف مع الأنبياء الذين أوحى الله اليهم وأنزل عليه الزبور وأمره بالتبليغ والدليل على أنه مأمور بالتبليغ أن الله سبحانه وتعالى وصف هؤلاء المرسلين الذين ذكروا في الآية المذكورة آنفا بقوله تعالى:

﴿رسلاً مبشِّرينَ ومُنذرينَ لئلاّ يكونَ للناسِ على اللهِ حجةٌ بعدَ الرُّسلِ وكانَ اللهُ عزيزاً حكيماً﴾[٣].

فهذه الآية حجة على أن داود عليه السلام من المرسلين الذين أرسلهم الله مبشرين ومنذرين ومعلمين ناصحين آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر وهذه الآية تبين أن سيدنا داود عليه السلام من كبار المرسلين لأن القرآن الكريم لم يذكر كل الأنبياء والمرسلين وإنما ذكر كبارهم الذين تكفى بهم العظة والاعتبار.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ورسلاً قد قصصناهمْ عليكَ من قبل ورسلاً لم نقصصهمْ عليكَ﴾[٤].

فالذين ذكرهم الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ويجب الايمان بهم تفصيلا خمسة وعشرون أما بقية الأنبياء الذين لم يذكرهم القرآن فيجب الايمان

---

(١) النبوة والانبياء (ص ٢٨٥).
(٢) سورة النساء: الآية رقم ١٦٣.
(٣) سورة النساء: الآية رقم ١٦٥.
(٤) سورة النساء: الآية رقم ١٦٤.

بهم (جملة) بمعنى أن نصدق أن الله سبحانه وتعالى قد بعث أنبياء آخرين غير الذين ذكرهم الله في القرآن الكريم.

والرسول- صلوات الله وسلامه عليه- بين لنا عدد الانبياء والمرسلين في الحديث الذي رواه أبو ذر رضي الله عنه، حيث فرق النبي عليه الصلاة والسلام فيه بين الانبياء والرسل في العدد، مما يدل على ثبوت الفرق يقيناً. قال أبو ذر: (دخلت على رسول الله ﷺ وهو في المسجد فقال لي: يا أبا ذر إن للمسجد تحية، قلت وما تحية المسجد يا رسول الله: قال ركعتان تركعهما، فذكر الحديث الى أن قال فقلت يا رسول الله: كم النبيون؟ قال مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي، قلت: كم المرسلون منهم: قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر)[1].

وقد أثبت الشيخ حمود التويجري وجود الفرق بين النبي والرسول في رده على (ابن محمود) الذي نفي ذلك في رسالة له سماها (اتحاف الأحفياء برسالة الانبياء)، وقد أعجبني كلامه وجوابه، فرأيت نقله في هذا الموضع، قال[2]: (فأما الأول: وهو قوله في صفحة- ٤- أن كل نبي فإنه رسول وأنه لا فرق بين الرسول والنبي إلا بمجرد الاسم والمسمى واحد.

فجوابه من وجهين أحدهما أن يقال قد دل القرآن والسنة على التفريق بين الرسول والنبي، والقرآن الكريم هو حجة الله على العالمين.

فأما الدليل من القرآن فقد قال الله تعالى في سورة الحج ﴿وما أرسلنا منْ قبلكَ منْ رسولٍ ولا نبيّ إلاْ إذا تمَنَّى ألقى الشيطانُ في أمنيته﴾ الآية فقد فرق تبارك وتعالى بين الرسول والنبي وعطف النبي على الرسول والعطف يقتضي المغايرة.

قال شيخ الاسلام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتاب الايمان:

---

(١) المستدرك للحاكم (٢/٥٩٧) ومسند أحمد بن حنبل (٥/٣٦٥).

(٢) (فتح المعبود في الرد على ابن محمود) حمود بن عبدالله التويجري ص ١٢٠ وما بعدها، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ. - بتصرف يسير-.

[وعطف الشيء على الشيء في القرآن وسائر الكلام يقتضي مغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع اشتراك المعطوف والمعطوف عليه في الحكم الذي ذكر لهما] انتهى. وسيأتي قول الرازي [أن عطف النبي على الرسول يوجب المغايرة وهو من باب عطف العام على الخاص] انتهى.

وادخال حرف «لا» بين واو العطف والمعطوف صريح في التفريق بين الرسول والنبي كقوله تعالى: ﴿مالكَ منَ اللهِ من وليّ ولا نصيرٍ﴾ وقوله: ﴿ما لهُمْ منْ دونهِ ولي ولا شَفيع﴾ وقوله تعالى: ﴿مالكَ منَ الله من وليٍ ولا واقٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿فما لهُ مِنْ قوَّةٍ ولا ناصرٍ﴾ وأمثال هذه الآيات.

وقد جاء في «تنوير المقباس. من تفسير ابن عباس» ما نصه: [﴿وما أرسلنا من قبلك﴾ يا محمد ﴿من رسول﴾ مرسل ﴿ولا نبي﴾ محدث ليس بمرسل ﴿إلا إذا تمنى﴾ قرأ الرسول أو حدث النبي ﴿ألقىٰ الشيطانُ في أَمنيتهِ﴾ في قراءة الرسول وحديث النبي] انتهى.

وقال ابن جرير في تفسير هذه الآية ﴿وما أَرسلنا منْ قبلكَ من رسولٍ ولا نبيٍ إلاَّ إذا تمَّنى ألقىٰ الشيطانُ في أمنيتهِ﴾ الآية [فتأويل الكلام ولم يرسل يا محمد من قبلك من رسول إلى أمة من الأمم ولا نبي محدث ليس بمرسل إلا إذا تمنى] انتهى.

وقال القاضي عياض: [المعنى وما أرسلنا من رسول الى أمة أو نبي ليس مرسل الى أحد] انتهى.

وقال الثعالبي في تفسير قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلكَ منْ رسولٍ ولا نبي﴾: [الرسول الذي أرسل الى الخلق بإرسال جبريل إليه عيانا وما ورثه إياه شفاها، والنبي الذي تكون نبوته إلهاماً أو مناماً فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً] انتهى.

وقال الواحدي في قول الله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلكَ من رسولٍ ولا نبيٍ إلاَّ إذا تمَّنى القى الشيطانُ في أُمنيتهِ﴾: [الرسول الذي أرسل الى الخلق

بارسال جبريل إليه عياناً ومحاورته شفاها، والنبي الذي تكون نبوته إلهاماً أو مناماً فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً] قال وهذا معنى قول القراء: [الرسول النبي المرسل، والنبي المحدث الذي لم يرسل] انتهى منقولاً من «تهذيب الاسماء واللغات» لأبي زكريا النووي.

وقال البغوي في تفسير هذه الآيةِ ﴿وما أَرْسلنا منْ قبلكَ منْ رسول﴾: [وهو الذي يأتيه جبريل بالوحي عياناً (ولا نبي) وهو الذي تكون نبوته إلهَاماً أو مناماً، وكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً] انتهى.

وقال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿من رسولِ ولا نبيٍّ﴾: [دليل بين على تغاير الرسول والنبي] انتهى.

وقال الرازي في تفسير هذه الآية ﴿وما أرسلنا منْ قبلكَ من رسول ولا نبي﴾ الآية: [المسألة الأولى من الناس من قال الرسول هو الذي حدث وأرسل، والنبي هو الذي لم يرسل ولكنه ألهم أو رأى في النوم، ومن الناس من قال إن كل نبي يكون رسولا وهو قول الكلبي والفراء، وقالت المعتزلة: كل رسول نبي وكل نبي رسول ولا فرق بينهما- ثم ذكر الرزاي أن هذه الآية دالة على أن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا، قال لأنه عُطِفَ على الرسول وذلك يوجب المغايرة وهو من باب عطف العام على الخاص. وقال في موضع آخر: (وكَمْ أرسلنا منْ نبيّ في الأولينَ) وذلك يدل على أنه كان نبيا فجعله الله مرسلا وهو يدل على قولنا] انتهى.

وقال القرطبي في تفسيره عند قول الله تعالى[﴿وما أرْسلنا منْ قبلكَ منْ رسولٍ ولا نبيٍّ﴾ الآية [وقال الفراء الرسول الذي أرسل الى الخلق بإرسال جبريل إليه عيانا، والنبي الذي تكون نبوته إلهاماً أو مناماً فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً، قال المهدوي وهذا هو الصحيح أن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً، وكذا ذكر القاضي عياض في كتاب الشفاء، قال والصحيح والذي عليه الجم الغفير أن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً واحتج بحديث

أبي ذر وأن الرسل من الأنبياء ثلثمائة وثلاثة عشر أولهم آدم وآخرهم محمد ﷺ] انتهى.

وقال عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي المتوفي سنة سبعمائة وعشر في تفسيره في الكلام على قول الله تعالى: ﴿وما أرسلنا منْ قبلك من رسولٍ ولا نبيٍّ﴾: [هذا دليل بيّن على ثبوت التغاير بين الرسول والنبي بخلاف ما يقول البعض أنهما واحد] انتهى.

وقال ابن جزيء الكلبي الغرناطي في تفسيره في الكلام على قول الله تعالى: ﴿وما أرسلنا منْ قبلِكَ من رسولٍ ولا نبي﴾ الآية: [النبي أعم من الرسول فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً فقدَّم الرسول لمناسبته لقوله أرسلنا وأخر النبي لتحصيل العموم لأنه لو اقتصر على رسول لم يدخل في ذلك من كان نبياً غير رسول] انتهى.

وفي تفسير مجاهد عند قول الله تعالى في سورة مريم ﴿وكان رسولا نبياً﴾ قال: النبي هو الذي يكلم وينزل عليه ولا يرسل، والرسول هو الذي يرسل.

وقد قال سفيان الثوري إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، وروى محمد بن اسحاق عن أبان بن صالح عن مجاهد قال عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته الى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها، وروى ابن جرير عن ابن أبي مليكة قال رأيت مجاهدا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه قال فيقول له ابن عباس أكتب حتى سأله عن التفسير كله.

وعلى هذا فقول مجاهد في تفسير الآية من سورة مريم يحتمل أنه مما أخذه عن ابن عباس رضي الله عنهما والله أعلم.

وقال القرطبي في تفسير سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿الذينَ يتبعونَ الرسولَ النبيَّ الأميَّ﴾ الآية قال [والرسول والنبي إسمان لمعنيين فإن الرسول أخص من النبي وقدم الرسول اهتماما لمعنى الرسالة وإلا فمعنى النبوة هو

المتقدم ولذلك رد رسول الله ﷺ على البراء حين قال «وبرسولك الذي أرسلت» فقال له «قل بنبيك الذي أرسلت» خرجه في الصحيح، وأيضا فإن في قوله [وبرسولك الذي أرسلت] تكرير الرسالة وهو معنى واحد فيكون كالحشو الذي لا فائدة فيه بخلاف [ونبيك الذي أرسلت] فإنهما لا تكرار فيهما وعلى هذا فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا لأن الرسول والنبي إشتركا في أمر عام وهو النبأ وافترقا في أمر وهي الرسالة فإذا قلت محمد رسول من عند الله تضمن ذلك أنه نبي ورسول وكذلك غيره من الأنبياء صلوات الله عليهم] انتهى.

وقال ابن كثير في تفسير سورة الأحزاب عند قول الله تعالى ﴿ما كانَ محمدٌ أبا أحدٍ من رجالِكُمْ ولكن رسولَ اللهِ وخاتمَ النبيينَ﴾ [فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده واذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأحرى لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة فإن كل رسول نبي ولا ينعكس] انتهى.

وقال ابن كثير أيضا في تفسير سورة المدثر بعد ما قرر أن أول ما نزل من القرآن أول سورة ﴿إقرأ﴾ قال: [وقوله تعالى: ﴿قُمْ فأنْذِرْ﴾ أي شمر عن ساق العزم وأنذر الناس وبهذا حصل الإرسال كما حصل بالأول النبوة] انتهى.

وأما الدليل من السنة ففي عدة أحاديث أحدها ما رواه الإمام أحمد والشيخان وأبو داود والترمذي عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال قال لي رسول الله ﷺ «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل اللهم أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت فإن مت مت على الفطرة واجعلهن آخر ما تقول» فقلت أستذكرهن: وبرسولك الذي أرسلت قال «لا، ونبيك الذي أرسلت»، وفي رواية الترمذي قال البراء فقلت وبرسولك الذي أرسلت قال فطعن بيده في صدري ثم قال «وبنبيك الذي أرسلت».

وهذا الحديث صريح في التفريق بين الرسول والنبي وقد استدل به غير واحد من أكابر العلماء على التفريق بينهما، وقد تقدم كلام القرطبي في ذلك تقريبا.

وقال الخطابي: [والفرق بين النبي والرسول أن الرسول هو المأمور بتبليغ ما أنبيء وأخبر به، والنبي هو المخبر ولم يؤمر بالتبليغ، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا. قال ومعنى رده على البراء من رسولك إلى نبيك أن الرسول من باب المضاف فهو ينبيء عن المرسل والمرسل إليه فلو قال ورسولك ثم قال الذي أرسلت لصار البيان مكررا معادا، فقال ونبيك الذي أرسلت إذ قد كان نبيا قبل أن يكون رسولا ليجمع له الثناء بالإسمين معا ويكون تعديدا للنعمة في الحالين وتعظيما للمنة على الوجهين] انتهى وقد نقله عنه ابن الاثير في جامع الاصول وأقره....) الى ان قال[١]:

وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري قوله وبرسولك الذي أرسلت قال: «لا وبنبيك الذي أرسلت» قال القرطبي تبعا لغيره [هذا حجة لمن لم يجز نقل الحديث بالمعنى وهو الصحيح من مذهب مالك، فإن لفظ النبوة والرسالة مختلفان في أصل الوضع فإن النبوة من النبأ وهو الخبر، فالنبي في العرف هو المنبأ من جهة الله بأمر يقتضي تكليفاً، وإن أمر بتبليغه إلى غيره فهو رسول وإلا فهو نبي غير رسول، وعلى هذا فكل رسول نبي بلا عكس، فإن النبي والرسول إشتركا في أمر عام وهو النبأ وافترقا في الرسالة فاذا قلت فلان رسول تضمن أنه نبي رسول، واذا قلت فلان نبي لم يستلزم أنه رسول فأراد ﷺ أن يجمع بينهما في اللفظ لاجتماعهما فيه حتى يفهم من كل واحد منهما من حيث النسق ما وضع له وليخرج عما يكون شبه التكرار في اللفظ من غير فائدة انتهى]. أ. هـ.[٢]

وممن قال بوجود الفرق بين النبي والرسول أيضا الآلوسي- ولكنه لم

(١) المقصود هو الشيخ التويجري.
(٢) انتهى النقل عن الشيخ حمود التويجري.

يحدده، بل اكتفى بقوله بأن العطف - في آية سورة الحج ﴿من رسول ولا نبي﴾ - يقتضي المغايرة في الآية[1].

ثم اختلف أصحاب هذا الرأي في تحديد الفرق على أقوال كثيرة نذكر لك طرفا منها. مع العلم أن كل قول لا ينطبق انطباقاً كاملاً، فلا بد أن توجد حالات لبعض الأنبياء والرسل ذكرها القرآن تخالف قواعد هذه الأقوال، بيد أن أصحاب هذه الاقوال إجتهدوا فيها لتكون من باب التقريب، لأن إعتادهم إنما كان على استقراء ما ذكر عن أحوال الرسل فقط.

أولها: قول من قال بأن الرسول: هو من أوحى اليه، وأرسل مع ذلك الى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله، والنبي: من أوحى اليه ويعمل بشريعة قبله ولم يرسل الى أحد يبلغه عن الله رسالة. فالأنبياء يأتيهم وحي من الله بما يفعلونه ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم كما يقوم العلماء بالتبليغ عن الرسل ولهذا وصف النبي ﷺ: العلماء بأنهم ورثة الأنبياء لما بينهم من الشبه في المهمة. كما في أنبياء بني إسرائيل الذين بين موسى وعيسى. والرسل يزيدون عليهم بأنهم يرسلون إلى قوم كفار يدعونهم إلى توحيد الله وعبادته، ولا بد أن يكذبهم بعض القوم أو يعاندوهم. قال تعالى ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾[2] وقال ﴿حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا﴾[3]. وليس من شرط الرسول الإتيان بشرع جديد، فإن يوسف كان رسولا وكان على ملة إبراهيم عليه السلام. وهذا القول قال به شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله. كما سنذكره فيما بعد[4].

ثانيها: أن الرسول ذكر حر بعثه الله تعالى إلى قوم بشرع جديد بالنسبة إليهم وإن لم يكن جديداً في نفسه، كإسماعيل عليه السلام إذ بعث إلى

(١) روح المعاني جـ ١٧ ص ١٧٢ طبعة بيروت بدون تاريخ.

(٢) سورة فصلت: آية رقم ٤٣.

(٣) سورة يوسف: آية رقم ١١٠.

(٤) النبوات لابن تيمية. ط الرياض الحديثة ص ١٧٣.

جرهم. والنبي يعمه، ومن بعث بشرع غير جديد كذلك. وهذا ذكره الآلوسي في تفسيره[1].

ثالثها: أن الرسول ذكر حر له تبليغ في الجملة. وإن كان تفصيلاً وبياناً لشرع سابق. والنبي من أوحى إليه ولم يؤمر بتبليغ أصلاً.[2]

رابعها: أن الرسول من جمع مع المعجزة كتاباً أو نسخاً. والنبي من لا كتاب له ولا نسخ.[3]

خامسها: أن الرسول من يأتيه الملك بالوحي يقظةً، والنبي من يأتيه الوحي مناماً. وهذا غريب لأنه يقتضي أن بعض الأنبياء لم يوح إليه إلا مناماً وهو بعيد جداً وهذا قول الرازي، كما نقله الآلوسي في تفسيره.[4]

سادسها: ذهب جماهير العلماء إلى أن الرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بالتبليغ، والنبي من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بالتبليغ ذكره الآلوسي رحمه الله بقوله: ﴿وأنت تعلم أن المشهور أن النبي في عرف الشرع أعم من الرسول فإنه من أوحي إليه سواء أمر بالتبليغ أم لا. والرسول من أوحى إليه وأمر بالتبليغ﴾.[5]

هذا سرد للآراء ظهر لنا فيه كثرة الأقوال وأنها كلها اجتهادية.

بعد هذا نستطيع أن نقول بأن الفرق ثابت بين النبي والرسول ولا مجال لنفيه حيث يوجد ما يقوّي إثباته من حديث أبي ذر الذي أقل ما يقال فيه بأنه يستأنس به استأناساً. إن لم يكن دليلاً قاطعاً. ولكن تحديد الفرق هو الشيء الذي لا نستطيع الجزم به ولكن لعلنا من واقع ما مر معنا من أقوال نستطيع أن نعرّف النبي والرسول بهذين التعريفين التقريبيين فنقول وبالله التوفيق:

---

(١) روح المعاني جـ ١٧ ص ١٧٢ طبعة بيروت.
(٢) روح المعاني جـ ١٧ ص ١٧٣.
(٣) روح المعاني جـ ١٧ ص ١٧٣.
(٤) روح المعاني جـ ١٧ ص ١٧٣.
(٥) روح المعاني هـ ١٧ ص ١٧٣.

الرسول: إنسان ذكر حر يوحي إليه، يرسل إلى قوم مخالفين أو كافرين، ويدعو الناس إلى شرع معه، ويكذبه بعض قومه ويخاصمونه وهو مأمور بالتبليغ والانذار، وقد يكون معه كتاب وقد لا يكون، وقد يكون شرعه جديداً وقد يكون مكملاً لشرع سابق.

أما النبي فهو: إنسان ذكر حر يوحي إليه يبعث في قوم مؤمنين يحكم بشريعة سابقة له ويدعو إليها ويحييها، وقد لا يؤمر بالتبليغ والإنذار، وقد يكون معه كتاب.

كلام ابن تيمية في الفرق بين النبي والرسول:

بعد الأوجه التي عرضناها والآراء التي ذكرناها للقدماء والمتأخرين فإن لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مبحثاً بديعاً في هذا المجال نحب أن نأتي به ليكون فصل المقال.

يقول رحمه الله[1]: (النبي هو الذي ينبئه الله وهو ينبىء بما أنبأه الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه، فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول، قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) وقوله (من رسول ولا نبي) فذكر إرسالاً يعم النوعين وقد خص أحدهما بأنه رسول فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله كنوح، وقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض وقد كان قبله أنبياء كشيث وادريس وقبلهما آدم كان نبياً مكلماً قال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، فأولئك الأنبياء يأتيهم وحي من الله بما يفعلونه ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم لكونهم مؤمنين بهم، كما يكون أهل الشريعة الواحدة يقبلون ما

(١) (كتاب النبوات) شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية مكتبة الرياض- صفحة (١٧٣) وما بعدها [بتصرف يسير].

يبلغه العلماء عن الرسول، وكذلك أنبياء بني اسرائيل يأمرون بشريعة التوراة، وقد يوحي إلى أحدهم وحي خاص في قصة معينة، ولكن كانوا في شرع التوراة كالعالم الذي يفهمه اللهِ في قضية معنى يطابق القرآن، كما فهم الله سليمان حكم القضية التي حكم فيها هو وداود، فالأنبياء ينبئهم الله فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره وهم ينبئون المؤمنين بهم ما أنبأهم الله به من الخبر والأمر والنهي، فإن أرسلوا فإلى كفار يدعونهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، ولا بد أن يكذب الرسول قوم، قال تعالى: ﴿كذلكَ ما أتى الذينَ من قبلِهِمْ مِنْ رسولٍ إلاّ قالوا ساحرٌ أو مجنونٌ﴾ وقال ﴿ما يقالُ لكَ إلاّ ما قدْ قيلَ للرسلِ منْ قبلكَ﴾، فإن الرسل ترسل إلى مخالفين فيكذبهم بعضهم وقال ﴿وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار والآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون، حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾ وقال: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ فقوله ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي﴾، دليل على أن النبي مرسل ولا يسمى رسولاً عند الاطلاق، لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفون أنه حق كالعالم. ولهذا قال النبي ﷺ (العلماء ورثة الأنبياء) وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة فإن يوسف كان رسولاً وكان على ملة ابراهيم، وداود وسليمان كانا رسولين وكانا على شريعة التوراة، قال تعالى عن مؤمن آل فرعون ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً﴾ وقال تعالى ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده، وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبوراً، ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً﴾.والإرسال إسم عام يتناول إرسال الملائكة وإرسال الرياح وإرسال

الشياطين وإرسال النار قال تعالى ﴿يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس﴾ وقال تعالى ﴿جاعل الملائكة رسلاً أولى جنحة﴾ فهنا جعل الملائكلا كلهم رسلاً والملك في اللغة هو حامل الألوكة، وهي الرسالة وقد قال في موضع آخر ﴿الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾ فهؤلاء هم الذين يرسلهم بالوحي، كما قال ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء﴾ وقال تعالى ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ وقال تعالى ﴿إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا﴾، لكن الرسول المضاف إلى الله إذا قيل رسول الله فهو من يأتي برسالة من الله من الملائكة أو البشر، كما قال ﴿الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾ وقال الملائكة ﴿يا لوط انا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾ أما عموم الملائكة والرياح والجن فإن إرسالها لتفعل فعلاً، لا لتبلغ رسالة، قال تعالى ﴿اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ فرسل الله الذين يبلغون عن الله أمره ونهيه هم رسل الله عند الاطلاق، وأما من أرسله الله ليفعل بمشيئة الله وقدرته فهذا عام يتناول كل الخلق كما أنهم كلهم يفعلون بمشيئته واذنه المتضمن لمشيئته. لكن أهل الإيمان يفعلون بأمره ما يحبه ويرضاه، ويعبدونه وحده ويطيعونه وحده ويطيعون رسله، والشياطين يفعلون بأهوائهم وهم عاصون لأمره متبعون لما يسخطه، وإن كانوا يفعلون بمشيئته وقدرته). انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله.

ويظهر لنا منه كيف أن الشيخ قد أيّد تأييداً قوياً بالأدلة والبراهين التي عرضها وجود الفرق بين النبي والرسول.

وهذا ما رجحناه، وذهبنا إليه في كلامنا حول هذه المسألة.

وقبل أن ننتقل إلى موضوع آخر نبين أنه من خلال هذا السرد الكثير للأقوال والآراء في تعاريف النبي والرسول والفرق بينهما نخلص إلى:- أن النبوة في اللغة مأخوذة من الإنباء وهو الإخبار، أو من النَّبَاوة وهي المكان المرتفع.

وفي الاصطلاح إختصاص الله للعبد بسماع وحيه الشرعي التكليفي سواء أمر بتبليغه أم لا.

والرسالة لغة: مأخوذة من الإرسال وهو البعث والتوجيه.

وفي الاصطلاح: إختصاص الله للعبد بسماع وحيه الشرعي التكليفي وأمره بإبلاغه إلى الناس.

الفصل الثاني:

حاجة البشرية للنبوة والرسالة الإلهية

أ- حاجة البشرية إلى الأنبياء:

شاءت إرادة الله سبحانه أن يكون لدى واحد من ابنى آدم ميول للشر والانحراف،تمثل ذلك في القصة المعروفة من قتل قابيل أخيه هابيل، كما ورد في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿واتلُ عليهِمْ نبأ ابنيْ آدم بالحق... الآية﴾ إلى قوله تعالى ﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين﴾(١) ومن ثمّ قال العلماء، إن أبناءه تأثروا به وورثوا عنه هذا الأمر والله أعلم، وأوحى الله إلى ادريس أن ينذر ابناء «قابيل» القاتل الذين ضلوا وظهر فيهم الفساد.

من هذه البداية بدأ الافتراق يظهر واختلفت المسالك ونشأت عناصر الشر. ثم صارت تساير عناصر الخير إلى أن بدأت تفوقها كثرةً، وتطغى عليها قدرةً، لحكمة يريدها الله، وتزداد الهوة بين الخير والشر كلما بعدت عن عهد آدم عليه السلام. إلى أن يصير الشر وأصحابه هم الكثرة الغالبة كما قال تعالى: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾(٢).

ومع امتداد الزمن وتعاقب القرون تكثر عوامل الفساد والظلم والضلال ويكثر الظالمون والبغاة. فتبرز حاجة الإنسانية قاطبة إلى من يعيدها إلى منهج الفطرة السوى ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾(٣) وإلى نور يضيء لها هذه الظلمات الداجية لترى صراط الله العزيز الحميد ولتعود إلى شرعته التي اختارها لها.

---

(١) سورة المائدة: آية رقم ٢٧ إلى آية رقم ٣٠.

(٢) سورة الانعام: آية رقم ١١٦.

(٣) سورة الروم: آية رقم ٣٠.

وفي مثل هذه الظروف الحالكة الصعبة ظروف الضياع والتيه يظهر ضعف هذا المخلوق البشري وعجزه عن أن يهتدي إلى الطريق الأمثل. أجل إن الإنسان يحار وتأخذه الشكوك والأوهام كل مأخذ. رغم ما أعطاه الله من الفضائل كعقله وسمعه وبصره ولكن العقل لا ينفع وحده لأنه قاصر ولا بد له من هدى يسير عليه وإلاّ ضل طريق الصواب.(١)

وما دام الإنسان على هذه الحالة فهو في حاجة إلى من يعرفه طريق الحياة الصحيح،بلى وربى إنه لفي أمس الحاجة إلى من يأخذ بيده برفق ليعرفه بالإله الذي يجب أن يعبده، ولا يعبد سواه، والذي يجب أن يستعين به، ويسأله ويتوكل عليه ويعبده حق العبادة، ومن ثم فإنه لفي أمس الحاجة أيضاً إلى معلم ومرشد لطرق اكتساب الرزق الحلال وتجنب الحرام حتى لا يكثر الشر ويعم الفساد في البر والبحر. ولا بد للناس أفراداً من معرفة كيفية التعامل مع الناس جماعة ومعرفة أساليب الحقوق والواجبات.

ولا بد للناس فوق ذلك كله من معرفة أن هذه الحياة ليست هي الغاية بل إن هناك حياة غيرها هي الهدف، والغاية والنهاية، هي الدار الآخرة بعد الموت، دار الجزاء والحساب لئلا ينخدع بما يرى من الظلم والجور والفساد في هذه الدنيا فينزلق في فجوره.

فمن يا ترى يعرفه إياها؟أهو عقله القاصر الذي لا يستوعب حتى أسرار نفسه فضلاً عما يحيط بها؟ وما تجارب الفلاسفة اليونان والرومان والهنود عنا ببعيد؟ أم أنه الشيطان؟ الذي يقول كما حكى الله عنه ﴿لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين﴾(٢). أم الهوى فقد قال تعالى ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم﴾(٣). أم النفس الامارة بالسوء. فقد قال تعالى ﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾(٤). إذا من يا ترى يكون الدليل؟.

(١) د. صابر طعيمة (العقل واليقين في الإسلام) دار الجيل بيروت عام ١٩٧٩ صفحة ٣٨.
(٢) سورة الحجر: آية رقم ٣٩.
(٣) سورة الجاثية: آية رقم ٢٣.
(٤) سورة يوسف: آية رقم ٥٣.

إنهم الأنبياء والرسل فهم الذين يستطيعون القيام بهذه المهات العظام. وهم الذين قد أُعِدّوا لها من قبل الله عز وجل.

فإذاً لا بد لنا معشر البشر من الرسل والأنبياء، ونحن في أمس الحاجة إليهم حتى نعرف الله سبحانه وتعالى حق المعرفة. وحتى لا يكون لنا عذر إن عذبنا الله بسبب المعاصي، فقد أرسل إلينا الرسل، وهو من كرمه ولطفه لا يعذب حتى يرسل الرسل لينذروا الناس قال تعالى: ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾[1]. وبهذا يحتج المعاندون ولكن الله يرد عليهم دعواهم داحضاً إياها: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾[2]. فما ألطفه من اله رحيم بعباده. وما أحوجنا نحن إلى رحمته بجميع أشكالها وصورها وبالأخص تلك الرسالات الهادية إلى الطريق المستقيم والتي قام بها أنبياؤه المبعوثون رحمة للعالمين كما قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[3].

ومن فضل الله على عباده أن هذه الرحمة التي وصف بها سبحانه نبيه الخاتم هي التي لازمت دعوة الرسل جميعاً إذ نظرنا إلى انماط ونماذج من دعوتهم لوجدناها تؤدي إلى الرحمة والفلاح والنجاح. فرسل الله عليهم السلام كانوا يدعون الناس إلى الإيمان بالله تعالى وما جاء من عنده، قال الله تعالى:

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[4]

وكانوا يدعون الناس إلى طاعة الله تعالى في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأداء سائر التكاليف والواجبات مع قصد وجه الله تعالى في جميع ذلك. قال سبحانه:

---

(١) سورة طه: الآية رقم ١٣٤.
(٢) سورة الأسراء: الآية رقم ١٥.
(٣) سورة الأنبياء: الآية رقم ١٠٧.
(٤) سورة الأنبياء: الآية رقم ٢٥.

﴿وما أُمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾(١).

وكانوا يدعون الناس إلى مراقبة الله تعالى وتقواه على كل حال. ولا ريب أن تقوى الله تعالى هي الزاد الموصل إلى مرضاة الله تعالى. قال سبحانه:

﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله﴾(٢).

وكانوا يدعون الناس إلى طاعتهم هم. والانقياد إليهم والاقتداء في كل شيء بهم. قال سبحانه ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾.(٣)

وكانوا يدعون الناس إلى جعل الحاكمية في كل شيء لله تعالى بإعتبار إقرارهم بربوبيته سبحانه ووجوب عبادتهم له. قال سبحانه على لسان يوسف عليه السلام: ﴿إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.(٤)

وكانوا يدعون الناس إلى التفكير المستقل في أمر الدين الذي ورثوه عن الآباء حتى لا ينساقوا وراء الشهوات ولا ينقادوا للتقاليد وهي مما تخالف العقل وتجافي الحق، وتباين دعوة الرسل، قال سبحانه: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ومثل الذين كفروا كمثل الذين ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون﴾(٥).

وكانوا يدعون الناس إلى الإيمان بالنبي الخاتم محمد ﷺ إن بعث فيهم، وأن يتبعوه، وينصروه، ويكونوا على أعدائه معه، قال سبحانه:

---

(١) سورة البينة: الآية رقم ٥.
(٢) سورة النساء: الآية رقم ١٣١.
(٣) سورة آل عمران: الآية رقم ٦٤.
(٤) سورة يوسف: الآية رقم ٤٠.
(٥) سورة البقرة: الآية رقم ١٧٠/ ١٧١.

﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما أتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾(١) وقال سبحانه ﴿وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي إسمه أحمد فَلَمَّا جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾(٢).

وكانوا يدعون الناس إلى الله تعالى مخلصين لله سبحانه لا يبتغون من الناس أجراً ولا يقتضونهم نفقة ولا حفظ معيشة، قال سبحانه: ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله﴾(٣)، وهذا عتبة يعرض على رسول الله ﷺ المال والجاه والسلطان على أن يترك دعوته. فيجيبه رسول الله ﷺ بفواتح سورة فصلت حتى يصل إلى قوله ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾(٤). فيضع الرجل يده على فم رسول الله ﷺ ويناشده الرحم أن يدع القراءة.

ولقد كان مما يؤكد هذا المعنى قوله ﷺ: ﴿نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة﴾(٥). وسليمان عليه السلام الذي آتاه الله تعالى من الملك ما لا ينبغي لأحد من العالمين لكنه لم يجمع مالاً ولم يبق لأهله منه شيء.

وكانوا ينذرون الكافرين من عذاب الله تعالى في الحياة الدنيا وفي الآخرة إن هم أصروا على كفرهم، كما يبشرون المؤمنين بفضل الله تعالى والسعادة لهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة إن ثبتوا على الإيمان حتى يأتيهم الموت وهم على ذلك.

---

(١) سورة آل عمران: الآية رقم ٨١/ ٨٢.
(٢) سورة الصف: الآية رقم ٦.
(٣) سورة سبأ: الآية رقم ٢٧.
(٤) سورة فصلت: آية رقم ١٣.
(٥) رواه مسلم كتاب الجهاد حديث رقم ٤٩ ورواه البخاري كتاب النفقات باب ٣.

وليس مثل التذكير بالآخرة حاضاً للمؤمن على الطاعة والثبات على ذلك، وليس مثل التذكير بالآخرة زاجراً عن اقتراف المعاصي، وإرتكاب الموبقات فإن الرقيب قوي، والغاية قريبة، والعذاب شديد، قال سبحانه: ﴿فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا، وما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾(١). ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور، وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذين كنا نعمل﴾(٢)، ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾.(٣)

وقال سبحانه: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينَّه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾(٤)، ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾(٥).

اتحاد دعوة الرسل:

والرسل جميعاً إخوة أرسلهم إله واحد بدعوة واحدة هي: الإيمان بالله تعالى وطاعته، ثم كانت شرائع لرسل معينين بما يصلح لكل زمان وقوم، حتى جاءت الشريعة الأخيرة وهي الإسلام لكل زمان ولكل قوم، ولكل مكان وصقع. قال الله تعالى:

---

(١) سورة العنكبوت: آية رقم ٤٠.
(٢) سورة فاطر: آية رقم ٣٦/ ٣٧.
(٣) سورة طه: آية رقم ١٢٤.
(٤) سورة النحل: آية رقم ٩٧.
(٥) سورة محمد: آية رقم ١٥.

﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾[١].

وانا لنجد في القرآن الكريم تسمية نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، عليهم الصلاة والسلام بالمسلمين إذ معنى الإسلام هو الاستسلام والانقياد لله تعالى، ولقد كانت شرائع أولئك المرسلين نازلة لإصلاح حياة بعض الناس في زمان محدود، ولا تخالف إحداها الأخرى إلاّ في تلك الحدود الضيقة من المسائل الفرعية دون القواعد والأصول.

قال الله سبحانه: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكلٍ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾[٢]، ﴿ثم جعلناكَ على شريعةٍ من الأمر فاتبعها﴾[٣].

وعلى هذا يقال إن دعوة الرسل واحدة في القواعد والأصول وهي ما يلي:

الإيمان بالله تعالى وما جاء من عند الله تعالى من الأيمان بالملائكة والكتب والرسل، واليوم الآخر، والقضاء، والقدر، قال الله تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾[٤]. ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنَّه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾.[٥]

- القيام بالعبادات من صلاة، وزكاة، وصيام، ونحوها، قال سبحانه على لسان عيسى عليه السلام: ﴿قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾[٦].

---

(١) سورة الشورى: آية رقم ١٣.
(٢) سورة المائدة: آية رقم ٤٨.
(٣) سورة الجاثية: آية رقم ١٨.
(٤) سورة البينة: آية رقم ٥
(٥) سورة الأنبياء: آية رقم ٢٥.
(٦) سورة مريم: آية رقم ٣٠/ ٣١.

- التزام مكارم الأخلاق من الصدق والوفاء بالوعد، والأمانة، والحياء، والعفة وبر الوالدين، وأمثال ذلك. قال الله تعالى في شأن اسماعيل عليه السلام:

﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً﴾[1]. وقال في شأن يحيى عليه السلام: ﴿وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين﴾[2].

- أصول الحلال، والحرام، فالقتل، والظلم، والسرقة، والزنا، واللواطة وخيانة الأمانة وأكل الربا، وأمثال ذلك خبيث محرم في الشرائع كلها. وطلب الحلال وحفظ حقوق الآخرين وصيانة دمائهم وأعراضهم، والعدل، والجهاد طيب مطلوب في الشرائع كلها. قال الله تعالى: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾[3]، ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص﴾[4]، ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾[5]، ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقْتَلُون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله. فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾[6]، ﴿وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾[7].

---

(١) سورة مريم: آية رقم ٥٤.
(٢) سورة آل عمران: آية رقم ٣.
(٣) سورة الاعراف: آية رقم ٣٣.
(٤) سورة المائدة: آية رقم ٤٥.
(٥) سورة الحديد: آية رقم ٢٥.
(٦) سورة التوبة: آية رقم ١١١.
(٧) سورة النساء: آية رقم ١٦١.

فلا يبقى بعد هذا خلاف بين شريعة وشريعة إلا بمقدار ما قدر الله تعالى من الخير في ذلك لكل جيل وزمان، حتى أتم النعمة وأكمل الدين ورضيه للبشر جميعاً، وأعلن سبحانه أنه لا يقبل مع الشريعة الخاتمة شريعة أياً كانت تلك الشريعة، فإن الكمال والتمام مقدمان على ما سواهما.(١)

وعلى هذا إذا رأينا رأياً في شريعة ما يَنْسِبُ إلى الله تعالى ما لا يليق به، وورد نفيه عنه سبحانه في القرآن الكريم والسنة الصحيحة فذلك دليل بطلان ذلك الرأي، في نظر تلك الشريعة نفسها، وقل مثل هذا في العبادات والأخلاق، وأصول الحلال، والحرام وما كان الله سبحانه ليحلّ الخمر لأمة ثم يحرمها على أخرى لأن أضرار الخمر معروفة، ويكتشف العلم كل يوم من أضرارها جديداً.

وما كان الله سبحانه ليحلّ التبرج والفسوق للمرأة في شريعة من الشرائع ثم يحرمها في أخرى، فإن حفظ الأعراض وصيانة الأنساب حق في كل زمان ومكان وهكذا.(٢)

ب- حاجة البشر إلى الرسالة الإلهية:

إن الإنسان مسوق إلى التدين بفطرته.(٣) والتدين بمعناه الحقيقي: شعور الإنسان بأن فوق هذا العالم المادي المحسوس قوة تصرفه وتتولى تدبيره وأنه مخلوق لتلك القوة ومسخر لها ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا بها وأن سعادته وشقاءه في يد تلك القوة.(٤)

---

(١) ﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ سورة المائدة آية (٣) ﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ سورة آل عمران آية (٨٥).

(٢) وهبي سليمان «أركان الإيمان» صفحات ١٥١- ١٥٤ بتصرف.

(٣) يؤيد ذلك الحديث عن رسول الله ﷺ ﴿ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه﴾ رواه البخاري في كتاب الجنائز باب رقم ٨٠ حديث رقم ٤.

(٤) محمد عبد الله دراز (الدين) طبعة المعارف مصر صفحة ٩٣.

ومن الخطأ البين أن نظن أن في نشر العلوم والثقافات وحدها ضماناً للسلام والرخاء للإنسان، أو بديلاً عن حاجته لتلك القوة، أو عوضاً عن التربية، والتهذيب الديني والخلق، ذلك أن العلم سلاح ذو حدين يصلح للهدم، والتدمير، كما يصلح للبناء والتعمير، ولا بد في حسن استخدامه من رقيب أخلاقي يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض لا إلى نشر الشر والفساد.

ذلكم الرقيب هو العقيدة والإيمان والتي هي حاجة فطرية في وجدان الإنسان غير أن الإيمان على ضربين: «إيمان» بقيمة الفضيلة وكرامة الإنسانية، وما إلى ذلك من المعاني المجردة، التي تستحيى النفوس العالية من مخالفة دواعيها ولو أعفيت من التبعات الخارجية والأجزية المادية. (وإيمان) بذات علوية، رقيبة على السرائر، يستمد القانون سلطانه الأدبي من أمرها ونهيها، وتلتهب المشاعر بالحياء منها أو بمحبتها أو بخشيتها، ولا ريب في أن هذا الضرب هو أقوى الضربين سلطاناً على النفس الإنسانية، وهو أشدهما مقاومة لأعاصير الهوى وتقلبات العواطف، وأسرعهما نفاذاً في قلوب الخاصة، والعامة.

من أجل ذلك كان التدين خير ضمان لقيام التعامل بين الناس على قواعد العدالة والنصفة. وكان لذلك ضرورةً اجتماعية كما هو فطرة إنسانية.

هذا الشعور الفطري دفع الإنسان في الأزمان التي خلت من الرسل إلى عبادة الأحجار والأشجار والكواكب، وغير ذلك زعماً منه أن هذه الأشياء هي مظاهر تلك القوة فكان يتقرب إليها رغبة منه، ورهبة في جلب الخير له، ودفع الشر عنه فالاعتراف بهذه القوة دفع بالإنسان إلى مهاوي الضلال.[1]

وإذا كان الأمر على ما وصف فلا بد لسعادة الإنسان في حياته من وجود مرشدين هادين تميزهم تلك القوة الإلهية بخصائص لا يشركهم فيها سواهم ولا بد من تأييد ذلك زيادة في الإقناع بآيات ظاهرات تملك النفوس وتأخذ الطريق

---

(١) عباس محمود العقاد (الله) بحث في نشأة العقيدة الإلهية دار المعارف مصر صفحة ٣.

على شوارد العقول فيستخذي الطامع، ويذل الجامع، ويصدم بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده، وينبهر بها بصر الجاهل فيرتد عن غيه، نقول لا بد من هداة مرشدين يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله، ويدهشون المدارك ببراهين من آيات الله، فيحيطون العقول بما لا مندوحة عن الاذعان له، ويستوي في الركون لما يجيئون به المالك والمملوك والسلطان، والصعلوك، والعالم، والجاهل، والمفضول، والفاضل، يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم وما أراد أن يعلموه من شئون ذاته وكمال صفاته، وأولئك هم الأنبياء الذين تعرّض بعضهم لتمرد قومه وعصيانهم، ورفضهم النعمة، والهداية فحل بهم غضب الله وعقابه. ويقص الله سبحانه درس التاريخ للعبرة، والهداية، فيقول سبحانه موضحاً وكاشفاً عما وقع بين بعض أنبياء الله وعصاة أقوامهم:

﴿ومكروا مكراً كباراً ★ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوثَ ويعوق ونسراً ★ وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً ★ مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً﴾ وهكذا كان حال الأمم عادا، وثمود، وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً، إلى أن استعد النوع الإنساني لتقبل الرسالات الكبرى كرسالة موسى وعيسى عليهم السلام التي تعد كل واحدة منها بمثابة مقدمة لرسالة محمد ﷺ التي ختم الله بها الرسالات وكمل بها الشرائع.

الفصل الثالث:

ضرورة الإيمان بالأنبياء

تكلمنا فيما مضى من الحديث عن حاجة البشرية عامة إلى الأنبياء وكيف أنه لا بد منهم بفضل الله ورحمته لصلاح الحياة واستقامتها وهذا بالنسبة لوجودهم وبعثهم في الناس. ولا بد أن يكون هناك استجابة من الناس لدعوة الأنبياء حتى يتحقق السير على منهج الله وشريعته وهذه الإستجابة هي الإيمان بهم. والتصديق برسالتهم ونبواتهم والعمل بما جاءوا به من قبل الله.

وربما يقول قائل: أنه في غنى عن الإيمان بالأنبياء والرسل لأنه سوف يهتدي إلى الحق، والصواب بعقله وتفكيره لأنه سيتفحص سيرة الناس وتواريخ العظماء ويأخذ ما فيها من خير يعجبه ويترك ما لا يعجبه من سيئها وقد سبق لنا الإشارة إلى مثل هذا اللغط الفكري ونحن نناقش حاجة البشر إلى الأنبياء.

ونبادر هنا فنقول: إن الإيمان بالأنبياء ضروري لأنه متلازم مع الإيمان بالله، فالأنبياء لا يحكمون أو يشرعون حسب أهوائهم؛ بل حسب ما وضعه الله لهم من أمور وقواعد. وإذا أنكرنا هؤلاء الأنبياء كان إنكارنا هذا إنكاراً لما أرسلوا به أولاً، وإنكاراً لمن أرسلهم ثانياً وهو الله. ولأن جميع الرسل، من الناحية العقلية لا يخلون من حالين: إما صادقين وإما كاذبين. فإن كانوا كاذبين فالله لا يرسل كذاباً ولا مفتري، كما قال تعالى: ﴿قلْ إنَّ الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾[1].

---

(١) سورة يونس: الآية رقم ٦٩.

وأيضاً فالكذاب خال من معجزة تؤيده في صدق دعواه، وقد ثبت صدق رسل الله بالمعجزات، فبطل كونهم كاذبين، فإذا كانوا صادقين فلا بد من الإيمان بهم واتباعهم حتى نستحق محبة الله كما في قوله تعالى: ﴿قلْ إن كنتم تحبونَ الله فاتبعوني يحببكم الله﴾[1].

ولو ترك الناس يحتكمون لعقولهم في معرفة الصحيح من الخطأ لاضطرب الأمر، وذلك لإختلاف مقاييس الأمور في نظر الناس تبعاً لأفكارهم وتصوراتهم وحبهم السيطرة؛ ولصارت أمور مكروهة عند قوم مستحبة عند آخرين والعكس وهكذا يدور الإنسان مع نفسه. كل يوم له شرع.

فلا بد إذاً له من قادة وموجهين، ولا بد من إتّباع لهم حتى يقضيَ على الفوضى والاضطراب.

ولا يصلح أن يتولى قيادة البشرية سوى الأنبياء أو من يخلفهم على سنتهم وطريقتهم،لأن الناس على مر التاريخ عانوا من القيادات البشرية التي لا تحكم بمنهج اللّه؛ نعم إن طبيعة البشر قاصرة وعاجزة، إذ فيها الهوى والظلم والحب، والبغض والتأثير المادي، وغير ذلك من المؤثرات التي قد تسيّر دولاً بأسرها سنين طوال. فمهما قيل من عدل فلان أو غيره من الحكام، فلا يصح هذا إلاّ إذا كان متبعاً منهج الرسل وسنتهم، ولا يستطيع أن يفهم طريقتهم وشريعتهم من لا يؤمن بهم وبمن أرسلهم.

وما أرسل الله الرسل إلينا إلاّ لنؤمن بهم. ومن ثم يتحقق الهدف الذي أرسلوا من أجله، وإذا حصل الإيمان بالأنبياء فهو دليل على الإقتناع التام بما جاؤا به من تعاليم، ودليل على الإيمان أيضاً بمن أرسلهم. قال تعالى: ﴿إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً. لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا﴾.[2]

---

(١) سورة آل عمران: الآية رقم ٣١.

(٢) سورة الفتح: الآية رقم ٨، ٩

ولأهمية الإيمان بالرسل وبما جاءوا به نجد القرآن الكريم يدعو المؤمنين أنفسهم إلى تجديد إيمانهم بالله ورسله. قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا اتَّقُوا اللهَ وآمنوا برسولِه يؤتِكُم كفلين من رحمتهِ ويجعل لكم نوراً تمشونَ به ويغفر لكم والله غفور رحيمٌ﴾[1]. والله عز وجل بين أن للكافرين برسله عقوبة شديدة وتوعدهم بها، قال تعالى ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا﴾[2].

هذا ولا يفوتني أن أشير إلى أن التوراة والأنجيل التي بين أيدي أصحابها اليوم برغم تحريفها قد بينت أن العمل بشريعة الله يسعد الناس في الدنيا والآخرة، ففي الاصحاح الثلاثين من سفر التثنية ما نصه:

«إن هذه الوصية التي أوصيك بها اليوم ليست عسرة عليك ولا بعيدة منك، ليست هي في السماء حتى تقول من يصعد لأجلنا إلى السماء ويأخذها لنا ويسمعنا لنعمل بها، ولا هي في عبر البحر حتى نقول من يعبر لأجلنا البحر ويأخذها لنا ويسمعنا إياها لنعمل بها. بل الكلمة قريبة منك جداً في فمك وفي قابك لتعمل بها»[3].

وفي انجيل متى: «فكل من يسمع أقوالي هذه ويعمل بها أشبهه برجل عاقل بنى بيته على الصخر فنزل المطر وسالت الأنهار، وهبت الرياح، ووقعت على ذلك البيت فلم يسقط لأنه كان مؤسساً على الصخر، وكل من يسمع أقوالي هذه ولا يعمل بها يشبه برجل جاهل بنى بيته على الرمل فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح وهدمت ذلك البيت فسقط وكان سقوطه عظيماً»[4].

---

(١) سورة الحديد: الآية رقم ٢٨.
(٢) سورة آل عمران: الآية رقم ١٥٠/١٥١.
(٣) سفر التثنية الاصحاح ٣٠ فقرات ١١- ١٤.
(٤) متى الاصحاح السابع فقرات ٢٤- ٢٧.

حكم وطريقة الإيمان بالأنبياء:

من المعلوم المسلّم به: أن الأنبياء والرسل هم الواسطة بين الله وخلقه وهم المبلغون الأمناء لشرع الله إلى عباده.

ومعنى ذلك أن جميع المعتقدات والمبادىء التي يجب على الإنسان اعتقادها متوقفة على مدى تصديقه بالرسل أولاً. ثم الإيمان والاقتناع بما جاءوا به ثانياً.

ومن المستحيل تماماً على الفرد إذا قطع الصلة برسل الله وأنبيائه وأنكر وجودهم. أن يستطيع بناء حياته على أسس سليمة متينة تضمن له السعادة في الدنيا والفوز في الآخرة، لأن هذين الأمرين وهما الفوز في الدنيا والآخرة مرتبطان تماماً بما جاء من عند الله على لسان رسله، قال تعالى: ﴿آلر كتابُ أنزلناهُ إليك لتخرج الناس من الظلماتِ إلى النورِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿قُل من آنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناسِ﴾[2].

من أجل هذا كله شدد الله في موضوع الإيمان بالأنبياء وأكد وجوبه على كل البشر فالإيمان واجب ُبجميع الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله[3] واتباع ما جاءوا به من نور وبرهان يعتبر من أول النتائج الدالة على وجود هذا الإيمان لدى الفرد.

ومما يدل على أهمية هذا الإيمان. أن الله قرنه بالإيمان به وحده بمعنى أنه لا يصح إيمان عبد يؤمن بالله رباً حتى يؤمن برسله أيضاً دون تفريق بينهم كأن يؤمن بأنبياء معينين ويجحد نبوة أنبياء آخرين، فهذا هو التفريق بينهم وهو مناف للإيمان بالأنبياء كما أمر الله تعالى.

وقد حكم الله على من فرق بين الأنبياء وبين بأنه كافر، وتوعده بعذاب

---

(١) سورة إبراهيم: الآية رقم ١.

(٢) سورة الانعام: الآية رقم ٩١.

(٣) (الإيمان) شيخ الإسلام ابن تيمية- الطبعة الثانية- المكتب الإسلامي- صفحة ٩.

عظيم. وبين أن المؤمن الحق هو من آمن بالله ورسله جميعاً دون تفريق. وأعد الله له بسبب ذلك أجراً عظيماً قال تعالى: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أنْ يفرِّقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً، والذين آمنوا بالله ورسله. ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً﴾(١) وقال أيضاً: ﴿آمنَ الرسولُ بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون كلّ آمن بالله وملائكته وكتبهِ ورسلهِ لا نفرِّقَ بينَ أحدٍ من رسله﴾(٢).

أما طريقة الإيمان بالأنبياء، فالتصديق بهم ثم التصديق بما جاءوا به من عند الله. واعتقاد أنهم معصومون عن الكذب والافتراء وأنهم خيرة الله من خلقه أدوا الأمانة وبلغوا الرسالة ونصحوا لأممهم. وأنه يجوز عليهم ما يجوز على البشر من المرض، والموت، وأنهم لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضراً ولا نفعاً. وأن ما يقولون في الدين، والعقيدة ليس من عند أنفسهم بل هو وحي من الله إليهم. وانهم لم يحصلوا على النبوة بجهدهم أو بطلبهم بل باختيار واصطفاء من الله لهم ليقوموا بنشر نوره وهداه بين الناس جميعاً ويدلوهم على الصراط المستقيم ويحذروهم من طريق الفساد والضلال.

ومن الإيمان بهم أنه تحرم مخالفتهم وعصيانهم. وكذلك يحرم انتقاصهم وازدراؤهم، وإلصاق التهم الشائنة بهم، كما فعل اليهود بأنبيائهم مما قد يحاوله بعض أعداء الإسلام إقتباساً من اليهود لزرع الشك في نفوس ضعفاء المسلمين ليزهدوهم في دينهم وأن من فعل ذلك عامداً متعمداً عالماً بحكمه فقد كفر في نظر الإسلام.(٣) ومثال ذلك: ما في التوراة عن قَتْل اليهود لبعض الأنبياء، وافتراء اليهود على بعضهم بالزنا، والفسق، والفجور- والعياذ بالله-.(٤)

(١) سورة النساء: الآية رقم ١٥٠، ١٥١، ١٥٢.

(٢) سورة البقرة: الآية رقم ٢٨٥.

(٣) (الايمان) لشيخ الإسلام بن تيمية- صفحة ٥٧.

(٤) د: صابر طعيمة (التراث الإسرائيلي في العهد القديم) صفحة ٤٥٣.

طاعة النبي:

طاعة النبي هي الغاية من بعثته وإرساله. فما أرسل الله من رسول إلا ليطاع كما قال تعالى: ﴿وما أرْسلنا من رسولٍ إلا لِيُطاعَ بإذن الله﴾[١].

وهذه الطاعة تكون باتباع منهجه ودعوته وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه وجعله قدوة حسنة يقتدي به الناس. ولا يعصونه. ولا يخالفون حكمه وتشريعه كما قال تعالى: ﴿وما كانَ لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُهُ أمراً أنْ يكونَ لهمُ الخِيرة منْ أمرهم ومن يعصِ اللهَ ورسولَهُ فقد ضَلَّ ضلالاً مبيناً﴾[٢].

وقد أكد الله سبحانه أن طاعة الرسول تؤدي إلى محبة الله سبحانه للعبد المطيع وتعبر عن حبه لله في قوله تعالى: ﴿قُل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحببكم الله ويغفرْ لكم ذنوبكمْ واللهُ غفورٌ رحيمٌ﴾.[٣] وقرن الله طاعة الرسول بطاعته سبحانه لأنه لا ينطق عن الهوى ﴿إنْ هو إلاَّ وحيٌ يُوحى﴾، ثم ذكر الله في مواضع كثيرة من القرآن الكريم أن التولي عن الرسل وعدم طاعتهم ضلال وكفر واتباع للهوى بغير علم. لذلك نجد للمكذبين عذاباً شديداً عند الله. ومن أطاع الرسل واتبع هديهم فقد أطاع الله سبحانه ونال رضوانه، وأعدّ له عنده أجراً عظيماً.

قال تعالى: ﴿قُل أطيعوا الله والرسول فإنْ تولَّوا فإنَّ اللهَ لا يُحبُّ الكافرين﴾[٤]، وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ ولا تُبطلوا أعمالكم﴾[٥] وقال ﴿مَنْ يُطع الرسولَ فقدْ أطاعَ اللهَ﴾[٦] وقال: ﴿فعصَوْا رسولَ ربهم فأخذهم أخذةً رابيةً﴾[٧].

---

(١) سورة النساء: الآية رقم ٦٤.
(٢) سورة الأحزاب: الآية رقم.
(٣) سورة آل عمران: الآية رقم ٣١.
(٤) سورة آل عمران: الآية رقم ٣٢.
(٥) سورة محمد: الآية رقم ٣٣.
(٦) سورة النساء: الآية رقم ٨٠.
(٧) سورة الحاقة: الآية رقم ١٠.

الفصل الرابع:

المعجزة ودلالتها على النبوة والرسالة

هذا اللفظ «المعجزة» مأخوذ من العجز المقابل للقدرة وحقيقة الأعجاز إثبات العجز، استفيد لإظهاره ثم أسند مجازاً إلى ما هو سبب العجز وجعل إسماً له فالتاء للنقل من الوصفية إلى الأسمية.[1]

والمعجزة في عرف المتكلمين وغيرهم هي ما قصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول الله[2]: وشروطها سبعة[3]:

(١) أن تكون من فعل الله تعالى أو ما ينوب عنه من الترك وإنما اشترط هذا لأن التصديق من الله تعالى لا يحصل بما ليس من قبله ومثلوا لما ينوب عن الفعل بما إذا قال معجزتي: أضع يدي على رأسي وانتم لا تقدرون ففعل وعجزوا.

(٢) أن يكون الفعل فائقاً عن معروف البشر ولا نعني بهذا الشرط أن يكون مستحيلاً عقلاً إذ المستحيل العقلي غير صالح للتحقق،وأما مخالفة الناموس المعروف في الإيجاد فلم يقم دليل على استحالته، وامتناعه عادة.

(٣) أن يتعذر على الناس معارضته،والمراد بالمعارضة أن يظهر مثله ممن ليس نبي وهذا الشرط لازم لما قبله ولعلهم صرحوا به ليدل على أن المراد بالتفوق التعذر على الناس ويستحيل صدوره عنهم.

(٤) أن يظهر على يد مدعي النبوة، ولا يشترط التصريح بالتحدي على

---

(١) (الشرتوني): (أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد) جـ ٣ طبعة الاستانة عام ١٨٨٨ م ص ٣٠١.

(٢) (السيد علوي عباس المالكي المكي): (العقد المنتظم في أقسام الوحي المعظم) ص ١٨- طبع الحلبي. القاهرة.

(٣) المصدر السابق صفحة ٢١.

الصحيح ، بل يكفي قرائن الأحوال كقول الخصم له إن كنت نبيا فأظهر معجزة ، فدعى الله تعالى فأظهره فيكون ظهوره دالاً على صدقه ، ونازلاً منزلة التصريح بالتحدي.

(٥) أن يكون على وفق الدعوى فلو قال بمعجزتي أن أشق القمر فرفع جبلاً لا يكون معجزاً ولا يدل على صدقه لعدم تنزله منزلة تصديق الله إيّاه.

(٦) ألا يكون ما أدعاه وأظهره مكذباً له فلو قال معجزتي أن ينطق هذا الضب فقال: أنه كاذب لم يعلم صدقه ، بخلاف ما لو قال معجزتي أن أحيي هذا الميت فأحياه فكذبه لأنه أتى بما ادعى ، والميت بعد الاحياء مختار في تصديقه وتكذيبه.

(٧) ألا يكون متقدماً على الدعوة بل مقارناً لها ، فلو قال معجزتي ما ظهر على يدي من قبل لا يدل على صدقه ويطالبه بالإتيان به ثانياً فلو عجز ثبت كذبه. ونقض هذا الشرط بتحقق المشروط بدونه كمعجزة محمد ﷺ من شق بطنه وغسل قلبه واظلال الغمام وتسليم الحجر والمدر عليه وكنطق عيسى بن مريم عليه السلام في المهد كل ذلك متقدم على الدعوة. وأجيب بمنع كونها معجزات بل ارهاصات مؤسسة للنبوة وأجاب القاضي الباقلاني[١] عن المادة الثانية (بأن عيسى كان نبياً في صباه لقوله تعالى: (وجعلني نبياً)[٢] وليس بعزيز على الله أن يخلق في الطفل ما هو شرط النبوة من كمال العقل وغيره فليست معجزته في حال صغره متقدمة على دعوة النبوة وهذا الجواب ليس بشيء لأن نبوة عيسى عليه السلام ما تكاملت شروطها بعد. وأما قوله: (جعلني نبياً) فهو تعبير عن المستقبل بالماضي لتحقيق وقوعه. وهذا إذا تقدمت على الدعوة).

وأما إذا تأخرت فإن كان بزَمانٍ يسير يعتاد مثله فهو دال على الصدق وأن تطاول الزمن فليس بمعجز.

---

(١) (اعجاز القرآن) صفحة ١٠ لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفي عام ٤٠٣ هـ.

(٢) سورة مريم: الآية ٣١.

وإذا قال معجزتي أن يحصل كذا بعد شهر فحصل فهو دال على ثبوته النبوة وهذا اخبار عن الغيب مقارن للدعوة وان تخلف عنها علمنا بكونه معجزة. وزاد بعضهم شرطاً آخر وهو أن يكون في زمان التكليف لأن ما يقع في الآخرة من الخوارق ليس بمعجزة وكذا ما يظهر من علامات الساعة.

رأي أهل السنة في المعجزة:

وقد ذهب أهل السنة إلى أنها منحة إلَهية يهبها الفاعل المختار لمن يشاء من عباده بأن يظهرها على يد من يريد تصديقه في دعوى النبوة. بحيث تجيء تصديقاً له في دعواه وتساعد على الاعلام بنبوته، بشرط أن تكون هذه المعجزة أمراً خارقاً للعادة والمألوف وأن يمتنع امكان تعليمها.

وترجيحاً للحق والصواب إن شاء الله في هذه القضية، فإن شيخ الإسلام ابن تيمية قد عالجها على هدى من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، حيث لخص رحمه الله أوجه الحق في هذا الموضوع ورجح ما ارتآه وما نرى أنه الصواب إن شاء الله.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في معجزات الأنبياء:[1]

وللنظار طرق في التمييز بينها وبين غيرها وفي وجه دلالتها. أما الأول فإن منهم من رأى أن كل ما يخرج عن الأمر المعتاد فإنه معجزة وهو الخارق للعادة إذا اقترن بدعوى النبوة. وقد علموا أن الدليل مستلزم المدلول، فيلزم أن يكون كل من خرقت له العادة نبياً.

فقالت طائفة لا تخرق العادة إلا النبي، وكذبوا بما يذكر من خوارق السحرة والكهان، وبكرامات الصالحين. وهذه طريقة أكثر المعتزلة وغيرهم

---

(١) (النبوات) شيخ الإسلام علم الاعلام، تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية المتوفى ٧٢٨هـ صفحات ٣- ٧ [بتصرف].

كأبي محمد ابن حزم وغيره. بل يحكى هذا القول عن أبي اسحق الاسفراييني وأبي محمد بن أبي زيد. ولكن كان في الحكاية عنهما غلطاً وإنما أرادوا الفرق بين الجنسين. وهؤلاء يقولون أن ما جرى لمريم وعند مولد الرسول فهو إرهاص أي توطئة واعلام بمجيء الرسول فما خرقت في الحقيقة إلا لنبي، فيقال لهم وهكذا الأولياء إنما خرقت لهم لمتابعتهم الرسول، فكما أن ما تقدمه فهو من معجزاته، فكذلك ما تأخر عنه، وهؤلاء يستثنون ما يكون أمام الساعة. لكن هؤلاء كذبوا بما تواتر من الخوارق لغير الأنبياء. والمنازع لهم يقول هي موجودة مشهودة لمن شهدها متواترة عند كثير من الناس أعظم مما تواترت عندهم بعض معجزات الأنبياء وقد شهدها خلق كثير لم يشهدوا معجزات الأنبياء فكيف يكذبون بما شهدوه، ويصدقون بما غاب عنهم، ويكذبون بما تواتر عندهم أعظم مما تواتر غيره؟..

وقالت طائفة بل كان هذا حق وخرق العادة جائز مطلقاً، وكل ما خرق للنبي من العادات يجوز أن يخرق لغيره من الصالحين، بل ومن السحرة والكهان، لكن الفرق أن هذه تقترن بها دعوى النبوة وهو التحدي. وقد يقولون انه لا يمكن أحداً أن يعارضها بخلاف تلك، وهذا قول من اتبع (جهماً) على أصله في أفعال الرب من الجهمية وغيرهم حيث جوزوا أن يفعل كل ممكن فلزمهم جواز خرق العادات مطلقاً على يد كل أحد واحتاجوا مع ذلك إلى الفرق بين النبي وغيره، فلم يأتوا بفرق معقول بل قالوا هذا يقترن به التحدي، فمن ادعى النبوة وهو كاذب لم يجز أن يخرق الله له العادة أو يخرقها له ولا يكون دليلاً على صدقه لما يقترن بها مما يناقض ذلك، فإن هذين قولان لهم.

فقيل لهم لم أو جبتم هذا في هذا الموضع دون غيره وأنتم لا توجبون على الله شيئاً؟ فقالوا لأن المعجزة علم الصدق فيمتنع أن يكون لغير صادق: فالمجموع هو الممتنع وهو خارق العادة ودعوى النبوة، أو هذان مع السلامة عن المعارض. فقيل لهم ولم قلتم انه علم الصدق على قولكم؟ فقالوا إما لأنه يفضي منع ذلك إلى عجزه وإما لأنه علم دلالته على الصدق بالضرورة. فقيل لهم إنما

يلزم العجز لو كان التصديق على قولكم ممكنا، وكون دلالتها معلومة بالضرورة هو مسلم، لكنه يناقض أصولكم ويوجب أن يكون أحد الشيئين معلوماً بالضرورة دون نظيره وهذا ممتنع. فإنكم تقولون يجوز أن يخلق على يد مدعي النبوة والساحر والصالح، لكن إن ادعى النبوة دلت على صدقه وإن لم يدع النبوة لم يدل على شيء، مع أنه لا فرق عند الله بين أن يخلقها على يد مدعي النبوة وغير مدعي النبوة بل كلاهما جائز فيه. فإذا كان هذا مثل هذا فلم كان أحدهما دليلاً دون الآخر؟ ولم اقترن العلم بأحد المتماثلين دون الآخر؟ ومن أين علمتم أن الرب لا يخلقها مع دعوى النبوة إلاّ على يد صادق وأنتم تجوزون على أصلكم كل فعل مقدور وخلقها على يد الكذاب مقدور؟.

ثم هؤلاء جوزوا كرامات الصالحين ولم يذكروا بين جنسها وجنس كرامات الأنبياء فرقاً بل صرح أئمتهم أن كل ما خرق لنبي يجوز للأولياء حتى معراج محمد ﷺ. وفلق البحر لموسى. وناقة صالح وغير ذلك ولم يذكروا بين المعجزة والسحر، فرقا معقولا بل قد يجوزون أن يأتي الساحر بمثل ذلك، لكن بينهما فرق في دعوة النبوة.

وحذاق الفلاسفة الذين تكلموا في هذا الباب مثل ابن سينا وهو أفضل طائفتهم ولكنه أجهل من تكلم في هذا الباب[1]. فإنهم جعلوا ذلك كله من قوى النفس لكن الفرق: أن النبي والصالح نفسه ظاهره يقصد الخير، والساحر نفسه خبيثة. وأما الفرق بين النبي والصالح فمتعذر على قول هؤلاء.

ومن الناس من فرق بين معجزات الأنبياء، وكرامات الأولياء بفروق ضعيفة، مثل قولهم الكرامة يخفيها صاحبها، أو الكرامة لا يتحدى بها، ومن الكرامات ما أظهرها أصحابها كإظهار العلاء بن الحضرمي المشي على الماء

---

(١) نقض أفكار ومعتقدات ابن سينا حول النبوة والمعجزة والصفات بتفصيل وتوسع الامام المحقق: محمد بن أبي بكر قيم الجوزية في (الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة) جـ١ طبعة رئاسة إدارات البحوث العلمية صفحات ٢٤٠، ٢٤١.

وإظهار عمر مخاطبة سارية على المنبر، وإظهار ابن مسلم لما ألقي في النار أنها صارت عليه برداً وسلاماً، وهذا بخلاف من يدخلها بالشياطين فإنه قد يطفئها إلا أنها لا تصير عليه برداً وسلاماً وإطفاء النار مقدور للإنس والجن، ومنها ما يتحدى بها صاحبها أن دين الإسلام حق كما فعل خالد بن الوليد لما شرب السم، وكالغلام الذي أتى الراهب وترك الساحر وأمر بقتل نفسه بسهمه باسم ربه وكان قبل ذلك قد خرقت له العادة فلم يتمكنوا من قتله، ومثل هذا كثير.

فيقال المراتب ثلاثة: آيات الأنبياء، ثم كرامات الصالحين، ثم خوارق الكفار والفجار كالسحرة والكهان وما يحصل لبعض المشركين وأهل الكتاب والضلال من المسلمين، أما الصالحون الذين يدعون إلى طريق الأنبياء لا يخرجون عنها فأولئك خوارقهم من معجزات الأنبياء فإنهم يقولون نحن إنما حصل لنا هذا باتباع الأنبياء، ولو لم نتبعهم لم يحصل لنا هذا، فهؤلاء إذا قدر أنه جرى على يد أحدهم ما هو من جنس ما جرى للأنبياء كما صارت النار برداً وسلاماً على أبي مسلم، وكما صارت على إبراهيم. وكما يكثر الله الطعام والشراب لكثير من الصالحين كما جرى في بعض المواطن للنبي، أو إحياء الله ميتاً لبعض الصالحين كما أحياه للأنبياء، فهذه الأمور هي مؤكدة لآيات الأنبياء، وهي أيضاً من معجزاتهم بمنزلة ما تقدمهم من الإرهاص، ومع هذا فالأولياء دون الأنبياء والمرسلين، فلا تبلغ كرامات أحد قط إلى مثل معجزات المرسلين، كما أنهم لا يبلغون في الفضيلة والثواب إلى درجاتهم، ولكن قد يشاركونهم في بعضها كما قد يشاركونهم في بعض أعمالهم، وكرامات الصالحين تدل على عصمة الدين الذي جاء به الرسول لا تدل على أن الولي معصوم ولا على أنه يجب طاعته في كل ما يقوله.

ومن هنا ضل كثير من الناس من النصارى وغيرهم، فإن الحواريين وغيرهم كانت لهم كرامات كما تكون الكرامات لصالحي هذه الأمة، فظنوا أن ذلك يستلزم عصمتهم كما يستلزم عصمة الأنبياء، فصاروا يوجبون موافقتهم في كل ما يقولون، وهذا غلط فإن النبي وجب قبول كل ما يقول لكونه نبياً ادعى

النبوة، ودلت المعجزة على صدقه، والنبي معصوم وهنا المعجزة ما دلت على النبوة بل على متابعة النبي وصحة دين النبي، فلا يلزم أن يكون هذا التابع معصوماً، ولكن الذي يحتاج إلى الفرقان الفرق بين الأنبياء وأتباعهم، وبين من خالفهم من الكفار والفجار كالسحرة والكهان وغيرهم حتى يظهر الفرق بين الحق والباطل، وبين ما يكون دليلا على صدق صاحبه كمدعي النبوة وبين ما لا يكون دليلاً على صدق صاحبه، فإن الدليل لا يكون دليلاً حتى يكون مستلزماً للمدلول، متى وجد وجد المدلول، وإلا فإذا وجد تارة مع وجود المدلول وتارة مع عدمه فليس بدليل.

فآيات الأنبياء وبراهينهم لا توجد إلا مع النبوة ولا توجد مع ما يناقض النبوة، ومدّعي النبوة إما صادق وإما كاذب، والكذب يناقض النبوة، فلا يجوز أن يوجد مع المناقض لها مثل ما يوجد معها، وليس هنا شيء غير مخالف لها ولا مناقض فإن الكفر والسحر والكهانة كل هذا يناقض النبوة فلا يجتمع هو والنبوة.

والناس في موقفهم من الأنبياء رجلان: رجل موافق لهم ورجل مخالف لهم. والمخالف مناقض. وإذا كان كذلك فيقال جنس آيات الأنبياء خارجة عن مقدور البشر بل وعن مقدور جنس الحيوان. وأما خوارق مخالفيهم كالسحرة والكهان فإنها من جنس أفعال الحيوان من الإنس وغيره من الحيوان والجن مثل قتل الساحر وتمريضه لغيره فهذا أمر مقدور معروف للناس بالسحر وغير السحر، كذلك ركوب المكنسة أو الخابية أو غير ذلك حتى تطير به، وطيرانه في الهواء من بلد إلى بلد هذا فعل مقدور للحيوان فإن الطير تفعل ذلك والجن تفعل ذلك وقد أخبر الله أن العفريت قال لسليمان: ﴿أَنَا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تقومَ مِنْ مقامِكَ﴾(١) وهذا تصرف في أعراض الحي فإن الموت والمرض، والحركة أعراض، والحيوان يقبل في العادة مثل هذه الأعراض ليس في هذا قلب جنس إلى جنس ولا في هذا ما يختص الرب بالقدرة عليه ولا ما يختص به الملائكة. وكذلك إحضار ما

(١) سورة النمل: آية ٣٩

يحضر من طعام أو نفقة أو ثياب أو غير ذلك من الغيب وهذا إنما هو نقل مال من مكان إلى مكان، وهذا تفعله الإنس والجن، لكن الجن تفعله والناس لا يبصرون ذلك،وهذا بخلاف كون الماء القليل نفسه يفيض حتى يصير كثيراً بأن ينبع من بين الأصابع من غير زيادة يزادها فهذا لا يقدر عليه إنسي ولا جني، وكذلك الأخبار ببعض الأمور الغائبة مع الكذب في بعض الأخبار فهذا تفعله الجن كثيراً في الكهان وهو معتاد لهم مقدور بخلاف أخبارهم بما يأكلون وما يدخرون مع تسمية الله على ذلك فهذا لا تظهر عليه الشياطين. وبنو إسرائيل كانوا مسلمينَ يُسمون الله. وأيضاً فخبر المسيح وغيره مع الأنبياء ليس فيه كذب قط، والكهان لا بد لهم من الكذب، والرب قد أخبر في القرآن أن الشياطين تنزل على بعض الناس فتخبره ببعض الأمور الغائبة لكن ذكر الفرق فقال: ﴿هَلْ أنبئكُمْ عَلى مَنْ تنزلُ الشياطينُ تنزلُ على كلِّ أفاكٍ أثيمٍ يلقون السمعَ وأكثرهم كاذبونَ﴾(١) وكذلك مسرى الرسول صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليريه الرب من آياته ،فخاصيّة الرسول ليست مجرد قطع هذه المسافة، بل قطعها ليريه الرب من الآيات الغائبة ما يخبر به. فهذا لا يقدر عليه الجن، وهو نفسه لم يحتج بالمسرى على نبوته بل جعله مما يؤمن به فأخبرهم به ليؤمنوا ،والمقصود إيمانهم بما أخبرهم من الغيب الذي رآه تلك الليلة وإلا فهم كانوا يعرفون المسجد الأقصى ولهذا قال: ﴿وَمَا جَعلنا الرُّؤيا التي أريْناكَ إلا فتنة للناس والشجرةَ الملعونةَ في القرآن﴾(٢). قال ابن عباس هي رؤيا عين رآها رسول الله (ﷺ) ليلة أسري به. وهكذا كما قال في الآية: ﴿ولقد رآهُ نزلةً أُخرى، عند سدرة المنتهي، عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى، ما زاغ البصرُ وما طَغَى، لقد رأى من آياتِ ربهِ الكبرى﴾(٣) وكذلك ما يخبر به الرسول من أنباء الغيب قال تعالى: ﴿عالمُ الغيبِ فلا يظهر على غيبهِ

(١) سورة الشعراء: آية ٢٢١ - ٢٢٣
(٢) سورة الإسراء: آية ٦
(٣) سورة النجم: آية ١٣ - ١٨

أحداً إلا منَ ارتضى من رسولٍ فإنه يسلك من بين يديهِ ومن خلفهِ رصداً﴾[١] فهذا غيب الرب الذي اختص به مثل علمه بما سيكون من تفصيل الأمور الكبار على وجه الصدق، فإن هذا لا يقدر عليه إلا الله. والجن غايتها أن تخبر ببعض الأمور المستقبلية، كالذي يسترقه الجن من السماء مع ما في الجن من الكذب، والذي يخبرون به هو مما يعلم بالمنامات وغير المنامات فهو من جنس المعتاد للناس. وأما ما يخبر الرسل به من الأُمور البعيدة الكبيرة مفصلا مثل اخباره «﴿إنكم تقاتلون الترك صغارُ الأعين ذُلف الأنف[٢] ينتعلون الشعر كان وجوههم المجان المطرقه﴾. وقوله: ﴿لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الابل ببصرى». ونحو ذلك. فهذا لا يقدر عليه جن ولا إنس. والمقصود أن ما يخبر به غير النبي من الغيب معتاد معروف نظيره من الجن والإنس فهو من جنس المقدور لهم وما يخبر به النبي خارج عن قدرة هؤلاء فهو من غيب الله الذي قال فيه: ﴿فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسولٍ﴾. انتهى كلام شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله. ويظهر منه إثبات المعجزات للأنبياء كدليل من أدلة صدق النبي، وبيان الفرق بينها وبين غيرها من خوارق العادات.

---

(١) سورة الجن: آية ٢٦ - ٢٧

(٢) قالَ في النهاية: الذُّلف بالتحريك قِصَر الأنفِ، وانبطاحه. وقيل ارتفاع طرفه مع صغر ارنبته، والذُّلْف بسكون اللام جمع أذْلَف، كأحْمَر وحُمْر والأُنُفْ جمع قلة للأنف، وضع موضع جمع الكثرة. أ. هـ. والله أعلم.

الفصل الخامس:

مذاهب الناس في حكم النبوة

لقد تعددت الآراء والمذاهب- نتيجةً لكثرة ما خاض العلماء- حول موضوع إثبات النبوة فمنها ما قالته الفلاسفة: من أن كل واحد من بني الإنسان لا يمكن أن يستقل في حياته وتدبير شؤونه بغير العمل والمشاركة والعون مع بني جنسه. في المعاملات والمعارضات، ولكي يعطي كل واحد من عمله مقابل ما يأخذه منه من عمله ألا ترى أنه لو انفرد إنسان وحده تعذرت معيشته وضاع أمره.

بل لا بد له من أن يكون معه آخرون من بني نوعه حتى يزرع هذا لذلك وينسج هذا لذلك، ويخبز هذا الذلك، ويعلم هذا ذاك، فإذا ما أجمعوا على هذا الوجه صار أمرهم مكيفا، ولهذا قيل الإنسان مدني بالطبع فإن التمدين هو هذا الاجتماع، ولا بد لهم في التعاون من معاملة تنظم حياتهم ولا بد فيها من قانون عادل يحافظ عليها دفعاً للظلم، وذلك الأمر الذي ينظم حياتهم هو الشريعة التي ينقاد لها الخاص والعام، ولولاها لاشرأبت كل نفس إلى ما يريده غيرها، وطمح كل فرد إلى ما عند الآخر فيحصل التنازع ويؤدي إلى التواثب والتشاجر والتقاتل، والتناحر، وتمزقت وحدة الناس، وشملتهم الفوضى، واختل أمر المعاش، والمعاد، فوجب في الطبيعة وجود الموصوف بهذه الصفات لما علم من شمول العناية فيما أعطى كل حيوان من الآلات اللائقة به سيما نوع الإنسان وهو أشرف الأنواع سخر له ماعداه، فوجود من إجتمعت فيه الخواص المذكورة من أعظم مصالحة أفترى يهمل كلا؟[1] والحاصل عندهم أن

---

(١) النجاة: ابن سيناء - قسم الإلهيات ٣٣٥

وجود النبي سبب لنظام المعاش والمعاد فيوجبون ذلك في العناية الإلٰهية لأبلغ وجود وإنتظام أمر المخلوقات فهذه طريقة إثبات النبوة على مذهب الفلاسفة.

وقد قال بعض المعتزلة: إن بعثة الرسل واجبة على الله وفصّل بعضهم فقال: إذا علم الله من عباده أنهم يؤمنون وجب عليه إرسال النبي لهم لما فيه من إصلاحهم، وإذا علم أنهم لا يؤمنون لم يجب عليه الإرسال. وجوزه الجبائي لتقريره الواجبات العقلية والتقريرات الشرعية المتقدمة سواء كانت مندرسة أو لا وقيل: إنما يجوز البعث لتقريرها إذا اندرست.(١)

وهذا الذي نقلناه بناء على أصلهم في التحسين والتقبيح العقليين، وما يترتب عليهما من اعتبار الغرض ووجوب الالطاف ورعاية الأصلح، وهذا ما ذكره أيضاً صاحب كتاب المواقف في الجزء الثاني، أما صاحب كتاب المقاصد فقد قال: إن المعتزلة يقولون بالوجوب مطلقاً لما عرف من أصلهم في وجوب الأصلح. وقال جمع من متكلمي الحنفية: إن إرسال الأنبياء من مقتضيات حكمة الباري جل ذكره فيستحيل ألاّ يكون. وقال أبو البركات النسفي في (عمدته): أنها في حيز الوجوب. تصريح بالوجوب وعبارته إرسال الرسل مبشرين ومنذرين في حيز الإمكان بل في حيز الوجوب. وظاهره استحالة تخلفه. لكن صاحب العمدة أراد بالوجوب خلاف ظاهره(٢)، ويمكن حمله على إرادة الوجوب لتعلق العمل القديم بوقوعه فإن ذلك لا ينافي إمكانه في نفسه إذ ألحق به أن إرسالهم لطف من الله تعالى ورحمة منّ بها على عباده.

---

(١) شرح الأصول الخمسة: القاضي عبد الجبار بن أحمد - تحقيق د. عبدالكريم عثمان - مكتبة وهبة الطبعة الثالثة ص ٥٦٤.

(٢) قلائد الخرائد في أصول العقائد: تأليف معز الدين السيد محمد المهدي الحسيني الشهير بالقزويني المتوفى ١٣٠٠هـ - مطبعة الإرشاد بغداد ص ٦٧.

النبوة بين المنح والإكتساب:

تحت هذا العنوان سنجيب على تساؤل طالما أثاره الكثيرون ممن تناولوا مسألتنا هذه بالبحث والعرض هذا العنوان هو.. هل الرسالة منحة أم مكتسبة؟.

وعن هذا يجيب الآمدي في كتابه «غاية المرام في علم الكلام» فيقول:: ليست النبوة معنى يعود إلى ذات من ذاتيات النبي، ولا إلى عرض من أعراضه استحقه بكسبه وعمله ولا العلم بربه، فإن ذلك مما يثبت قبل النبوة ولا علمه بنبوته، إذ العلم بالشيء غير الشيء.

﴿ولكنَّ الله يمنّ على من يشاء منْ عبادهِ﴾[١] فليست إلاّ موهبة من الله تعالى، ونعمة منه على عبده، وهو قوله لمن اصطفاه واجتباه: إنك رسولي ونبيي[٢]. وفي هذا المعنى يقول صاحب الجوهرة، وهو أشعري كما هو معلوم: «فالذي ذهب اليه المسلمون جميعاً أن النبوة خصوصية من الله تعالى لا يبلغ العبد أن يكتسبها، ويفسرونها باختصاص العبد بسماع وحي من الله تعالى بحكم شرعي تكليفي سواء أمر بتبليغه أم لا. وهكذا الرسالة، ولكن بشرط أن يؤمر بالتبليغ» ثم قال: «ويلزم على قولهم (يعني الفلاسفة) باكتسابها تجويز نبي بعد سيدنا محمد أو معه، وذلك مستلزم لتكذيب القرآن والسنة. فقد قال تعالى: ﴿وخاتم النبيين﴾ وقال عليه الصلاة والسلام: لا نبي بعدي وأجمعت الأمة على ابقائه على ظاهره».[٣]

ونتيجة هذه الأقاويل نقول إن النبوة ليست أمراً خاضعاً للاكتساب، أو للجهد الشخصي أو المباشرة الذاتية بحيث تقع في إمكان كل كائن، وفي قدرة كل إنسان.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية رقم ١١.

(٢) غاية المرام في علم الكلام - للآمدي - تحقيق حسن عبداللطيف - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص ٣١٧

(٣) شرح البيجوري على الجوهرة - للبيجوري القسم الثاني ص ٣٩.

وإذا كانت النبوة (بناء على هذا الاتجاه) ليست أمراً إكتسابياً وإنما هي هبة من الله عز وجل لإنسان أراد منه ربه أن يكون محل وحيه الذي يوحيه إليه بتعاليم وشرائع عقائدية وأخلاقية أو سلوكية سواء أكلفّه بتبليغها إلى الناس أم لا ، فإن الأقل من ذلك قبولاً عند العقل أن يقال: إن هذه الهبة من الله يمكن أن يتعرض إليها أي مخلوق كيفما إتفق ، وأي إنسان كان ، وفي هذا القول مجافاةٍ للمنطق ، وبعدٍ عن الفهم لنصوص الوحي الإلّهي فليس يصح في العقل أن يكلف إنسان عادي إنساناً آخر ليتحدث باسمه في مهات الأمور ، ويباشر بالنيابة عنه عظائم الأحداث وكبريات الخطوب ، وهو لا يعلم عنه إلاّ أنه إنسان أقل منه قدرة في مباشرة هذه الأمور وأنه لو أرسله لكان متوقعاً منه الفشل في الإبانة عن الرأي ومجابهة الأحداث.

وإذا كان هذه غير مقبول في حكم العقل ، فإن المقبول الوحيد الذي لا بديل سواه هو أن الذي سيختار من يتحدث بالنيابة عنه أو يباشر أو يمارس أموراً بالوكالة عنه ، فإنه لا بد أن يخبره أولاً في هذه الأشياء ، وأن يدربه أولاً ليقف على صلاحيته في النيابة عنه.

إذا كان هذا هو الجائز الوحيد فإن الذي يترتب عليه ترتيباً طبيعياً هو أن الوكلاء والنقباء في حياة البشر العادية ليسوا خاضعين لقانون الصدفة ، ولا للإتفاق الذي لا يحكمه القانون.

نقول: هذا في حكم البشر العاديين ، وفي حكم حياة الناس اليومية ، ونقوله بالأولى ، والأليق إذا كان الحديث عن العناية الإلّهية فالنبوة والرسالة ليست خاضعة لقانون الصدفة والهوى ، وإنّما هي خاضعة للتدبير المحكم والعلم المحيط والعناية التي لا تخطىء.

فالرسول المبلغ عن الله ، بل والنبي على العموم في أي أمة كان. وإلى أي شعب أرسل ، يختار من قبل الله فيربى تربية خاصة بحيث يكون في جميع أطواره مكلوءاً بالرعاية محفوظاً بالعناية.

ففي موسى عليه السلام يقول الله في القرآن الكريم:
﴿وألقيتُ عليكَ محبةً منّي ولِتُصنعَ على عيني﴾[1]

يقول الحافظ بن كثير:
﴿وألقيتُ عليكَ محبةً منّي﴾ حببتك إلى عبادي ﴿ولتصنعَ على عيني﴾.
قال أبو عمران الجوني: تربى بعين الله وقال قتادة: تغذى على عيني وقال معمر بن المثنى﴿ولتصنعَ على عيني﴾ بحيث أرى، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم يعني أجعله في بيت الملك ينعم، ويترف، وغذاؤه عندهم غذاء الملك فتلك الصنعة[2].

وفي محمد عليه الصلاة والسلام يقول رب العزة:
﴿ألم يجدكَ يتيماً فآوى★ ووجدَكَ ضالًّا فهدىٰ★ ووجدكَ عائلاً فأغنى﴾[3].
يقول ابن كثير في شرح هذه الآيات:
﴿ألم يجدْكَ يتيماً فآوى﴾، وذلك أن أباه توفي وهو حمل في بطن أمه. وقيل: بعد أن ولد عليه الصلاة والسلام ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده عبدالمطلب إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين فكفله عمه أبو طالب ثم لم يزل يحوطه وينظره. ويرفع من قدره، ويوقره، ويكف عنه أذى قومه بعد أن بعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره إلى أن توفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل فأقدم عليه سفهاء قريش، وجهالهم فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم الى بلد الأنصار من الأوس والخزرج كما أجرى الله سنته على الوجه الأتم الأكمل فلما وصل إليهم آووه، ونصروه وحاطوه وقاتلوا بين يديه- رضي الله عنهم أجمعين- وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به. وقوله تعالى: (ووجدَكَ ضالًّا فهدى﴾.

---

(١) سورة طه: الآية رقم ٣٩.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ث ١٤٧، ١٤٨ طبعة عيسى الباب الحلبي وشركاه.
(٣) سورة الضحى: الآية رقم ٦- ٨.

كقوله: ﴿وكذلَك أوحينا إليكَ روحاً من أمرنا ما كنتَ تَدري ما الكتابُ ولا لإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاءُ من عبادِنا﴾[1] الآية. ومنهم من قال: إن المراد بهذا أنه ﷺ ضلَّ في شعاب مكة وهو صغير ثم رجع وقيل: أنه ضل وهو مع عمه في طريق الشام وكان راكباً ناقة في الليل فجاء إبليس فعدل بها عن الطريق فجاء جبريل فنفخ إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة ثم عدل بالراحلة إلى الطريق. حكاهما البغوي، وقوله تعالى: ﴿ووجدَكَ عائلاً فأغنى﴾ أي كنت فقيراً ذا عيال فأغناك الله عمن سواه، فجمع له بين مقامي الفقير الصابر، والغني الشاكر صلوات الله وسلامه عليه.

وقال قتادة في قوله: (ألم يجدكَ يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى) قال: كانت هذه منازل رسول الله ﷺ قبل أن يبعثه الله عز وجل رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وفي الصحيحين من طريق عبدالرزاق عن معمر عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس.

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه » إنتهى كلام ابن كثير[2].

ويتبين من هذين الموقفين عناية الله لأنبيائه ورعايته لهم في تكوين شخصياتهم وتحديد مجرى سلوكهم، وما محمد، وموسى - عليهما السلام - إلاّ مثلين تجلى فيهما تطبيق تلك القاعدة، وعليه فالأنبياء جميعاً خاضعون لهذا القانون، وتلك الحتمية (حتمية ولتصنع على عيني).

يقول الشهرستاني:

(والأنبياء خيرة الله في خلقه وحجة الله على عباده والوسائل اليه وأبواب رحمته، وأسباب نعمته، الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس. (إنَّ الله

---

(١) سورة الشورى: الآية رقم ٥٢.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٥٢٣.

اصطفى آدمَ ونوحاً) الآية فكما يصطفيهم من الخلق قولاً بالرسالة والنبوة يصطفيهم من الخلق فعلاً بكمال الفطرة ونقاء الجوهر وصفاء العنصر، وطيب الأخلاق، وكرم الأعراق فيرقيهم مرتبة حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة وكملت قوته النفسانية وتهيأت لقبول الأسرار الإلَهية بعث إليهم ملكاً وأنزل عليهم كتاباً)[١].

ولقد انتهى بنا التحليل أو انتيهنا بالتحليل إلى هذا القول الموجز وهو:

أن النبوة إنما تكون هبة من الله سبحانه وتعالى لمن يصطفيه من عباده ويصنعه على عينه ليكون محل تكليفه بشرع منبثق عن عقيدة سواء أكان هذا الشرع وتلك العقيدة وقفا عليه هو أم أمر بتليغها الى الناس.

وهذا القول يوضح حقيقة هامة هي: (أن النبوة هبة من الله، وأن هذه الهبة إنما تكون لمن يختاره الله ويرعاه). ويهمنا هذا التعبير وهو أن النبوة هبة. فإن هذه التسمية (هبة) توحى بأنها إختيارية من واهبها إن شاء فعل وإن شاء أمسك النبوة، ولم يفعل. وقد يكون هذا هو ما توحى به هذه الآية الكريمة من سورة يونس عليه السلام: ﴿قلْ لو شاءَ اللهُ ما تلوتُهُ عليكم ولا أدراكم بِهِ﴾[٢]. وكذلك قوله تعالى: ﴿اللهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَهُ﴾[٣].

وقد يفيد هنا أن نقول: إنه من اللازم لصفات الألوهية أن نقول: بأن الإله من حيث هو إله مختار في فعله بحيث لا يجب عليه شيء، إن شاء فعل وأن شاء ترك. فأفعاله اختيارية بحيث تتحقق له الإرادة التامة، والقدرة التامة، والعلم التام.

وعند هذا الحد نجد الخلاف المستعر بين المذاهب في هذه القضية الجزئية باعتبار أنها تدخل في اطار عام يمكن التعبير عنه بهذا السؤال الجامع:

---

(١) (نهاية الإقدام في علم الكلام): الشهرستاني-ص ٤٦٣.

(٢) سورة يونس: الآية رقم ١٦.

(٣) سورة الانعام: الآية رقم ١٢٤.

هل الاختيار بالنسبة لله يعني الترجيح بين طرفي الشيء الواحد دائماً؟ أم أن هناك من الأشياء ما لا يمكن القول فيه بأن الله مخير بين طرفي الشيء الواحد؟

إن مسألة النبوة تدرس عند المعتزلة كما سبق القول محكومة بقانون الصلاح والاصلح المشهور عند المعتزلة، ولما كان البشر لا يستطيعون أن يميزوا بين الأمور المتقابلة والأحوال المتعارضة التي تطرأ على الشيء الواحد، ولما كان الخلط في هذا التمييز محتملاً، وكان الفساد الذي يمكن أن يطرأ على معايش الناس وممارساتهم للشعائر الدينية والعلاقات الإجتماعية محتملاً، والفساد في معايش الناس وعباداتهم أمر شائن لا حسن فيه، والأحسن منه، والاصلح للعباد أن يكون هناك مرشد لهم يجنبهم زلات الهوى وخطيئة اللبس، والضلال وإذا كان هذا لا يتحقق إلا على يد نبي من جهة، ومن جهة أخرى فإن تحققه يعني حصول أحسن الحالات وأصلحها للعباد، ومن جهة ثالثة فإن حصول الأصلح للعباد يعتبر ارتفاع بالإرادة الآلهية لما يتناسب مع مرتبة الالوهية (لكل هذه الحيثيات) كان إرسال النبي وبعثة الرسل عند المعتزلة أمرا محتوما لا بد أن يفعله الله عز وجل.

يقول شيخ المعتزلة عبدالجبار بن أحمد:

(والأصل في هذا الباب أن نقول: إنه قد تقرر في عقل كل عاقل وجوب دفع الضرر عن النفس، وثبت أيضاً أن ما يدعو إلى الواجب، ويصرف عن القبيح فإنه واجب لا محاله، وما يصرف عن الواجب، ويدعو إلى القبيح فهو قبيح لا محالة. إذا صح هذا وكما نجوز أن يكون في الأفعال ماإذا فعلناه كنا عند ذلك أقرب الى أداء الواجبات واجتناب المقبحات، وفيها ماإذا لم نفعله كنا بالعكس من ذلك، ولم يكن في قوة العقل ما يعرف به ذلك، ويفصل بين ما هو مصلحة، ولطف، وبين ما لا يكون كذلك، فلا بد من أن يعرفنا الله تعالى حال هذه الافعال كي لا يكون عائداً بالنقص على غرضه بالتكليف، واذا كان لا يمكن تعريفنا ذلك إلا بأن يبعث إلينا رسولاً مؤيداً بعلمٍ معجزٍ دالٍ على

صدقه فلا بد من أن يفعل ذلك، ولا يجوز له الإخلال به ولهذه الجملة قال مشايخنا: إن البعثة متى حسنت وجبت، على معنى أنها متى لم تجب قبحت لا محالة، وأنها كالثواب في هذا الباب فهو أيضاً مما لا ينفصل حسنه عن الوجوب)[1]

واذا كانت المعتزلة تربط بين قضية النبوة والبعثة، وبين قانون الصلاح والاصلح ثم تصعد على هذا كله لتطبق قانون الوجوب على إرسال الرسل وبعثهم للناس، فان الفلاسفة وان كانوا يشاركونهم في فكرة الوجوب (وجوب بعثة الرسل على الله) فإنهم يخالفونهم في البواعث والإرادات، أو بمعنى آخر: فإن الفلاسفة يخالفون المعتزلة في فلسفة هذا الوجوب والبحث عن الأصل الذي يعللون به هذا الوجوب.[2].

فالفلاسفة يعودون بفلسفة هذا الأصل الى فكرة العناية الإلهية، وأنها تقتضي أن يكون الفعل الواقع من الله إنما يقع على أحسن أحواله تحقيقاً لكمال العناية.

وبيان هذا الموقف هنا يرتكز على المسألة المعروفة لدى النوع البشري كله، فالنوع الإنساني كله يدرك أن الانسان مدني بالطبع إجتماعي بالفطرة، فلا يستطيع إنسان أن يحيا وحده، ولا أن يعيش بعزلة عن البشر، ولو افترضنا جدلاً أنه بالامكان أن يقع منه ذلك فإنه لن يحيا حياة عادية بحيث يكون في النهاية إنساناً عادياً، وبشراً يعيش كسائر البشر.

والإنسان متعدد الحاجات متنوع الأغراض، وكل حاجة من حاجاته، من أكثرها بساطة الى أعظمها تعقيداً، لا يمكن أن يباشر وحده جميع مراحل وجودها وتوفرها اله. فرغيف الخبز الذي يبدو ميسوراً وسهلاً يحتاج الى دورة قاسية، وسلسلة عظيمة من الخدمات المتصلة، فهو يحتاج الى زارع بما يتصل

---

(١) القاضي عبدالجبار بن أحمد- شرح الأصول الخمسة- حققه وقدم له د. عبدالكريم عثمان- علق عليه- الإمام أحمد بن الحسين ابن ابي هاشم الناشر مكتبة وهبة- ص ٥٦٤.

(٢) ابن سينا- (القانون) جـ ٣ الطبعة الثانية- بيروت ١٩٨٠م صفحة ٢٨٣.

بالزارع من خدمات وأغراض بعضها طبيعي، وبعضها يحتاج الى صناعة بشرية ثم هو يحتاج بعد ذلك الى طاحن بما يتصل بهذه الصناعة من احتياجات وأشياء ضرورية ثم يحتاج الى خابز بما يتصل بهذه المهنة أيضا من لوازم ضرورية، هذا في رغيف الخبز، وقد رأينا ما فيه من التعقيد وقل مثل هذا في الثياب، والسكن، والطب، والتعليم وغيره ذلك من احتياجات البشر اليومية.

ولا يستطيع المرء بحال أن يقوم بخدماته وحده، فلا بد أن يسهر كل فرد على خدمة الآخرين في حين أن الآخرين لا بد أن يسهروا ايضا على خدمته، ومن هنا كانت الحتمية الضرورية المتلخصة في هذه المقولة الصادقة (الانسان مدني بالطبع) واذا كان اجتماع البشر طبيعيا، واحتياج الفرد الى سائر افراد المجتمع ضروريا واحتياج المجتمع الى كل فرد من افراده محتوما كانت المقولة التالية صادقة أيضا (المجتمع البشري يقوم على تعاون افراده) وهذا التعاون بين الأفراد يحتاج الى قانون وضابط يضبط سلوك الناس وينظم حياتهم المعيشية والاخلاقية، وهذا القانون لا بد له من واضع أو مشرع يتولى بنفسه أو بواسطة وكلائه تطبيق هذا القانون على الناس، وحملهم على الانصياع لأحكامه ويشترط فيمن يحمل الناس على اطاعة مبادىء القانون أن لا يكون من جنس فوق جنس البشر أو تحته، وإنما لا بد وأن يكون واحدا منهم يحس أحاسيسهم ويشعر بمشاعرهم، ولكن لا بد وان يكون متميزا بنفاذ البصيرة وصفاء النفس، وقوة العارضة حتى يضفي على القانون القداسة اللائقة به(١).

على أنه إذا لم يحمل الناس على هذا القانون في نفس الوقت الذي تشابكت فيه مصالحهم المعاشية واحتياجهم الى التعاون فيما بينهم، لعزت العدالة وقل احترامها، إذ أن كل إنسان سوف يرى العدل كل العدل فيما يحتاج اليه، وما يجب على الناس تجاهه، والجور كل الجور فيما يطلب منه، وما يجب للناس عليه، وتضطرب لذلك حياة الناس المعيشية، وتفسد ظروفهم الاجتماعية.

---

(١) د. عبدالمنعم نور (المجتمع الانساني). مكتبة القاهرة الحديثة القاهرة عام ١٩٧٢م صفحة ٣٧٠.

ويظهر من هذا أن احتياج الناس الى من يضبط سلوكهم ليس إحتياجاً عارضاً وإنما هو إحتياج جوهري لا يقوم الإجتماع بدونه بحيث يقال: إنه مجتمع بشري، واحتياج الناس الى هذا القانون، ومن يحملهم عليه أكثر من احتياجهم لبعض الاشياء التي وفرتها لهم العناية الإلهية.

واذا كان إرسال الرسل بشرع إلهي فيه إسعاد البشر وجمعهم تحت مقولة الإجتماع السليم المنضبط بحيث لا يكون هناك من بديل غير هذه الطريق، فإن إرسال الرسل لا بديل عنه في العناية الإلهية، حيث لا يجوز لهذه العناية أن لا ترسل رسلاً بشرع حكيم، وضوابط للسلوك، والأخلاق، وقوانين المعايش، وضرورات الإجتماع.

هذا هو خلاصة مذهب الفلاسفة في هذا الموضوع الجليل(١).

هذا ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن الشيعة فرقة تنضم إلى قافلة المعتزلة والفلاسفة عندما تقول بوجوب البعثة على الله عز وجل، ولكنها لا تأتي بجديد فوق ما قاله المعتزلة والفلاسفة في فلسفة هذا القول. وإن كنا نرى بعض الكاتبين من الشيعة أثناء فلسفته لعقيدة حتمية البعثة ووجوبها على الله يجمع بين الفكرة الفلسفية وفكرة الإعتزال(٢)، والمتصفح لفكر الشيعة لا يجد غرابة لهذا الموقف، والنص التالي لأحد المفكرين من الشيعة يشرح ما ذهبنا اليه بأكثر مما نطيل نحن القول فيه.

يقول صاحب قلائد الخرائد:

(وكما يحصل به غرض المكلف فهو لطف واجب على الله أن يفعله إما من إيجاد أو وجوب أو بيان لئلا يكون للناس على الله حجة)(٣).

---

(١) انظر النجاة- لابن سينا- قسم الالهيات- ٣٠٣،٣٠٤.

(٢) (عبدالرحمن بدوي) مذاهب الاسلاميين دار العلم للملايين طبعة ثانية جـ ١ صفحة ٤٢٠.

(٣) قلائد الخرائد في اصول العقائد- تأليف معز الدين السيد محمد المهدي الحسيني الشير بالقزويني المتوفي سنة ١٣٠٠هـ حققه وعلق عليها- جودة كاظم القزويني- مطبعة الارشاد- بغداد ص ٦٢، ٦٣.

ثم قال في موضع آخر:

(وهي (النبوة) كون الانسان مبعوثاً من الحق الى الخلق لتأدية الأحكام الشرعية وحفظ النظامات الدنيوية، وهي في أصلها من الألطاف الواجبة على الله إضافة إلى حسنها وصحة التكليف بها كمعاضدة العقل والنقل فيما للعقل إليه سبيل، واستفادة الأحكام من النبي ﷺ مما ليس من عقل ولا نقل عليه دليل، واستفادة إزالة الخوف الحاصل عند الاتيان بالطاعة من كونها واقعة على الوجه المراد من العبادة والمعرفة لما عرفت من وجوب شكر المنعم بالأفعال كالأقوال واستفادة الحسن والقبيح في الأفعال مما يختلف فيه الوجه والأعتبار، ولا يهتدي اليه العقل لخفاء الحكم والأسرار. واستفادة معرفة النافع من الضار مما لا تفي بها التجربة إلا بعد أدوار وأطوار، والعمدة في ذلك أن الانسان مدني الطبع محتاج إلى بناء نوعه في قضاء حاجته لتعذر قيامه بجميع ما يحتاج إليه نظام وجوده وافتقار هذه الأمور إلى الأحكام، وتحديد حدود توافق نظام المحدود من أمور عملية قلبية أو بدنية، وعبادات ومعاملات، وسياسات، وعادات، وأحكام، وكل ذلك لا بد له من معلم حكيم مطلع على جميع المصالح والمضار [1].

إن هذا النقاش المحتدم، والصراع الذي عقد غباراً كثيفاً فوق الرؤس وحجب الرؤية عن الناظرين، يجمعه كله أن فريقاً يستلطف أن يقول بأن إرسال الرسل وبعثة الانبياء أمر لا يخالف غيره من الامور المصلحية، وهو من باب اللطف، ولا يجب على الله شيء. وفريق آخر يستهويه القول بأن هذه البعثة وتلك الرسالة وما يشابهها من الأمور التي فيها نفع العباد، وتحقيق مصالحهم أمور يجب على الله تحقيقها لتحقيق مصالح الناس في معايشهم الدنيوية ومصالحهم الأخروية.

والمتأمل في هذا القول أو ذاك إذا تجرد إيمانه من منهج السلف الصالح

---

(١) المرجع السابق: ص ٦٩، ٧٠.

الذي كان يبني على كتاب الله وسنة نبيه من غير تعليل أو تدليل يجد في نفسه قلق وفي قلبه حيرة، فإلى أي الرأيين ينجذب والى أي الاتجاهات يجنح؟

إن ألفاظ الوجوب، والإيجاب، والحتمية، واللزوم وغيرها، كلها أمور تفيد في بعض معانيها القهر والتسلط والإجبار، الأمر الذي يجعل الطبع البشري ينفر منها، ويستثقلها على نفسه ذاته، ولما لا وهي إنما تشعره بالضعف، والإستكانة وتخاطبه على أنه موجود محدد السلوك لا يعقل ما يريد ولكن يفعل ما يريد له غيره.

وإذا كان هذا الأمر يثقل على البشر، فهل من الجائز أو اللائق أن يخلعوا على الله سبحانه وتعالى ما نفر منه طبعهم وأشمأزت منه وجداناتهم[1]؟

وعلى الجانب الآخر، نرى الطرف المقابل يقول: إن الله لا يجب عليه شيء بل هو مختار بين الطرفين المتقابلين للشيء الواحد، يفعل ما يشاء ويترك ما يريد دون أن يقع في مجال المساءلة، ولا في حدود الاعتراض، بل ولا يمكن ذلك لأن ما في الوجود ملكه وملكه، فهو يتصرف فيه وفق ارادته وعلمه المحيط ولا يقال على أفعاله بأن هذا الفعل حسن وذاك قبيح إذ لا تحسين ولا تقبيح للعقل. وهذا ما يطمئن له كل عاقل منصف.

ونريد هنا أن نتعرف على معنى لفظي (الواجب والوجوب) اللذين يطلقهما كل من المعتزلة، والفلاسفة ومن لف لفهما ودار في فلكهما على أفعال الله عامة، وعلى البعثة بنوع خاص؟

فإن كان القصد من إطلاق لفظي (الوجوب والواجب) على الله هو ما نعرفه عند المشتغلين بالأحكام الشرعية بمعنى، أن الواجب هو ما يثاب فاعله ويمدح،

---

(١) (شرح المواقف) علي بن محمد الجرجاني المتوفى عام ٨١٦هـ جـ ٨ صفحة ٢٣٥. طبعة السعادة بالقاهرة عام ١٣٢٥هـ- ١٩٠٧م.

ويعاب تاركه ويعاقب، إن كان الواجب هو هذا فهو أمر لا يطلقه على الله إلا قصير النظر أو ناقص في العقل تنعدم عنده مقومات الإيمان الصحيح[1].

واذا كان القصد من إطلاق لفظ الواجب على الله هو أن الواجب قسيم للممكن والمستحيل، فإن الله قد وجبت له صفات كثيرة وصف نفسه بها وأخبر عنها كالعلم، والسمع، والبصر، والارادة، والرحمة، والعزّة، وعلى الجملة فقد ثبت لله كل كمال يليق بذاته ثبوتا على طريق الوجوب.

والمسألة التي تجري مناقشتها هنا إنما هي خاصة بأفعاله تعالى، فهل الفعل الحسن واجب على الله بحيث يكون منزها عن فعل كل قبيح؟

وعند الإجابة على هذا السؤال نريد أن ننتبه الى عدة أمور:

أولها: ان الله ليس ناقصاً في بعض نواحيه، وليس في صفاته نقص حتى يستكمل بفعله، وإنما كمال كل صفة في أن لا تكون معطلة، بمعنى أنها تمارس عملها بالفعل أو بالصلاحية، وليس هناك ما هو ممنوع على الله أن يفعله إلا إذا كان أمراً يوقع في العبث، كأن تفعل الإرادة، والقدرة شيئاً ينافي العلم مثلا، فهذا مستحيل على الله أن يفعله لما يلزم عليه من انقلاب العلم جهلا، كذلك لا تتعلق القدرة أو غيرها من الصفات بأشياء من شأنها قلب الحقائق، فهي لا تتعلق بالواجب لتجعله مستحيلاً، ولا بالمستحيل لتوجده فتجعله واجباً أو ممكنا.

ثانيها: أن أفعال الله إنما تجري على غاية الإحكام والضبط، فهو لا يفعل عبثا، ولا يقع التناقض بين صفاته، وإذا كان الله لا يفعل العبث فأفعاله كلها بالحكمة، غير أن ما ينبغي أن نشير اليه هنا هو أن دقة الحكمة الآلهية في الأشياء قد تعلو على الأفهام وتغيب عن العقول، فالحكمة التي ينبغي أن نصف بها الأفعال الإلهية هي ما يعلمها هو، لا ما ندركها نحن[2].

---

(١) (لوائح الأنوار البهية) المعروف باسم عقيدة السفاريني (الشيخ محمد بن أحمد السفاريني) جـ ٢ صفحة ٢٥٠ مطبعة المنار الطبعة الأولى عام ١٣٢٣هـ.

(٢) لدراسة هذا الجانب بمنهج علماء السلف رضي الله عنهم يمكن الرجوع الى ما كتبه شيخ الاسلام ابن تيمية في (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم) طبعة المنجد. الرياض =

فلو أراد قائل أن يصف أفعال الله سبحانه بالوجوب على مقتضى الحكمة التي تتراءى له هو كمخلوق ناقص قاصر في إدراكه فأننا نرفض منه ذلك،لأنه بذلك يكون قد وضع نفسه في مرتبة من الإستعلاء بحيث تمكنه من وضع مجموعة اللوائح، والقوانين التي يستطيع أن يلزم أفعال الباري بها ويكون بذلك قد تجاوز مرتبته المتاحة له كمخلوق ناقص[1].

= وعند قوله: (المتفلسفة وصفوا الرب بالنفي المفصل، والإثبات المجمل. أما طريقة الرسل: اثبات مفصل ونفي مجمل) صفحة ٤٦٦.

(١) يمكن الرجوع الى (صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم) للشيخ عبدالرحمن بن محمد الدوسري رحمه الله وعند قوله في صفحة ٢٠٥ (حاجة الانسانية الى تحقيق عبودية الله أعظم من كل حاجة).

الباب الثالث

آدم عليه السلام بين الخلق والنبوة

تمهيد:

الفصل الأول:

من مظاهر خلق الله للانسان في القرآن الكريم.

الفصل الثاني:

نبوة آدم عليه السلام.

الباب الثالث

آدم بين الخلق والنبوة

تمهيد :-

إن المتتبع لآيات القرآن الكريم في قضية الخلق وهي قضية شديدة التعقيد في مجال البحوث الدراسية. يجد أن القرآن الكريم باعتباره الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قد تعرض لجميع الجوانب المتعلقة بها، سواء ما كان متعلقا بطبيعة الخلق والتكوين وبداية النشأة، أو ما يترتب بعد ذلك على عملية الخلق وانتظام السنن والقوانين التي أودعها الله في الأشياء.

وقد عالج القرآن الكريم هذه الجوانب المتعلقة بقضية الخلق من بدايتها الأولى من مراحل خلق آدم عليه السلام حتى كانت وظيفته النبوية بين أهل بيته[1].

وبادىء ذي بدء فإن الله سبحانه في كتابه الكريم قد خاطب الانسانية بهذا المدخل القرآني العظيم الذي يربط ما بين البداية والنهاية بهذا التقرير العلمي الذي يبين به الحكيم العليم عن بعض مراحل الخلق فيقول جل وعلا:

﴿يا أيُّها الناسُ إنْ كنتمْ في ريبٍ من البعثِ فإنا خلقناكم من ترابٍ. ثم من نطفةٍ ثم من علقةٍ ثم من مضغةٍ مخلقةٍ وغير مخلقةٍ، لنبيِّنَ لكمْ ونقرّ في الأرحامِ ما نشاءُ إلى أجلٍ مسمىً ثُمَّ نُخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشُدَّكُمْ ومنكمْ من يُتوفى ومنكم

---

(١) (آدم): البهي الخولي. الطبعة الثالثة مكتبة وهبة القاهرة عام ١٩٧٦م صفحة ٨١.

مَنْ يُرد الى أرذل العُمُر لكي لا يعلَم منْ بعدِ علمٍ شيئاً وترى الأرضَ هامدةً، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتَّزتْ وربَتْ وأنبتتْ من كلِّ زوجٍ بهيجٍ . ذلكَ بأنَّ اللهَ هوَ الحقُّ وأنَّهُ يُحيي الموتى وأنهُ على كلِّ شيءٍ قدير . وأنَّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها وأنَّ اللهَ يبعثُ من في القبورِ، ومنَ الناسِ من يجادلُ في اللهِ بغيرِ علمٍ ولا هدىً ولا كتابٍ منيرٍ﴾[١].

ويقول سبحانه ﴿ومن آياته أن خَلَقَكُمْ من ترابٍ ثم إذا أنتم بشرٌ تنتشرونَ﴾[٢]

ويقول سبحانه ﴿واللهُ خلقكُمْ من ترابٍ ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمَّر ولا ينقص من عمره إلا في كتابٍ إنَّ ذلكَ على الله يسيرٌ﴾[٣].

وبعد أن يتحدث الله سبحانه وتعالى عن جانب الخلق، وهو الخلق بالتراب ومن التراب، يتحدث عن الماء: وقد كرر لفظ ماء في القرآن الكريم ٦٣ مرة منها ما يتعلق بخلق آدم وبنيه في قوله سبحانه:

﴿فلينظرِ الإنسانُ ممَّ خُلق. خُلق من ماءٍ دافقٍ. يخرجُ من بين الصلب والترائب. إنَّه على رجعِهِ لقادرٌ. يومَ تُبلى السرائر. فما له من قوةٍ ولا ناصر﴾[٤]. وقوله سبحانه: ﴿ألم نخلقكم من ماءٍ مهينٍ. فجعلناهُ في قرارٍ مكينٍ. إلى قدرٍ معلومٍ . فقدَّرنا فنعمَ القادرونَ. ويل يومئذ للمكذبينَ﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿وهوَ الذي خلقَ من الماءِ بشراً فجعلَهُ نسَباً وصهراً وكان

---

(١) سورة الحج: الآيات ٥- ٨.
(٢) سورة الروم: الآية ٢٠.
(٣) سورة فاطر: الآية ١١.
(٤) سورة الطارق: الآيات ٥- ١٠.
(٥) سورة المرسلات: الآيات ٢٠- ٢٤.

ربك قديراً﴾[1]. وقوله عز وجل: ﴿الذي أحسنَ كلَّ شيءٍ خلقَهُ وبدأ خلق الإنسان من طين. ثم جعل نسله من سلالةٍ من ماءٍ مهين﴾[2].

ثم يتحدث جل وعلا عن مرحلة تمثل العلاقة بين التراب والماء وهي الطين، وقد جاء ذكر الطين في القرآن الكريم في قوله سبحانه:

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفةً في قرارٍ مكين. ثم خلقنا النطفة علقةً فخلقنا العلقة مضغةً فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[3].

وقوله سبحانه: ﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين﴾[4].

هذا وتتابع الآيات القرآنية لتبين عن جانب من جوانب المعجزة في الخلق، فبعد تقرير جزء من مراحل الخلق بالتراب والماء والطين تجيء مرحلة السلالة من طين في سورة المؤمنون كما هو في الآيات السابقة ولم يرد لفظ سلالة في القرآن الكريم كله الا مرتين: في قوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالةٍ من طين﴾[5]. وفي قوله سبحانه: ﴿ثم جعل نسله من سلالة من ماءٍ مهين﴾[6]. وفي قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿فاستفتهِم: أهم أشد خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازبٍ﴾[7].

وربما يقرب منه قول إبليس اللعين عن آدم، لما امره الله بالسجود لآدم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾[8].

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٥٤.
(٢) سورة السجدة: الآيات ٧، ٨.
(٣) سورة المؤمنون: الآيات ١٢، ١٤.
(٤) سورة ص: الآية ٧١.
(٥) سورة المؤمنون: الآية ١٢.
(٦) سورة السجدة: الآية ٨.
(٧) سورة الصافات: الآية ١١.
(٨) سورة الأعراف: الآية ١٢.

ومن هذه المراحل أيضا. مرحلة الحمأ المسنون: ولم يرد هذا التعبير لا في تركيبه ولا في مفرادته في القرآن الكريم كله إلاّ في ثلاث مرات، في سورة الحجر الآيات ٢٦، ٢٨، ٣٣ فقط في قوله سبحانه: ﴿ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون ٢٦، والجان خلقناه من قبل من نار السموم ٢٧، وإذ قال ربك للملائكة إنّي خالق بشراً من صلصالٍ من حمأ مسنون ٢٨﴾. إلى أن قال الله عن ابليس اللعين: ﴿لم أكن لأسجدَ لبشرٍ خلقته من صلصالٍ من حمأٍ مسنونٍ﴾[١].

وهذه الآيات الكريمة تكمّل بعداً من الأبعاد القرآنية في الكشف عن برهان الله في الخلق في مرحلة الصلصال، ولم يرد هذا اللفظ في القرآن الكريم كله الا اربع مرات، حول خلق آدم فقط المرات الثلاث السابقة في سورة الحجر وكلها تؤكد ان الصلصال مرحلة بعد الحمأ المسنون حيث قال رب العزة: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون﴾.

وفي القرآن الكريم تأتي مرحلة أخرى في الخلق وهي مرحلة التراب والماء والطين حين يكون لازبا فصلصالا، فيصبح كالفخار ولم يرد هذا اللفظ في القرآن كله إلاّ في هذه المرة من سورة الرحمن: ﴿خلقَ الانسان من صلصالٍ كالفخارِ. وخلق الجان من مارجٍ من نارٍ. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟﴾[٢].

ولعل الصلصال في خلق آدم كان على مرحلتين[٣]: مرحلة هو فيها صلصال عادي قبل تشكيله، ومرحلة بعد تشكيله وتقويته، وبعد تصويره بشراً سويا هو آدم عليه السلام من صلصال كالفخار.

ولعله في لغة القرآن الكريم وهو يكشف عن اعجاز الله في الخلق لم يبق من المراحل الا مرحلتان: التسوية، ونفخ الروح. فالتسوية في مثل قولهُ سبحانه

---

(١) سورة الحجر: الآية ٣٣.
(٢) سورة الرحمن: الآية ١٤.
(٣) الفلسفة الحديثة في الميزان وتأسيس القواعد من القرآن د. محمد بن فتح الله بدران الطبعة الثانية عام ١٩٦٩ مكتبة القاهرة الحديثة صفحة ٤١٢.

للملائكة عن آدم عليه السلام: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾. ولعلنا نستطيع أن نلحظ أن « التسوية » في خلق آدم مرحلة بين الصلصال وبين (نفخ الروح)، (ونَفَخْتُ فيه من روحي). ففي سورة الحجر: ﴿وإذْ قالَ ربُّك للملائكةِ إنيِّ خالقٌ بشراً من صلصالٍ من حمأ مسنون. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدينَ. فسجدَ الملائكة كلهم أجمعون﴾[١]. وفي سورة ص: ﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾[٢].

والتسوية أيضا في تكوين بني آدم. مرحلة بين خلق الانسان وبين جعله زوجين: ذكراً وأنثى في قوله سبحانه في آخر سورة القيامة: ﴿أيحسبُ الإنسانُ أن يُترك سدى؟ ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والانثى. أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى﴾[٣]. ومن ذلك قوله سبحانه في سورة الأعلى: ﴿سبِّح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى﴾[٤]. وقوله في سورة الكهف: ﴿قال له صاحبه وهو يحاوره: أكفرت بالذي خلقك من ترابٍ ثم من نطفةٍ ثم سوّاك رجلا. لكنّا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا﴾[٥]. وقوله سبحانه في سورة الانفطار ﴿يا أَيُّها الانسان ما غرّك بربك الكريم. الذي خلقك فسوّاك فعدَلك في أي صورة ما شاء ركبك. كلاّ بل تكذبونَ بالدينِ. وإن عليكم لحافظينَ. كراماً كاتبينَ. يعلمونَ ما تفعلونَ﴾[٦].

والتسوية كما يمكن أن تفهم من القرآن بالنسبة لخلق الإنسان- إنما تكون (للنفس) والنفس للإنسان فيما يفهم من القرآن: هي ما به يحيا الإنسان، وفيها

---

(١) سورة الحجر: الآيات ٢٨- ٣٠.
(٢) سورة ص: الآيات ٧١- ٧٣.
(٣) سورة القيامة: الآيات ٣٦- ٤٠.
(٤) سورة الأعلى: الآيات ١، ٢.
(٥) سورة الكهف: الآيات ٣٧، ٣٨.
(٦) سورة الانفطار: الآيات ٦- ١٢.

آيات لا تنتهي وقد لفتنا رب العزة إليها بقوله سبحانه: ﴿وفي أنفُسكم أفلا تبصرونَ﴾[١].

وقوله: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبينَ لهم أنه الحقُّ﴾[٢].

وقد تكرر لفظ (نفس) في القرآن الكريم، ٢٩٥ مرةً، بصيغة: نفس ٧٥ مرة، ونفسك ١٠ مرات، ونفسه ٤٠ مرة، ونفسها مرتين، ونفسي ١٣ مرة، والنّفوس مرةً واحدة، ونفوسكم مرةً واحدة، والأنفس ٦ مرات، وأنفسكم ٤٩ مرة، وأنفسنا ٣ مرات، وأنفسهم ٩١ مرة، وأنفسهن ٤ مرات

وتكررت التسوية في القرآن الكريم ١٤ مرة، منها المتعلق بالتسوية للنفس في قوله سبحانه في سورة الشمس وهو يقسم بهما معا: ﴿ونفسٍ وما سوّاها. فألهمها فجورَها وتقواها﴾[٣]. ومنها في سورة السجدة مرة اخرى: ﴿ذلك عالم الغيب والشهادة العزيزُ الرحيمُ. الذي أحسنَ كلَّ شيءٍ خلقه. وبدأ خلق الانسان من طين. ثم جعل نسله من سلالةٍ من ماءٍ مهين. ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾[٤].

وأما الرُّوح بالضم فقد ذكرت في القرآن (٢١) احدى وعشرون مرة[٥]. بلفظ روح (١٥ مرة) روحنا (٣ مرات) وروحه (مرة واحدة) وروحي (مرتين). فمنها فيما يتعلق «بآدم» عليه السلام في قوله سبحانه «للملائكة»: ﴿فإذا سويته ونفختُ فيهِ من روحي. فقعوا لَهُ ساجدينَ﴾[٦]. ومنها فيما يتعلق

---

(١) سورة الذاريات: آية رقم ١٢.

(٢) سورة فصلت: فصلت: آية رقم ٥٣.

(٣) سورة الشمس: الآية ٧، ٨.

(٤) سورة السجدة: آيات ٦- ٩.

(٥) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبدالباقي: مادة (روح).

(٦) سورة الحجر: الآية ٢٩.

بخلق «عيسى» عليه السلام الذي قال الله عنه: ﴿إن مثلَ عيسى عندَ اللهِ كمثلِ آدمَ﴾.

قوله سبحانه: ﴿ومريمُ ابنة عمران التي أحصنتْ فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقتْ بكلماتِ ربها وكتبه وكانت من القانتينَ﴾(١). وقوله جل شأنه: ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آيةً للعالمينَ﴾(٢). وقوله سبحانه: ﴿فأرسَلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا. قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا. قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا﴾(٣).

ومنها فيما يتعلق بجبريل عليه السلام في قوله تعالى:

﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً. لا يتكلمونَ إلا من أذن لَهُ الرحمن وقال صوابا﴾(٤).

وقوله سبحانه: ﴿نزل به الروح الأمين. على قلبِكَ لتكونَ من المنذرين. بلسانٍ عربيّ مبين. وإنه لفي زُبُرِ الأوَّلينَ﴾(٥) وغير ذلك أيضا يمكن استنتاجه من القرآن الكريم بشيء من العمق وتجميع الآيات المتعلقة بلفظ (الروح) وجماع هذا كله قول الحق سبحانه: ﴿ويسألونَكَ عن الروح. قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلمِ إلا قليلاً﴾(٦).

وعند هذا القدر من الكشف الآلهي للإنسان في أن يدرك بعض أسرار

---

(١) سورة التحريم: الآية ١٢.
(٢) سورة الأنبياء: الآية ٩١.
(٣) سورة مريم: آيتا ١٧- ١٩.
(٤) سورة النبأ: الآية ٣٨.
(٥) سورة الشعراء: آيات ١٩٣- ١٩٦.
(٦) سورة الاسراء: الآية ٨٥.

خلق الرحمن الرحيم. يضع القرآن الكريم للجهد الإنساني بل ولاستشراقات المؤمن وتطلعه في عون الله له. أن يرى من آيات الله في خلقه حداً وقيداً يقف عنده العقل البشري لا يتجاوزه ولا يطمع فيما وراءه. لأن ما وراء ذلك علم متعلق بعلم العليم وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا. ومن هنا كانت رسالات الأنبياء والرسل المدخل الايماني الذي استكمل به الانسان كل مقومات وجوده.

الفصل الأول:

من مظاهر خلق الله للانسان في القرآن الكريم

سجل الطبيب الفرنسي المعاصر (موريس بوكاي) في كتابه الشهير (الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة)[1] انه باستثناء القرآن الكريم فإن كل كتب المعتقدات الدينية التي زعم أصحابها قداستها وتناولت قصة الخلق قد ضلت ضلالا مبينا واصطدمت مع البحوث والنظريات العلمية إصطداماً بيناً، الا القرآن الذي تقوم آياته شاهدا على صدق دعواه. ومن هذه البراهين حديثه عن العناصر التي خلق منها الانسان، فلقد تحدث القرآن الكريم عن نعم الله تعالى في خلقه، فكان مما عرض سبحانه الاشارة الى سننه وقوانينه في خلق الأرض ممهدة ومهيئة وصالحة ليعيش الانسان عليها.

يقول الله تعالى مخاطبا الناس مذكرا ببعض ما أسبغ عليهم من النعم: ﴿الذي جعل لكم الارض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماءاً فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى كُلوا وارعَوْا أنعامكم إن في ذلك لآيات لآولي النُهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارةً أُخرى﴾[2].

يقول الامام النسفي: (ومن نعمة الله تعالى أن أرزاقنا تحصل بعمل الأنعام وقد جعل الله علفها مما يفضل من حاجاتنا مما لا نقدر على أكله قائلا ﴿كُلوا وارعَوْا أنعامكم﴾. حال من الضمير في فأخرجنا والمعنى أخرجنا أصناف النبات آذنين في الانتفاع بها مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها (إن في ذلك) في الذكرى التي ذكرت (لآيات) لدلالات (لأولي النهى) لذوي العقول

---

(١) (الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) موريس بوكاى صفحة ٣ طبعة دار المعارف القاهرة.

(٢) سورة طه: الآيات ٥٣، ٥٤، ٥٥.

واحدها نهيه لأنها تنهي عن المحظور أو ينتهي اليها في الأمور (منها) من الأرض. (خلقناكم) أي أباكم آدم عليه السلام، وقيل يعجن كل نطفة بشيء من تراب مدفنه فيخلق من التراب والنطفة معا، أو لأن النطفة من الأغذية وهي من الأرض. (وفيها نعيدكم) إذا متم فدفنتم (ومنها نخرجكم) عند البعث (تارة أخرى) مرة أخرى والمراد بإخراجهم أنه يؤلف أجزاءهم المتفرعة المختلطة بالتراب ويردهم كما كانوا أحياء ويخرجهم الى المحشر. عدد الله عليهم ما علق بالأرض من منافعهم، حيث جعلها لهم فراشاً ومهاداً يتقلبون عليها، وسوى لهم فيها مسالك يتردد دون فيها كيف شاءوا، وأنبت فيها أصناف النبات التي منها أقواتهم وأعلاف بهائمهم، وهي أصلهم (أي الأرض) الذي منه تفرعوا وأمهم التي منها ولدوا وهي أكفاتهم إذا ماتوا[١].

أ- التراب:

وفي خطابه سبحانه وتعالى للناس في القرآن الكريم يذكرهم بأصل خلقتهم ويبين أنه التراب فيقول جل شأنه: ﴿يا أيها الناسُ إن كنتم في ريبٍ من البعثِ فإنَّا خلقناكم من تراب ثم من نطفةٍ ثم من علقة..... الآية﴾[٢].

ويقول تعالى: ﴿واللهُ خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه وما يعمر من معمَّر ولا ينقص من عمره الا في كتاب إن ذلك على الله يسيرٌ﴾[٣].

ويقول عز وجل: ﴿هوَ الذي خلقكم من ترابٍ ثمَّ من نطفةٍ ثم من علقة ثم يُخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً...... الآية﴾[٤].

(١) (تفسير النسفي) الجزء الثالث (ص ٥٦) ط الحلبي بمصر.
(٢) سورة الحج: الآية ٥.
(٣) سورة فاطر: الآية ١١.
(٤) سورة غافر: الآية ٦٧.

ويقول سبحانه في آية اخرى مدلّلاً على قدرته: ﴿ومن آياتهِ أنْ خلقكُمْ من ترابٍ ثم إذا أنتم بشرٌ تنتشرونَ......الآية﴾(١).

يقول ابن كثير حول هذه القضية: (ومن آياته) الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب (ثم إذا أنتم بشر تنشرون) فأصلكم من تراب ثم من ماء مهين ثم تصور فكان علقة ثم مضغة ثم صار عظاماً شكله على شكل الإنسان ثم كسا الله تلك العظام لحماً، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير، ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبني المدائن، والحصون، ويسافر في أقطار الأقاليم، ويركب متن البحور ويدور أقطاراً ويكتسب، ويجمع الأموال وله فكرة وغور ودهاء ومكر ورأي، وعلم واتساع في أمور الدنيا، والآخرة كل بحسبه) فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعايش والمكاسب وفاوت بينهم في العلوم والفكر، والحسن والقبح والغنى، والفقر، والسعادة، والشقاوة. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد وغندر قائلاً: حدثنا عوف عن قسامة بن زهير عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك » رواه أبو داود والترمذي من طرق عن عوف الأعرابي به وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح.(٢)

ب- الطين:

وفي بعض آيات القرآن يذكر الحق جل شأنه أن أصل خلق الإنسان هو الطين وذلك في قوله: ﴿هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى

---

(١) سورة الروم: الآية ٢٠.
(٢) انظر ص ٤٢٩ من تفسير ابن كثير الجزء الثالث. [بتصرف يسير].

عنده ثم أنتم تمترونَ﴾[١]. كما جاء في قوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسانَ من سلالـةٍ من طينٍ..﴾ الآية[٢]. ويقول كذلك: ﴿الذي أحسنَ كلَّ شيءٍ خلقَهُ وبدأ خلقَ الإنسان من طين﴾[٣]. وفي قوله تعالى: ﴿فاستفتهم أهم أشد خلقاً أمن خلقنا إنا خلقـناهم من طين لازب﴾[٤]. ويقول سبحانه: ﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين﴾[٥].

يقول الشيخ رشيد رضا في تفسير قوله تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من طين.. الآية.﴾ هذا كلام مستأنف جاء على الالتفات عن وصف الخالق تعالى بما دل على حمده وتوحيده إلى خطاب المشركين الذين عدلوا به غيره في العبادة، يذكرهم به بما هو ألصق بهم من دلائل التوحيد والبعث، وهو خلقهم من الطين، وهو التراب الذي يخالطه الماء فيكون كالعجين، وقد خلق الله آدم أبا البشر من الطين، كما خلق أصول سائر الأحياء في هذه الأرض إذ كانت حالتها مناسبة لحدوث التولد الذاتي، بل خلق كل فرد من أفراد البشر من سلالة من طين فبنية الإنسان مكونة من الغذاء ومنه ما في رحم الأنثى من جراثيم النسل وما يلحقه من ماء الذكر فهو متولد من الدم، والدم من الغذاء، والغذاء من نبات الأرض أو من لحوم الحيوان المتولد من الأرض. فمرجع الكل إلى النبات وإنما النبات من الطين﴾.[٦]

جـ- الصلصال:

وهناك آيات من القرآن توضح لنا أن أصل الإنسان هو الصلصال. يقول

---

(١) سورة الانعام: الآية ٢

(٢) سورة المؤمنون: الآية ١٢.

(٣) سورة السجدة: الآية ٧.

(٤) سورة الصافات: الآية ١١.

(٥) سورة ص: الآية ٧١.

(٦) من تفسير المنار: ج ٧- ص ٢٤٧.

تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون﴾(١). وقال سبحانه في المقارنة بين خلق الإنسان والجن وأصل خلق كل منهما فقال: ﴿خلقَ الإنسانَ من صلصالٍ كالفخارِ وخلقَ الجانَّ من مارجٍ من نارٍ﴾(٢).

يقول الأستاذ: عبد الكريم الخطيب: (الصلصال: الطين الجاف، الذي له صلصلة وجرس عند احتكاك بعضه ببعض، وهذا من طبيعة الطين اللازب أي اللزج إذا جف. ولهذا شبه بالفخار وهو الطين الذي وضع في النار حتى احترق وصار فخاراً)(٣).

د- الماء:

ومما جاء في القرآن الكريم ما يفيد أن الأصل الذي خلق منه الإنسان هو الماء يقول سبحانه: ﴿وهوَ الذي خلقَ من الماءِ بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً﴾(٤).

يقول أبو السعود: (هو الماء الذي خمر به طينة أدم عليه السلام أو جعله جزءاً من مادة البشر ليجتمع ويسلس، ويستعد لقبول الأشكال والهيئات بسهولة أو هو النطفة.(٥)

ففي هذه الآية يذكر الماء الذي خلق منه الإنسان مجرداً من أي صفة على أننا نلاحظ أنه في بعض الآيات الأخرى ذكر موصوفاً بإحدى الصفات فيصفه مرة بالماء المهين حينما يتحدث عن نسل الإنسان فيقول: ﴿ثم جعل نسله من سلالة من ماءٍ مهينٍ﴾(٦).

---

(١) سورة الحجر: الآية ٢٦.

(٢) سورة الرحمن: الآيات ١٥، ١٦.

(٣) من كتاب: نظرات في سورة الرحمن ص ٦١.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٥٤.

(٥) ص ٩٦ من تفسير أبي السعود جـ ٤.

(٦) سورة السجدة: الآية ٨.

ويخاطب المكذبين مبيناً أصل خلقتهم بقوله تعالى: ﴿ألم نخلقكم من ماءٍ مهين...... الآية﴾[1]. ويصف الماء الذي خلق منه الإنسان في آية أخرى بأنه دافق كما في قوله عز اسمه: ﴿خُلق مِنْ ماءٍ دافقٍ﴾[2].

هـ- النطفة:

وقد أخبر القرآن الكريم أن الأصل الذي خلق منه الإنسان هو النطفة يقول الله تعالى: ﴿خلقَ الإنسانَ من نُطفةٍ فإذا هُوَ خصيمٌ مبينٌ﴾.[3] ويقول سبحانه: ﴿يا أيها الناسُ إن كنتم في ريبٍ من البعثِ فإنا خلقناكُمْ من ترابٍ ثم من نطفةٍ ثم منْ علقةٍ..... الآية﴾[4]. ويقول جل شأنه مبيناً الموضع الذي يستقر فيه أصل الإنسان في بطن أمه ﴿ولقدْ خلقنا الإنسانَ من سلالةٍ من طينٍ ثم جعلناهُ نطفةً في قرارٍ مكينٍ﴾[5]. ويقول سبحانه وتعالى موجهاً الإنسان إلى أصل خلقته ﴿أو لم يرَ الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾[6]. ويقول عز وجل: ﴿واللهُ خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً..... الآية﴾[7]. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقةٍ...... الآية﴾[8]. ويقول تعالى: ﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تُمنى﴾[9]. ويقول كذلك: ﴿ألم يَكُ نطفةً من مني يُمنى﴾[10].

---

(١) سورة المرسلات: الآية ٢٠.
(٢) سورة الطارق: الآية ٦.
(٣) سورة النحل: الآية ٤.
(٤) سورة الحج: الآية ٥.
(٥) سورة المؤمنون: الآية ١٣.
(٦) سورة يس: الآية ٧٧.
(٧) سورة فاطر: الآية ١١.
(٨) سورة غافر: الآية ٦٧.
(٩) سورة النجم: الآية ٤٥، ٤٦.
(١٠) سورة القيامة: الآية ٣٧.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾(١). والنطفة هي قليل الماء، وهي اسم لماء الرجل.

و- العلق:

يحدثنا القرآن في آياته أن المادة التي خلق منها الإنسان العلق فيقول جل شأنه: ﴿إقرأ باسْمِ ربك الذي خلق. خَلَق الإنسانَ من عَلَقٍ﴾(٢). والعلق جمع علقة، وهي الدم الجامد.(*)

التوفيق بين هذه النصوص:

هذه هي مجمل الآيات التي تحدثت عن الأصل الذي منه خلق الإنسان وصاحب النظرة السطحية ربما يتوهم أن في بعض آيات القرآن الكريم تعارضاً فيقول:

إن القرآن تحدث عن أصل خلق الإنسان، وأنه من مواد متعددة كل واحدة منها ذكرت على أنها مبدأ للإنسان والحقيقة ان القرآن يتقدس عن التعارض، ويترفع عن التباين لأن الإنسان إذا أعمل نظره الصحيح وعقله السليم، وفكره الدقيق أدرك بوضوح أن هذه الآيات كلها تتوافق في بيان أصل الإنسان ويتضح ذلك فيما يأتي:

أ- تتحدث بعض الآيات عن المادة التي خلق الله الإنسان منها وتبين أنها الأرض وثانية تذكر أنه التراب وثالثة تذكر أنه الطين ورابعة توضح أنه الصلصال. فالتراب جزء من الأرض، وإذا ما أختلط بشيء من الماء صار طيناً، وعلى هذا فيكون كل من الأرض والتراب والطين شيئاً

---

(١) سورة الإنسان: الآية ٢.

(٢) سورة العلق: الآية ٢.

(*) انظر كتب اللغة في مادة علق.

واحداً[1]، وأما الصلصال فهو الطين إذا يبس وصار له صوت وصلصلة من الضرب عليه. وهذه حلقة في سلسلة النشأة من الطين أو من التراب، وتفسره الآية التي تقول: ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار... الآية﴾[2]. آية من ﴿حمأ مسنون﴾ والحمأ: نوع من الطين الأسود.. والمسنون: المصور. إذن كل هذه الأشياء ترجع إلى شيء واحد: تراب من الأرض أضيف إليه ماء فصار طيناً. ويبس من هذا الطين بطريق ما فأصبح جافاً صلصالاً. فالطين يشمل: التراب والأرض، والماء، والصلصال. فهذه الأربعة كلها ذكرت على أنها أصل الإنسان الأول ويتضح هذا من قوله تعالى: ﴿وبدأ خَلْقَ الإنسان من طينٍ﴾[3]. يقول الصاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿خلقَ الإنسانَ من صلصالٍ كالفخارِ.... الآية﴾.[4] ما نصه: (آيات الخلق متفقة في المعنى وذلك أنه أخذه من تراب الأرض فعجنه بالماء فصار طيناً. ثم ترك حتى صار حمأ مسنوناً. ثم منتناً ثم صوره كما يصور الإبريق وغيره من الأواني. ثم أيبسه حتى صار في غاية الصلابة فصار كالخزف الذي إذا نقر صوت صوتاً يعلم منه هل فيه عيب أم لا؟.

فالأرض أمه، والماء أبوه متزوجين بالهواء الحامل للجزء الذي هو من فيح جهنم. فمن التراب جسده ونفسه، ومن الماء روحه وعقله، ومن النار غوايته وحدته، ومن الهواء حركته وتقلبه في محامده ومذامه، فالغالب في جبلته التأثر بالتراب فلهذا نسب إليه وإن خلق من العناصر الأربع).[5]

---

(١) (آدم) للاستاذ البهي الخولي. مكتبة القاهرة الطبعة الثانية صفحة ٢٦.

(٢) سورة الرحمن: الآية ١٥.

(٣) سورة السجدة: الآية ٧.

(٤) سورة الرحمن: الآية ١٥.

(٥) من حاشية الشيخ أحمد الصاوي على الجلالين ص ١٣٣ - جـ٤ الطبعة الثانية. [بتصرف].

ب- وأما الآيات التي تذكر أن أصل الإنسان هو الماء المجرد من الصفة، أو الموصوف بصفة ما. أو النطفة فكل ذلك يرجع إلى شيء واحد وهو المني الذي يقذفه الرجل في رحم المرآة عند الجماع، فهو ماء لأنه سائل فهو يشبهه، وأياً ما كانت صفته بعد ذلك فهو لا يخرج عن كونه ماءاً مهيناً أي ضعيفاً حقيراً كما يرى الرائي وهو دافق لخروجه بقوة أي مدفوق وهو نطفة تمنى أي تراق في موضعها المحدد.

حـ- والآية التي تذكر أن أصل الإنسان هو العلق فأنها تتحدث عن طور من أطوار النطفة داخل الرحم. لأن النطفة تتحول إلى علقة بعد فترة من الزمن أثناء وجودها في الرحم. وتفصيل القول في طور النطفة والعلقة يحتاج إلى دراسة مطولة ومستقلة.

وهذه الآيات في مجموعها تتحدث عن المادة التي خلق منها آدم وبنوه. فالأرض. والتراب، والطين كل ذلك أصل لآدم مباشرة. وقد تكون لأبنائه بطريق غير مباشر.

فالنطفة التي يتكون منها ابن آدم: هي خلاصة طعام أبيه الذي منه جاءت النطفة، والطعام من النبات الذي تغذى من الأرض، وقد أثبتت الأبحاث العلمية الحديثة أن أي إنسان مكون من العناصر التي تتكون منها الأرض (فهو يتكون من الكربون، والاكسجين، والايدروجين، والفوسفور، والكبريت والازوت والكالسيوم والحديد والمنجنيز والنحاس واليود والفلورين والكوبالت والزنك والسلكون والالمنيوم. وهذه نفسها هي العناصر المكونة للتراب وإن اختلفت نسبها في إنسان عن الآخر، وفي الإنسان عن التراب إلا أن أصنافها واحدة[1]. فيتضح من هذا أن الإنسان خلق من خلاصة عناصر الأرض، وهذا هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿ولقد خَلَقْنَا الإنسانَ من سلالةٍ من طينٍ﴾ فإن السلالة معناها الخلاصة، ويكون

---

(١) ص ٢٠ من كتاب منهج القرآن والسنة للدكتور/ مجاهد محمد هريدي.

معنى الآية الكريمة أن الله تعالى خلق الإنسان من خلاصة خاصة من الطين وهي المواد التي ذكرت، ويتركب منها جسم كل منا. ويقرب هذا المعنى قوله تعالى:

﴿خُلِقَ الإنسانُ من صلصالٍ كالفخَّارِ﴾.[1]

وكلنا يعلم أن الفخار لا يصنع ولا يتكون إلا من طين غني بالعناصر التي يتركب منها الإنسان وينشأ منها النبات كطمى النهر، ويكون الفخار بذلك شبيهاً بالطين الذي صنع منه الإنسان والذي سماه الله تعالى صلصالاً.

ومما تقدم يتبين أن الله تبارك وتعالى خلق الإنسان وأنعم عليه بأن خلقه من خلاصة عناصر الأرض وهذا تكريم له في أصل خلقته وبدء تكوينه.

كيفية خلق آدم:

وقد ورد في السنة ما يفيد أن الله أخذ قبضة من جميع تراب الأرض ثم مزج بالماء حتى صار طيناً ثم خلق منها آدم بيده وهذا تكريم ما بعده تكريم.

يقول القرطبي في تفسيره: ﴿روى السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود في قصة خلق آدم عليه السلام قال:

فبعث الله جبريل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت الأرض: أعوذ بالله منك أن تنقص مني أو تشينني، فرجع ولم يأخذ وقال: يا رب إنها عاذت بك فأعذتها فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها، فرجع فقال كما قال جبريل فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره فأخذ من وجه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين- ولذلك سمى آدم لأنه أخذ من أديم الأرض- فصعد به فقال: الله تعالى له: أما رحمت الأرض حين تضرعت إليك فقال: رأيت أمرك أوجب من قولها فقال: أنت

(١) سورة الرحمن: الآية ١٥.

تصلح لقبض أرواح ولده، فبل التراب حتى عاد طيناً لازباً. (اللازب) هو الذي يلتصق ببعض ثم ترك حتى أنتن. فذلك حيث يقول: من حمأ مسنونٍ قال: منتن في بعض الأقوال ثم قال للملائكة: ﴿إني خالقٌ بشراً من طينٍ فإذا سوَّيتُهُ ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدينَ﴾ فخلقه الله بيده لكيلا يتكبر إبليس عنه يقول: أتتكبر عما عملت بيدي ولم أتكبر أنا عنه فخلقه بشراً فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه وكان أشدهم منه فزعاً إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار تكون له صلصلة فذلك حين قال: من صَلصالٍ كالفخَّارِ ويقول: لأمر ما خلقت ودخل من فمه وخرج من دبره فقال أبليس للملائكة: لا ترهبوا من هذا فإنه أجوف ولئن سلطت عليه لأهلكنه ويقال: إنه كان إذا مر عليه مع الملائكة يقول: أرأيتم هذا الذي لم تروا من الخلائق شبهه. أن فضل عليكم وأمرتم بطاعته ما أنتم غافلون.

قالوا: نطيع أمر ربنا فأسر ابليس في نفسه لئن فضل على فلا أطيعه ولئن فضلت عليه لاهلكنه فلما بلغ الحين الذي أريد أن ينفخ فيه الروح. قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحي فأسجدوا له فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس فقالت له الملائكة:

قل الحمد لله. فقال: الحمد لله فقال الله له: رحمك ربك، فلما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما دخل في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل ان تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة فذلك حين يقول: ﴿خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَجَلٍ﴾(١). ﴿فَسَجَدَ الملائكةُ كُلُّهُمْ أجمعونَ إلا ابليس أبى أن يكونَ من الساجدينَ﴾(٢). وذكر القصة، وروى الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٧.
(٢) سورة الحجر: الآية ٣٠، ٣١.

جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأحمر، والأبيض، والأسود، وبين ذلك والسهل، والحزن، والخبيث، والطيب. قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح [١]. وروى بإيجاز في شرح البخاري[٢].

فأخذ من هذا الحديث والذي قبله أن الناس رغم اختلاف أشكالهم وألوانهم فهم يرجعون إلى أصل واحد، حتى عيسى عليه السلام خلقه الله من تراب ثم قال له كن فكان، وإن كان قد اختلف عن غيره في كيفية خلقه فإنما كان ذلك التدليل على قدرة الله الذي خلق آدم من غير أم وأب وعيسى من أم ومن غير أب وأولاد آدم من أب وأم، وحواء من أب وبدون أم يقول الله تعالى:

﴿إنَّ مثل عيسى عند اللهِ كمثلِ آدمَ خلَقَهُ من ترابٍ ثمَّ قال له: كنْ فيكونَ﴾[٣]. ولو كان عيسى من غير البشر لما جاء عن طريق امرأة وضعته بعد أن حملت به وهي ولا شك امرأة من بنات آدم.

يقول أبو السعود في تفسير هذه الآية: ﴿إن مثلَ عيسى﴾ أي شأنه البديع المنتظم لغرابته في سلك الأمثال (عند الله) أي في تقديره وحكمه (كمثل آدم) أي كحاله العجيبة التي لا يرتاب فيها مرتاب ولا ينازع فيها منازع (خلقه من تراب) تفسير لما أبهم في المثل وتفصيل لما أجمل فيه، وتوضيح للتمثيل ببيان وجه الشبه بينهما وحسم لمادة شبه الخصوم. فإن إنكار خلق عيسى عليه الصلاة والسلام بغير أب، مما لا يكاد يصح والمعنى خلق قالبه من تراب (ثم قال له كن) أي أنشأه بشراً كما في قوله تعالى: ﴿ثم أنشأناه خلقا آخر﴾ أو قدر تكوينه من التراب ثم كونه ويجوز كون ثم لتراخي الأخبار لا لتراخي المخبرية (فيكون) حكاية حال ماضية. روي أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ مالك تشتم صاحبنا قال:

---

(١) ص ٢٤٠ من كتاب تفسير القرطبي جـ ط دار- الشعب- القاهرة.

(٢) ص ٢٢٧ جـ ٦ فتح الباري شرح البخاري.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٥٠.

وما أقول: تقول انه عبد قال: أجل هو عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول فغضبوا وقالوا هل رأيت إنساناً من غير أب فحيث سلمت إنه لا أب له من البشر وجب أن يكون أبوه هو الله فقال عليه الصلاة والسلام إن آدم عليه الصلاة والسلام ما كان له أب ولا أم ولم يلزم من ذلك كونه إبناً لله سبحانه وتعالى. (الحق من ربك) خبر مبتدأ محذوف أي هو الحق أي ما قصصنا عليك من نبأ عيسى عليه الصلاة والسلام وأمه[1].

والإمام ابن كثير يزيد هذا الأمر توضيحاً ويبين أن خلق عيسى بهذه الطريقة من مظاهر قدرة الله. فهو سبحانه وتعالى على كل شيء قدير.

يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية (إن مثل عيسى عند الله) في قدرة الله حيث خلقه من غير أب (كمثل آدم) حيث خلقه من غير أب ولا أم بل (خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) فالذي خلق آدم من غير أب قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى، والأحرى، وإن جاز ادعاء البنّوة في عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى ومعلوم بالاتفاق ان ذلك باطل. فدعواه في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً ولكن الرب جل جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر كما خلق بقية البشرية من ذكر وأنثى، ولهذا قال تعالى في سورة مريم: ﴿ولنجعله آية للناس﴾[2].

فثبت من هذا أن عيسى عليه السلام من بني آدم متساوي معه في أصل الخلقة ولا فضل له على غيره إلا أنه نبي مرسل يوحي إليه. كما قال تعالى: ﴿تلكَ الرسلُ فضَّلنا بعضَهم على بعضٍ منهم من كلَّم الله ورفعَ بعضَهُمْ درجاتٍ وآتينا عيسى بنَ مريمَ البيناتِ وأيدناهُ بروحِ القُدُس﴾[3].

---

(١) ص ٢٤٣ من كتاب تفسير ابي السعود جـ ١.

(٢) ص ٣٦ تفسير ابن كثير جـ ١.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥٣.

خلق حواء:

وأما حواء فقد خلقها الله لتكون زوجاً لأدم ومنها تكون الذرية التي تسكن الأرض وتعمرها وهي متحدة مع آدم في أصل خلقتها، ولا فرق بينها وبينه إلا في اختلاف بعض أجهزة التناسل والصفات التي تميز الأنثى عن الذكر، والأصل في ذلك قول الله تعالى: ﴿يا أيها الناسُ اتقوا ربكم الذي خلقكُمْ من نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءاً﴾(١).

وقد اختلف المفسرون في خلق حواء فالجمهور يرى أنها خلقت من ضلع آدم، ومنهم من قال: إنها خلقت من جنسه، ومنهم من قال: أنها من حور الجنة، ومنهم من قال: إن المراد بالنفس الواحدة هي الأنثى.

والرأي الراجح من هذه الآراء هو ما ذهب إليه الجمهور وقد وضحه الإمام أبو السعود فقال: (إنه تعالى خلق حواء من ضلع آدم عليه السلام. روى أنه عز وجل لما خلقه عليه السلام وأسكنه الجنة ألقى عليه النوم فبينما هو بين النائم واليقظان خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى فلما انتبه وجدها عنده(٢).

ويؤكد الإمام ابن كثير في تفسيره: أن المراد بقوله تعالى (خلق منها زوجها) المعنى المذكور أي أنها خلقت من ضلع من أضلاعه فيقول: (وخلق منها زوجها) وهي حواء عليها السلام خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم فاستيقظ فرآها فأعجبته. فأنس إليها وأنست إليه. وقال أبو حاتم حدثنا أحمد بن مقاتل حدثنا وكيع عن أبي هلال عن قتادة عن ابن عباس قال: خلقت المرأة من الرجل فجعلت نهمتها في الرجل وخلق الرجل من الأرض فجعلت نهمته في الأرض

---

(١) سورة النساء: الآية ١.

(٢) ص ٣١٢ من تفسير ابي السعود.

فاحبسوا نساءكم. وفي الحديث الصحيح (أن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج)[1].

وهكذا قال الإمام النسفي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وخلقَ منها زوجها﴾ حواء من ضلع من أضلاعه)[2]. فهؤلاء المفسرون وغيرهم اتفقوا على أن حواء خلقت من ضلع من اضلاع آدم.

وأما الرأي الثاني الذي ذهب إلى أن حواء خلقت من جنسه فقد اختاره أبو مسلم نقلاً عن الفخر وقد ورد ذلك في كتاب المنار حيث قال: إن معنى خلق منها زوجها خلقه من جنسها فكان مثلها فهو كقوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾[3].

وقوله: ﴿واللهُ جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾[4]. وقوله: ﴿فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[5]. وقوله: ﴿لقد منَّ على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾[6]. فلا فرق بين عبارة الآية التي نفسرها، وعبارة هذه الآيات، فالمعنى في الجميع واحد، ثم ذكر صاحب تفسير المنار رأياً ثالثاً يفيد بأن المراد بالنفس الواحدة هي الأنثى لأنه يتناسب مع تسمية السورة بالنساء. ووصف النفس بكلمة واحدة وهو يوضح ذلك في تفسيره فيقول: وإن في النفس الواحدة وجها آخر وهو أنها الأنثى ولذلك أنثها حيث وردت وذكر زوجها الذي خلق منها

(١) ص ٤٤٨ ابن كثير جـ ١.
(٢) ص ٢٠٤ من تفسير النسفي جـ ١.
(٣) سورة الروم: الآية ٢١.
(٤) سورة النحل: الآية ٧٢.
(٥) سورة الشوري: الآية ١١.
(٦) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.

آية الأعراف فقال: ﴿ليسكن إليها﴾ وعليه يظهر افتتاح السورة بها ووجه تسميتها بالنساء أكثر.[١]

ويرد على هذا الرأي لأنه لو كان الأمر كذلك لكان الناس من نفسين لا من نفس واحدة. وهذا خلاف النص.

ويعقب الإمام الآلوسي على هذا الرأي فيقول: والقول بأنه أي فائدة في خلقها من ضلع، والله تعالى قادر على أن يخلقها من تراب يقال عليه أن فائدة ذلك سوى الحكمة التي خفيت عنها. اظهار أنه سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق حياً من حي لا على سبيل التوالد كما أنه قادر على أنه يخلق حياً من جماد. كذلك لو كانت القدرة على الخلق من التراب مانعة عن الخلق من غيره لعدم الفائدة لخلق الجميع من التراب بلا واسطة لأنه سبحانه كما أنه قادر على خلق آدم من التراب هو قادر على خلق سائر أفراد الإنسان منه أيضاً. فما هو جوابكم عن خلق أناس بعضهم من بعض، مع القدرة على خلقهم كخلق آدم عليه السلام فهو جوابنا عن خلق حواء من آدم مع القدرة على خلقها من تراب.[٢]

وأما القول بأن حواء من حور الجنة فهو مردود لأن حور الجنة من جنس آخر. فيترتب عليه عدم إمكان التناسل بينها وبين آدم، وليس هناك في الآيات والأحاديث ما يشير إلى هذا فضلاً عن التصريح به، فيتبين من ذلك كله أن الرأي الأول وهو رأي الجمهور هو الراجح لموافقته صريح الآية ونص الحديث الصحيح.

وكلمة الزوج من المشترك اللفظي الذي يطلق على الرجل المتزوج وحده، وعلى المرآة المتزوجة وحدها. وهذا اللفظ حينما يراد منه المرآة المتزوجة لا

---

(١) ص ٢٧٠، ٢٧١ تفسير المنار جـ ٤ عدد ١٨.

(٢) ص ١٦٢ روح المعاني للالوسي جـ ٤.

يقترن بالتاء على الأفصح، ولكن علماء الميراث يستعملونه بالتاء ليفرقوا بين الرجل والمرأة فلا تلتبس الأحكام.

وسواء كانت حواء قد خلقت من ضلع آدم عليه السلام أو من جنسه أو أنها هي النفس التي خلق منها زوجها بمعنى خلق كل ذكر لأنثى ليتم التناسل فهي تتفق معه في أصل المادة التي وجدت منها الإنسانية وهي تقتضي ان الناس جميعاً سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمى إلا بالتقوى.

ونخلص من دراسة هذا المبحث بالنتائج الآتية:

(١) ان نعم الله تلبس كل ذرة في هذا الوجود. حيث ان الوجود نفسه هو نعمة بالنسبة للعدم.

يقول: أحمد الصاوي في حاشيته على الجلالين في تفسير قوله تعالى: ﴿الذي خَلَقَكَ فسوَّاكَ فعدلَكَ﴾[١] أي خلقك بعد أن لم تكن. لا شك أنه كرم لأنه وجود، والوجود خير من العدم، والحياة خير من الموت كما قال تعالى: ﴿كيف تكفرونَ باللهِ وكنتمْ أمواتاً فأحياكم﴾[٢].

(٢) قد لوحظ أن الصلصال كان طوراً من أطوار آدم فقط فهو وحده الذي صور من الطين فلا يدخل أبناءوه في هذا الطور من الخلقة، وأما الماء النطفة فمراد به أبناء آدم فقط، ولا يدخل معهم آدم فهو قد خلق من الطين مباشرة وبقية أطوار المادة الأولى تطلق على الإنسان الأول، كما يمكن أن يخاطب بها بنوه، وقد ورد الخطاب بصيغة الجمع في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿والله خلقكم من تراب﴾ (وكلمة السلالة كما تطلق على خلاصة عناصر الأرض تطلق كذلك على خلاصة الأغذية التي تخلق منها النطفة التي هي أصل الإنسان الثاني.[٣]

---

(١) سورة الانفطار: الآية ٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨.

(٣) ص ٤١٤، ٤١٥ من كتاب حاشية أحمد الصاوي على الجلالين.

(٣) من المعلوم أن الجن مخلوق قبل الإنس ولكن القرآن الكريم عندما تحدث عن خلق الإنسان قدمه على الجن تشريفاً للإنسان وتكريماً له في الخلق حيث أمر الله الملائكة ومعهم الجن أن يسجدوا له احتفاءً لمولده ووجوده على هذه الأرض.

(٤) أن القرآن الكريم قد تحدث عن أن الناس جميعاً قد خلقوا من أصل واحد وذلك لتذكيرهم بأنهم جميعاً خلقوا من نفس واحدة. وقد ورد هذا التعبير في آيات أربع وهي:

أ- ﴿يا أيُّها الناسُ اتقوا ربكم الذي خلقكُمْ من نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجَها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءاً﴾(١).

ب-﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقرٌ ومستودعٌ﴾(٢).

حـ-﴿وهو الذي خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها ليسكُنَ إليها﴾(٣).

د- ﴿خلقكم من نفس واحدة، ثم جعلَ منها زوجها ....﴾(٤).

(٥) يلاحظ أن الإنسان الأول قد مر في خلقته بسبعة أطوار حتى صار إنساناً سوياً هي: ١- التراب، ٢- الطين بعد إضافة الماء للتراب. ٣- الطين اللازب، ٤- الحمأ المسنون، ٥- الصلصال، ٦- التصوير، ٧- نفخ الروح فيه.

يقول الراغب الاصفهاني ذكر الله تعالى العناصر التي خلق منها آدم عليه السلام ونبه على أنه جعله إنساناً في سبع درجات وأشار إلى ذلك في مواضع مختلفة حسب ما اقتضته الحكمة. فذكر في موضع خلقه من تراب إشارة إلى المبدأ الأول، وفي آخر من طين اشارة إلى الجمع بين التراب

---

(١) سورة النساء: الآية ١.

(٢) سورة الانعام: الآية ٩٨.

(٣) سورة الاعراف: الآية ١٨٩.

(٤) سورة الزمر: الآية ٦.

والماء، وفي آخر من حمأ مسنون إشارة إلى الطين المتغير بالهواء أدنى تغير، وفي آخر من طين لازب إشارة إلى الطين المستقر على حالة من الاعتدال يصلح لقبول الصورة. وفي آخر من صلصال كالفخار وهو الذي قد أصلح بأثر من النار فصار كالخزف وبهذه القوة النارية حصل في الإنسان آثر من الشيطنة على هذا المعنى دل بقوله: ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار﴾ فنبه على أن الإنسان فيه من القوة الشيطانية بقدر ما في الفخار من أثر النار وأن الشيطان من المراج الذي لا استقرار له. ثم نبه الله على تكميل الإنسان بنفخ الروح فيه فقال: ﴿إني خالقٌ بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقَعُوا له ساجدينَ﴾ فهذه سبع درجات نبه عليها كما ترى[1].

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن الفصل الأول من الباب الثالث وهو آدم بين الخلق والنبوة وكانت دراستنا تدور حول موضوع الخلق محاولين على ضوء ما ذهب إليه العلماء في تفسير آيات الخلق التوفيق بين وحداتها الموضوعية قدر ما وسعنا الجهد، ولعلنا بهذا نكون دحرنا ما ذهب اليه التطوريون والداروينيون من أصحاب نظرية النشوء والارتقاء، الذي هو محض افتراء على العلم والحقيقة، وهدفهم في هذا التشكيك في أصول الأديان ولكن الله متم نوره ولو كره الكافرون.

(١) انظر الراغب الاصفهاني.

الفصل الثاني:

نبوة آدم عليه السلام

لقد عرفنا أنه من الثابت المعلوم الذي أيدته براهين السماء . وأجمعت على تأييده أدلة الأرض وعلومها التجريبية أن أصل الأنسانية يرجع إلى آدم عليه السلام[1]. فهو أول مخلوق إنساني أنزله الله الى الارض بعد أن خلقه ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته في السماء . وكان انزاله الى الارض لحكمة ارادها الله سبحانه . وهي الخلافة والعمارة في الارض ثم عبادة الله سبحانه وفق شرعه ومنهجه كما بينا سابقا .

ثم تفرعت من آدم أصول البشر وفروعهم وانتشرت بعد ذلك شعوبهم في أنحاء الارض. فهو أبو الجميع وإليه ينسبون. كما قال تعالى: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان..... الآية﴾[2].

وقد أنزله الله الى الأرض بعد ما علمه وتاب عليه وهداه- بعد فتنة الشيطان له كما ورد في الآية السابقة- يقول تعالى: ﴿... ثم اجتباهُ ربُّهُ فتابَ عليه وهدى. قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدوّ فإما يأتينكم مني هدىً فمن اتبع هداي فلا يضلُّ ولا يشقىٰ. ومن أعرضَ عن ذكري فإنَّ له معيشةً ضنكاً ونحشرهُ يومَ القيامة أعمىٰ﴾[3]. فنزل عليه السلام ليعبد الله في هذه الارض. وليورِّث أبناء يعلمهم عبادة الله وتوحيده ليخلفوه بعد موته في عمارة الأرض. فعلمهم وبصرهم بشرع الله وهداه الذي أوحاه إليه فمنهم من اهتدى ومنهم من كفر ، وهذه حكمة الله .

---

(١) انظر مع الانبياء في القرآن (ص ٤٠).

(٢) سورة الاعراف: آية رقم ٢٧ .

(٣) سورة طه: آية رقم ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ .

وهكذا يتبين لنا: أن آدم عليه السلام نزل من السماء عارفاً بأمور الله عالماً بدينه وشرعه، وأنه لم يرسل لأحد غيره في هذه الدنيا سبقه إليها ليدعوه ويعلمه أمور دين أو شرع أبداً. إذاً فليس رسولاً مبعوثاً إلى أحد. لأن الرسول هو من يوجه ويبعث برسالة الى مجموعة من الناس أو الجن ليدعوهم ويعلمهم دينهم. ولكن يصح أن يقال إن آدم نبيا لأنه كان عالما بأحكام الله وموحي اليه بأخبار مستقبلية منها أنه اذا عصى أحد من بنيه يهلك واذا أطاع أحد من بنيه يحيا حياة طيبة، قال تعالى ﴿قُلنا اهبطوا منها جمعياً فإما يأتينكم مني هدىً، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾(١)، وهذا ما أرجحه وأميل اليه.

واختلف العلماء في رسالته. أما نبوته فاتفقوا عليها ولم يخالف فيها أحد أبدا. إذاً فهو أول الانبياء من غير جدال... أما كونه أول الرسل فهذا ما فيه الخلاف.. الذي نقدم لك ملخصا له:-

قال بعض العلماء: إن آدم هو أول الرسل مستدلِّين بقوله تعالى: ﴿إن اللهَ اصطفى آدمَ ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمرانَ على العالمينَ﴾(٢) وليس في هذا دلالة واضحة إلاّ على إختيار الله لتلك الأسر من بين الناس للنبوة فقط.

وقال آخرون: إن نوحاً هو أول الرسل مستدلين على ذلك بحديث الشفاعة وفيه «يا نوحُ أنت أول رسول أرسله الله الى أهل الارض»(٣).

والقول الظاهر في هذا- والله أعلم- أن آدم هو أول الانبياء وأبوهم وأن نوحا هو أول رسل المنذرين. بدليل حديث أبي ذر (رضي الله عنه) «قلت يا رسول الله أي الأنبياء كان أول؟ قال آدم. قلت: يا رسول الله أو نبي كان؟ قال:

---

(١) سورة البقرة: آية رقم ٣٨/٣٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٣.

(٣) أنظر كتاب الفرق والأديان والمذاهب (ص ١١) وأما الحديث فهو في صحيح البخاري جـ ٦ ص ١٠٥ طبعة الشعب سنة ١٣٧٨هـ.

نعم كان نبي مكلم. قلت: يا رسول الله كم المرسلون؟ قال: ثلاثمائة وبضعة عشر جما غفيراً» رواه أحمد [1]. فنرى رسول الله ﷺ ذكر نبوة آدم أولا، ثم فرق أبو ذر في سؤاله إذ قال كم المرسلون ولم يقل كم الأنبياء، ولو لم يكن هناك فرق لما تغيرت صيغة السؤال... والله أعلم.

ويعضد هذا أن التوراة ذكرت أن أول رسول على الأرض هو نوح- عليه السلام- كما ذكر النبي- ﷺ- في حديث أبي ذر. وهذا هو النص:

(وبارك الله نوحا وبنيه، وقال لهم: أثمروا واكثروا وأملأوا الأرض ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض وكل طيور السماء. مع كل ما يدب على الارض وكل أسماك البحر قد دفعت الى أيديكم كل دابة حية تكون لكم طعام كالعشب الأخضر دفعت اليكم الجميع غير أن لحما بحياته دمه لا تأكلوه، سافك دم الانسان يسفك دمه) (تكوين ٩: ١- ٦) وهذا معناه أنه أباح وحرم. والإباحة والتحريم تشريع.

ومما هو جدير بالانتباه أن نبوة آدم كانت الى قوم مؤمنين معه وهم زوجته وأبناؤه لتعليمهم وتفقيههم في دين الله[2].

أما رسالة نوح أو بعثته فهي الى قوم كافرين مشركين يعبدون الأصنام قبل الطوفان، وبعد الطوفان إلى من يؤمن به. وقد دعا قومه مرة بعد مرة للعودة الى الدين الصحيح فهو بذلك مبلغ.. والنص القرآني صريح في ذكر إرساله إلى قومه وإنذاره لهم يقول تعالى: ﴿إنا أرسلنا نوحاً إلى قومِهِ أن أنذر قومك من قبل أنْ يأتيهم عذابٌ أليمٌ﴾[3]. وأقول أيضا بأنه لم يرد في كتاب الله عن آدم أي لمحة بارساله... أو نحو ذلك.

ومن هنا جاء القول والتأكيد أن نوحاً هو أول رسول مرسل وأن آدم هو

---

(١) أنظر النبوة والانبياء للصابوني (ص ١٤) وقد رواه أحمد في مسنده جـ ٥ ص ٢٦٥.
(٢) انظر كتاب أركان الايمان (ص ١٦٣).
(٣) سورة نوح: آية ١.

أول نبي على الاطلاق. وسوف نفصل الكلام في هذه المسألة في حديثنا إن شاء الله عن رسالة نوح في الباب التالي.

ما ورد في عدد الانبياء والرسل:

ثم تتابعت النبوات والرسالات بعد نوح عليه السلام الى أن ختمها الله بمحمد ﷺ. وقد قال بعض أهل العلم: إن عدد الأنبياء يزيد على مائة وعشرين ألفا. وعدد المرسلين يزيد على الثلاثمائة وعشرة. واستدلوا على عدد الرسل بحديث أبي ذر الذي مر ذكره معنا برواية أخرى للحديث عن أبي أمامة وهي قال أبو ذر: قلت يا رسول الله كم وفاء عدة ألانبياء؟ قال: مائة الف وعشرون ألفاً والرسل منهم ثلاثمائة وخمسة عشر جما غفيرا «أخرجه أحمد أيضا»[1].

وقال الشيخ عبدالقاهر البغدادي صاحب كتاب «الفرق بين الفرق»:- (أجمع أصحاب التواريخ من المسلمين على أن أعداد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مائة ألف وأربعمائة وعشرون ألفا. كما وردت الأخبار الصحيحة بذلك، أولهم أبونا آدم عليه السلام. وأخرهم نبينا محمد ﷺ، وأجمعوا على أن الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر كعدد الذين جاوزوا مع طالوت النهر ولم يشربوا منه وثبتوا معه في قتال جالوت. وكذلك كان عدد أصحاب بدر مع النبي ﷺ يوم بدر)[2].

وذكر القرطبي[3] أن أصح حديث في عدد الانبياء هو ما رواه الحاكم وأحمد في مسنده وابن حبان عن أبي ذر رضي الله عنه قال: (دخلت على رسول الله ﷺ وهو في المسجد، فأغتنمت خلوته، فقال لي: يا أبا ذر إن للمسجد ركعتين. فركعتها، ثم قلت يا رسول الله إنك أمرتني بالصلاة فما الصلاة؟ قال:

---

(١) أنظر كتاب النبوة والأنبياء للصابوني (ص ١٤) والحديث برواية ابي أمامة ذكره أحمد في جـ ٥ ص ٢٦٥.

(٢) أنظر كتاب (أصول الدين) لعبدالقاهر البغدادي ص ١٥٨ طبعة بيروت ١٤٠٠هـ.

(٣) تفسير القرطبي جـ ٦ ص ١٩ طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، ١٣٨٧هـ.

خير موضوع، فمن شاء أقل، ومن شاء أكثر. ثم ذكر الحديث الى أن قال: قلت كم النبيون؟ قال: مائة وأربعة وعشرون ألف نبي، قلت: كم المرسلون منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر، وذكر الحديث...)[1]

هذا ما تناقله العلماء حول عدد الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

أما الذين ذكرهم القرآن الكريم من الانبياء والرسل فعددهم قليل جدا لا يتجاوز خمسة وعشرين شخصاً. وهم آدم ونوح وإدريس وهود وصالح وشعيب ويونس والياس واليسع وذا الكفل وابراهيم ولوط واسحاق وأيوب واسماعيل ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا وداود وسليمان وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

وقد ذكرهم القرآن الكريم في سبعة مواضع متفرقة في عدد من الآيات الكريمة قال تعالى ﴿وتلكَ حجتنا آتيناها ابراهيم على قومِهِ نرفع درجات من نشاء إن ربكَ حكيم عليمٌ. ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا، ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنينَ★ وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين★ واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمينَ﴾[2]، فهذه الآيات ذكر فيها ثمانيـة عشر رسولا، وهناك سبعة ذكروا في الآيات الآتية قال الله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ اصطفى آدمَ ونوحاً وآل ابراهيمَ وآل عمرانَ على العالمينَ﴾[3]، وقال: ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾[4] ﴿والى ثمودَ أخاهم صالحاً﴾[5]، ﴿وإلى مدين

(١) أنظر مستدرك الحاكم جـ ٢ ص ٥٩٧، ومسند أحمد جـ ٥ ص ٢٦٥.
(٢) سورة الانعام: آية ٨٣، ٨٦.
(٣) سورة آل عمران: آية ٣٣.
(٤) سورة الاعراف: آية ٦٥.
(٥) سورة هود: آية ٦١.

أخاهم شعيباً﴾(١)، ﴿وإسماعيلَ وإدريسَ وذا الكفلِ كلٌّ منَ الصابرينَ﴾(٢)، ﴿ما كانَ محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتمَ النبيِّينَ﴾(٣).

وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ورسلاً قد قصصناهم عليكَ مِنْ قبلُ ورسلاً لم نقصصهم عليكَ وكَلَّمَ اللهُ موسى تكليماً﴾(٤).

وبعد أن تحدثنا عن بداية النبوة من لدن آدم عليه السلام وتعداد الانبياء جملة وتفصيلا فمن المستحسن ان نعرف أن هناك من الرسل المذكورين تفصيلا من عرفوا بأولى العزم وهم خمسة: نوح، وابراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلى الله عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿فاصبْر كما صبرَ أولو العزمِ من الرسلِ﴾(٥) وقال: ﴿.. وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنكَ ومنْ نوحٍ وابراهيمَ وموسى وعيسى ابن مريمَ واخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾(٦).

وبعد، هذا هو ما دار بين العلماء والباحثين حول أبي الأنبياء بين مراحل خلقه ونبوته.

وقد رأينا فيها على ضوء الكتاب والسنة، أن ما جاء في القرآن حول مراحل خلق أبي الأنبياء لا يتعارض مع حقائق العلم ومقرراته. كما أن ما جاء حول نبوته عليه السلام يقوم برهاناً ودليلاً على أن آدم كان نبياً وأوحي اليه بشرع عمل به ودعا اليه.

---

(١) سورة هود: آية ٨٤.
(٢) سورة الانبياء: آية ٨٥.
(٣) سورة الاحزاب: آية ٤٠.
(٤) سورة النساء: آية ١٦٤.
(٥) سورة الاحقاف: آية ٣٥.
(٦) سورة الاحزاب: آية ٧.

الباب الرابع

أبرز الرسل والانبياء بين رؤية أهل الكتاب ونبأ القرآن الكريم

الفصل الأول:

النبوة والرسالة على يد نوح عليه السلام.

الفصل الثاني:

إبراهيم عليه السلام بين زيف الدعوى وحقيقة الإنتماء.

الفصل الثالث:

إسماعيل وإسحاق عليهما السلام في كنعان.

الفصل الرابع:

إسحق ويعقوب عليهما السلام بين تزييف التوراة وصدق القرآن.

الفصل الخامس:

قصص موسى عليه السلام في عطاء القرآن الكريم.

الفصل السادس:

قصص داود وسليمان عليهما السلام بين كتب اليهود والنصارى وبين عطاء القرآن الكريم.

الفصل السابع:

نبوة عيسى عليه السلام.

الباب الرابع

أنبياء الله بين رؤية التاريخ ونبأ القرآن الكريم

الفصل الأول:

النبوة والرسالة على يد نوح عليه السلام

تخلو معظم كتب أهل الكتاب من اليهود والنصارى بعد تحريفها من ذكر شيء يتصل بنبوة نوح أو أمر رسالته عليه السلام. كذلك فإن الأولين من علماء السير وكتاب التراجم لم يفردوا بنوع من التفصيل لهذا النبي الكريم كتباً مستقلة تتناول من سيرته العبرة والدرس باعتباره حلقة رئيسية في سلسلة أنبياء الله ورسله ومن لدن آدم حتى النبي الخاتم ﷺ، وسوق نلقي الضوء بإذن الله بنوع من التوسع والعناية على نبوة ورسالة نبي الله نوح عليه السلام من خلال مباحث ثلاثة، نحاول من خلالها أن نعرض لما جاء حول هذا النبي الكريم.

المبحث لأول: رسالة نوح وما يثبتها.
والمبحث الثاني: عموم رسالة نوح.
والمبحث الثالث: جهود نوح في دعوته.

أما عن المبحث الأول: رسالة نوح وما يثبتها فنقول وبالله التوفيق: لا شك أنه لو لم يحدثنا الله عز وجل في القرآن الكريم عمن أرسل من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن لم يرسل ما علمنا من خبرهم شيئاً على وجه التحقيق، لذلك كان القرآن الكريم هو العمدة في إثبات رسالة أي رسول يقال إنه أرسل

إلى الناس. ولما كان القرآن الكريم: هو الكتاب المهيمن على الكتب السابقة والصحيح المصدق لما بين يديه منها كما قال عنه سبحانه: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه﴾(١). كان هو العماد الاول في إثبات رسالة أي رسول حتى ولو نفاها كتاب من الكتب السابقة.

من هنا فإننا نجزم وبيقين أن نوحاً عليه السلام وإن لم تذكر التوراة في أي من إصحاحاتها عنه أية عبارة تفيد أنه أرسل إلى الناس، هو رسول من الله حقاً لأن القرآن الكريم قد ذكر ما يفيد أنه أرسل إلى قومه تارة بالتلميح وأخرى بالتصريح في أحد عشر موضعا منها.

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿إنَّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين﴾(٢). وقال سبحانه في سورة النساء: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيين من بعده﴾(٣) الآية: قال ابن كثير عن تفسير هذه الآية(٤):وهي رد عليهم يعني اليهود لما سألوا النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتابا من السماء) قال تعالى: ﴿فقد سألوا موسى أكبرَ من ذلكَ﴾ ثم ذكر فضائحهم ومعايبهم وما كانوا عليه وما هم عليه الآن من الكذب والإفتراء ثم ذكر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله محمد ﷺ كما أوحى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين. فقال: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده﴾ وقال في سورة الأنعام: ﴿ووهبنا له إسحقَ ويعقوبَ كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل﴾(٥).

---

(١) سورة المائدة: آية ٤٨.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٣.
(٣) سورة النساء: الآية ١٦٣.
(٤) تفسير بن كثير جـ ١ ط الحلبي ص ٥٨.
(٥) سورة الأنعام: الآية ٨٤.

قال الطبري عند تفسير هذه الآية[1]. ونوحا هدينا من قبل: يقول هدينا لمثل الذي هدينا إبراهيم واسحاق ويعقوب مع الحق والصواب، إلى أن يقول في نفس الموضع عند تفسير قوله تعالى: ﴿أولئك الذين آتيناهم الكتابَ والحكُمَ والنبوةَ﴾[2] ما نصه: يعني تعالى ذكره بقوله أولئك هؤلاء الذين سميناهم من أنبيائه ورسوله ونوح وذريته الذين هداهم لدين الاسلام.

وقال النيسابوري[3] ﴿كلاً هدينا ونوحاً هدينا) قيل: المراد الهداية إلى طريق الجنة بدليل قوله: ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾. فإن جزاء المحسن على إحسانه لا يكون إلا بالثواب وقيل لا يبعد أن يقال: المراد الهداية الى الدين والمعرفة بأنهم اجتهدوا في طلب الحق فجازاهم الله. بالوصال والوصول، كما قال: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ وقيل إنها الإشاد في النبوة والرسالة لأن الهداية المخصوصة بالانبياء ليست الا ذلك. وهذا إنما يصح عند من جوز أن تكون الرسالة جزاء على عمل.

قال الرازي[4] موردا اعتراضا على هذا المعنى الذي قاله النيسابوري ومجيبا عليه ما نصه: فان قالوا: لو كان الامر كذلك: لكان قوله (وكذلك نجزي المحسنين) يقتضي: أن تكون الرسالة جزاء على عمل، وذلك باطل، قلنا: يحمل قوله تعالى: ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ على الجزاء.. الذي هو الثواب والكرامة، فيزول الإشكال والله أعلم.

قال في سورة الاعراف (لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه)[5]. قال الشيخ رشيد رضا[6] عند تفسير هذه الآية: بدأ الله تعالى هذه القصة بالقسم.

---

(١) تفسير بن جرير الطبري جـ ١ ط الاميرية ببولاق جـ ٧ ص.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٨٩.

(٣) رغائب القرآن وغرائب الفرقان للنيسابوري ط السابعة على هامش الطبري جـ ٧ ص ١٧٢، ١٧٤.

(٤) تفسير الفخر الرازي المطبعة الاميرية ببولاق جـ ١٣ ص ٦٦.

(٥) سورة الأعراف: الآية ٥٩.

(٦) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ط حجازي بالقاهرة جـ ٨ ص ٤٩.

لتأكيد خبرها الأول لمن وجه اليهم الخطاب بها، وهم أهل مكة ومن وراءهم من العرب اذ كانوا ينكرون الرسالة والوحي، على كونهم أميين ليس عندهم من علوم الأمم وقصص الرسل شيء، إلا أن يكون كلمة في بيت شعر مأثور أو عبارة ناقصة، من بعض أهل الكتاب حيث كانوا يلقونهم من بلاد العرب أو الشام، أو ممن تهود أو تنصر منهم، وكلهم أو جلهم ظلوا على أميتهم.

وقال سبحانه وتعالى في سورة هود: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين﴾[1]. وقال جل ذكره في سورة مريم: ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح﴾[2]. وقال جل ثناؤه في سورة المؤمنين: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقونَ﴾[3]. وقال عز اسمه في سورة العنكبوت: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألفَ سنة إلا خمسين عاماً﴾[4]. وفي سورة الاحزاب يبين الله تعالى أنه أخذ من النبيين ميثاقهم. ثم يفرد بالذكر طائفة منهم تشريفا لهم وتعظيما ودلالة على أن النبوة كانت في البداية كما هي في النهاية حيثما جمع سبحانه بين أول رسول وآخر رسول فقال سبحانه:

﴿وإذْ أخذنا من النبيين ميثاقَهُم ومنكَ ومنْ نوحٍ وابراهيمَ وموسى وعيسى ابن مريمَ وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾[5].

قال الطبري في تعريف الميثاق: هو مفعال من الوثيقة إما بيمين واما بعهد أو غير ذلك.[6] وقال رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وإذ أخذَ اللهُ ميثاق

---

(١) سورة هود: الآية ٢٥.
(٢) سورة مريم: الآية ٥٨.
(٣) سورة المؤمنون: الآية ٢٣.
(٤) سورة العنكبوت: الآية ١٤.
(٥) سورة الاحزاب: الآية ٧.
(٦) تفسير ابن جرير الطبري ط الاميرية ببولاق جـ ١ ص ٢٥٧.

النبيينَ.... الآية﴾. (وأولى هذه الاقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك الخبر عن أخذ الله الميثاق على أنبيائه بتصديق بعضهم وأخذ الأنبياء على أممها واتباعها بنحو ذلك ما أخذ عليها من تصديق أنبيائه ورسله بما جاءتها به لأن الأنبياء عليهم السلام بذلك أرسلت الى أممها ولم يدع أحد ممن صدق المرسلين أن نبياً أرسل الى أمة بتكذيب أحد من أنبياء الله عز وجل. وان كذب بعض الأمم أنبياء الله بجحودها نبوته، فهي مقرة بأن من تثبت صحة نبوته فعليها الدينونة بتصديقه، فذلك: ميثاق أقرّ به جميعهم. ولا معنى لقول من زعم أن الميثاق إنما أخذ على الأمم دون الأنبياء لأن الله عز وجل قد أخبر أنه: أخذ ذلك من النبيين. فسواء قال قائل لم يأخذ ذلك منها ربها، أو قال: لم يأمرها ببلاغ ما أرسلت...) ثم قال: (وأما ما استشهد به الربيع بن أنس على أن: المعنى بذلك أهل الكتاب في قوله «لتؤمنن به ولتنصرنه» فإن ذلك غير شاهد على صحة ما قال. لأن الأنبياء قد أمر بعضها بتصديق بعض وتصديق بعضها بعضا. نصرة من بعضها بعضا) أ. هـ كلام الطبري(١).

وقد أقر جميع الانبياء بقبول هذا الميثاق وأخذ العهد على تنفيذه كما أخبر الله سبحانه بذلك في قوله ﴿قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا. قال فأشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾(٢).

وعن هذا الميثاق نفسه: كان حديث الآية التي وردت في سورة الاحزاب إذ يقول الطبري(٣). يقول تعالى: ﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ إذ كتبنا ما هو كائن في الكتاب وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم كان ذلك أيضاً في الكتاب مسطورا ويعني بالميثاق العهد وقد بينا ذلك بشواهده فيما مضى قبل(٤)

(١) تفسير ابن جرير الطبري ط الاميرية ببولاق جـ ٣ ص ٢٣٧.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٨١.
(٣) تفسير ابن جرير الطبري ط الكبرى الاميرية- ببولاق جـ ١ ص ٧٩.
(٤) المقصود بهذا البيان ما جاء به الطبري في كتاب جامع البيان في تفسير القرآن من الجزء الاول ص ٢٥٧ والجزء الثالث ص ٢٣٧.

(ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا﴾. يقول: وأخذنا من جميعهم عهدا مؤكدا أن يصدق بعضهم بعضا، كما حدثنا بشر قال: حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة وقوله: أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث. وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا. ميثاق أخذه الله على النبيين خصوصاً أن يصدق بعضهم بعضاً وأن يتبع بعضهم بعضاً.

وقال في سورة الحديد(١) ﴿ولقد أرسلنا نوحاً وابراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب﴾ وقال سبحانه في سورة نوح(٢): ﴿إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيَهم عذاب أليم﴾. كل هذا الحشد من الآيات الكريمة، يجعلنا نجزم في يقين لا تشوبه شائبة شك، بثبوت رسالة نوح عليه السلام.

فهل هو أول رسول إلى الأرض أم سبقه رسل من قبله؟

يقول الله تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين منْ بعدهِ﴾(٣). فمفهوم هذه الآية الكريمة: يعطي أن الله عز وجل لم يوح إلى أحد من الناس باستثناء آدم عليه السلام قبل نوح عليه السلام. يؤكد هذا المفهوم: أن الله تبارك وتعالى لم يذكر من القرآن آية واحدة تبين أن أحداً من الناس قبل نوح عليه السلام قد أرسل إلى أهل الأرض عامة أو إلى قومه خاصة.

كما يؤكد هذا المفهوم أيضاً ويؤازره:

﴿ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: يجمع الله المؤمنين يوم القيامة كذلك فيقولون.لو استشفعنا إلى

---

(١) سورة الحديد: الآية ٦.
(٢) سورة نوح: الآية ١.
(٣) سورة النساء: الآية ١٦٣.

ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيأتون آدم فيقولون يا آدم أما ترى الناس، خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء أشفع لنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول لست هناك، ويذكر لهم خطيئته التي أصاب، ولكن ائتوا نوحاً، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحاً فيقول لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب، ولكن ائتوا ابراهيم خليل الرحمن. فيأتون ابراهيم فيقول لست هناكم، ويذكر خطاياه التي أصابها، ولكن ائتوا موسى عبداً آتاه الله التوراة وكلمه تكليماً، فيأتون موسى فيقول لست هناكم ويذكر لهم خطيئته التي أصاب، ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمته وروحه. فيأتون عيسى فيقول لست هناكم، ولكن ائتوا محمداً ﷺ عبداً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني فأنطلق فأستأذن على ربي فيؤذن لي عليه فإذا رأيت ربي وقعت له ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال لي أرفع محمد وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها ثم أشفع فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال ارفع محمد وقل يسمع وسل تعطه، وأشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها ربي. ثم أشفع فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال أرفع محمد قل تسمع، وسل تعطه، وأشفع تشفع. فأحمد ربي بمحامد علمنيها ثم أشفع فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فأقول يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود... الحديث﴾(١).

يتبين في هذا الحديث الشريف أن أهل المحشر قد جعلوا الميزة التي ظنوا أن آدم عليه السلام سيشفع لهم بها عند ربه أنه: أبو الناس وأن الله خلقه بيده وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء ولم يقولوا له أنت أول رسول وأن آدم نفسه عليه السلام جعل الميزة التي حسب أن نوحاً سلام الله عليه سيشفع للناس بها عند ربه: أنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فلو كان أحد من

(١) صحيح البخاري ط مطابع الشعب سنة ١٣٧٨ هـ جـ ٩ ص ١٤٩/ ١٥٠.

الذين سبقوا نوحاً عليه السلام وأولهم أبو البشر آدم قد بعث إلى الناس رسولاً ما قال آدم عليه السلام عن نوح عليه السلام إنه أول رسول كما أخبر بذلك الصادق المعصوم ﷺ.

وقد روى البخاري[1] عند قوله تعالى: ﴿ذريةَ من حملنا مع نوحٍ﴾ الآية بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ حديثاً كحديث أنس بن مالك في المعنى غير أن حديث أبي هريرة قد جاء فيه: أن الناس هم الذين يقولون لنوح عليه السلام: عندما يطلبون منه الشفاعة لهم: أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وليس آدم عليه السلام، كما في حديث أنس فإذا جمعنا بين الحديثين ظهر لنا: أن آدم كما شهد لنوح بأولية الرسالة فقد شهد له بها أيضاً أهل الأرض جميعاً لكن هذا المفهوم المستفاد من آية (إنا أوحينا) وما أكده في النص الصحيح عن النبي ﷺ. والصريح في أن نوحاً عليه السلام: هو أول رسول إلى أهل الأرض قد عورض بحديث أبي ذر الذي رواه ابن مردويه في تفسيره وأبو حاتم ابن حبان البستي في كتاب: الأنواع والتقاسيم كما ذكر الحافظ ابن كثير ذلك في تفسيره[2] رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾ ونصه:

(واختلف العلماء في عدد الأنبياء والمرسلين والمشهور في ذلك حديث أبي ذر الطويل وذلك فيما رواه ابن مردويه رحمه الله في تفسيره حيث قال [3]: حدثنا ابراهيم بن محمد حدثنا جعفر بن محمد والحسن والحسين بن عبد الله بن يزيد قالا: حدثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني حدثني أبي عن جدي عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال مائة ألف وأربعة وعشرون ألف. قلت: يا رسول الله كم الرسل منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً. قلت يا رسول الله: من كان أولهم؟ قال آدم. قلت يا

(١) صحيح البخاري ط الشعب سنة ١٣٧٨ هـ جـ ٦ ص ١٠٥.

(٢) تفسير ابن كثير ط الحلبي جـ ١ ص ٥٨٥.

(٣) (السيوطي) في كتابه (إنباه الأذكياء في حياة الأنبياء) طبعة الدكن الهند عام ١٩٦١ م صفحة ٨١.

رسول الله: نبي مرسل. قال: نعم خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبلا. ثم قال: يا آبا ذر أربعة سريانيون آدم، وشيت ونوح وخنوخ وهو إدريس وهو أول من خط بالقلم، وأربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر، وأول نبي من بني اسرائيل: موسى وآخرهم: عيسى وأول النبيين آدم وآخرهم محمد ﷺ هذا ما رواه ابن مردوية في تفسيره كما ذكره ابن كثير وقد ذكر بعد ذلك أن أبا حاتم ابن حبان البستي: قد روى هذا الحديث بطوله في كتابه (الأنواع والتقاسيم) ثم ساق الحديث وفيه: أمر الصلاة والصوم والصدقة وأفضل آيات القرآن الكريم وعدد الأنبياء والرسل وأن آدم نبي مرسل وعدد الكتب التي أنزلت عليهم ووصف بعضها كصحف إبراهيم وموسى إلى آخر ما جاء في رواية ابن حبان).

وقد حاول العلماء التوفيق بين ما جاء في حديث أبي ذر من أن آدم رسول من ناحية وبين مفهوم آية (إنا أوحينا). وما جاء في حديث أنس وأبي هريرة مروي في الصحيحين من من أن نوحاً هو أول الرسل إلى أهل الأرض من ناحية أخرى فقالوا في ذلك أقاويل مختلفة لخصها الشيخ رشيد رضا وأبدى رأيه في المسألة بعد فراغه من عرض تلك النقول. فقال[1] عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ونوحاً هدينا من قبل﴾ ما نصه: ﴿وقد اضطربت أقوال العلماء في الآية: ﴿إنا أوحينا إليك﴾ وحديث الشفاعة قال الرازي في تفسير الآية. ﴿المسألة الثالثة﴾ قالوا : انما بدأ الله بذكر نوح: لأنه أول نبي شرع الله على لسانه الأحكام الحلال والحرام ثم قال تعالى: ﴿والنبيين من بعده﴾ ثم خص بعض النبيين بالذكر لكونهم أفضل من غيرهم. وتبعه النيسابوري وأبو السعود والخازن وغيرهم وزادوا على ذلك خصائص لنوح. قال الخازن ما نصه: قال مفسرون: وإنما بدأ بذكر نوح عليه السلام لأنه أول نبي بعث بشريعته وأول نذير على الشرك وأنزل الله عز وجل عليه عشر

(١) تفسير المنار ط المنار بمصر الطبعة الأولى جـ ٧ ص ٦٠٣.

صحائف وكان أول نبي عذبته أمته لردهم دعوته وكان أباً لبشر كآدم عليهما السلام. وذكر الألوسي: أن تعليل البدء بذكره بكونه أول من شرع الله على لسانه الأحكام قد تعقب بالمنع، ولم يذكر لهذا المنع سنداً ولا لقوله تعالى ﴿والنبيين من بعده﴾ حكمة ولا نكتة. وقد سكت عن ذلك أكثر المفسرين الذين اطلعنا على كتبهم فمفهوم تصريح هؤلاء المفسرين الناقلين عن غيرهم من العلماء أن آدم لم يكن رسولاً لأن الآية تدل عندهم على أول رسول شرع الله على لسانه الأحكام هو نوح عليه السلام.

وأما حديث الشفاعة فقد تكلم فيه الحافظ ابن حجر في عدة مواضع من شرح البخاري قال في شرح حديث جابر من كتاب (التيمم) اعطيت خمساً لم يعطهم أحد من قبلي- إلى قوله- وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة: وأما قول أهل الموقف لنوح كما صح في حديث الشفاعة أنت رسول إلى أهل الأرض. فليس المراد به عموم بعثته بل إثبات أولية رسالة وهذا اعتراف بأنه أول الرسل[1]. ثم قال في شرح حديث أبي هريرة من كتاب «أحاديث الأنبياء»: فأما كونه أول الرسل: فقد استشكل بأن آدم كان نبياً وبالضرورة نعلم أنه كان على شريعة من العبادة وأن أولاده أخذوا ذلك عنه فعلى هذا فهو رسول إليهم فيكون أول رسول، ويحتمل أن يكون الأولية في قول أهل الموقف لنوح مقيدة بقولهم: إلى أهل الأرض لأنه في زمن آدم لم يكن للأرض أهل، أو لأن رسالة آدم إلى بنيه كانت كالتربية للأولاد، ويحتمل أن يكون المراد انه أي نوح أول رسول إلى بنيه وغيرهم من الأمم الذين أرسل إليهم مع تفرقهم في عدة بلاد وآدم إنما أرسل إلى بنيه وكانوا مجتمعين في بلدة واحدة واستشكله بعضهم بادريس ولا يرد لأنه اختلف في كونه جد نوح[2].

---

(١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ص ٤٦٣ ج ـ طبعة دار الفكر بترتيب عبد الباقي.
(٢) فتح الباري لابن حجر ص ٣٧٢ حـ ٦ طبعة دار الفكر.

أقول: هذا الحديث كما أورده البخاري دليل على رسالة نوح، وقد ذكر البخاري بعده حديثاً في إلياس عليه السلام رد فيه الاستشكال بادريس عليه السلام،وفيه عن ابن مسعود وابن عباس أن إلياس هو إدريس وقال الحافظ عند الكلام على ترجمة الباب: وكان المصنف أي البخاري رجح عنده كون إدريس ليس من أجداد نوح فلذا ذكره بعده[١]. ثم قال في شرح حديث أنس من كتاب الرقاق بعد ذكر الإستشكال بآدم وشيث وإدريس: ومحصل الأجوبة عن الإشكال المذكور أن الأولية مقيدة بقوله: إلى أهل الأرض. لأن آدم ومن ذكر معه لم يرسلوا إلى أهل الأرض، إلى أن قال: وعموم بعثة نبينا لقومه ولغير قومه ثم قال: أو الأولية مقيدة بكونه أهلك قومه، أو أن الثلاثة كانوا أنبياء ولم يكونوا رسلاً انتهى. وإلى هذا جنح ابن بطال في حق آدم وتعقبه

وإلى هذا جنح ابن بطال في حق آدم، وتعقبه عياض بما صححه ابن حبان من حديث ابن ذر فإنه كالصريح في أنه كان نبياً مرسلاً وفيه التصريح بإنزال الصحف على شيث وهو علامات الإرسال. وأما إدريس: فذهبت طائفة إلى أنه كان في بني إسرائيل وهو إلياس وقد ذكر ذلك في أحاديث الأنبياء[٢]. ومن الأجوبة أن رسالة آدم كانت إلى بنيه وهم موحدون ليعلمهم شريعته ونوح كانت إلى قوم كفار يدعوهم إلى التوحيد[٣].

وظاهر أن جواب ابن بطال وهو أحد شراح البخاري من فقهاء المالكية الاندلسين أبعد الأجوبة المذكورة عن التكلف، وأولها باطل لأن أولاد آدم وأحفاده كانوا أهل الأرض لا السماء وباقيها لا يزيل الأشكال.

وتعقب القاضي عياض حديث أبي ذر: بقوله، فالحديث اختلف فيه فجزم ابن الجوزي: بأنه موضوع. وحقق السيوطي في (مختصر الموضوعات) أنه ضعيف وذكر ذلك في الدر المنثور واتفقوا على انتقاد ابن حبان لذكره إياه في

(١) فتح الباري لإبن حجر ص ٣٧٣ حـ ٦ طبعة دار الفكر.
(٢) انظر المرجع قبل السابق في حديث جابر في فتح الباري.
(٣) فتح الباري ص ٤٣٤ جـ ١١ طبعة دار الفكر ترتيب عبد الباقي.

صحيحه كما صرح بذلك الحافظ ابن كثير في تفسيره، وقد قدم القسطلاني جواب ابن بطال غير معزو إليه على غيره مما ذكر من تلك الأجوبة في شرحه لحديث أنس من كتاب الرقاق في البخاري فقال عند قول آدم: ائتوا نوحاً أول رسول بعثه الله أي بعد آدم وشيث وإدريس أو الثلاثة كانوا أنبياء ولم يكونوا رسل.. الخ[1] فالقسطلاني يعد القول بعدم رسالة آدم جواباً مقبولاً. وقال النووي في شرح حديث أنس من صحيح مسلم: قال الإمام أبو عبد الله المازري: قد ذكر المؤرخون: أن إدريس جد نوح عليهما السلام. فإن قام دليل على أن إدريس أرسل أيضاً لم يصح قول النسابين أنه قبل نوح لإخبار النبي ﷺ عن آدم: أن نوحاً: أول رسول بعث وإن لم يقم دليل: جاز ما قالوه. وصح أن يحمل على أن إدريس كان نبياً غير مرسل. قال القاضي عياض: وقد قيل إن إدريس: هو إلياس. وأنه كان نبياً في بني إسرائيل كما جاء في بعض الأخبار مع يوشع بن نون. فإن كان هكذا سقط الاعتراض.

قال القاضي: ويمثل هذا: يسقط الإعتراض بآدم وشيث ورسالتهما إلى من معهما وإن كانا رسولين فإن آدم إنما أرسل لبنيه ولم يكونوا كفاراً بل أمر بتعليمهم الإيمان وطاعة الله تعالى وكذلك خلفه شيث بعده فيهم. بخلاف رسالة نوح إلى كفار أهل الأرض.

قال القاضي: وقد رأيت أبا الحسن بن بطال ذهب إلى أن آدم ليس برسول ليسلم من الإعتراض وحديث أبي ذر الطويل ينص على أن آدم وإدريس رسولان. والله أعلم[2].

فجملة هذه النقول عن كبار المفسرين والمحدثين والفقهاء: أن آدم مختلف في رسالته وان إدريس مختلف في رسالته وفي كونه هو إلياس المذكور في آيات سورة الانعام أو غيره؟.

---

(١) (رسالة نوح) عليه السلام. وهي أطروحة للدكتوراه من جامعة الأزهر. كلية أصول الدين. للباحث: إبراهيم زيدان. صفحة ٢٤٦.

(٢) المرجع السابق.

فيكون عدد الرسل المجمع على وجوب الإيمان برسالتهم- لأن نص القرآن فيها قطعي- ثلاثة وعشرون فقط.

وأما ما جاء في السنة: فليس قطعي الرواية والدلالة على رسالة آدم وإن كانت كثرة الطرق التي جاء فيها ذكره ترجح هي الأخرى احتمالات كونه نبياً رسولاً. هذا وقد رجح عدد من العلماء بأن حديث أبي ذر لا يحتج به في الاحكام العملية التي لا يكتفي فيها بالدليل الظني. وهذه المسألة الإعتقادية يطلب فيها اليقين. لأن أهون ما قيل فيه: أنه ضعيف وقيل إنه موضوع ولو وجد العلماء حديثاً صحياً أو حسناً في إثبات رسالة آدم: لما لجؤوا إلى ذكره.

هذا ويرى الإمام الحافظ ابن حجر أن آدم كان نبياً رسولاً وقد ادعى الحافظ أن دليل رسالته عنده: أننا نعلم بالضرورة أنه كان على شريعة من العبادة وأن أولاده أخذوا ذلك عنه فعلى هذا: فهو رسول إليهم فيكون هو أول رسول.

وقد يقال: إن أخذ أولاده عنه لا يقتضي عقلاً أن يكون الله قد بعثه رسولاً إليهم يبلغهم عنه وجوب الإيمان بهذه الرسالة وما يترتب عليها من الأنذار والتبشير حتى يكون ذلك معارضاً لحديث الشفاعة، إذ يجوز أن يكون قد رباهم من الصغر على هدى الله إليه من الإيمان والعمل الصالح كما تقدم عن بعض العلماء.

ونزيد عليه: أن في القرآن الكريم نصاً يدل على انه كان يعلمهم العبادة وأحكام الحلال والحرام، وما يترتب عليها من الجزاء وهو نبأ بني آدم المفصل في سورة المائدة فمن العبادة فيه: تقريب القربان ومن الجزاء على الأعمال قول المعتدي عليه للمعتدي: ﴿إنّي أُريد أنْ تبوءَ بإثمي وإثمك فتكونَ من أَصحاب النار وذلكَ جزاءُ الظالمينَ﴾[1].

(١) سورة المائدة: آية رقم ٢٩.

ومن العجيب: أن يغفل بعض الحفاظ عن هذه الآيات ويكتفون من النقل بحديث أبي ذر الموضوع أو الضعيف، وبدعوى الضرورة العقلية التي ادعاها الحافظ بن حجر هنا، إلاّ إن كانوا لا يفهمون أنها تدل على رسالة آدم دلالة قطعية وإذا كانوا لا يفهمون ذلك فيم يستدلون؟

وجملة القول: في هذه المسألة كما ذهب إليه جمهور العلماء أن الثابت في المسألة هو أن آدم عليه السلام كان على هدى من الله يعمل به ويربى عليه أولاده وان هذا الهدى من جنس هداية الله للنبيين والمرسلين التي بلغوها أقوامهم ولا ندري كيف هدى الله تعالى آدم إليها فإن طرق الهداية والتبليغ الإلهي متعددة، وكان الظاهر المتبادر أن ذلك كان يوحي الرسالة وأنه في مقام الرسول. لولا عارضه حديث الشفاعة، وآية ﴿إنا أوحينا إليك﴾ وما يؤيدها مما تقدم، ومن احتمال أن ذلك من هداية الفطرة السليمة التي فطر آدم عليها ونشأت عليها ذريته إلى زمن نوح، إذا اختلفت الناس وحدثت فيهم الوثنية فبعث الله النبيين وجعل منهم الرسل المبلغين عنه بإذنه المؤيدين منه بالآيات لإقامة الحجة على الكافرين وذلك قوله عز وجل: ﴿كانَ الناسُ أمةً واحدةً فبعثَ اللهُ النبيينَ مبشرينَ ومنذرينَ وأنزلَ معهمْ الكتابَ بالحقِّ ليحكُمَ بينَ الناسِ فيما اختلفوا فيهِ.... الآية﴾(١).

فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنه أنه فسر ذلك بأنهم: كانوا على الإسلام وفي رواية مفصلة عنه قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين(٢). قال الرواة وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود كان الناس أمة واحدة فاختلفوا.... الخ.

ورووا عن أُبيّ: أنه كان يقرؤها كذلك أيضاً، ويؤيد ذلك في المعنى آيات أخرى. ورووا عن قتادة أنه قال: ذكر لنا: أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون

---

(١) سورة البقرة: آية ٢١٣.

(٢) انظر تفسير القرطبي جـ ٣ ص ٣٠، وتفسير ابن كثير جـ١ ص٢٥٠.

كلهم على الهدى وعلى شريعة من الحق ثم اختلفوا بعد ذلك فبعث الله نوحاً وكان أول رسول أرسله الله إلى الأرض وبعث عند الإختلاف من الناس فبعث إليهم رسله وأنزله كتابه يحجج به على خلقه(١).

فهذا قتادة من كبار علماء التابعين يقول: بأن نوحاً أول نبي مرسلٌ ويؤيد الرواية عنه مع ما تقدم: ما ورد في التفسير المأثور في قوله تعالى في سورة الروم: ﴿فأقِمْ وجهَكَ للدينِ حنيفاً فطرةَ اللهِ التي فطرَ الناسَ عليها.. الآية﴾(٢) كحديث الصحيحين وغيرها الناطق بأن كل مولودٍ يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه(٣). وفي بعض رواياته: يولد على فطرة الإسلام وفي بعضها: على الملة ومنها حديث عياض بن حماد المجاشعي المرفوع عند محمد بن إسحاق الذي ذكر فيه آدم فقال ﷺ: إن الله خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين وأعطاهم المال حلالا لا حرام فيه فجعلوا ما أعطاهم حراماً وحلالاً، وفي معناه آثار.

والمراد من ذلك في مسألتنا: أن الله تعالى فطر آدم على معرفته وتوحيده وشكره وعبادته وزاده هدى بما كان يلهمه إياه من الأقوال والأعمال وبما يصل إليه اجتهاده. كما قيل عن عبادة النبي ﷺ في الغار قبل البعثة، وقد يزاد على ذلك: إرشاد الملائكة له ولأولاده فقد كانوا بطهارة فطرتهم: يرون الملائكة، كما ورد في تعليمهم إياهم تجهيز أبيهم ودفنه حين توفي، ولسنا بصدد تمحيص أمثال هذه الروايات ولكن مجموعها: يؤيد الحديث المصرح بنبوة آدم.

فبهذا التفصيل: يعلم ما اشتهر على ألسنة العلماء من القول بنبوة آدم ورسالته مع عدم وجود النص القاطع بل مع وجود النص المعارض، فإن هدايته لذريته من نوع هداية الرسل للمؤمنين من اتباعهم كما بيناه آنفاً من معنى

---

(١) المصدر السابق: وانظر أقوال المفسرين عند قوله تعالى في سورة البقرة (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين...) الآية رقم ٢١٣.

(٢) سورة الروم: الآية رقم ٣٠.

(٣) رواه البخاري، كتاب الجنائز باب رقم ٨٠ حديث رقم ٤.

لآيات فيه وذلك جعله الحافظ من قبيل الضرورة ولكنه لم يبين وجه الضرورة ولم يُبيّن الجمع بينه وبين المعارض له. والذي يتجه في الجميع بغير تكلف هو: التفرقة بين هداية من ولدوا على الفطرة وبين بعثة نوح ومن بعده من الرسل إلى من فسدت فطرتهم واختلفوا في الدين الفطري أو في الكتاب الإلهي من المشركين والضالين من اتباع نبي سابق فأعرضوا عما دعاهم إليه بأن تجعل هذه الهداية الأخيرة هي: الرسالة الشرعية التي يسمى من جاؤوا بها رسلاً دون الأولى.

وبهذا يجمع بين عدة أجوبة مما نقل من العلماء في رفع التعارض بتوضيح قليل كقول من قال: إنما كانت رسالة آدم إلى بنيه المؤمنين ورسالة نوح ومن بعده إلى الكافرين، إنما كانت رسالة آدم إلى بنيه من قبيل تربية الوالد لأولاده وفيها تسميتها رسالة شرعية بالمعنى المراد من الآيات هو الذي يخفف التعارض بين هذه الآراء.

وأما إذا أثبتنا ما ذكر لآدم ولم نسمه رسالة بالمعنى الشرعي المذكور. فإن التعارض يندفع بغير تكلف كما قلنا وتصح الأقوال كلها ويكون الخلاف أشبه باللفظي فهو رسول بالمعنى المشهور عند المتكلمين.

وقال القرطبي[1] ونوح أول الرسل إلى أهل الأرض بعد آدم عليهما السلام يقول: بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات. وكأنما أراد رحمه الله أن يبين أن أولية رسالة نوح عليه السلام ليست من حيث كونه. لم يسبق برسول قبله إلى أهل الأرض وإنما من حيث كونه سلام الله عليه، قد جاء بأحكام لم يأت بها أحد من قبله كتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات.

ولو كان هذا صحيحاً. لأمكن إطلاق وصف أول رسول على كل نبي جاء باحكام جديدة لم تكن في شرع من سبقه من الأنبياء الآخرين إطلاقاً غير مقيد

(١) تفسير القرطبي ط دار الكتاب العربي جـ٧ ص ٢٣٢.

كما جاء عن نوح عليه السلام في حديث الشفاعة ولم يقل أحد بمثل هذا في حق من كان بعد نوح من الأنبياء.

البحث الثاني: (عموم رسالة نوح والكلام حولها)

بعد كل الآراء التي عرضنا لها والتي رجحنا فيها الرأي القائل بأن نوحاً أول رسل الله إلى الناس، يبقى بعد ذلك أن يقال إذا كان عليه السلام. أول رسول إلى أهل الأرض فهل كانت رسالته عامة لهم جميعاً. أم كانت إلى قوم مخصوصين منهم؟ للجواب على هذا السؤال نقول:

أولاً: ذكر الله تعالى كلمة قوم مضافة إلى نوح عليه السلام أو إلى ضميره في مواضع كثيرة من القرآن فقال في الأعراف: ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله﴾ الآية. وقال في التوبة: ﴿ألم يأتيهم نبأ الذينَ من قبلهمْ قومُ نوحٍ﴾ الآية. وقال في هود: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومهِ إني لكم نذيرٌ مبينٌ﴾. وقال في يونس: ﴿واتلُ عليهم نبأ نوحٍ إذ قالَ لقومِهِ يا قومِ﴾ الآية. وفي سورة ابراهيم الأنبياء: ﴿إنهم كانوا قومَ سوءٍ فأغرقناهم أجمعينَ﴾. ويقول في الحج: ﴿وإنْ يُكذبوكَ فقدْ كذبتْ قبلهم قومُ نوحٍ﴾. ويقول في المؤمنين: ﴿ولقد ارسلنا نوحاً إلى قومِهِ قالَ يا قومِ اعبدوا الله﴾. ويقول في الفرقان: ﴿وقومُ نوحٍ لما كذبوا الرسل اغرقناهم أجمعين﴾. ويقول في الشعراء: ﴿كذَّبتْ قومُ نوحٍ المرسلينَ﴾. وفي سورة العنكبوت: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومهِ فلبثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً﴾. ويقول في سورة غافر: ﴿كذَّبَتْ قبلهم قومُ نوحٍ﴾ الآية. ويقول في سورة ق: ﴿كذبتْ قبلهُمْ قومُ نوحٍ وأصحابَ الرسّ وثمود﴾. ويقول تعالى في سورة النجم: ﴿وقومُ نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأَطغى﴾. ويقول تعالى في سورة القمر: ﴿كذبتْ قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنونٌ وازدجرَ﴾. وفي أول سورة نوح قال سبحانه وتعالى: ﴿إنا ارسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذرْ قومكَ من قبل أن يأتيهم عذابٌ أليمٌ. قال يا قوم إني لكُمْ نذيرٌ مبينٌ﴾.

ثانياً: ذكر الله تعالى في القرآن آيات تبين: أن رسالة محمد ﷺ عامة إلى الناس جميعاً.

فقال في سورة الاعراف: ﴿قل يا أيها الناس إني رسولُ اللهِ إليكم جميعاً﴾[١]. وقال في سورة الفرقان: ﴿ليكونَ للعالمينَ نذيراً﴾[٢]. وقال في سورة سبأ: ﴿وما أرسلناكَ إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً﴾[٣]. إلى غير ذلك من الآيات القرآنية الدالة على عموم رسالته ﷺ والتي قد يفهم منها: أن غيره عليه الصلاة والسلام من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ليست له هذه الخصيصه سيما وأن النبي ﷺ قد صرح بهذا المعنى في الحديث الذي رواه الإمام مسلم[٤] بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري: قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثتُ إلى كل أحمر وأسود» الحديث.

فظاهر هذه الآيات والأحاديث يفيد أن نوحاً عليه السلام قد بعث كغيره من الأنبياء والمرسلين إلى قوم بأعيانهم.

إلا أن بعض العلماء يرى أن رسالة نوح عليه السلام كانت عامة إلى الناس ويفرقون بين عموم رسالة نوح وعموم رسالة نبينا ﷺ بأن: محمداً ﷺ قد أرسل إلى العالمين: والعالم، هو ما سوى الله: فشملت رسالته الإنس والجن والملائكة، بل قال بعضهم ويشمل الجمادات أيضاً. أما رسالة نوح عليه السلام فليست كذلك بل هي عامة إلى أهل الأرض فقط. كما يشير إليه حديث الشفاعة الذي فيه أنت أول رسول إلى أهل الأرض قال الآلوسي[٥] (واختلف في عموم بعثته عليه السلام ابتداءً مع الإتفاق على عمومها إنتهاءً حيث لم يبق بعد

---

(١) سورة الاعراف: الآية ١٥٨.
(٢) سورة الفرقان: الآية ١.
(٣) سورة سبأ: الآية ٢٨.
(٤) صحيح مسلم طبعة الشعب جـ ٢ ص ١٥٤ وكذا رواه البخاري في كتاب التيمم.
(٥) تفسير الالوسي المسمى (روح المعاني) جـ ٨ ص ١٤٩ ط الإدارة المنيرية - القاهرة.

الطوفان سوى من كان معه في السفينة، ولا يقدح القول بالعموم في كون ذلك من خواص نبينا ﷺ لأن: ما هو من خواصه عليه الصلاة والسلام: عموم البعثة لكافة الثقلين الجن والإنس وذلك مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة فيكفر منكره، بل وكذا الملائكة كما رجحه جمع من المحققين كالسبكي ومن تبعه وردوا على من خالف ذلك بصريح الآية ليكون للعالمين نذيراً إذ العالم ما سوى الله تعالى. وخبر مسلم وأرسلت إلى الخلق كافة يؤيد ذلك، بل قال بعض العلماء إنه ﷺ أرسل حتى للجمادات بعد جعلها مدركة. وفائدة الإرسال للمعصوم وغير المكلف: طلب اذعانها لشرفه ودخولها تحت دعوته واتباعه تشريفا على سائر المرسلين ولا كذلك بعثه نوح عليه السلام والفرق ظاهر) وقال الرازي عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يا أيها الناس إنّي رسولُ اللهِ إليكم جميعاً﴾(١) ما نصه: «المسألة الثانية هذه الآية إن دلت على أن محمداً عليه الصلاة والسلام مبعوث إلى كل الخلق فليس فيها دلالة على أن غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما كان مبعوثاً إلى كل الخلق بل يجب الرجوع في أنه هل كان في غيره من الأنبياء من كان مبعوثاً إلى كل الخلق أم لا؟ ثم إلى سائر الدلائل. فنقول تمسك جمع من العلماء في أن أحداً غيره ما كان مبعوثاً إلى كل الخلق لقوله عليه الصلاة والسلام: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي أرسلت إلى الأحمر والأسود وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً. ونصرتُ على عدوي بالرعب مسيرة شهر واطعمت الغنيمة دون من قبلي وقيل لي سل تعطه فاختبئتها شفاعة لأمتي» (٢)

ولقائل أن يقول هذا خبر لا تتناول دلالته على إثبات هذا المطلوب لأنه لا يبعد أن يكون المراد مجموع هذه الخمسة من خواص رسول الله ﷺ ولم يحصل لأحد سواه ولم يلزم من كون هذا المجموع من خواصه كون واحد من آحاد هذا المجموع من خواصه وأيضاً: قيل إن آدم عليه السلام كان مبعوثاً إلى جميع

---

(١) تفسير الرازي جـ ١٥ ص ٢٦، ٢٧ ط المطبعة البهية المصرية.

(٢) صحيح مسلم كتاب المساجد الحديث الثالث.

أولاده وعلى هذا التقدير فقد كان مبعوثاً إلى جميع الناس وأن نوحاً عليه السلام لما خرج من السفينة كان مبعوثاً إلى الذين كانوا معه مع أن جميع الناس في ذلك الزمان ما كانوا إلا ذلك القوم. أهـ كلام الرازي.

والذي يرجحه الباحث في هذه المسألة. أن نوحاً عليه السلام. قد أرسل إلى جميع سكان الأرض من البشر في عصره إبتداءً وانتهاءً إذ لم يثبت أن طوائف أخرى من البشر كانت تسكن أرضاً لم تصلها رسالة نوح عليه السلام، ولم يثبت كذلك أن أحداً قد أرسل في زمان نوح نفسه إلى قوم آخرين لم يرسل إليهم نوح عليه السلام، والدليل على هذا أن الطوفان كما هو مفهوم، وصريح من القرآن والتوراة قد شمل أهل الأرض جميعاً، وأن نوحاً عندما خرج من السفينة لم يجد سكاناً للأرض إلاّ الذين خرجوا معه منها.

وأما ما جاء في القرآن من التعبير بقوم نوح كقوله سبحانه ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾[1] ﴿وقوم نوحٍ لما كذَّبوا الرسل أغرقناهم﴾[2] ونحوه مما هو مذكور في القرآن كثيراً بهذه العبادة فإن المقصود منه والله أعلم بمراده: هو أهل الأرض جميعاً لما قدْمناه من أن الطوفان قد شمل أهل الأرض ولا يمكن أن يعاقب قوم دون أن يرسل إليهم رسولاً فدل هذا على أن المراد بالقوم في التعبير بقوم نوح. هم أهل الأرض جميعاً وفي قول نوح عليه السلام المحكي في القرآن: ﴿ربِّ لا تذرْ على الأرضِ من الكافرينَ ديَّاراً﴾[3] تأكيد لهذا المعنى.

ولا يعارض هذا بقول النبي ﷺ : ﴿كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة﴾ لأن سكان الأرض في عصر نوح، كانوا قومه خاصة والفارق بين عموم رسالة نوح عليه السلام وعموم رسالة نبينا محمد ﷺ هو ما ذكره العلماء من أن رسالة رسول الله ﷺ كانت للعالمين. أما رسالة نوح فكانت لسكان الأرض من البشر فقط وهو فرق ظاهر لا ليس فيه ولا غموض وأن عموم رسالة نوح

(١) سورة نوح: الآية رقم ١.
(٢) سورة الفرقان: الآية رقم ٣٧.
(٣) سورة نوح: الآية رقم ٢٦.

كانت من قبيل الضرورة وأنها منتهية بإنتهاء زمانه بخلاف رسالة سيدنا محمد ﷺ فإن عمومها مقصود وهي لا تنتهي إلى يوم القيامة.

المبحث الثالث:- جهود نوح في دعوته ومعارضة قومه له:

يروي الثعالبي في العرائس[1] أخباراً عمن أرسل إليهم نوح عليه السلام وبيان سبب فسادهم فيقول: أرسله الله تعالى إلى ولد قابيل ومن تابعهم من ولد شيث قال ابن عباس: كان بطنان من ولد آدم أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل وكان رجال الجبل فيهم صباحة وفي نسائهم دمامة وكان في نساء السهل صباحة وفي الرجال دمامه، وأن إبليس أتى رجلاً من أهل السهل في صورة غلام فأجر نفسه منه وكان يخدمه واتخذ إبليس شيئاً مثل الذي يزمر به الرعاة فجاء منه صوت لم يسمع الناس مثله: فبلغ ذلك من حولهم فأتوهم مستمعين إليه واتخذوه عيداً يجتمعون إليه في السنة. فتتبرج النساء للرجال والرجال لهن. وهو قوله تعالى: ﴿ولا تبرَّجْنَ تبرجَ الجاهليةِ الأُولى﴾[2].

قال ابن عباس: كان آدم أوصى أن لا يناكح بنو شيث بني قابيل فجعل بنو شيث آدم في مغارة وجعلوا عليها حفاظاً لئلا يقربه أحد من أولاد قابيل وكان الذي يأتونه يستغفر لهم بنو شيث.

فقال مائة من بني شيث صباح يوم: لو نظرنا ما فعل بنو عمنا. يعنون بني قابيل فهبط المائة إلى نساء السهل صباح الوجوه من بني قابيل فاحتبس النساء الرجال ثم مكثوا ما شاء الله تعالى. فقال مائة أخرى لو نظرنا ما فعل اخواننا فهبطوا في الجبل إليهم فاحتبسهم النساء ثم هبط بنو شيث كلهم فظهرت المعصية وتناكحوا واختلطوا وكبر بنو قابيل حتى ملئوا الأرض وأكثروا

---

(١) قصص الأنبياء المسمى بالعرائس المطبعة اليوسفية ص ٥٨.

(٢) سورة الأحزاب: الآية رقم ٣٣.

الفساد فبعث الله إليهم نبيهم نوحاً ابن خمسين عاماً فلبث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً[1].

ويحدد النويري[2] بداية رسالة نوح عليه السلام واسم ملك القوم الذين أرسل عليهم فيقول: أمر الله تعالى جبريل عليه السلام أن يهبط إلى نوح ويبشره بالنبوة والرسالة فهبط جبريل عليه وجاءه بوحي الله أن يسير إلى الملك وقومه ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى.

وظل نوح عليه السلام يدعو قومه ويتحمل آذاهم حتى حكم الله بينه وبينهم بحكمه وهو خير الحاكمين ومع أن الكل معترف برسالة نوح هذه مقر بها لا فرق في ذلك بين يهودي أو نصراني أو مسلم إلا أن قومه سينكرون هذه الرسالة يوم القيامة ويقولون عندما يسألون إن كان نوح أبلغهم: ما آتانا ولا بلغنا شيئاً قط، كما أخبرنا بذلك المعصوم ﷺ فقد روى البخاري في صحيحه بسنده[3] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يدعى نوح يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يا رب. فيقول هل بلغت؟ فيقول: نعم فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون ما آتانا من نذير. فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ، فذلك قوله جل ذكره ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾[4].

وفي هذه من الدلالة على جحود القوم وقسوة قلوبهم ومدى ما لاقاه رسولهم نوح عليه السلام في سبيل ردهم عن هذا الجحود وذلك العناد من العنت

---

(١) وجدنا ما قاله الثعالبي في تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٨٣ والدر المنثور للسيوطي جـ ٥ ص ١٩٧ وتفسير الطبري جـ ٢٢ ص ٤.

(٢) (نهاية الإرب في فنون الأدب) نسخة مصورة عن طبعة دار الكتاب عن المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر جـ ١٣ ص ٤٣.

(٣) صحيح البخاري جـ ٦ ط المطبعة الأميرية ص ٢١.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

والمشقة مما جعله عليه السلام خليقاً بأن يكون أحد أولى العزم من الرسل وشيخ المرسلين عليهم الصلاة والسلام، الأمر الذي جعل بعض العلماء يرى: أنه الثاني في الفضل بعد نبينا محمد ﷺ مستدلاً على ذلك بما في حديث الشفاعة في كونه: أول رسل الله إلى أهل الأرض، وبما في قوله تعالى بياناً لوجود التفاضل بين الأنبياء، ورداً على من زعم أنهم جميعاً في المنزلة سواء لتساويهم في آداء الرسالات: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم ورفع بعضهم درجات﴾(١) وقوله سبحانه: ﴿ولقد فضلنا النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً﴾(٢). ولا شك أن نوحاً عليه السلام من الأنبياء المفضلين على غيرهم. فقد ذكره الله ضمن الخمسة الكبار الذين أطلق عليهم أولى العزم. قال تعالى: ﴿وإذْ أخذنا من النبيينَ ميثاقَهُم ومنكَ ومن نوحٍ وإبراهيم وموسى وعيسى وابن مريم﴾(٣).

ولقائل أن يقول: ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود. فقال اليهودي في قسم يقسمه لا.. والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده فلطم بها وجه اليهودي فقال أي خبث؟ وعلى محمد ﷺ؟ فجاء اليهودي إلى النبي ﷺ فاشتكى على المسلم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تفضلوني على الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور؟ فلا تفضلوني على الأنبياء وفي رواية لا تفضلوا بين الأنبياء(٤).

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٣.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٥٥.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٧.

(٤) رواه مسلم كتاب الفضائل باب ٤٢ الحديث رقم ١٥٩/ ١٦٠/ ١٦٢ طبعة رئاسة البحوث العلمية والافتاء- سنة ١٤٠٠هـ، بترتيب محمد فؤاد عبد الباقي.

فما وجه الجمع بين هذا الحديث الذي ثبت في الصحيحين وبين الآيات القرآنية والدالة على وقوع التفاضل بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والجواب على مثل هذا الاعتراض هو أن يقال: إن مقام التفضيل بين الأنبياء لما كان لله وحده وعلينا الطاعة والإنقياد. نهى النبي ﷺ البشر أن يحدثوا ذلك من عند أنفسهم سواء أكان منشأ هذا التفضيل الهوى والرأي والتعصب أم كان منشأه التفكير والمقارنة بين متاعب هؤلاء الأنبياء. عليهم الصلاة والسلام. بل مرد التفضيل إلى الله وحده فهو يعلم الفاضل من المفضول. أو أن يقال: إن هذا نهي في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر. أو أن يقال: إنه ﷺ قال: هذا في باب الهضم والتواضع. أو أن يقال: إن هذا النهي كان قبل أن يعلم صلوات الله وسلامه عليه بالتفضيل فلا تعارض إذن بين الكتاب والسنة في هذا الموضوع على الإطلاق (١).

بهذا القدر المتوسع بعض الشيء في سيرة نبي الله نوح أردنا أن نميط اللثام حول سيرته وقصصه ﷺ وذلك لكثرة الغموض الذي اكتنف سيرته ﷺ فضلاً عن الخلاف الذي كان بين بعض العلماء حول بعض المصادر الهادية والموجهة إلى المعرفة الصحيحة لملامح وسيرة وقصص واحد من أولي العزم ومن أنبياء الله الكرام. ونرجوا أن نكون وفقنا فيه الى الصواب.

---

(١) انظر تفسير القرطبي جـ ٣ ص ٢٦٢، فقد توسع في هذه المسألة وأجاد فيها. رحمه الله.

الفصل الثاني:

براهيم عليه السلام بين زيف الدعوى وحقيقة الإنتماء

في العراق عند مشارف وتخوم الجزء الجنوبي منه وحوالي القرن الخامس والعشرين قبل ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام كانت صحراء الجزيرة العربية قد قذفت من أحشائها أفواجاً من البشر على دفعات متلاحقة، تعبر البادية والصحراء موجة أثر موجة، تقصد منطقة الهلال الخصيب(١).

وحوالي عام ١٨٠٠ ق- م كانت مجموعات من الرعاة الرحل والمنتسبة تاريخياً لبعض هذه الأفواج التي هاجرت من الصحراء إلى منطقة الهلال الخصيب قد استطاعت أن تستقر، وأن تنتشر في العراق، لتؤلف دولة يذكرها التاريخ باسم دولة الكلدانيين، قامت تاريخياً على أسس من علاقات الصراع والقهر اليومي الذي كانت فيه الكثرة الكثيرة من جمهور ذلك الشعب الذي تسمى باسم «كلدان» مضيعة بين أساليب التناقض التي يعمل لها مجموعات من الرجال المتسلطين والمستغلين، وأولئك الذين انتزعوا لأنفسهم كهانة وسيادة سياسية، فخلقوا بها علاقات الاستغلال.

وسط هذا الجو الإجتماعي، المضيع فيه الجمهور الكلداني والمضلل، وهناك من قلب هذا الشعب الوثني المتخلف، نشأ النبي «إبراهيم» عليه السلام، أول ما يشغل باله، ويؤرق أمانيه. ويراود أحلامه، هو إمكانية أن يصل بمشاعره إلى واقع جديد يرفض صور الغبن الإجتماعي، والأخلاق التي وجدها أمامه عائقاً يحول دون أن يتيسر للفرد «الإنسان» أن يحيا الحياة الكريمة.

---

(١) (نسيب وهيبة الخازن) من الساميين إلى العرب- منشورات جـ ١ الحياة بيروت صفحة ٢١.

فصار إبراهيم عليه السلام في أرض «أور» الكلدانية، يحمل على عاتقه مهمة التبشير والدعوة إلى قضية العدل الإجتماعي وما أن تنفعل أعماقه ويصلب عوده بقيم ومبادىء النضال الإجتماعي التي آمن بها، حتى يكون قد هيىء لحمل رسالة دينية أعم وأعمق وجهوداً أكثر مسئولية وأعظم تضحية. وهو أن يوجه الدعوة إلى الله عن طريق رسالة الله الدينية واصطفاء الله له.

ولما أحس الكلدانيون أن إبراهيم النبي الرسول ابتدأ بهذه القوة التي أضيفت إلى نفسه يشكل خطراً عليهم وعلى أسلوب حياتهم، خاصة بعد أن ابتدأت جموع كبيرة من جمهور الشعب تسمع له وتتحمس لدعوته، بعد أن استشرقت آمالهم على يديه. دخل الكهنة منهم والسادة معه في معركة تحديات سافرة أوشكت في بعض مراحلها أن تقضي على حياته لولا أنه أعد من قبل ربه لكي يواصل الطريق فكان العون من الله والمساندة.

٢- هجرة ابراهيم عليه بمن آمن معه:

لما كان ابراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء والأصل الذي تفرع عنه العرب واليهود على قدم المساواة فقد آثرنا أن نطوف معه في رحلاته التي قام بها من العراق الى فلسطين، ومن فلسطين إلى مصر، ثم من مصر إلى فلسطين إلى حيث يلقى عصا التسيار هناك، لنتعرف من خلال هذه الرحلات على جوانب النبوة والرسالة عند ابراهيم عليه السلام.

أولاً: من العراق إلى فلسطين:

ولقد حاول- علبه السلام - دعوة قومه إلى الله لكن قلوبهم الصماء لم تستجب لدعوته، وليتهم إذ لم يستجيبوا لدعوته تركوه يعلن عنها بل إنهم لم يكتفوا بالصد بل صدر القرار [احرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم][1].

(١) الأنبياء: ٦٨- ٦٩.

وخرج ابراهيم- عليه السلام- من العراق على أثر الحادثة تصحبه زوجته غارة وابن أخيه «لوط» عليه السلام. الذي قال ما يحكي القرآن الكريم عنه:

﴿فآمنَ لَهُ لوطٌ وقال إني مهاجرٌ إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم﴾(١) كما كان بصحبته بعض المؤمنين.

ولقد كانت مسيرته لغير وجهة، فقد خرج بمن آمن معه يبحث عن الحياة في أي منتجع من الأرض.

وقد كان يمثل هو ومن معه في تحركهم جماعة من البدو الرحل الذي يبحثون عن الماء والكلأ حتى انتهى بهم المقام إلى المقام في فلسطين وفي المكان الذي تقام عليه مدينة «نابلس» اليوم.

ويتحدث شاهين مكاريوس عن هذه الرحلة عند حديثه عن آباء اليهود الأول فيذكر أن أباه كان معه في هذه الرحلة فيقول:

[إبراهيم بن تارح من نسل سام من سلالة عابر. ولد في «أور» الكلدانية وما زال هناك إلى أن أمره الله انطلق من أرضك ومن عشيرتك وبيت أبيك إلى الأرض التي أريك وأنا أجعلك أمة كبيرة، فقام وأخذ سارا امرأته وارتحل هو وأبوه تارح وبعض أفراد عائلته من أور يقصدون أرض كنعان فنزلوا في حاران★ وما زال ابراهيم ومن معه في حاران إلى أن مات](٢).

وما قاله شاهين مكاريوس يوافق ما قاله ابن الوردى في أن أبا ابراهيم- عليه السلام- كان معه في رحلته هذه، يقول ابن الوردى في تاريخه:

---

(١) العنكبوت: ٢٦.

(★) حاران: اسم مكان أو مدينة موقعها في الشمال الشرقي مما بين النهرين بين الفرات وخابور ولا تزال معروفة باسمها القديم وموقعها على شاطىء نهر بلبك نحو ٥٠ ميلا من مصبه في الفرات.

ويزعم الدكتور بيك أنها حاران الحديثة بجانب بحر العتيبة بقرب دمشق.

(٢) تاريخ الاسرائيليين لشاهين مكاريوس ص ٦.

[وخرج ابراهيم من النار بعد أيام وآمنت به زوجته سارة بنت عمه هاران وآمن به رجال من قومه على خوف من نمرود. ثم إن إبراهيم ومن آمن وأباه على كفره هاجروا إلى حران].

ونحن لا نقرهم على هذا الذي ذكراه من رحيل أبي ابراهيم مع ابراهيم عليه السلام، عملا بظاهر قوله تعالى على لسان إبراهيم- عليه السلام- وأبيه، رغم ذكر بعض المفسرين أن الهجر كان في العبادة فقط.

[قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا. قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أن ألاّ أكون بدعاء ربي شقيا. فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا][1].

كما أننا لا نوافق شاهين مكاريوس فيما زعمه من أن أباه كان اسمه تارح أخذا من التوراة التي بين يدي القوم بقدر رفضنا لما عليه معظم المفسرين من أن أباه كان اسمه تارخ ونرى أن إسمه آزر عملا بصريح قوله تعالى:

﴿وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني اراك وقومك في ضلال مبين﴾[2].

ولا نقرهم كذلك على ما هم عليه في تفسير هذه الآية من أن آزر لقباً له، أو اسم لصنم كان يخصه بالعبادة فأطلق عليه اسمه لإخلاصه في عبادته، أو أن اسمه كان مزدوجاً فهو تاريخ آزر ولا شك أن ما لا يحتاج إلى تأويل أولى مما يحتاج إلى تأويل.

وقد قال القرآن الكريم صراحة أن أباه آزر فهو إذن آزر إلا إذا ظهر ما يعارض ذلك من القرآن الكريم ولم يظهر، فما حاجتنا إذن الى التاويل وصريح

---

(١) مريم- الآيات ٤٦ الى ٤٩ كما يقول سفر التكوين الاصحاح العشرون فقرة (١٣) [وحدث لما أتاهنى الله من بيت أبي].

(٢) الأنعام- ٧٤.

النص لا يتصادم مع عقيدة أو واقع ثابت بنص يقوي في مواجهة القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

والخلاصة أنه- عليه السلام- حين اعتزل قومه خرج بمن آمن معه الى فلسطين لكنه- عليه السلام- لم يطب له المقام هناك، لأنه جاءها وقد تفيأ أهلها ظلال النعمة وألقوا عصا التسيار وأقاموا المزارع والكروم وسيروا القوافل التجارية هنا وهناك.

ولما كانوا حراسا للقوافل التي تعبر طريق بلادهم فقد أنشأوا المدن المحصنة والأسوار المنيعة، وكانوا قد سمعوا عن سطو العبريين وتوحشهم، وعدم استقرارهم وقرصنتهم فكرهوهم ولم يطمئنوا إلى أي قادم منهم.

فلما جاءهم ابراهيم- عليه السلام- داعيا إلى عبادة الله أنكروها منه وتنكروا لها واعتبروه من أولئك الآثمين فلم يعيروه أذنا صاغية خصوصا وأن هذه البلاد قد أصيبت بقحط شديداستحال معه بقاء ابراهيم بها.

وقد كان على هذا الداعي إلى الله بالتي هي أحسن أن يترك هذا المناخ الذي لن تنمو فيه دعوته، فترك أريج فلسطين وظلها وقطع مفازة سيناء باحثا عن تربة أخرى تنمو فيها دعوته لتؤتى أكلها كل حين بإذن ربها.

لقد قاد ابراهيم الركب إلى مصر كما اتجهت إليها قبائل قبله وكما ستؤمها قبائل بعده لتتخذ من سهولها الخضراء ملاذا من القحط والمحل.

ثانيا: من فلسطين إلى مصر:

اتجه ابراهيم إلى مصر بعد أن أدرك أن المهمة التي من أجلها غادر العراق إلى فلسطين لن تنمو بفلسطين، فقد حوربت دعوته وألم بفلسطين الجفاف فكان الجدب.

ودخل عليه السلام مصر أيام «سنان بن علوان» وقيل «طوليس» على حد روايتي ابن الوردى في ذلك عن سواه.

وقد كان يصحب ابراهيم- عليه السلام- أثناء رحلته هذه بعض المؤمنين بدعوته ولم يكن معه من النساء غير زوجته سارة.

وكانت سنوات عمره يوم دخلها خمسة وسبعين عاما على حد رواية التوراة عن ذلك.

ولقد وجد ابراهيم- عليه السلام- في جوار المصريين الترحيب والاحترام والتقدير مما أباح له أن يدعو هناك إلى حنيفيته السمحاء.

فالمصريون وإن لم يؤمنوا بدعوته- عليه السلام- إلا أنهم لم يقابلوه بالصد والاستهزاء والطرد شأن كل غريب جاء بما يخالف معتقد قوم لاذ بهم من وهج الصحراء.

لقد وقع عكس ما توقع؛ فما كاد المصريون يقفون على حقيقته- عليه السلام- حتى أجلوه وأكرموه فقدموا له الهدايا التي كان من بينها السيدة الفاضلة هاجر التي أنجب منها بكره ونبي الله اسماعيل- عليه السلام.

وفي هذه الفترة الوجيزة التي قضاها- عليه السلام- بمصر وقعت حادثة شهيرة لا يمنعنا بحثنا الموجز من تحقيقها، إحقاقا للحق وإزهاقا للباطل، ولأنها لا تلوى زمام ركبنا السائر عن الطريق التي ركبها إلى هدفه المنشود المعهود.

ثالثا: الحقيقة التائهة فيما قيل عن سارة بمصر.

شاعت بعض الأقاويل في رحلة ابراهيم- عليه السلام- إلى مصر نذكر منها ما ردده المؤرخون نقلا عن التوراة- التي بين يدي القوم- من أن إبراهيم- عليه السلام- وهو على مشارف مصر قد عرف من أخلاق ملكها أنه يأخذ الزوجة متى كانت جميلة ويقتل زوجها، فاتفق مع زوجته سارة أن يدعيا أنهما أخوان، بقاء على حياته وجلبا لمال تدره عليه إذا كانت بقصر الملك؛ ذلك لأن ابراهيم- عليه السلام- كان في جمع قليل لا يستطيع به مواجهة المصريين حينما يهم ملكهم بانتزاع سارة منه وقتله.

ووصل الركب إلى مصر وانتقل الخبر الى فرعونها يحكى جمال سارة وحين طلب الملك تقصي أخبارها أنبىء أنها ليست بذات بعل وأن قائد القوم أخوها، فضمها الملك إلى نسائه وأصاب ابراهيم -عليه السلام- بسببها خير وفير إلى أن ضرب الله بيت الفرعون الذي أخبر عن الحقيقة فعاتب ابراهيم من أجلها وأخرجه من مصر موفور الكرامة مثقلا بالهدايا.

ولنسمع التوراة تحكي لنا ذلك:

[وحدث جوع في الارض فانحدر منحدر ابرام إلى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع في الارض كان شديدا. وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لسار امرأته. إني قد علمت أنك حسنة المنظر فيكون إذا رآك المصريون انهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستقبونك قولي إنك أختي ليكون لي الخير بسببك وتحيا نفسي من أجلك.

فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدا ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى ابرام خيرا بسببها.

وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال. فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب سارا امرأة ابرام.

فدعا أبرام وقال ما هذا الذي صنعت بي لماذا لم تخبرني أنها امرأتك لماذا قلت إنها أختي حتى أخذتها لي لتكون زوجتى. والآن هوذا امرأتك خذها واذهب فأوصى عليه فرعون رجالا فشيعوه وامرأته وكل ما كان له][1].

أهذا كلام يقال على لسان رسول من رسل الله.

[إنك حسنة المنظر ..... إنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك. قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك].

---

(١) سفر التكوين الاصحاح العشرون.

والأعجب من هذا أن هذه الحادثة تتكرر برمتها في «جرار»[1] مع تغير البطل والزمان والمكان. وهاكم رواية التوارة»:

[انتقل ابراهيم من هناك إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب في جرار. وقال ابراهيم عن سارة امرأته هي أختي فأرسل أبو مالك ملك جرار وأخذ سارة فجاء الله إلى أبي مالك في حلم الليل قال له ها أنت ميت لأجل المرأة التي أخذتها فإنها متزوجة ببعل. ولكن لم يكن أبو مالك قد اقترب إليها فقال يا سيدأأمّة تقتل بامرأة. ألم يقل هو لي إنها أختي وهي نفسها قالت هوأخي، بسلامة قلب ونقاوة يدي فعلت هذا. فقال له الله في الحلم أنا أيضا علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا وأنا أيضا أمسكتك من أن تخطىء إليّ لذلك لم أدعك تمسها. فالآن رد امرأة الرجل فإنه نبي فيصلي لأجلك فتحيا وإن كنت لست تردها فاعلم أنك موتا تموت أنت وكل من لك. فبكر أبو مالك في الغد ودعا جميع عبيده وتكلم بكل هذا الكلام في مسامعهم فخاف الرجال جدا - ثم دعا أبو مالك ابراهيم قال له ماذا فعلت بنا وبماذا أخطأت إليك حتى جلبت علي وعلى مملكتي خطيْة عظيمة؟ أعمالاً لا تعمل عملت بي. وقال أبو مالك لإبراهيم ماذا رأيت حتى عملت هذا الشيء. فقال ابراهيم إني قلت ليس في هذا الموضوع خوف الله البتة فيقتلونني لأجل امرأتي. والحقيقة أيضا هي أختي ابنة أبي غير أنها ليست أبنة أمي فصارت لي زوجة. وحدث لما أتاهي الله من بيت أبي أني قلت لها هذا معروفك الذي تصنعين إلى في كل مكان نأتي اليه قولي عني هو أخي، فأخذ أبو مالك غنما وبقرا وعبيدا وإماء وأعطاها لابراهيم ورد اليه سارة امرأته. وقال أبو مالك هوذا أرضي قدامك اسكن فيما حسن في عينيك][2].

---

(١) يرجح الباحثون المشتغلون بتاريخ هذه المنطقة أنها مكان يطلق على المنطقة الواقعة بين «قادش» و«وشور» وهو المكان الذي يقع باشراق «خان يونس» والذي يسمى الآن «بأم جرار».

(٢) سفر التكوين الاصحاح الثاني عشر.

هذه هي الثانية وستكرر هذه ثالثة بين زوجة اسحق وإسحق- .عليه السلام- مع أبي مالك ملك جرار، وهذا ما يجعلنا نرفض روايات التوراة الثلاث برمتها.

وذلك لما يلي:

أولاً: أن سارة حين كانت بمصر- حسب رواية التوراة- كانت بنت سبعين سنة وحين كانت في جرار » كانت بنت تسعين سنة. والمرأة في مثل هذين الطورين من أطوار حياتها لا يمكن أن يكون فيها مطمع لراغب فقد قالت عن نفسها حينما بشرت بإسحق: [يا ولتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً][(١)] ومهما بلغت من الوضاءة والجمال فإن تلك السنين ستترك بوجهها وشعرها وجسدها ما يوحي بأنها ودعت عهد كفكيرها أو التفكر فيها. خصوصا وأنها قد حملت خلال رحلة سني عمرها الطويلة القاسية آلام الحط والترحال من العراق الى فلسطين ومن فلسطين إلى مصر ثم العودة إلى فلسطين ثم مرارة العقم التي تشيب لها نواصي الصغار.

فكيف إذن بملك مترف تصفه التوراة بأنه كان زير نساء لهم بها، اللهم إلا أن يكون من أصحاب الطبع الغريب الملتوي الذي ترجم عنه الشاعر حيث يقول: يقول:

تعشقتها شمطاء شاب وليدها وللناس فيما يعشقون مذاهب

ثانيا: أن هاتين الرواتين تصفان ابراهيم- عليه السلام- بنقيض ما وصفه به القرآن الكريم: دسترونا وإمامنا، وبما ينفيه واقع حياته- عليه السلام- وبما يأباه الخلق القويم الذي تخلق به رجل اصطفته السماء لنفسها واجتباه ربه من بين خلقه ليكون رسوله ومصطفاه. وإن مضمون هاتين الروايتين يفيد اتصافه عليه السلام بما يليّ:

---

(١) هود- ٧٢.

١ - العجز عن الافصاح عن الحق خوفا على حياته من سلطان ظالم، بقوله لزوجته: [يقتلونني ويستبقونك].

ونسيت التوراة أن مهمته الأولى هي الاعلان عن الحق أمام جبروت الباطل ومواجهة الطاغوت في أعنف صورة.

لقد تناست أنه- عليه السلام- قد أدى هذه المهمة المكلف بها من قبل مرسله خير قيام: فواجه- وحيدا- جبابرة قومه بتسفيه أحلامهم وإنكار معتقداتهم، وتحدى جبروت النمروذ المتأله وهو في أبهة الملك وغرور السلطان وألقي في النار من أجل رسالته فلم تتحرك شعرة في جسده فتلك سفارته ورسالته، وحارب جبروت عاطفة الأبوة ذات السلطان الرهيب العجيب، ثم صقلته حياة الصحراء في مسيرته ذهابا وإيابا فزادته صبرا وثباتاً.

هل يعجز رجل هذا شأنه وذلك طبعه، عن قول الحق والإمانة خوفا على حياته؟!

وكيف يؤدي أمانة الله التي نيط بها كاهله إذا كانت ألف بائها هي قول الحق والدفاع عنه أمام المنكرين له الكافرين به. فوصفه بالعجز عن قوله الحق خوفا على نفسه كما هو مفهوم روايتي التوراة، أمر ترفضه طبيعة رسالته، ويأباه واقع حياته وتنكره صفاته التي عرف بها.

٢ - التفريط في عرضه، وفقدان الغيرة على شرفه وذلك بالسماح لزوجته أن ترتمي في أحضان الأجنبي طمعا في عرض الحياة: [قولي إنك أختي ليكون لي الخير بسببك وتحيا نفسي من أجلك].

أهكذا يقال عن الحليم الأواه المنيب؟!

أهكذا يقال عن جد أنبياء الله؟! إنه يبيع عرضه ليبتاع المال والجاه! ألا ما أغلى المباع وما أنجس المبتاع!!

أي تعاليم جاءو بها هؤلاء الذين تصفهم التوارة بهذا الوصف العجيب؟!

وأي زاد طيب حملوه ليصلحوا به ما أفسده الكذب والفسق والخداع والنفاق؟!

أفضل رد هو الصمت فإن في إجابة السفيه إكباراً للسفيه وهذا التخبط ساقط من نفسه لا يحتاج إلى إسقاط فلندعه إذن معرى في الهواء ليضحك على نفسه كمقدمة لسخرية الناس منه.

٣- الكذب وذلك حين ينكر زواجه من سارة ويدعي أنها خالية لا بعل لها وهذا مردود بما يلي:

أ- وصف القرآن الكريم له بالصادق في قوله تعالى عنه: ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا﴾(١).

ب- وصف الله الكاذبين بأنهم غير مؤمنين بآيات الله. قال تعالى: ﴿إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله أولئك هم الكاذبون﴾(٢). وهذا مستحيل في حق رسل الله الذين بعثوا بآيات الله.

جـ- إن الصدق أحد الصفات الخاصة التي ينبغي أن يتصف بها الرسل فلو كذبوا على الناس في أمر من أمور الدنيا لما وثق الناس في أخبارهم عن الله فالصدق إذن هو من أهم ما يتصف الرسل وابراهيم- عليه السلام- واحد منهم- صلوات وسلامه عليهم أجمعين.

لهذا الذي عرضته ثم عارضته رأيت رفض ما ذكرته التوراة عن السيدة العفيفة الشريفة زوجة الرسول وأم الرسول أبي أنبياء بني اسرائيل بقدر إنكاري واستنكاري لما روته عن ابراهيم- عليه السلام- ذاكم الأواه الحليم.

بيد أن هذا الرفض وذاكم الانكار لا يتعارض مع ما ثبت عن رسول الله- ﷺ ورواه عنه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه فقد قال:

---

(١) مريم- ٤١.
(٢) النمل- ١٠٥.

[لم يكذب إبراهيم: النبي- عليه السلام- قط إلا ثلاث كذبات اثنتين في ذات الله: قوله إني سقيم، وقوله بل فعله كبيرهم هذا، وواحدة في شأن سارة: فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس فقال لها: إن هذا الجبار ان يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الاسلام فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأتاه فقال له: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك فأرسل اليها فأتى بها. فقام إبراهيم- عليه السلام- الى الصلاة فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة فقال لها ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك ففعلت. فعاد فقبضت أشد من القبضة الأولى. فعاد فقبضت أشد من القبضتين الأولين فقال ادعي الله أن يطلق يدي فلك الله أن لا أضرك ففعلت فأطلقت يده. ودعا الذي جاء بها فقال له إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتي بإنسان فأخرجها من أرضي وأعطها هاجر (قال) فأقبلت تمشي فلما رآها ابراهيم- عليه السلام- انصرف فقال لها مهيم؟ فقالت خيرا كف الله يد الفاجر وأخدم خادما]. قال أبو هريرة فتلك أمكم يا بني ماء السماء(١).

فإبراهيم- عليه السلام- فعل ذلك حين وعد من الله بأن هذا الطاغية لن يمسها فكان قوله وفعله لأمر صادر له من مرسله ووعد منه سبحانه وتعالى.

ولم يكن جلبا لمال وشياة كما لم يكن خوفا على نفسه من القتل كما تذكر رواية التوراة.

إنه الله الذي لا تتعلق بقدرته عجز فهو الذي جعل الشجر الأخضر نارا وحول النار إلى برد وسلام.

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء من طريقين مرفوعا وموقوفاً وأخرجه مسلم في الفضائل باب ٤١ مرفوعا، وذكره ابن كثير في كتابه تفسير القرآن العظيم عند تعرضه لقوله تعالى ﴿قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون﴾. الأنبياء- ٦٣.

لذلك أذعن ابراهيم- عليه السلام- وحق له وعليه وهكذا العبد أمام أوامر سيده. فقد قال الله عن عبده ومصطفاه وأبعد العباد والعبيد مدى في ساحة عبوديته له تعالى: [ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين. فما منكم من أحد عنه حاجزين][1].

هذه هي الحقيقة التائهة في مسألتنا هذه. وهي أن ما فعله ابراهيم عليه السلام كان:

أ- لأمر صادر له من ربه ليس له أن يخالفه.

ب- لربط الله- تعالى- على قلبيهما بأنها الشريفة العفيفية لن تنال بسوء ووعده لهما بذلك.

جـ- لم يكن قول ابراهيم- عليه السلام- ووفعله طمعا في مال أو جاه أو خوفا من فرعون.

ء- لا يستطيع العقل البشري المجرد إدراك هذه الحكم المودعة في مثل هذه التدابير العليا، تماما كما حدث بين موسى- عليه السلام- والخضر.

وبين التسليم المطلق بسلامة القصد، واليقين المطلق بعجز العقل نتوقف مكتفين بما ذكرنا وأطلنا- لنعلن عن هذه الحقيقة السافرة.

فبطل الساحة رسول من رسل الله الذين لم تحم حول سلوكهم شبهة أو تؤخذ عليهم فلته أو تؤثر عنهم خطية صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وابراهيم جدهم فإن عجز عقلنا عن الادراك سلّم قلبنا بنبل القصد، وشرف الغاية وطهارة الطريق.

رابعا: مرة ثانية في فلسطين:

عاد ابراهيم-عليه السلام-ثانية إلى فلسطين بصحبة سارة وابن أخيه لوط وآله يحملان التحف والهدايا، ويسوقان الكثير من الماشية وكان تشاجر الرعاة

(١) الحاقة- ٤٤- ٤٥- ٤٦- ٤٧.

على مواطن الرعي وآبار السقي هو السبب الرئيسي الذي جعل لوطا- عليه السلام- يتجه بمن معه إلى « سدوم » و« عمورة »وهما بالمنطقة التي عليها الأردن اليوم.

وظل ابراهيم- عليه السلام- بفلسطين بالمنطقة المعروفة اليوم ببئر السبع، ثم انتقل الى « حرون » حيث ماتت زوجته « سارة » ودفنت في مغارة المكفيلة في عفرون بين صرصر الحثي وهو نفس المكان الذي أرقد فيه اسماعيل واسحق والدهما ابراهيم- عليه السلام- عند موته، وهو الموضع الذي تقام عليه اليوم مدينة « الخليل » وهو على ثمانية عشر ميلا من بيت المقدس. والله أعلم.

وقد عمر عليه السلام « ١٧٥ » عاما وأنجب ثمانية ذكور وتزوج ثلاث نساء.

وبيان ذلك كالتالي

زوجاته عليه السلام

السيدة: هاجر	السيدة: سارة	السيدة: قطورة
أنجبت	أنجبت	أنجبت
اسماعيل عليه السلام	اسحق عليه السلام	١ - زمران
		٢ - بغشان
		٣ - مدان
		٤ - مديان
		٥ - بشياق
		٦ - شوحا

ذكر ذلك سفر التكوين الاصحاح الخامس والعشرين ونحيل طالب المزيد عليه.

الفصل الثالث:

إسماعيل وإسحق عليهما السلام في كنعان

من نتائج رحلة إبراهيم إلى مصر، مع الهدايا والخير الكثير وكل آيات التكريم التي وهبت لإبراهيم، فتاة مصرية فرعونية إسمها «هاجر» ومع أن فقرات التوراة ترى في كل ما منحه إبراهيم بأنه كان هدية له، إلا هاجر فترى التوراة أنها كانت في خدمة السيدة سارة وجارية لها إلا أنها - أي التوراة - لا تقدم دليلاً على ذلك.

وبعد الرحلة الطويلة التي قطعتها سارة مع إبراهيم من العراق إلى فلسطين ثم إلى مصر والعودة مرة ثانية إلى فلسطين بعد إنقضاء فترة طويلة من العمر في مصر، تأكد عقم السيدة المسنة التي تحدد التوراة عمرها حين أخذها ملك جرار بأنها كانت في التسعين، ولاندري كيف؟ رغم شظف الحياة وعناء السفر وطول الزمن كيف استطاعت السيدة سارة أن تحتفظ بجمالها حتى عندما كانت في الطريق إلى فلسطين في المرة الثانية، ومن عجب أنه فقط وبعد عشر سنين كما تقول التوراة في فلسطين، تستشعر السيدة التي تعيش الوحدة والعقم دون أمومة أنها كبرت وأنها لا تلد، وأنها تبحث في أعماقها عن غلام يملأ عليها الحياة ويؤنس وحدتها، آن الأوان لتطلبه ولو لم يكن من ذاتها، وبالفعل فإنها طلبت علي حد تعبير التوراة من إبراهيم أن يتزوج بالجارية «هاجر» ويضطجع معها ليأتي منها بأولاد تقربهم عين السيدة التي لا تلد.[1]

ورغم أن هذا المعنى هو مفهوم التوراة في سفر التكوين الإصحاح السادس

(١) د. صابر طعيمة (التراث الإسرائيلي في العهد القديم وموقف القرآن الكريم منه) دار الجيل - بيروت عام ١٩٧٩ صفحة ٢٨٥.

عشر، وهو معنى قد يتقبل داخل دائرة الأمور الأخلاقية العفة والكريمة وهو معنى قريب بما يمكن أن يكون في بيت تسيطر على القيم الأخلاقية فيه معاني النبوة والرسالة الدينية، بل هو معنى قريب بما يمكن أن يكون بين علاقة زوجية ناجحة يقفها أحد الزوجين من الآخر، إلا أن المنهج العجيب للتوراة يعود فيذكر: أنه ما أن تلد السيدة الثانية - هاجر - ولداً، وهو الغلام الذي وصف بعد ذلك في القرآن الكريم في سورة الصافات بالحلم والعلم: ﴿فبشرنَاهُ بغلامٍ حليم﴾[1] وكانت هذه البشارة عقب طلب النبي إبراهيم ورجائه من ربه ﴿ربِّ هبْ لي منْ الصالحين﴾[2] هذا الغلام هو إسماعيل بن إبراهيم الذي ما أن شب على قدميه- بل منذ ولد- إلا والغيرة والأنانية- كما تعبر التوراة- تملأ قلب ومشاعر السيدة التي كانت ترجو بالأمس ولداً من زوجها يملأ عليها الحياة ويؤنس الوحشة ويخفف عنها عناء الغربة في الرحلات، يقول الإصحاح المذكور[3]:[وأما ساراى إمرأة إبراهيم فلم تلد له وكانت لها جارية مصرية إسمها: هاجر فقالت ساراى لإبرام هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة. إدخل على جاريتي لعلي أرزق منها بنين، فسمع إبرام لقول سارى. فأخذت ساراى امرأة إبراهيم - هاجر - المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لإقامة إبرام في أرض كنعان وأعطتها لإبرام رجلها زوجة له، فدخل على هاجر فحبلت، فلما رأت أنها حبلت صغرت مولاتها في عينها. فقالت ساراى لإبرام ظلمي عليك، أنا دفعت جاريتي إلى حضنك فلما رآن أنها حبلت صغرت أنا في عينها، يقضي الرب بيني وبينك فقال إبرام لساراى: هوذا جاريتك في يدك. إفعلي بها ما يحسن في عينيك. فأذلتها ساراى فهربت من وجهها].

---

(١) سورة الصافات آية رقم ١٠١.

(٢) سورة الصافات آية رقم ١٠٠.

(٣) سفر التكوين الإصحاح السادس عشر ١ - ٦

ويمضي الإصحاح المذكور من تكوين التوراة، فيحكي من بين السطور عن غير قصد في التدوين إباء الجارية المصرية هاجر، ورفضها حياة المذلة والهوان التي تفرضها عليها سارة - ضرتها - فخرجت هائمة إلى أن حدثها الرب هي الأخرى. وفي منهج التوراة من اليسير أن يحدث الله الجميع، كأنها هي الأخرى «هاجر» كانت نبية ورسولة يخاطبها الله ويناجيها بأن تمتثل لإذلال سيدتها سارة لها ولا تخرج من أسرها، ثم يؤكد الإصحاح في هذا الجو العجيب قصة ميلاد «إسماعيل» بن إبراهيم ولد هاجر في أرض كنعان- فلسطين- قبل رحلة أبيه إبراهيم إلى مكة ورفقة الفتى لأبيه.

يقول الإصحاح:[1] (فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية، على العين التي في طريق شور، وقال يا هاجر جارية ساراى من أين أتيت، وإلى أين تذهبين، فقالت أنا هاربة من وجه مولاتي ساراى، فقال لها ملاك الرب: إرجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها، وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين إبناً وتدعين إسمه إسماعيل، لأن الرب قد سمع لمذلتك وأنه يكون إنساناً وحشياً يده على كل واحد، ويد كل واحد عليه وأمام جميع إخوته يسكن).

ومهما يكن بعد ذلك من لغط وخلط في النصوص التوراتية والتاريخية المتعلقة ببني إسرائيل من وجهة نظرهم، حول ما جاء في التكوين من أن إسحاق بن إبراهيم المولود من السيدة سارة كان وحيد أبيه، وبكره، ورفيقه في التحدث مع الله، فإن الذي نود أن نثبته وأن نتحقق له حتى من التوراة نفسها، هو أن اسماعيل هو الولد البكر الذي ولد لإبراهيم من هاجر قبل غيره سواء من هاجر وسارة أو غيرهما من النساء اللواتي تزوجن إبراهيم على حد روايات التوراة[2]، ذلك لأنه فوق المعنى العاطفي والنفسي الذي يرفض

---

(١) سفر التكوين السادس عشر ١٢:٧

(٢) (أبو الحسن السامري)، التاريخ مما تقدم عن الأبآء) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم (٤٢٠) صفحة ٢١٠.

دعوى إلتصاق وإيثار غير إسماعيل إلى قلب أبيه بإعتباره الولد البكر لأبيه بعد طول المعاناة وحرمانه الذرية، فالولد البكر قريب إلى قلب أبيه قريب إلى مشاعره، قريب إلى إمكانية تحمل مسؤولية حياة أبيه وميراثه قبل غيره من الأولاد فإن تأكيد هذه الحقيقة التي تفصح عنها معطيات من نصوص التوراة قبل غيرها، تجعلنا نرفض في شدة ما يساق بعد ذلك من أن إسحاق الولد الثاني من السيدة سارة التي تدعي عليها التوراة، فقد عملت فيها الغيرة كل عملها حتى حين حملت أم إسماعيل. ثم كبر الغلام أمامها وصلب عوده فلم تتحمل أن ينمو الولد أمامها مع أنه كما عبرت التوراة إستجابة من الله لرغبتها في أن ينجب إبراهيم أولاداً من هاجر فتقربهم عينها، إنه هو الولد القريب إلى قلب أبيه،ولكنها الصنعة التوراتية التي عرفت حين كانت مرحلة التدوين أن إسماعيل بن إبراهيم الولد البكر الذي أشعر أباه الرجل بالأبوة وبالذرية قد أصبح فيما أصبح أباً للعرب وسيداً لهم.[1]

وما تقوله التوراة بعد ذلك في الإصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين واضح فيه تماماً زج وحشر إسم إسحاق على أنه الولد القريب إلى قلب أبيه وإلى نفسه بل أن النص التوراتي هنا يدعي أن إسحاق كان وحيد أبيه في رحلته التي رافقه فيها إلى أحد الجبال وتم فيها الفداء الذي تكرم به الرب على إبراهيم أن يخلص إبراهيم من فكرة ذبح الولد الذي أنيطت به تقرباً إلى الله وإمتثالاً له.

يقول الإصحاح: (خذ إبنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك).[2]

والمعنى البديهي الواضح من سياق ما ترويه التوراة- وهي التي نحاول أن نجعلها من بعض ما نرجع إليه تاريخياً، وخاصة في هذه المرحلة من عمر

(١) (محمد عزة دروزة) (تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم المكتبة العصرية - صيدا - بيروت صفحة ٣٣٧

(٢) الإصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين.

المصادر الأولى التي ينتسب إليها اليهود والإسرائيليون - أن إسحاق ليس هو وحيد إبراهيم الذي يحبه ويؤثره، وإذا كان من الممكن أن تكون هذه الآيات التوراتية مثلاً تؤرخ للمرحلة التي سبقت ذهاب إبراهيم عليه السلام إلى الجزيرة العربية بغلامه الوحيد أو بولده البكر، فالولد الوحيد والبكر هو من غير جدال الولد إسماعيل بكر إبراهيم ووحيده طول المرحلة التي لم يكن إبراهيم فيها قد رزق بالولد الثاني إسحاق من السيدة سارة التي لم تكن قد أنجبت حين كانت الجارية هاجر كما تعبر التوراة قد حبلت وصغرت مولاتها في عينيها، وعليها، وحسبما نرى فإن الصنعة العنصرية المرحلية التي لازمت ظروف التدوين لأسفار العهد القديم قد حشرت إسم إسحاق الأب الذي انتسب إليه بعد ذلك الإسرائيليون واليهود، وخلعوا كل قيم الميراث الإجتماعي والأخلاقي والديني المدعى على إسحاق الأب الأعلى للإسرائيليين، حين أرادوا أن يخلعوا على إسحاق قداسة المواقف البطولية التي كانت بين إبراهيم وبين وحيده وبكره الحقيقي إسماعيل الذي رزق به إبراهيم، وكان وحده لم يكن له من أخ فترة طويلة كبر فيها الطفل يافعاً، قبل أن يرزق إبراهيم بإسحاق.. محاولة خلق علاقة خاصة بين الولد إسحاق وأبيه إبراهيم يحرم منها الولد الأكبر لينفرد بها إسحاق دون غيره واضحة في القصد والزيف.[1]

ورغم كل هذا التوهان غير الموضوعي ثم عدم إمكانية ربط سياق الحوادث بمنهج الحياة العامة، فإن سفر التكوين يأتي حول إسحاق ليجعل منه الشخصية الفدائية والمثالية في علاقته بأبيه إبراهيم وعلاقتهما معاً بربهما دون باقي إخوانه وإسماعيل على وجه الخصوص. بينما كما قلنا فإنه لو صدقت مثل هذه المعاني من جانب التوراة، لكان كل ما يقصد من تقرير هذه المعاني هو إسماعيل الولد الذي كما يؤخذ من الدلالة العامة لبعض آيات العهد القديم لم يتخل عن

---

(١) (أبكار السقاف): (إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة) عالم الكتب عام ١٩٦٠ الطبعة الأولى صفحة ٢٤٠.

أبيه ، ولم يتركه لحاله ، حين كبر يعبر البادية يحل أو يرتحل من مكان لآخر هو مجموعات الذي يؤمنون به ، بل إنه يستفاد أنه كان يتردد على أبيه في طول وامتداد الجزيرة العربية حيث ذهب مع أبيه وأمه كما تقص التوراة ، تجنباً للنزاع الذي تضخم وعظم بين أمه وأمرأة أبيه ، بسبب الغيرة المدعاة ، فلما حضرت إبراهيم الوفاة كان إسماعيل باعتباره الولد البكر قبل إسحاق ، بجانب أبيه ، وهما معا إسماعيل وإسحاق بعد أن ولد إسحاق كان يشتركان في دفن أبيهما ، يحمل كل منهما عبء مسؤوليته ، فيما يمكن أن يوكل إليه ، وعلى هذا فإنه من غير المعقول في منهج جميع الناس ، وعلى تباين جميع المشاعر واختلاف المذاهب دينياً وسياسياً وإجتماعياً . أن تتقبل الأفكار التي ترويها التوراة حول أفضلية إسحاق المدعاة التي لا سند لها من الحوادث أو منطق الأشياء .

يقول التكوين في السفر الخامس والعشرين على نهجه في سوق الدعوى ومواصلة التعصب العنصري المصنوع[1] (أسلم إبراهيم روحه ومات بشيبة صالحة . ودفنه إسحاق وإسماعيل أبناءه في مغارة المكفيلة في حقل عفرون إبن صوحر الحثي الذي أمام ممر الحقل الذي إشتراه إبراهيم من بني حث هناك . دفن إبراهيم وسارة إمرآته)

وتظهر كما تبين آيات التوراة نغمة التعصب المبكرة عن الأفضلية المدعاة عنصرياً لإسحاق بإعتباره كما قلنا قد أصبح فيما بعد أبا للإسرائيليين واليهود ، حين أنجب ولده « يعقوب » واضحة جداً حين جاءت هنا بتقديم إسم الصغير إسحاق . وهو الصغير فيما يمكن أن يقوم به من مسؤوليات أهله في مجتمع كان عامل كبر السن مناط ما يمكن أن يقوم به الرجل وما يوكل إليه ، وأيضاً واضحة جداً نغمة التعصب في إيثار وإلتصاق إبراهيم وتبعيته للزوجة الأولى حتى وهو ميت ، فحين دفن إبراهيم دفن في حقل عفرون بن صوحر الحثي ، وهو من القبيلة التي وقف أمامها إبراهيم ، حين ماتت زوجته سارة قائلاً لبني حث : أنا غريب ونزيل عندكم أعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي من أمامي .

(١) الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين .

ومهما يكن من تناقضات الرواية الدينية اليهودية التي جعلناها بعض تصورنا في محاولة الوقوف على الملامح العامة لهذه المرحلة الدقيقة والخطيرة من تاريخ البيئة الأولى وعمر مصادر النشأة الأولى للإسرائيليين واليهود، فإن طبيعة البحث العلمي الذي يتحرى وجهات نظر مختلف المصادر والوقوف على ظروف كل روايات السياق العام تجعلنا نواصل المنهج لنرى كيف تكون الصبغة الدينية سنداً لكل الإدعاءات. بل وأساساً لكل المعتقدات، وفي منهج القوم مرجعاً لكل الحقائق والمسلمات، وقبل أن نذهب مع القوم في الشوط إلى نهايته فإنا نعرج في إيجاز خفيف إلى حيث يوجد الولد البكر لإبراهيم بإعتباره جزءاً مهماً من القصة الطويلة في الصراع، وحتى لا نهمل في الموضوع الذي يشمل إبراهيم ونسله. تاريخ إسماعيل وتأثيره في التاريخ العام للمنطقة كلها. ورغم إدراكنا أن الكلام عن إسماعيل العربي من وجهة نظر مسلم عربي في معرض دراسة عن النبوة فإنه مفترض فيه أنه متحيز لا محالة للحق الذي يراه من خلال عطاء مصادر دينه إلا أننا نرجوا فيما سنعرض له عن إسماعيل في الصفحات التالية أن نكون موضوعيين حتى يمكن ربط السياق العام لأبناء إبراهيم في وحدة موضوعية نتعرف خلالها على عمل وطبيعة كل عضو في هذه الوحدة التي عمل التناقض فيها وقصد الهوى واللعب بالمعتقد والميراث كل ما يمكن أن يكون بين عناصر متضادة ينفر كل عضو منها من الآخر ويختلف، لا أن يمتزج أو يتحد.(١)

إسماعيل في الجزيرة العربية:

يكاد يكون هناك إجماع تام بين المؤرخين حول قدوم إسماعيل مع أبيه ابراهيم إلى الجزيرة العربية وإستقراره في مكة، بإستثناء قلة قليلة من المؤرخين، وقفت حائرة مترددة بين الأخذ بما جاء في القرآن عن قدوم إبراهيم

---

(١) (زكريا الحجاوي). (حكاية اليهود). القاهرة - بدون تاريخ صفحة ٢٨٠.

وإسماعيل إلى مكة، أو رفض هذه الأخبار، خاصة وأن كل ما جاء حول هذه الرحلة وما تعلق بها لم يرد بالتفصيل في غير القرآن الكريم.

وهناك فريق ضعيف من المؤرخين يمثلهم «سير وليم موير» يرون في قصة إسماعيل فترة إقامته بمكة أسطورة خيال صنعها الإسرائيليون عبر التاريخ وابتدعوها ليربطوا بينهم وبين العرب ليكون حظهم مشتركاً في كل ميراث تاريخي وحضاري على حد سواء، باعتبار إنتمائهم جميعاً إلى أبيهم الأعلى إبراهيم، ومهما تكن مستندات أولئك النفر من المؤرخين وحيثيات إجتهاداتهم، فإن صحة وسلامة السياق العام لمجموع تاريخ المنطقة التي شهدت حركة النشأة الأولى للآباء الأول من ذرية إبراهيم - الذي أكدت كل الآثار التاريخية على صحة ما ورد في القرآن الكريم والتوراة وهما من أهم المصادر الدينية التي يعتمد عليها كل من المسلمين واليهود في تكييف مواقفها الدينية والسياسية على حد سواء - يثبت كذب وخطأ ما يذهب إليه أولئك المؤرخون[1].

والذي نود أن نلفت إليه هو أنه ليس هناك دليل حتى الآن، ولم نطلع على ما يقدم منهجاً أصيلاً ينفي قدوم إسماعيل إلى الجزيرة العربية وإنتماء أرومات عربية إليه، بعد أن عاش بين القوم وأصبح منهم وأبا لهم، بل إن تتبعنا الدقيق لتناقضات هذه المرحلة الدقيقة، وتداخلات أحداثها وغموضها، قد أوقفنا طويلاً إلى ما أشارة اليه التوراة صراحة من إشتراك إسماعيل في دفن أبيه إبراهيم مع أخيه إسحاق في أرض فلسطين. أي أن إسماعيل، كان يتردد على أبيه إبراهيم من الجزيرة العربية إلى فلسطين، وإلاّ لو كان قد بقي في فلسطين لظلت الغيرة والحسد يعملان في نفس السيدة سارة كما تعبر عنها وتدعي عليها التوراة.ولو بقي في فلسطين ولم يكن ذهب الى مكة وكبر وأصبح يتردد عليه أبيه، لما كان هناك من معنى للآيات التوراتية★ التي تقول فيها

---

(١) أنظر في هذا: (أبو الأنبياء) للأستاذ / عباس محمود العقاد صادر عن كتاب الهلال. القاهرة صفحة ٦٨.

(★) انظر سفر التكوين الاصحاح الحادي والعشرون.

(هاجر) لإبراهيم بعد أن وصل إلى الجزيرة العربية يصحبها ومعه ولده إسماعيل منها وابتني البيت الذي ورد ذكره في القرآن صراحة، وأراد العودة إلى حيث ترك ساره، تقول له هاجر: إلى من تكلنا؟ فيقول لها إلى الله، فترد عليه إذن لا يضيعنا، نقول إنه إذا صح القول اليهودي بأن إسماعيل لم يذهب إلى الجزيرة فمن إذن الذي كان مع إبراهيم وزوجه هاجر؟ أهو إسحاق أيضاً هذه المرة وهو لم يكن قد ولد بعد؟!

فإسماعيل وأمه قد إستجابا لإبراهيم فيما أرتآه من أن يجنبها النزاع الذي قد يتفاقم بين الزوجين، والغيرة التي قد تقتل سارة، وتزعج أمن إبراهيم وإستقراره، هذا على فرض تقدير سلامة منهاجية التوراة فيما ترويه، والإغضاء جدلاً عن مقاصد عظمى أخرى في معتقدات دينية إسلامية مثلاً حول سر ذهاب إبراهيم إلى الجزيرة العربية وتوجيه الرحلة إليها في الوقت الذي أغفلت فيه التوراة تماماً الحديث عن رحلة إبراهيم إلى مكة. على منهج التوراة نحاول أن نرى الصورة من بعض جوانبها، وإن كان التقدير الإجتماعي للرجال الكبار في دراسة حياتهم وشخصياتهم- فضلاً عن القداسة الدينية التي تجعل النبي الرسول أكرم وأعظم من أن يوجه- من جانب بشر- إلى سلوك أو ينبه إلى عدم الوقوع في خطأ أو أن يطلب منه مالا يرضى الله- يرفض أن يؤمر الرجال من قبل نسائهم بالجور على واحدة وولدها دون الأخرى أو إستبقاء واحدة ثم طرد الثانية وتشريدها[1].

ويبقى بعد كل ذلك التسليم عقلاً وديناً بأن إبراهيم عليه السلام فيما أقدم عليه من رحلته إلى الجزيرة العربية بزوجه وولده أنه إمتثالاً لأمر الله في أن يبلغ دعوة الله التي يؤمن بها ويدعو إليها ثم يفتح الطريق إلى الله أمام بيئة جديدة ومناخ جديد لقوم كانوا في صحرائهم وظلوا فيها مصدراً لكل الجماعات الإنسانية في طول بادية الشام وعرضها وأرض الجزيرة العربية وما

(١) د. صبري جرجس (التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي) معهد الدراسات العربية العالي. القاهرة ١٩٦٧ صفحة ٣٢٠.

حولها وإلى ما جاورها من أراضي أقيمت فيها ممالك وحضارات على يد البدو الرحل من العرب الذين قدموا في أولى رحلاتهم من الجزيرة العربية إلى العراق وإلى مصر منذ القرن الخامس والأربعين قبل ميلاد السيد المسيح.(١)

وعليها فإن قدوم إبراهيم وإبنه إسماعيل عليهما السلام إلى مكة كان في حوالي عام ١٧٦٠ ق.م أي بعد خروج إبراهيم من أرض «أور» الكلدانية وذهابه إلى أرض الكنعانيين ثم ثم غربته في مصر والعودة مرة ثانية إلى فلسطين وبقائه فيها عشر سنين إلى أن أنجب إسماعيل وكبر وصلب عوده ورافق أباه في الرحلة إلى الجزيرة العربية، وكان عمر إسماعيل حينئذٍ- كما يذهب جمهور كبير من المؤرخين والمفسرين الإسلاميين- ما يقرب ثلاثة وعشرين عاماً، يكبر إسحاق بأربعة عشر عاماً حين كان أبوهما يزمع السفر بإسماعيل.(٢)

ولقد إنتهى أمر القافلة: إبراهيم وزوجه هاجر وولده إسماعيل إلى أحد أودية مكة القفر وحطوا رحالهم عند شجرة هنالك في الموضع القريب من زمزم، إلى أن استقروا بعض الشيء وكان على إبراهيم أن يفكر في مواصلة إمتثاله لأمر ربه يبشر بالحق والعدل ويحمل الدعوة إلى الله في طول هذه المنطقة الشاسعة من البادية كلها وشبه الجزيرة العربية، فهم بالرحيل عن الولد وأمه قاصداً بعض ما تبقى منه في أرض فلسطين، وهنا يدور حوار بين الرجل وزوجته تأثرت به أحداث المنطقة كلها من يومها: الزوجة في موقف رجاء وضعف وخشوع وحال إستفسار: إلى من تكلنا يا إبراهيم؟ ويتحسس الرجل الطاعن في السن أعماق نفسه كنبي وكرسول، أكلكما إلى الله؟ ويخرج من فم السيدة الممتثلة لربها والمؤمنة به على الفور ودون ما صنعة أو إدعاء، يخرج من فمها مفتاح الموقف كله، بل وتحديد معالمه ورفض كل زيف وشجب كل إدعاءات باطلة: آلله أمرك بهذا؟ ويقول النبي وأعماق قلبه ممتثلة لربه

---

(١) (محمد عزة دروزة) (تاريخ الجنس العربي) قبل العروبة الصريحة صفحة ٣٣٥.

(٢) صابر طعمية (اليهود بين الدين والتاريخ) مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٧٢ صفحة ٥٦.

مستجيبة مطمئنة إلى حكمته وتدبيره: نعم، وترد عليه السيدة هاجر زوجة النبي وأم الفتى النبي: إذن لا يضيعنا، وقد كان واستجاب الله لرجاء السيدة الداعية من أعماقها محققاً وعده، ولم تتعرض هاجر وولدها لأذى بل كان لهما بعد ذلك الشيء الكثير والخير الوفير ويقص القرآن الكريم هذا الموقف العميق الرهيب فيقول تعبيراً عما إنفعلت به نفس إبراهيم ومشاعره حين هم بالرحيل تاركاً ولده وزوجة:

﴿ربنَا إني أسكنتُ منْ ذريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عندَ بيتِكَ المحرم، ربنآ ليقيموا الصلاةَ فاجعلْ أفئدة من الناسِ تهوى إليهم وارزقهم منَ الثمراتِ لعلهمْ يشكرون﴾(١).

إسماعيل والجنس العربي:

الذي نود أن نلفت إليه أن إسماعيل بن إبراهيم يمكن أن يوصف على ضوء المصطلحات الحديثة بأنه من ناحية الجنس عراقي آسيوي لأبيه الذي ولد في أور الكلدانية ومصري أفريقي لأمه هاجر المصرية، التي كانت من بين الهدايا والخير الكثير الذي وهبه الفرعون لإبراهيم عند خروجه من مصر متوجهاً إلى أرض كنعان مرة ثانية.

وحين كبر إسماعيل في الجزيرة العربية وأصبح رجلاً كان يحمل هذه الخصائص والمكونات بهذه الصفات الواسعة ما بين الأفريقية في مصر والآسيوية في العراق، فلما تزوج من القبيلة القادمة من اليمن إلى مكة حيث كان يقيم، وحيث كان قد إبتنى مع أبيه إبراهيم البيت الذي لم يعد هناك من ينكر علاقة نبي الله إبراهيم به،وظل إسماعيل بجانبه إلى أن تزوج من الجراهمة وهي القبيلة التي كانت قد خرجت من جنوب الجزيرة العربية ضمن حركة الهجرة التي كانت تموج بها المنطقة وضمن الأفواج التي كانت لا تستقر في مكان

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

بعينه، بل حيث يوجد الماء والمرعى، أو حيث كانت الجماعات تتجه تحمل التجارة وتقصد البيع والشراء في أماكن تجمع البشر واستقرارهم.[1]

وتزوج إسماعيل من «جرهم» القبيلة العربية الخالصة من فتاة إسمها «رعلة بنت عمرو» ثم تزوج من نفس القبيلة بفتاة ثانية إسمها «سعيدة بنت مضاض» وإقترن بالثالثة أيضاً من نفس القبيلة فتاة إسمها (الحنفاء بنت الحارث بن مضاض)، وبالزوجات الثلاث التي إقترن بهن إسماعيل جرى في أعماقه وأعماقهن الدم العربي الخالص ممتزجاً بالدم المصري الإفريقي بالدم العراقي الآسيوي، الذي كان مزاجاً لمكونات قسم جديد من العرب بدأ بأولاد إسماعيل الذين ترد أخبارهم في التوراة بأنهم كانوا إثنى عشر ولداً، والذين كانوا نتاج زواجه من البنات الثلاث، وبدأت السلسة العربية لهذا القسم من العرب الذي كان إسماعيل المصدر الأعلى له بهذا الترتيب: بنابوت، قيدار، أونيل، ميسام، مشاع، دومة، مسا، حدار، يطور، تيما، قدمة، نافيش.[2]

وهؤلاء الأبناء هم الذين كانوا مصادر مباشرة للجنس العربي من عصر إسماعيل وعنصراً جديداً فيه بدأ يعمل عمله بالتوالد والتكاثر، منذ الولد «قيدار» الإبن البكر لإسماعيل وقد أصبح قيدار أباً لـ «حمل» الذي أصبح أباً لـ «ثابت» الذي أصبح أباً لـ «سلامان» الذي أصبح أباً لـ «الهيسع» الذي أصبح أباً لـ «ليشع» الذي أصبح أباً لـ «أود» الذي أصبح أباً لـ «نزار» الذي أصبح أباً لـ «أياد» وأنمار، وربيعه، وعيلان، ومضر الذي أصبح أباً لـ «الياس» الذي ولد له «هذيل ومدركة» الذي أصبح أباً لـ خزيمة» الذي أصبح أباً لـ «الهون وأسد وكنانة، وكنانة هذا أصبح أباً لـ «للنضر» الذي ولد له عمرو وعامر وملكان، وعبد مناف، وقيس، ومالك، الذي أصبح أباً

(١) (سبينيو موسكاني) الحضارات السامية، ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر الألف كتاب مصر صفحة ٢٨٠.

(٢) د. عبد الفتاح شحاته (تاريخ الأمة العربية قبل الإسلام) جـ ١ القاهرة بدون تاريخ صفحة ٩٧.

لـ « فهر » الذي ولد له محارب، والحارث، وضبة، وهلال وعبد الله، والجراح، وغالب الذي أصبح أباً لـ « لؤى » الذي أصبح أباً لـ « كعب » الذي أصبح أباً لـ « مرة » الذي أصبح أباً لـ « كلاب » الذي أصبح أباً لـ « قصى » الذي أصبح أباً لـ « عبد مناف » الذي أصبح أباً لـ « هاشم » الذي أصبح أباً لـ « عبد المطلب » الذي أصبح أباً لـ « عبد الله » الذي أصبح أباً لـ « محمد » النبي الرسول العربي عليه السلام.(١)

ومن هذه السلسة الطويلة تتعدد الفروع وتتسع، لتشمل بطوناً وقبائل وأفخاذاً وأسراً عربية كانت جميعاً ترجع في أصلها التاريخي والجنسي إلى إسماعيل بن إبراهيم الذي يحمل خصائص ودم الشعب المصري والعراقي منذ تزوج إبراهيم الذي ولد في العراق بهاجر المصرية.

وقد أصبح إسماعيل أباً لكل هذه السلسة العربية منذ تزوج من بنات العرب بثلاث أصبح بهن إسماعيل أباً للعرب، « المستعربة » ذلك القسم من العرب الذي منذ وجد قد جعل من تكامل الطبيعة الإقتصادية وثروة الحياة لهذه الرقعة الجغرافية الممتدة من الخليج العربي شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ميداناً واحداً لمزج عناصر التكوين الجنسية لسكان هذه المنطقة الشاسعة، التي عملت فيها المعتقدات الدينية، والرسالات السماوية، التي نادى بها أصحابها كل عملها في التأثير والهداية، فكانت قوة أضافت إلى مقومات التكامل الجغرافي لرقعة الأرض والتكامل الجنسي لوحدة الشعب معاني جديدة، تساعد على إستعدادها لقبول القيم الدينية الواحدة، التي جاءت بعد ذلك على يد محمد ﷺ.

وفي هذه الأرض العربية التي شهدت نمو وتكاثر وتناسل هذا القسم من العرب الذي ولد لإسماعيل بن إبراهيم عليه السلام كان هناك في رقعة أخرى من هذه الأرض ولداً آخر لإبراهيم، أصلاً ومصدراً للجنس الذي نعرض له

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٠.

بهذه الدراسة في مجالي النبوة والرسالة وهو الولد الثاني لإبراهيم الذي ولد بعد أخيه إسماعيل ببضع سنين من السيدة العجوز سارة هذا الولد: هو إسحاق وفي منهجنا نحن المسلمين وعقائدنا «النبي» إسحاق عليه السلام.

إسحاق والشعب الإسرائيلي:

إسحاق عليه السلام هو الولد الثاني لإبراهيم عليه السلام والمولود في سن متأخره جداً من عمر إبراهيم بعد المائة والعشرين كما تحكي التوراة، وما أن أصبح رجلاً في سن الأربعين إلا واتخذ لنفسه زوجة إسمها: (رفقة بنت بتوئيل الآرامي)، ومن عجب أن التوراة في منهجنا القصصي وسردها للحوادث حريصة على أشياء بذاتها كثيراً ما يكررها النهج التوراتي ويحرص عليها، مثل عقم النساء إلى سن متأخرة ثم إنجابهن الأولاد بعد سن اليأس، ومثل تكرار الموقف الذي يقول فيه الرجل أياً كانت مرتبته عند قومه وأياً كانت قيمته الإجتماعية أو الدينية فهو دائماً في النهج التوراتي عند مواقف الشدة يقول عن زوجته: إنها أختي حتى يكون له بهذا الموقف مخرجاً من الحرج أو المشقة كما حدث لإبراهيم في مصر وعند الملك أبيمالك في جرار وفي منطقة بئر سبع من أن إبراهيم قال عن زوجته سارة: إنها أختي في الموقفين- لأن إسحاق حين تزوج من «رفقة» التي كانت عاقراً لا تلد، إلى أن أصبح إسحاق رجلاً يتضرع ويبتهل إلى ربه وتستجاب دعواته ويتقبل رجاؤه، حبلت له «رفقة» بولدين وبشر بها إسحاق، فإنه كذلك قد قال لابيمالك ملك الفلسطنيين حين خرجا من أرض كنعان إلى منطقة بئر سبع ورآها أبيمالك: إنها أختي، ولست أدري كيف توافقت الصنعة التدوينية للمواقف التقليدية هذه إلى هذا الحد الذي مثل فيه الولد دور الأب تماماً، يقول سفر التكوين[1] في تدوينه لهذه المرحلة من عمر إسحاق بن إبراهيم (وصلى إسحاق إلى الرب لأجل إمرأته لأنها

(١) تكوين: الاصحاح الخامس والعشرين: آيات ٢١- ٢٣.

كانت عاقراً. فأستجاب له الرب فحبلت رفقة إمرأته وتزاحم الولدان في بطنها. فقالت إن كان هذا فلماذا أنا، فمضت لتسأل الرب، فقال لها الرب في بطنك أمتان ومن أحشائك يفترق شعبان، شعب يقوى على شعب، وكبير يستعبد لصغير، فلما أكملت أيامها لتلد إذا في بطنها توأمان، فخرج الأول أحمر كله كفروة شعر، فدعوا إسمه «عيسو» وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعى إسمه «يعقوب» وكان إسحاق ابن ستين لما ولدتها).

ويمضي الإصحاح ويسترسل في قصص طويل يبرز من خلاله مختلف جوانب الإلتواء والأنانية في نفس الآباء الأول للأبناء الذين كانوا بعد ذلك نماذج للدس والخديعة والأنانية والذاتية والتسلق والتصيد وأدوات لكل مظاهر الزيف والهوى- والعياذ بالله- كما رغب في ذلك مصنف التوراة المحرفة وهو يتناول النبوة والرسالة في سير الآباء الأول لبني اسرائيل.

يقول سفر التكوين(١) (فكبر الغلامان وكان عيسو إنساناً يعرف الصيد، إنسان البرية، ويعقوب إنساناً كاملاً يسكن الخيام، فأحب إسحاق عيسو لأن في فمه صيداً، وأما رفقة فكانت تحب يعقوب).

وكما هو واضح وصريح من مفهوم هذه الآيات فإن العلاقة الأبوية التي تصورها الآية كانت مرتبطة بهذا المعنى المادي القائم على الحاجة ورغبة الحس، وأن الأسرة الأولى منذ نشأتها كما تصور هذه الآيات: الرجل الكبير إسحاق في سن الستين والأم «رفقة» والولدان كبرا، وأصبح منهما إنسان البرية الذي يعرف الصيد، والثاني الذي يسكن الخيام، مهزوزة ومخلخلة، جوانب الأمن والتضحية فيها مفتقدة، وعلامات الإيناس والائتمان بين أفرادها منعدمة، فكل منها على هواه وحسبما تحكمه الحاجة والرغبة أو ما تدفعه إليه حواسه من الحاجة والقصد. وما تحكيه التوراة وتقصه حول الآباء الأول لليهود وعنهم

---

(١) تكوين: الإصحاح الخامس والعشرين.

هو من وجهة نظر الذين يتشدقون بالتوراة ويبررون بها ما يصنعون ديناً للجماعات التي تتصور أنها تتعلق بهذا الميراث الديني والتاريخي المدعي.

وفي نفس المعنى وعلى هذا النهج يمضي سفر التكوين يقص حكايته عن إسحاق وولديه عيسو ويعقوب فيقول[1] (وطبخ يعقوب طبيخاً، فأتى عيسو من الحقل وهو قد أعيا: فقال عيسو ليعقوب أطعمني من هذا الأحمر لأني قد أعييت لذلك دعي اسمه آدوم. فقال يعقوب: بعني اليوم بكوريتك، فقال عيسو: ها آنا ماضٍ إلى الموت فلمذا لي بكورية. فقال يعقوب: أحلف لي اليوم، فحلف له فباع بكوريته ليعقوب: فأعطى يعقوب عيسو خبزاً وطبيخ عدس فأكل وشرب وقام ومضى فاحتفر عيسو البكورية).

ويمضي السفر فيحكي عن مرحلة من عمر إسحاق لم يشر فيها إلى دور ولديه عيسو ويعقوب، وهي مرحلة الهجرة إلى سيناء عند ملك جرار «أبيمالك». فتقول التوراة عن هذه المرحلة[2] (وكان في الأرض جوع غير الجوع الأول الذي كان في أيام إبراهيم، فذهب إسحاق الى أبيمالك ملك الفلسطينيين إلى جرار. وظهر له الرب، وقال لا تنزل إلى مصر، إسكن في الأرض التي أقول لك. تغرب في هذه الأرض فأكون معك وأباركك، لأني لك ولنسلك أعطي جميع هذه البلاد. وأفي بالقسم الذي أقسمت لإبراهيم أبيك وأكثر نسلك كنجوم السماء وأعطي نسلك جميع البلاد، ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض من أجل أن إبراهيم سمع لقولي، وحفظ لي أوامري وفرائضي وشرائعي،فأقام إسحاق في جرار. وسأله أهل المكان عن إمرأته فقال هي أختي، لأنه خاف أن يقول إمرأتي لعل أهل المكان يقتلونه من أجل رفقة لأنها كانت حسنة المظهر. وحدث إذ طالت له الأيام هناك أن أبيمالك ملك الفلسطينيين أشرف من الكوة ونظر وإذا إسحاق يلاعب رفقة إمرأته فدعا أبيمالك إسحاق وقال،

(١) تكوين: الإصحاح الخامس والعشرين: آيات ٢٩- ٣٤.
(٢) التكوين: الإصحاح السادس والعشرين آيات ١- ١٠.

إنما هي إمرأتك فكيف قلت هي أختي فقال له إسحاق لأني قلت لعلي أموت بسببها فقال أبيمالك ما هذا الذي صنعت بنا، لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنباً، فأوصى أبيمالك جميع الشعب قائلاً: الذي يمس هذا الرجل وامرأته موتاً يموت).

ويمضي سفر التكوين العجيب فيقص علينا الفترة التي قضاها إسحاق في سيناء وأغلب الرأي والذي نميل إليه أيضاً أنه كان في صحبته ولداه عيسو ويعقوب، وإن لم يرد لهما من ذكر إلا بعد أن شاخ وطعن في السن كما تعبر الآيات التوارتية، فنقف بعد ذلك على تلك الفترة التي قضاها إسحاق في منطقة سيناء يزرع الأرض كما تقول التوراة، ويباركه الرب وتكثر مقتيناته، ويجمع المواشي والبقر والعبيد وينميها إلى أن يصبح في حال إقتصادي وإجتاعي أحس معه سكان الأرض أنه إبتداء ينافسهم، أو يشكل خطراً عليهم، فيدخل معهم إسحاق في حوار ومناقشات ومناوشات وصلت في بعض مراحلها إلى الصدام والعنف، إلى أن طرأت المرحلة التي قطع فيها سكان الأرض وأهلها على أنفسهم أن يكرموه وأن يكون بينهم حالة من سلام دائم على أن لا يهم بهم بشر أو عداوه(١).

وتقول التوراة وهي تسجل لهذه الحقبة(٢): (وزرع إسحاق في تلك الأرض فأصاب في تلك السنة مائة ضعف وباركه الرب، فتعاظم الرجل وكان يتزايد في التعاظم حتى صار عظيماً جداً، فكان له مواشي من الغنم ومواشي من البقر وعبيد كثيرون، فحسده الفلسطينيون. وجميع الآبار التي حفرها عبيد أبيه في أيام أبيه إبراهيم طمها الفلسطينيون وملأوها تراباً وقال أبيمالك لإسحاق إذهب من عندنا، لأنك صرت أقوى منا جداً، فمضى إسحاق من هناك، ونزل في وادي جرار، وأقام هناك ونبش الماء التي حفروها في أيام إبراهيم

(١) من الجدير بالذكر أن هذا البيت النبوي الكريم بمنظار الإسلام إليه من خلال رواية القرآن الكريم يختلف عما يستفاد من التوراة تماماً.

(٢) التكوين: الإصحاح السادس والعشرون آيات ١٢- ٢٣.

أبيه وطمها الفلسطينيون بعد موت أبيه، ودعاها بأسماء كالأسماء التي دعاها بها أبوه، وحفر عبيد إسحاق في الوادي فوجدوا هناك بئر ماء حي، فخاصم رعاة جرار رعاة إسحاق قائلين: لنا الماء فدعا إسحاق البئر «عسق» لأنهم نازعوه، ثم حفروا بئر أخرى، وتخاصموا عليها أيضاً فدعا إسمها «رحوبوت» وقال إنه الآن قد أرحب لنا الرب في تلك الليلة، وقال أنا إله إبراهيم أبيك، لا تخف لأني معك وأباركك وأكثر نسلك من أجل إبراهيم عبدي، فبنى هناك مذبحاً ودعا بإسم الرب، ونصب هناك خيمته، وحفر هناك عبيد إسحاق بئراً، وذهب إليه من جرار أبيمالك وأحزاب من أصحابه وفيكول رئيس جيشه، فقال لهم إسحاق ما بالكم أتيتم إلي وأنتم قد أبغضتموني وصرفتموني من عندكم، فقالوا إنا قد رأينا الرب كان معك. فقلنا ليكن بيننا حلف بيننا وبينك ونقطع معك عهداً أن لا تصنع بنا شراً كما لم نمسك، وكما لم نصنع بك إلا خيراً وصرفناك بسلام أنت الآن مبارك الرب، فصنع لهم ضيافة فأكلوا وشربوا، ثم بكروا في الغد، وحلفوا بعضهم لبعض، وصرفهم إسحاق فمضوا من عنده بسلام وحدث في ذلك اليوم أن عبيد إسحق جاءوا وأخبروه عن البئر التي حفروا وقالوا له قد وجدنا ماء، فدهاها «شبعة» لذلك اسم المدينة بئر سبع إلى هذا اليوم).

ولسنا نجد تفسيراً مقبولاً لكل ما تقصه التوراة حول هذه البيئة التي كان فيها الآباء الأول لبني إسرائيل في حال من التركيز والتأكيد حول الأشياء المادية المحسوسة وارتباط أمور القداسة والتطهر أو البركة ومعاني الخير بها. حريصين عليها، مرتبطين بها فبركة الأب إسحاق هي حظوة يغتنمها ولد دون الآخر، وطاعة الولد أكلة يقدمها للوالد النبي الداعي إلى الله؟؟ بل وتصوير البركة أو الطاعة على أنها سلعة عند صاحبها، وإسحق أب لولدين يتصارعان عليها وتنفد إذا ما حصل عليها واحد منها ولو بالوشاية والتزييف. ثم أي بيت هذا؟ والنبوة والهداية فيه ترتبطان بالأب الذي يدعو إلى الله على طريق أبيه إبراهيم عليه السلام صاحب الدعوة إلى توحيد الله وصاحب الدعوة إلى

عدل الله كي يهدي البشر على الأرض بهدي السماء، أي بيت هذا الذي يرينا إياه كاتب أسفار التوراة وكل ما فيه قائم على الوشاية والنفاق والصراع، والوحدة الأسرية في بيت النبوة في التوراة ممزقة هكذا ومبعثرة بل ومتصارعة، فكما تقص التوراة في النصوص التي أوردناها تتضح المعالم الآتية: أحد الأولاد في البيت تحبه أمه وقريب إلى قلبها، وآخر يحبه أبوه وأثير لديه، ثم تعمل الأم بكيد النساء ومكرهن في أن يحظى من الأولاد من ترضى هي عنه وتؤثره بكل خير أبيه وخير الدنيا، بينما يترك الثاني لحال سبيله مضيعاً ومسلوباً. وأي أخوين هما، وهما يحملان ميراث أبيهما وقد كبرا، وأصبح كل منهما يمثل جيلاً جديداً من أبنائه وأحفاده، في الوقت الذي يرضى أو يندفع كل منهما لأن يصارع الآخر ويحتال عليه؟! عجيب أمر سفر التكوين من التوراة وهو يدون لهذه المرحلة التي فيها تاه المصنف التوراتي، فلم يستطع أن يوفق بين معنى القداسة المدعاة للآباء الأول وبين القيم الأخلاقية والحال العام الذي كان يتأثر به ويكتب له[1]. ومن هنا ضاعت تماماً قضايا النبوة والرسالة الإلهية في سياق الأخبار المحرفة. فلم يبق لها بعد ذلك إلا المصدر السليم والمحفوظ عن التحريف، القرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

---

(١) ومن الممكن أن يرجع في الكشف عن الجوانب الأخلاقية عند مصادر آباء اليهود إلى البحث العلمي الممتاز الذي كتبه الدكتور «صبري جرجس» في كتابه التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي، الصادر عن عالم الكتب عام ١٩٧٠م.

الفصل الرابع:

إسحق ويعقوب عليهما السلام بين تزييف التوراة وصدق القرآن

إسحق ويعقوب عليهما السلام في لغة القرآن الكريم وعطائه من أنبياء الله الكرام، يحمل كل منهما مهمة أناطه الله بها وكلفه إياها، والوحي الإلهي فيها عونهم ومددهم من الله، في كل ما يتعلق بهداية البشر، وتوجيه رسالة الله إليهم فضلاً عن عصمته لهم من الوقوع في الخطيئة أو الكبائر، بحكم أن الأصل في أنبياء الله ورسله أنهم نماذج هداية، يصطفيهم الله سبحانه، من بين خلقه ليبلغوا عن الله بالوحي الإلهي، ما يسعد البشر وما يأخذ بأيديهم، ومن هنا فإن الله سبحانه يعصمهم عن الوقوع في الكبائر ويرفعهم عن أن يقعوا في خطيئة أو يمارسوا فساداً.(١)

وبهذا الأساس فإن حديث القرآن الكريم عن هؤلاء الكرام يختلف تماماً ويغاير قصص العهد القديم، الذي قد أتينا على نماذج منه في تناول أنبياء الله، ذلك أن القرآن كما سبق القول إنتهى إلينا بالهيئة التي هو عليها الآن، منذ نزل من الله تعالى على قلب الرسول الخاتم محمد ﷺ، لم يمسه بشر بتحريف أو تغيير، ولم تعمل فيه أهواء المؤمنين به أو المنكرين له، فخبره وحديثه وحده هو الحق الخالص، الذي لم يختلط به شيء آخر من فكر البشر، أو عمل الناس(٢)، أما العهد القديم الذي يؤمن به اليهود والنصارى، فهو سجل

---

(١) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين- تأليف أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتوفي في عام ٣٣٠ من الهجرة- تحقيق/ محي الدين عبد الحميد الجزء الأول من الطبعة الثانية عام ١٩٦٩ ص ٢٣١.

(٢) (مناع القطان) (مباحث في علوم القرآن) طبعة مكتبة المعارف بالرياض عام ١٤٠٢ هـ صفحة ٣٨.

مأثورات ومرويات وذكريات لأجيال عديدة، ومراحل مختلفة من عمر الكتاب والمدونين، الذين قاموا على أمره، ولذا فمن الطبيعي والمنطقي، أن تختلف لغة القرآن الكريم في مجمل عطائه وتفصيله عن معظم ما نقل إلى الناس من تراث في العهد القديم عن النبوة والرسالة الإلهية، فضلاً عن عقيدة الإيمان بالله رب العالمين.

وعلى ذلك فالنبي يعقوب الذي لم نلمح أثراً للنبوة أو الرسالة الإلهية تتحقق على يديه في لغة أسفار العهد القديم، يطالعنا القرآن الكريم عنه بشيء يتغاير تماماً ويختلف مع مرويات العهد القديم، ويتفق تماماً مع جلال النبوة ووظيفة الرسالة الإلهية، التي اصطفى الله من أجلها بعض خلقه.

إن يعقوب مع أبيه إسحق منذ الصبا المبكر، وحتى قرب النهاية من عمرهما في الحياة، لم يعرفا ما اتهمهما به كاتب أسفار العهد القديم، من صراع ومؤامرات وتلصص وسرقة، وإنما هما على دين الله الحق الذي لا تتغير كلمته ولا تتبدل لأن كلمة الله للناس لا تتغير ولا تتبدل. وها هما في البداية كما يقول رب العزة عنهما في سورة البقرة، حملا من أبيهما إبراهيم عليه السلام تلك الحقيقة، التي ما خلا منها قلب نبي وما تجرد عنها سلوكه وما فترت في عواطفه أبداً والتي يقول عنها رب العالمين: ﴿ووصى بها إبراهيمُ بنيهِ ويعقوبُ يابني إنّ اللهَ اصطفى لكُمُ الدينَ فلا تموتُنَّ إلا وأنتمْ مسلمونَ، أمْ كنتمْ شهداءَ إذْ حضرَ يعقوبَ الموتُ إذ قالَ لبنيهِ ما تعبدونَ منْ بعدي، قالوا نعبدُ إلهكَ وإلهَ آبائكَ إبراهيمَ وإسماعيل وإسحقَ إلهاً واحداً ونحنُ لهُ مسلمونَ﴾[١]، فهاتان الآيتان الكريمتان تؤكدان أن نبي الله يعقوب أوصى بنيه بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، والإسلام له سبحانه، أي الإنقياد له والخضوع لجلاله، ذلك أن الإسلام بهذا المعنى هو ملة الأنبياء جميعاً، وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم[٢]، ولذا يقول المولى تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿قولوا آمنَّا باللهِ

---

(١) سورة البقرة: آيتا ١٣٢، ١٣٣.

(٢) تفسير ابن كثير الجزء الأول صفحة ٣٢٧ ط.

وما أُنزلَ إلينا وما أُنزلَ إلى إبراهيم وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ والأسباطِ. وما أُوتيَ موسى وعيسى وما أوتي النبيونَ منْ ربهمْ لا نفرقُ بينَ أحدٍ منهمْ ونحنُ لهُ مسلمونَ﴾[1]، فهو سبحانه وتعالى في هذه الآية كما يقول الإمام ابن كثير أرشد عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً، وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً، ونص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم بل يؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿ويريدونَ أنْ يفرقوا بينَ اللهِ ورسلهِ ويقولونَ نؤمنُ ببعضٍ ونكفرُ ببعضٍ ويريدونَ أنْ يتخذوا بينَ ذلكَ سبيلاً، أولئكَ هم الكافرونَ حقاً﴾. الآية[2].

هذا.. وينفي القرآن الكريم عن أنبياء الله في العهد القديم كا ما لحق بهم من عدوان وما تعرضوا له من أذى، مقرراً ما كانوا عليه، من إيمان بالله، مبرزاً عميق صلتهم بالله، كاشفاً عن أسلوبهم في الدعوة إلى الله، هذا الأسلوب الذي انتهى إليه الأمر مع الزمن في بيت إسرائيل بما سمى باليهودية والنصرانية، التي يقدمها ما سمي بالكتاب المقدس، في صور ونماذج من المسخ والتشويه، لكل قيم النبوة وطهارتها في ظل التسمية باليهودية والنصرانية، التي تبرز بين سياق ولغة الكتاب المقدس، ومن هنا فرب العالمين يضرب في بيان محكم ولغة مشرقة مضيئة هذا الإفتراء، ويرفضه منطق الإسلام على ضوء آيات الله، ليعرف الناس أن ما انتهى إلى العالم من تراث أو مأثورات عن اليهودية والنصرانية في أسفار اليهود والنصارى، لا علاقة له بالوحي الآلهي، ولا بالإيمان الصحيح، ولا يعبر عن النبوة الحقة، يقول الله تعالى ﴿أمْ تقولونَ إنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ والأسباطَ كانوا هوداً أو نصارى، قل أأنتمْ أعلمْ أم اللهُ، ومنْ أظلمُ ممنْ كتمَ شهادةً عندهُ منَ اللهِ، وما اللهُ

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٣٦.
(٢) سورة النساء: آية رقم ١٥٠- ١٥١.

بغافلٍ عمَّا تعلمونَ، تلكَ أمةٌ قدْ خلتْ لَهَا ما كَسبتْ ولكمْ ما كَسَبتمْ ولاَ تُسألونَ عماَ كانوا يعملونَ﴾.(١)

هنا يرقى القرآن الكريم بأنبياء الله إلى مكانهم اللائق بهم في علاقتهم بالله، في حين وضعهم كتاب الكتاب المقدس، في شكل ووصف يخرج النبوة عن أهدافها ويفسد عملها في الناس ويسيىء إليهم في أخلاقهم ودينهم، نعم يرقى بهم القرآن الكريم إلى مكانهم الحقيقي، في علاقاتهم بربهم، وهو أنهم لم يكونوا يهوداً أو نصارى، على ذلك النمط الآثم في حق الأنبياء الله، الذي يتم تداوله في تراث العهد القديم، ومن هنا فرب العالمين يطهرهم من نسبة ما في أيدي اليهود والنصارى إليهم، يقول سبحانه في سورة آل عمران: ﴿مَا كانَ إبراهيمُ يهودياً ولا نصرانياً ولكنْ كانَ حنيفاً مسلماً ومَا كانَ منَ المشركينَ﴾(٢) وعند شرح هذه الآية الكريمة يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب في تفسيره لها قوله تعالى: ﴿ولكنْ كانَ حنيفاً مسلماً﴾ تعريض بما عليه أهل الكتاب- اليهود والنصارى- من إنحراف عن الدين القويم، الدين الذي جاء به أنبياء الله إلى عباد الله.

(والحنيف) هو المتعبد لله، الراكع الساجد لعزته وجلاله، المائل عن طرق الهوى والضلال (والمسلم) من أسلم وجهه لله، وأقامه عليه وحده دون أن يلتفت إلى سواه، واليهود والنصاري لم يسلموا وجوههم لإله واحد قائم على هذا الوجود منفرد به. إذ جعل اليهود إلههم إلهاً فردياً، هو ربهم وقائد جنودهم وقائم على تدبير شئونهم هم وحدهم، أما الناس غيرهم فإلههم أو آلهتهم غيره ولا شأن لهذا الإله أو تلك الآلهة باليهود كما لا شأن لليهود بها هكذا يعتقدون.

أما النصارى فإلههم هو ثلاثة: أب وإبن وروح قدس. تجتمع وتفترق فإذا اجتمعت كانت إلهاً واحداً. وإذا تفرقت كان كل منها إلهاً وحده. وهذا

(١) سورة البقرة: آيتا ١٤٠- ١٤١.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٦٧.

وذاك على غير الحق وعلى غير ما يدين به إبراهيم الذي ينسبون دينهم إليه.. لأن ذلك الذي عليه اليهود والنصارى الآن شرك والله تعالى يقول في الآية عن إبراهيم ﴿وما كانَ من المشركين﴾(١).

هذا.. ويرفع القرآن الكريم الخطيئة التي دنس بها أهل الكتاب سيرة الأنبياء، وشوهوا بها ذكرهم الطيب، حين نقلوا عنهم ونسبوا إليهم في إثم وافتراء ما وقع فيه شعبهم وقادتهم، لكن القرآن الكريم يرفعهم إلى أعلى مراتب التكريم والتقى، مع تحديد أن أكرم وأرفع وألطف المهام والمسئوليات التي يكلف الله بها بعض عباده هي النبوة التي يصطفي الله لها من يختارهم من خلقه لها، ويخاطب الله سبحانه نبيه الخاتم ويضع شرفه الأسمى بالنبوة في الدائرة التي تشرف بها أنبياء الله جميعاً بل ويصل التكريم الأدبي في هذا المقام إلى أعلى ذروة الكمال والتكريم لأنبياء الله، حين يشبه الله تعالى ما أوحى به إلى محمد ﷺ بأنه مثل ما أوحي به أنبيائه جميعاً، وأنبياء بني اسرائيل بالقطع من بين هؤلاء الأنبياء الذين عناهم الله سبحانه وتعالى بقوله في سورة النساء مخاطباً سيد ولد آدم ﷺ: ﴿إنَّا أوحينَا إليكَ كمَا أوحينَا إلى نوحٍ والنبيينَ منْ بعدهِ وأوحينَا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ والأسباطِ وعيسى وأيوبَ ويونسَ وهارونَ وسليمانَ وآتينَا داودَ زبوراً ورسلاً قدْ قصصناهمْ عليكَ من قبلُ ورسلاً لمْ نقصصهمْ عليكَ وكلمَ اللهُ موسى تكليماً، رسلاً مبشرينَ ومنذرينَ لئلاَّ يكونَ للناسِ على اللهِ حُجةٌ بعدَ الرسلِ وكانَ اللهُ عزيزاً حكيماً﴾(٢).

وهذه الآيات الكريمات تجعل وحي الله إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وغيرهم من أنبياء الله هو من نفس مستوى وحي الله تعالى لنبيه الخاتم، وأن مهمتهم على ضوء وحي النبوة، هي التبليغ والتبشير والإنذار بما أمرهم الله تعالى به، وبما نهاهم عنه، وأنهم كانوا حجة الله على الناس وبرهان

(١) (عبد الحكيم الخطيب) (التفسير القرآني للقرآن) الجزء الثالث صفحة ٤٨٨- دار الفكر العربي- القاهرة- الطبعة الأولى.

(٢) سورة النساء: الآيات ١٦٣: ١٦٦.

رحمته وآية نعمته فهل نجد في غير القرآن الكريم حول أنبياء الله ورسله في كتب اليهود والنصارى شيئاً من ذلك، أو هل نجد أثراً لعمل النبوة وهدايتها للناس عندهم؟؟: إن الجواب هو أننا لا نعثر للنبوة على آثر بين سيرة أنبياء الله في تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم[1]: لقد رأينا أبا الأنبياء في منهج كتاب الأسفار الذين تناولوا أمر العقيدة الدينية في رحلة سياحية طويلة لم يستحِ- أثناء الحديث عنها- كاتب الأسفار وخاصة سفر التكوين من أن يرينا نبياً من الأنبياء وهو يبيع امرأته مرتين، ولم يذكر لنا كتاب العهد القديم فقرة أو موقفاً من مواقف أبي الأنبياء، ينم عن دعوة الرجل إلى الله أو استجابة أحد له، بل إن بعض شراح العهد القديم، وهو القس (وليم مارتل) قد راح في المجلد الأول من موسوعته يقول بغير حياء وبغير عقل أيضاً: (ويظهر أن أبرام حين ترك حاران إتفق هو وساراى على أن تقول إنها أخته. وهذا بحسب النظر إلى إيمان أبرام غريب جداً. فإن ترك أرض ميلاده طاعة لأمر الله، وذهب غريباً ينتقل من مكان إلى مكان، ومع هذا ارتكب ذلك، وهو مما يؤول إلى أخذ أمرأته منه، ولعل أبرام أتى ذلك لإنقاذ نفسه، واتكل على نباهة امرأته في أنها تخلص نفسها من المصاعب، ولكن في كل الأحوال كان ما أتاه دليلاً على ضعف الإنسان، لا سيما إنسان سامي السجايا محسوب من أفاضل البشر) إنتهى[2].

هكذا لا يستحي كتاب التراث أو شراحه من خلع مثل تلك المهانات على أنبياء الله ورسله وخاصة نبي مثل إبراهيم عليه السلام بلغ عن ربه، ورتبته عند الله على ضوء ما كلفه من شرف النبوة لا تجعله يقع في مثل هذا الإثم، بهذه اللغة الآثمة التي يدعيها كتاب اليهود والنصاري ظلماً وعدواناً، إن النبي الخاتم ﷺ وهو كما تقول الآية الكريمة في سورة الأنعام التي أتينا عليها آنفاً قد

---

(١) (محمد عزة دروزة) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم- المكتبة العصرية- صيدا- بيروت- الطبعة الثالثة ص ٢٢٨.

(٢) الدكتور وليم مارشل (السنن القديم في تفسير أسفار العهد القديم) الطبعة الثانية- بيروت- جـ ١ صفحة ١٤.

أوحي إليه مثل ما أوحي إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق، يعطينا الأنموذج والقدوة التي تتصور في سلوك وتصرفات وأعمال أنبياء الله تعالى. وباليقين فإن ما يمكن أن يصدر من أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام وأبنائه من بعده وخاصة من اصطفاهم الله لشرف النبوة لا بد وأن يكون على نفس المنهج، ومن خلال تلك الدائرة التي يحدد لنا ملامحها رسول الله ﷺ، في واقعة تتعلق بأم المؤمنين (صفية بنت حيي بن أخطب) رضي الله تعالى عنها، لتعطينا كل الدلالات والمؤشرات التي يمكن أن تقوم برهاناً على سلوك وتصرفات نبي حيال أهله أو مع الناس. وخلاصة هذه الواقعة كما أوردها ابن كثير في تفسيره[1]: أن صفية بنت حيي كانت تزور النبي ﷺ وهو معتكف في المسجد، فتحدثت معه ساعة ثم قامت لترجع إلى منزلها وكان ذلك ليلاً، فقام النبي ﷺ ليمشي معها حتى تبلغ دارها وكان منزلها في دار أسامة بن زيد، في جانب المدينة، فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، وفي رواية تواريا، أي حياء من النبي ﷺ لكون أهله معه، فقال لهما ﷺ: على رسلكما: إنها صفية بنت حيي: أي لا تسرعا واعلما أنها صفية بنت حيي، أي زوجتي، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، فقال ﷺ (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، واني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً، أو قال شراً). هذا هو النموذج والقدوة في السلوك العام في منطق النبوة وضوابطها، وفي واقعة قد يلتبس فيها الحلال بالحرام، أو الحق بالباطل عند من لم يتبين الموقف على حقيقته أو يتعرف على معالمه تقدمه لنا سيرة رسول الله ﷺ، كمثال في سلوك الأنبياء علينا على ضوئه أن ننظر إلى أنبياء الله، ولا يقبل العقل والمنطق فضلاً عن ضوابط النبوة، أن تكون سيرة نبي الله محمد ﷺ بهذا المستوى الرفيع من العفة والضوابط، بينما سيرة نبي الله إبراهيم عليه السلام وإسحق ويعقوب من بعده بذلك المستوى المهين، الذي نقله كتاب العهد القديم، ونسبوه في زيف وعدوان إلى أبي الأنبياء عليه السلام ثم إلى أبنائه من بعده.

---

(١) تفسير إبن كثير جـ ١ ص ٢٢٤ والقصة مذكورة في كتب الحديث في أبواب الإعتكاف.

الفصل الخامس:

قصص النبي موسى عليه السلام في عطاء القرآن الكريم

ربما يكون موسى عليه السلام هو الوحيد بين أنبياء بني إسرائيل الذي تناول القرآن الكريم سيرته، بتفصيل دقيق وإحاطة شاملة لكل ما يتعلق بنشأته منذ الطفولة المبكرة، حتى مرحلة تلقيه وحي ربه، وقيامه بتبليغ ما كلفه الله به في أمانة ومسؤولية، ولعل ذلك الإهتمام القرآن بنبي الله موسى يرجع إلى اعتبارات كثيرة أهمها: فيما نرى والله أعلم المناخ السياسي الذي ظهر فيه بين بني إسرائل وهم في مرحلة شديدة المتغيرات والتطورات في مصر بالذات، بدأت بالعقيدة الدينية التي كان عليها المصريون، وانتهت بالصراع السياسي الذي عاشته البلاد عقب موت الفرعون الشاب (أمنحوتب) الرابع والذي كان نبي الله في مصر بعده بفترة قريبة، قد ابتدأ يتلقى وحي الله ويمارس دوره الديني في تبليغ رسالة الله[1].

ومن هذه الإعتبارات أيضاً طبيعة الظروف التاريخية التي كان يحياها الشعب الإسرائيلي من عصر النبي إبراهيم حتى ظهور موسى، إذ أن هناك في تاريخ هذا الشعب عشرات من الأجيال ليس لها أي إنتاء ديني أو سياسي، بعد عمليات التحريف وفقدان الأصول والمقومات التي تعرضوا لها بين صراعات قبائل وبطون بيت إسرائيل، هذا فضلا عن إنعدام الوطن، وعدم الإستقرار الإجتاعي في أرض بعينها[2]. ومن هذه الإعتبارات أيضاً: عمليات الفعل ورد الفعل المعاكس، من قبل بني إسرائيل لكل ما كان يوجههم إليه نبي الله موسى، وعدم تحقيقه عليه السلام ما كان يبتغيه من هداية وتوجيه لبني

(١) (عبدالمنعم أبو بكر): (أخناتون) سلسلة: إقرأ. القاهرة عام ١٩٦٩م صفحة ٤٨.

(٢) محمد فؤاد شبل (موسى) القاهرة عام ١٩٧٠ صفحة ٢٧

إسرائيل بفضل إصطفاء الله له وعمل النبوة والرسالة الإلّهية، ثم ما كان بعد ذلك من نقل سيرته وتدوينها مشوهة ومحرفة، بل ومزورة بحيث لا يرى الناقدون والدارسون لسيرة نبي الله موسى في مصادر تراث بني إسرائيل المقدسة عندهم وغير المقدسة قيمة إيجابية، وتوجيهات أخلاقية في عالم النبوة ووظيفة الرسالة الإلّهية، أقول لا يرى الدارسون في سيرة نبي الله موسى في كتب اليهود القديمة والحديثة قيمة إيجابية لوظيفة الرسالة الإلّهية تذكر عن هذا النبي العظيم، وعلى ضوء كل هذه العوامل مجتمعة، كانت عناية الله سبحانه وراء النبي موسى فلم تتركه لزيف ما نسب اليه من سلبية وفراغ في كتب «العهد القديم» فضلاً عما ألحقه به كتاب الأسفار من مفتريات وآثام، أعظمها خطورة وأشدها قبحا فيما تداولوه عند بني إسرائيل في التعدد والتجسيم والتشبيه، في المعتقد الديني، ونسبتهم هذه الأنماط في العقيدة لنبي الله موسى عليه السلام. أقول لعل كل هذه الإعتبارات مجتمعة هي التي كانت وراء عناية القرآن الكريم العظيمة بكل ما يتصل بسيرة نبي الله موسى عليه السلام.

هذا ويطالعنا القرآن الكريم بأنباء رعاية الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام منذ البداية الأولى لوجوده بل منذ مرحلة طفولته المبكرة، قد طلب رب العزة من أم موسى - بما ألقاه في قلبها وهي حامل به - أن لا ترضعه في حالات خوفها وحزنها عليه، خوفاً عليه من مطاردة الذين يقتلون أبناء إسرائيل الذكور، ويستحيون منهم النساء، فقال سبحانه في سورة القصص: ﴿وَأَوْحَينَا إلى امِّ موسى أن أرضعيهِ فإذَا خفتِ عليهِ فألقيهِ في اليمّ ولاَ تخافِي ولا تحزني إنَّا رادُوه إليكِ وجاعلوهُ منَ المرسلين﴾.[1].

ومن عنده هذه البداية المبكرة، وعين الله تعالى ترعى نبيه موسى في مختلف مراحل حياته، حتى إذا بلغ أشده واستوى عوده، وهبه الله الحكمة

---

(١) سورة القصص: الآية رقم ٧.

والعلم والإحسان، وعلى ضوء خبر القرآن الكريم، عرف عليه السلام في الحياة العامة بذلك المشهد الذي يقصه علينا القرآن الكريم وخلاصته: أنه حين كان يمر في المدينة لقي رجلين أحدهما إسرائيلي والآخر مصري يتنازعان، فوكز موسى المصري بعصاه لينهي ما كان بين الرجلين فمات المصري على أثر هذا التدخل، وعلى أثر هذه الواقعة كانت رحلة نبي الله موسى إلى مدين، وكان عليه السلام قد ابتدأ يمارس دوره الديني بين بني إسرائيل قبل الهجرة إلى سيناء وبعدها، يقول رب العالمين عنه: ﴿ولمَّا بلَغ أشدهُ واستوىٰ آتيناهُ حكماً وعلماً وكذلكَ نجزي المحسنين ودخلَ المدينةَ على حين غفلةٍ من أهلهَا فوجدَ فيهَا رجلينِ يقتلانِ هذا منْ شيعتهِ وهذا منْ عدوهِ فاستغاثَهُ الذي منْ شيعتهِ على الذي من عدوهِ فوكزهُ موسى فقضى عليهِ قالَ هذا منْ عملِ الشيطانِ إنهُ عدوٌ مضلٌ مبينٌ﴾.(١)

هذا.. وحين يكلف موسى من قبل ربه بدعوة بني إسرائيل إلى أن يستجيبوا لداعي الإيمان، يقول لهم مذكراً بأنعم الله عليهم، حتى يسمعوا ويطيعوا ويناديهم أن يستعدوا لكي يكون لهم مأوى وانتماء في الأرض التي دعاهم لدخولها، لكنهم لم يستجيبوا ولم يذعنوا يقول تعالى في سورة المائدة: ﴿وإذْ قالَ موسى لقومهِ يا قومِ اذكروا نعمةَ اللهِ عليكمْ إذْ جعلَ فيكمْ أنبياء وجعلكمْ ملوكاً وآتاكمْ مالمْ يؤت أحداً منَ العالمين، يا قومِ ادخلوا الأرضَ المقدسة التي كتبَ اللهُ لكمْ ولاَ ترتدوا على أدباركمْ فتنقلبوا خاسرين﴾.(٢)

هذا.. ويخبر القرآن الكريم أن موسى عليه السلام قد أوتي الكتاب (التوراة) وفيها تفصيل كل شيء، رحمة وهدى للذين هم بربهم يؤمنون، وهذا ما يؤكد إنصاف القرآن الكريم لنبي الله موسى في تلقيه وحي الله، مشتملاً على كتاب من الله فيه هدى ونور ولا يحمل عدواناً ولا قهراً، يقول تعالى: ﴿وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوهُ ولاَ تتبعوا السبلَ فتنفرق بِكمْ عنْ سبيلهِ ذلكَ

(١) سورة القصص: آيتا ١٤، ١٥

(٢) سورة المائدة: آيتا ٢٠، ٢١

وصاكمْ به لعلكمْ تتقون، ثمَّ آتينا موسى الكتابَ تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكلِ شيءٍ وهدىً ورحمةً لعلهمْ بلقاءِ ربهمْ يؤمنون﴾.(١)

هذا.. ويتناول الذكر الحكيم طبيعة النبوة التي منَّ بها الله على نبيه موسى عليه السلام، وأنها لم تتجاوز في التكريم والتشريف حدود النبوة التي يكلف الله بها بعض عباده، فلم يكن موسى عليه السلام في ظل النبوة بأي حال من الأحوال قريباً من الألوهية ومعناها ودلالاتها ومغايرتها للخلق، ولم يكن الإلّه (سبحانه وتعالى) في أي موقف مع عبده موسى قريباً من البشرية، في مخلوقيتها وطبيعتها وحدودها، كما حاول كتاب العهد القديم أن ينسبوا ذلك الزيف في تصورهم الخاطئ والآثم للعلاقة التي كانت بين الله وعبده موسى، فلم يكتب سبحانه وتعالى التوراة بأصبعه، كما ادعى كتاب العهد القديم ونساخه، ولم يعطه وعوداً بأن يتنزل بنفسه (تعالى الله عن ذلك) إلى شيوخ إسرائيل، لكي يتحدث إليهم بنفسه فيرونه ويراهم، وليكون ذلك برهاناً من الله كما ادعوا على نبوة موسى لهم، ولكن الأمر في دائرة النبوة التي رسمها منطق الصدق القرآن الكريم، لم يتجاوز فيه نبي الله موسى عليه السلام كونه بشراً مصطفاً من الله بالنبوة والرسالة الإلّهية يقول تعالى: ﴿وواعدْنا موسى ثلاثينَ ليلةً وأتممناها بعشرٍ فتم ميقاتُ ربه أربعينَ ليلةً وقال موسى لأخيهِ هارونَ اخلُفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيلَ المفسدينَ. ولمَّا جاءَ موسى لميقاتِنا وكلَّمه ربه قال ربِّ أرني أنظر إليكَ قالَ: لنْ تراني ولكنْ انظرْ إلى الجبلِ فإن استقرَّ مكانَهَ فسوفَ تراني، فلمَّا تجلَّى ربُهُ للجبلِ جعلَهُ دكّاً، وخرَّ موسى صعقاً، فلمَّا أفاقَ قالَ سبحانَك تُبْتُ إليكَ وأنا أوَّلُ المؤمنينَ، قال يا موسى إني اصطفيتكَ على الناس برسالاتي وبكلامي فَخُذْ ما آتيتُكَ وكنْ مِنَ الشاكرينَ، وكتبنا لَهُ في الألواح منْ كلِّ شيءٍ موعظةً وتفصيلاً لكلِّ شيءٍ، فخذْها بقوَّةٍ وأمرْ قومكَ يأخذوا بأحسنها سأوريكم دارَ الفاسقينَ، سأصرفُ عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يَرَوْا كلَّ آيةٍ لا يؤمنوا بها وإن يَرَوْا سبيلَ الرشدِ لا يتخذوه

(١) سورة الأنعام: آيتا ١٥٣، ١٥٤.

سبيلاً وإن يروْا سبيلَ الغيِّ يتخذوهُ سبيلاً ذلكَ بأنَّهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلينَ، والذينَ كذَّبوا بآياتِنا ولقاءِ الآخرةِ حبطتْ أعمالُهم هل يُجزون إلا مـا كانوا يعملونَ، واتخـذَ قومُ موسى من بعـدِه منْ حليهم عجـلاً جسداً له خُوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمينَ، ولما سقطَ في أيديهم ورأوْا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمْنا ربُّنا ويغفرْ لنا لنكوننَّ منَ الخاسرينَ. ولما رجعَ موسى إلى قومهِ غضبانَ أسفاً قالَ بئسماً خلفتموني من بعدي أَعجلتم أمرَ ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه، قال ابن أم إن القومَ استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمينَ﴾.[١]

نورد هذا النص الكريم في الرد على ما طالعناه من كتب اليهود النصارى ووقوفنا على نماذج من مفترياتهم حول قصة الميعاد الذي ادعوا ان الله قد أعطاه لموسى لكي ينزل بنفسه (تعالى الله) الى شيوخ بني اسرائيل البار منهم والفاجر، فيبرهن لهم عن نبوة موسى، ثم عدوله- سبحانه- عن وعده الذي كذبوه على الله تعالى وعلى نبيه موسى عليه السلام، ومما يدعو للدهشة والحيرة موقف علماء اللآهوت في ادعاءاتهم الكاذبة: أن قصص العهد القديم وما يتعلق بـه حول سيرة الانبياء هو نفسه القصص الذي جاء به القرآن الكريم[٢]، ويعقـدون مقارنة بين الأخبار الوثنية التي في العهد القديم حول واقعة الوعد وبين ما جاء في قوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿واختارَ موسى قومه سبعينَ رجلاً لميقاتنا، فلما أخذتهم الرجفة قال ربِّ لو شئتَ أهلكتهم من قبل وإياي، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا، إنْ هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾[٣].

---

(١) سورة الآعراق الآيات: ١٤٢، ١٥٠

(٢) (عوض سمعان) (المدخل الى الكتاب المقدس) القاهرة صفحة ٧٣.

(٣) سورة الاعراف: الآية ١٥٥.

ومن البديهي والصريح، في مباشرة دينية ولغوية لا تحتاج إلى لغط أو تأويل كما يحب علماء اللاهوت، الذين يتعلقون كثيراً بالرموز والاصطلاحات الغامضة في تفسير النصوص، يتضح أنه لا وجه للمقابلة بين هذه الآية الكريمة وبين الفكر الوثني الذي طرحه كتاب العهد القديم، والذي يقال فيه بالحرف: (... لأنه في اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون الشعب على جبل سيناء)[1]. فالآية الكريمة في القرآن الكريم لم تتحدث عن اليوم الثالث ولا عن الأول والثاني، ولم تتحدث عن ميعاد النزول، ولم تطلب من موسى أن يجهز لمؤتمر، يتطيب فيه شيوخ اسرائيل ويغسلوا أيديهم وأرجلهم ويستعدوا للقاء ربهم الذي يعدل عن قرار نزوله- تعالى الله عن ذلك- وهذه الصور المادية الحسية، التي جعلت من العلاقة بين النبي وربه صوَراً ونماذج من أثر علاقة القهر التي كانت بين حكام اسرائيل وسادتهم في عصور الذل والاستعباد، لا يمكن أن يكون بينها وبين آية الاعراف صلة، ولكن آية الأعراف تتحدث عما وقع من موسى والله اعلم، حين أخذ سبعين رجلاً من قومه ليدعوا الجميع ربهم ويستغفروه مما وقع منهم، حتى لا يعاقبهم بما فعل السفهاء منهم، وكانت خطيئتهم التي نسبوها لأنفسهم ثم أكد القرآن الكريم وقوعهم فيها لا يرجى مع الوقوع فيها والاستمرار عليها أن يغفر الله أو يتوب، فقد عبدوا بعد ايمانهم بالله العجل الذي صنعوه بأيديهم، وأصبحوا بما فعلوا بعد أن ظلموا انفسهم وتركوا عبادة الله لا يستحقون غير عقابه، فالآيات الكريمة التي سبقت هذه الآية التي تتحدث عن الميقات والسبعين رجلاً الذين قد يقبل على ضوء علمه تعالى بصدق نياتهم أو عدم اخلاصهم فيما ذهبوا اليه، هذه الآيات تؤكد طبيعة الموقف الذي وقفه السبعون رجلا، وأنه لم يكن على غرار ما ذهبت إليه رواية العهد القديم عبارة عن مؤتمر يتطيب فيه الرجال، ويغسلوا أيديهم وأرجلهم في حشد ينزل اليه الرب، فالآية رقم ١٤٨ من نفس السورة- سورة الاعراف- تقول: ﴿واتَّخذَ قومُ موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خُوار، ألم يروا أنه لا يكلمهم

---

(١) سفر الخروج: الاصحاح رقم ١٩ فقرة ١٢.

ولا يهديهم سبيلاً، اتخذوه وكانوا ظالمينَ﴾. وفي نفس الموضوع ومن خلال وحدته الكاملة التي تعالج فيها هذه الآيات الكريمة من سورة الاعراف البداية والنهاية لهذا الموقف تقول الآية رقم ١٥٢: ﴿إنَّ الذينَ اتخذوا العجلَ سينالهم غضبٌ من ربهم، وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترينَ﴾ ففي منطق القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا خلفه نرى القوم هنا- ظالمين- في آية- ومفترين- في آية أخُرى، لكنهم حين يطلبون من موسى عليه السلام وهو نبي أن يقف بهم في ميقات ليدعو ربه، فإن استجابته كنبي تنطوي جوانحه على الأمل في توبتهم ومغفرة الله لهم تصبح متصورة، وليس الأمر كما ادعى اليهود أن هناك الصفوة من شيوخ اسرائيل يدعون لاجتماع موسع ينزل فيه الرب ثم يعدل عن قراره، فهم على ضوء خبر القرآن الكريم في حال من الظلم والافتراء والمعصية يتعذر فيه أن تتعلق آمالهم بتوبة الله ورحمته، فضلاً عن النعمة المدعاة وهي نزول الرب والتي حولوا مضمونها الى صور ومواقف لا تليق بذات الله جل جلاله.

هذا.. ولقد قص القرآن الكريم فضل الله على بني اسرائيل من خلال رسالة موسى قبل أن تتأكد وتتكرر منهم المشاهد والمواقف الظالمة والكافرة، فبعد أن تجرد موسى واعتكف لربه أربعين ليلة، يعود فيجد الذين فرق الله بهم البحر معه، لينجيهم ويغرق عدوهم كما قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وإذ فرقنا بكُمُ البحرَ فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعونَ وأنتم تنظرون﴾[1] يعود عليه السلام فيجد الذين رأوا هذا البرهان العظيم من الله قد تركوا عبادته وتعاليم نبيه وعبدوا العجل، فيقول رب العالمين في سورة البقرة: ﴿واذْ واعدنا موسى أربعينَ ليلةً ثم اتخذتم العجل من بعدِهِ وانتم ظالمونَ﴾[2].

هذا.. ويلفت القرآن الكريم الانسانية كلها الى معنى لم يفطن إليه معظم الذين تناولوا سيرة بني اسرائيل بالدرس، ولم يدركه شراح العهد القديم أصلاً،

(١) سورة البقرة: الآية ٥٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ٥١.

وهو ان استجابة شعب اسرائيل للإيمان برب العالمين والاذعان له- باعتباره الاله الخالق رب الكون الذي يرسل رسلاً، ويكلف عباده بالواجبات وأن عليهم فروضا تؤدى له تعالى، أكباراً وجلالاً لعظيم ما خلق، وجميل ما اسبغ من نعم ظاهرة باطنـه- ضعيفة في نفوسهم وغريبة على طباعهم تتنافى مع سلوكهم الذي فصلوه في القديم وهو حياة البدو الرحل، الذين ينتجعون ويطلبون المرعى في كل مكان وبأي ثمن، مْن قيم أو خلق أحيانا وبالاحتكار وانعدام العاطفة الدينية أحيانا اخرى ولذا فقد لفت القرآن الكريم إلى هذه الطبيعة التي تنطوي عليها النفسية اليهودية، ويلفت القرآن امام ظرف مادي وبرهان قاطع كان يجب على أثره ان يقبل المدعوون من بني اسرائيل على نبيهم استجابة لربهم وطاعة لرسولهم، ولكن النتيجة التي ساقها الله الى خلقه في القرآن الكريم درساً وعظة كانت على غير ما توحي به العوامل الداعية إلى الإيمان والاستجابة له، فبعد دعوة موسى عليه السلام الى الله في مصر دخل الكهنـة والسحرة المصريون، بأمر الفرعون المصري في تحد ومكابرة للنبي موسى عليه السلام، على أمل من الفرعون أن يعجز السحرة برهان النبي موسى في دعوته الدينية التي قد تشكل خطراً على الفرعون فيتخلص منه ومن دعوته، فلما أفحم موسى عليه السلام بأمر ربه وعونه السحرة كان الموقف كما عبر رب العالمين عنه في سورة يونس: ﴿فلمَّا ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطلُهُ إنَّ الله لا يصلحُ عملَ المفسدينَ﴾(١).

وبهذا المشهد القوي، القائم على يقين النبي في عون ربه ومساندته امام الجمع المحتشد، دخل النبي موسى عليه السلام ميدان المحاجة، ولم يخذله ربه، وإنما كما قال الله تعالى في سورة طه: ﴿وألقِ ما في يمينِكَ تلقفُ ما صنعوا إنما صنعوا كيدَ ساحرٍ ولا يُفلحُ السَّاحرُ حيثُ أتى﴾(٢).

---

(١) سورة يونس: الآية ٨٢.
(٢) سورة طه: الآية ٧٠.

كان طبيعياً ومعقولاً أمام كل هذه البراهين، أن يقبل أبناء اسرائيل في مصر على نبيهم، ولكن الخوف الذي يملأ قلوبهم من السيد المصري الممثل في سطوة الفرعون وهيمنته عليهم كان عائقاً امامهم، ولذا فالذي حدث منهم تجاه نبيهم أنه كما قال رب العالمين: ﴿فما آمنَ لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم وإنَّ فرعون لعالٍ في الأرض وإنه لمن المسرفين﴾(١).

ومع أن العهد القديم لا يتحدث كثيراً عن تأثيرات النبوة ودورها في عمل شعب اسرائيل، بل ولا يلمح في معظم مروياته من قريب أو بعيد إلى دور الأنبياء والنبوة في ضبط واستقامة شعب اسرائيل، وارتباطهم ببعض الحق الذي يمكن أن يأخذوه من هدى النبوة وتوجيهها، فإن القرآن الكريم وحده يقدم دليل انصاف على أن بعض آبناء اسرائيل قد تلقوا كتاباً من موسى، وأنه كان ضياء وذكرى للمتقين، وأن الذين تلقوا هذا الكتاب كانوا يخشون ربهم بالغيب ومن الساعة هم مشفقون يقول تعالى في سورة الانبياء: ﴿ولقدْ آتينا موسى وهارونَ الفرقانَ وضياءاً وذكراً للمتقينَ الذينَ يخشونَ ربَّهمْ بالغيبِ وهمْ من السَّاعة مشفقونَ﴾(٢). قال قتادة المراد بالفرقان هنا التوراة حلالها وحرامها وما فرق الله بين الحق والباطل(٣).

ونحب في نهاية هذا العرض الموجز عن سيرة نبي الله موسى في القرآن الكريم أن نبين عن الفرق الجوهري والاختلاف التام بين سيرته عليه السلام في العهد القديم، وبين ما أكرمه الله به من شرف النبوة وخير النعمة وعظيم القدر في القرآن الكريم، كما نحب أن نؤكد أن كل ما نسب الى نبي الله موسى في العهد القديم من أنه أقام محرقات وذبائح وأصنام وصنع حية من نحاس للعبادة، وأنه بني محرقات بأمر إلهه، الذي هو عند موسى في العهد القديم أعظم من آلهة الشعوب الاخرى، لأنه إله اسرائيل، نود أن نقرر هنا أن هذا الذي نسب إلى

---

(١) سورة يونس: الآية ٨٤.

(٢) سورة الانبياء: الآية ٤٩.

(٣) (ابن كثير) الجزء الرابع صفحة ٥٦٧.

نبي الله موسى عليه السلام انما هو من مفتريات ودسائس وعدوان الكتّاب والمسجلين على انبياء الله، وفي مقدمتهم موسى عليه السلام، والحقيقة التي يكشفها القرآن الكريم ويقدمها للناس درساً وتبصرة ورحمة وفضلاً تطهر نبي الله موسى مما اتهمه به أعداء الله من دنس ووثنية كتاب العهد القديم، هذه الحقيقة هي أن نبي الله موسى مثله فيما اصطفاه الله به من شرف النبوة مثل غيره من أنبياء الله جميعاً من حيث العصمة والطهر ولا يتميز عنهم بشيء يخرجه عن بشريته، أو يجرده عن نبوته كما حاول كتاب العهد القديم أن يزيفوه على نبي الله موسى عليه السلام، وكل ما يستند عليه بعض اللاهوتيين المحدثين في تبرير الادعاء بأن لنبي الله موسى من الصلاحيات والمميزات ما ليس لغيره من أنبياء الله في العهد القديم هو محض افتراء، خاصة وانهم يستندون فيما ذهبوا إليه في فهمهم القاصر لما ذكره القرآن الكريم عن نبي الله موسى من مآثر وصفات وأخبار، تأكد عندهم أنه بها يمثل امتيازاً في رتبته الدينية والدنيوية، ويستندون في ذلك إلى آية الأعراف الخاصة بطلب موسى رؤية ربه، وغير ذلك من المطالب التي حاولوا فهمها أو تخريجها من كتاب الله، ومرجع ذلك إلى جهلهم وقصورهم عن تدارك وفهم كلمات الله في القرآن الكريم، وذلك بالقطع بسبب عجمتهم الفكرية واللغوية والدينية، التي يتناولون بها كتاب الله، فآية الأعراف رقم ١٤٣ التي تقول: ﴿ولما جاءَ موسى لميقاتِنا وكلَّمَهُ ربهُ قال رب أَرني أنظر قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرَّ مكانَهُ فسوف تراني، فلما تجلَّى ربه للجبل جعلهُ دَّكاً وخرَ موسى صعقاً، فلما أفاق قال سبحانَكَ تبتُ إليك وأنا أوَّلُ المؤمنينَ، قال يا موسى إنِّي اصطفيتُكَ على الناسِ برسالاتي وبكلامي فخذ ما أتيتكَ وكنْ من الشاكرينَ﴾. وهاتان الآيتان الكريمتان لو تدبر عاقل نص الآية الاولى منهما، لأدرك أن الله سبحانه يقص على خلقه كيف كان نبيه موسى في موضعه اللائق به كنبي بشر لم يتجاوز حدود ذلك المعنى أبداً: ﴿... ربِّ أرني أنظر إليكَ، قال لن تراني﴾، هذا هو النص الذي تضمنته الآية الكريمة وهذا هو الأساس في الموقف الذي أحاط

بني الله موسى عليه السلام ومع كل المناجاة والمناداة والاستمرار في متابعة وحي الله لنبيه فيما قص علينا عن هذا المشهد، فإن تتمة الآية تنهي إلينا الموقف، حين استحضر نبي الله موسى طبيعة المطلب وبرهان الله لعبده واستحالة البشرية التي خلق الله عليها عبده موسى أن تتحمل في هذه الحياة الدنيا رؤية الله، ﴿فلمّا تجلّى ربه للجبل جعلهُ دّكاً﴾ فإن نبي الله موسى عليه السلام أمام هذا البرهان العظيم خرَّ صعقاً يسبح بحمد الله. وليكون من المؤمنين الشاكرين.

لقد كانت هذه الآية الكريمة وغيرها مما يتصل بهذا الموضوع في الفكر الاسلامي مصدراً لسخاء فكري ضخم، فعلى سبيل المثال ذهبَ المعتزلة عند فهمهم لدلالة هذه الآية (.. لنْ تراني..) إلى أن لن هنا تنفي الرؤية لله تعالى نفياً مؤبداً في الدنيا والاخرة[1] ومع أن رأيهم هذا قد ناقشه الطرف الثاني من العلماء المسلمين وهم أهل السنة، وضعفوه ببراهين كثيرة تؤكد رؤية الله تعالى للمؤمنين في الآخرة منها قوله تعالى [وجوه يومئذٍ ناضرة،إلى ربها ناظرة][2] وقوله ﷺ [انكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا القمر...][3]. فإن هذا كله يبين مدى أثر الآية الكريمة على العقل الإسلامي خشية ورهبة من الله تعالى واقراراً واعترافاً بمغايرة الخالق في كل صفاته للمخلوقين، حتى ولو كانوا من الذين اصطفاهم الله بشرف النبوة وأهلهم لتحمل الرسالة الآلهية رحمة منه بعبادة ولطفاً بهم.

---

(١) (شرح الاصول الخمسة) لقاضي القضاة (عبدالجبار بن أحمد) تعليق: الامام احمد بن الحسين بن أبي هاشم. حققه وقدم له للدكتور عبدالكريم عثمان الطبعة الاولى عام ١٩٧٥ - مكتبة وهبه بالقاهرة- صفحة ٢١٧، وعند الهامش في ابراز أهم دواعي ظهور الاعتزال، وعند الكلام في أنه تعالى لا يجوز أن يكون جسماً.

(٢) سورة القيامة آية رقم ٢٢- ٢٣

(٣) انظر تفصيل ذلك في تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٥٠

وبهذا العرض السريع يتبين لنا مدى الفرق الجوهري بين تناول الكتاب من اليهود والنصارى لقضايا الايمان والعقيدة الدينية من خلال ما نسبوه إلى الله وإلى أنبيائه وما تناولوا به سيرتهم، وبين منهج القرآن الكريم القائم على عصمة الوحي وقداسة النص الذي طهر الله به أنبياءه ورسله من التهم والافتراءات والمآثم التي إختلقها أهل الكتاب من اليهود والنصارى بعد أن حرفوا كلام الله وهو يعالج سيرة ابناء اسرائيل من تقرير قواعد الايمان ومقررات الحق والخير التي لازمت سيرة انبياء الله ورسله والتي استجاب لها بعض أبناء اسرائيل حين كان الأنبياء بينهم رحمة من الله وفضلا، غير أنهم لم يحافظوا على نعمة الله، ولم يستمروا في العمل بهديه واتباع ما أوحى الله به إليهم. فحل عليهم سخط الله وغضبه. والعياذ بالله.

الفصل السادس:

قصص داود وسليمان عليهما السلام بين كتب اليهود والنصارى وبين عطاء القرآن الكريم

وبعد الصور المقيتة والمهينة التي رآيناها آسفين عند كتاب العهد القديم، وهم يخلعونها على أنبياء الله ورسله، نقول إنه لم يسلم حتى داود وسليمان عليهما السلام من ذلك، في حين نرى القرآن الكريم، يرفع عنهما آثام بني اسرائيل ويضعهما في مكانها اللائق بهما كنبيين كريمين على الله وعلى الناس، وعلى غير منهج كتب اليهود والنصارى في القصص والمفتريات والمآثم، يطالعنا القرآن الكريم في سورة البقرة ببداية ظهور نجم النبي الملك داود عليه السلام، وسط سياق بليغ ونظيف عن أخبار مرحلة من تاريخ بني إسرائيل، كانت فيها أوضاعهم السياسة والدينية على أسوأ حال بلغته، ولم يعد فيهم من يصلح للنبوة أو الملك، لكن نعمة الله عليهم على ضوء لغة القرآن الكريم لم تقف، ولم يحرمهم الله سبحانه نعمة العون والمدد، وكما يقول ابن كثير[1]: بعد أن انقطعت النبوة من أسباطهم، ولم يبق من سبط (لاوي) الذي يكون فيه الانبياء إلا امرأة حامل من بعلها، وقد قتل، ثم رزقهم الله من هذه المرأة غلاماً صالحاً ولما بلغ سن الانبياء أوحى الله إليه، وأمره بالدعوة اليه وتوحيده فدعى بني اسرائيل، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكا يقاتلون به عدوهم، فلما جاءهم الملك رفضوا أن يقاتلوا بعد أن كانوا يقولون (وما لنا أن لا نقاتل في سبيل اللهِ وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) وكانت حجتهم واهية، ذلك أن النبي عين لهم طالوت ملكاً، وكان رجلاً من الجنود ولم يكن من بيت الملك فيهم، لأن الملك

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٠٠.

كان في سبط يهوذا فقالوا: (أنَّى يكون له الملك علينا ونحنُ أحقُّ بالملك منه ولم يؤتَ سعةً من المالِ)، لكن نبيهم حسمها حين قال لهم مفحمًا: إنه لا دخل لهم في فضل الله فالله يؤتي فضله من يشاء والله واسع عليم. أ. هـ كلام ابن كثير.

وبالفعل فإنه على ضوء القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تجلت أنعم الله ورحمته على طالوت، وأوتي بالتابوت تحمله الملائكة، ليكون ذلك آية وبرهاناً لبني اسرائيل أن يعقلوا وأن يتدبروا، بعد أن فقدوا كل شيء يربطهم بدين أو عقيدة وكان على طالوت أن يختبر سرائر القوم وأن يعرف مدى استجابتهم للانضواء تحت لوائه، فأخبر القوم على ضوء قصص الذكر الحكيم أن الله مبتليهم بنهر يمرون عليه وهم عطشى فمن شرب منه فليس من رجال طالوت، فشربوا إلاّ قليلاً منهم وهذا القليل الذي أطاع لم يصمد حين الحرب، ولم يقوَ قلبه لأنهم كانوا قلة في مواجهة :جيش (جالوت) الفارس الفلسطيني، الذي فاضت أسفار التراث الاسرائيلي برغم أنف كتّابه بذكره، ولم تقَو هذه القلة على مواجهة جيش جالوت، ولم يبرز فيهم عنصر الإيمان أو الجلد أو الإقتداء بقائدهم، وفي هذا المناخ ووسط هذه الظروف التي لا يرى الباحث في كل تفاصيلها بغير جهد أثر للنبوة وبصماتها في كل المواقف، ظهر بفضل الله وعونه ،- دون التعرض للتفاصيل الفارغة التي حشى بها كاتب الأسفار حوادثه- نجم النبي الملك داود يقول رب العالمين في سورة البقرة: ﴿ألم ترَ إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى، إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله، قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا، قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا، فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم، والله عليم بالظالمين، وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا، قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال، قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم، والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم، وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل

موسى وآل هارون تحمله الملائكة، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين، فلما فصل طالوتُ بالجنود قال إن الله مبتليكم بنَهَرٍ، فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني، إلاّ من اغترف غرفة بيده، فشربوا منه إلا قليلاً منهم، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله، والله مع الصابرين، ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبِّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرينَ، فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوتَ وأتاهُ اللهُ الملكَ والحكمة وعلَّمه مما يشاء، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمينَ﴾[1].

فداود في الأصل واحد من جند طالوت، ومن الفئة التي تصمد وتقاتل بإذن الله وحين قتل داود جالوت قتله بإذن الله، وحين آتاه الله الملك والحكمة كان ذلك بإذن الله، ثم علّمه الله مما يشاء بعونه ورحمته وفضله ونعمته، وهذا هو سياق لغة القرآن الكريم وصريح النصوص لا نرى فيها أثرا للصراعات السياسية أو المؤامرات العائلية أو القتل غيلة وغدراً كما فاضت بذلك كتب أهل الكتاب من اليهود والنصارى عند تناولها لهذه الواقعة في سيرة نبي الله داود عليه السلام.

هذا.. وفي الآيات الكريمة من كتاب الله تعالى التي أتينا عليها لفتةً عظيمـةً جداً يشير إليها سبحانه، تبرهن وتدلل على مستوى الإيمان بالله، وأثره في قلوب الذين كانوا يقاتلون مع داود، وتحت قيادة طالوت الذي هو (شاول) في العهد القديم، والمنعوت في تراث إسرائيل بأقبح وأحط صفات البشر[2]، بينما هو معنا في القرآن الكريم يمثل القيادة لمجموعة كريمة على الله من البشر، تقاتل في سبيل الله وهذه اللمحة الكريمة، أو قل هذه اللفتة العظيمة هي أن

---

(١) سورة البقرة: الآيات ٢٤٦- ٢٥١.

(٢) (د. صبري جرجس): التراث الاسرائيلي والفكر الفرويدي عالم الكتب- القاهرة صفحة ٢٨٥.

جند الإيمان بالله مع أنهم من بني إسرائيل لكن حين خلصت قلوبهم لله، تناولهم الذكر الحكيم على ضوء علم الله بهم بأعظم الانصاف والتكريم وأثنى على صبرهم وإيمانهم كما عبر عنهم ربهم: ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزمهم بإذن الله﴾[1].

هذا.. ويسجل القرآن الكريم أن الله حين منَّ على عبده داود وكرّمه وشرّفه بالنبوة والرسالة من خلال الوحي الآلهي، سمي الله سبحانه أوامره ونواهيه وما شرعه الى نبيه داود (الزبور) فقال سبحانه لمحمد ﷺ: ﴿إنَّا أَوحينا إليكَ كما أَوحينا إلى نوح والنبيينَ من بعدِهِ وأوحينا إلى ابراهيمَ واسماعيلَ واسحاقَ ويعقوبَ والأسباطَ وعيسى وأيوب ويونُسَ وهارُونَ وسليمانَ وآتينا داودَ زبوراً﴾[2].

هذا.. ونحب أن نقرر هنا على ضوء ما قررته الآية الكريمة من أن الله تعالى قد آتى داود كتابا فيه وحي الله الذي سماه رب العزة (زبوراً) أنه لا يمكن أن يكون وحي الله تعالى لنبيه داود في الزبور على ضوء القرآن الكريم متضمناً كل أو معظم أو حتى بعض ما في المزامير المنسوبة الى داود عليه السلام، في أسفار العهد القديم بالشكل الذي انتهت إلينا به بعضها مجهول النسب لم تأت الشجاعة لناظمها أو مدونها أن ينسبها لداود لكنها جاءت بين جملة المزامير المنسوبة أصلاً لنبي الله داود، ولعل ذلك كان كما قلنا من قبح وعنف اللغة التي تفيض نقمة وسخطاً في حالات كثيرة على رب اسرائيل التي تتحدث عنه المزامير[3].

ومما يجدر ذكره في هذا المقام ونحن نحاول أن نتعرف على الملامح المضيئة والحقيقيةلواحد من أنبياء الله شوه صورته كتَّاب تراث اسرائيل، أن الزبور الذي نزل وحيا على قلب نبي الله داود، كما أخبر بذلك القرآن الكريم في آية

(١) د. صابر طعيمة (الدين الحق وبنو اسرائيل) دار الجيل- بيروت صفحة ٨٥.
(٢) سورة النساء: الآية رقم ١٦٣.
سورة الاسراء: الآية رقم ٥٥.

النساء التي استشهدنا بها لم يكن أغنيات يترنم بها كما هو الحال في المزامير التي يحتويها التراث الاسرائيلي في العهد القيم، فقال سبحانه وتعالى في سورة الاسراء: ﴿فربك أعلم بمن في السماوات والأرض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً﴾[1] وبالقطع لم يتضمن الزبور الذي آتاه الله سبحانه لداود ذلك الحشد من الأغنيات والترانيم التي يتضمن معظمها كل ما لا يليق في علاقة نبي بالله وفي هذا يقول تعالى: ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمدلله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾[2]. وبالفعل فلقد بلغ داود عليه السلام- على ضوء خبر القرآن الكريم في تصوير ملامحه الدينية- في علاقته بربه المستوى الأكمل والامثل، ولعلّ عظيم خشيته لله هي التي كانت وراء ذلك التكريم العظيم الذي حباه الله سبحانه به فضلا ونعمة منه عليه وعلى ولده سليمان، وقص على الناس أخبارهما، وأخبار ذلك الفضل الكبير وتسخير كثير من الأشياء لهما في كتابه الحكيم بعد أن شوهت سيرتهما في تراث العهد القديم يقول تعالى في سورة سبأ ﴿ولقدْ آتينا داودَ منا فضلاً ياجبال أوّبي معه والطير وألَنَّا لَهُ الحديد، أن اعمل سابغات وقدر في السَّرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير. ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر، وأَسَلْنا له عينَ القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نُذقه من عذاب السعير﴾[3] ويقول تعالى: ﴿إصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيْدِ إنه أواب، إنَّا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق، والطير محشورة كل له أواب وشددنا مُلكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطابِ﴾[4] فنبي الله داود هنا في عطاء القرآن الكريم وبيانه قد منحه الله الحكمة وفصل الخطاب. والحكمة في منطق القرآن الكريم هي دائرة النبوة الواسعة وما يتعلق بها من فضل الله ورحمته على من يختارهم من خلقه لشرف النبوة

(١) انظر (سفر المزامير) في (التراث الاسرائيلي في العهد القديم) للدكتور صابر طعيمة.
(٢) سورة النمل: الآية رقم ١٥٠
(٣) سورة سبأ: الآية رقم ١٠.
(٤) سورة ص: الآيات ١٦، ٢٠.

والرسالة الآلهية، فهل هذه الصورة الكريمة التي يرينا إياها الذكر الحكيم يمكن أن يقترب من نقائها وطهرها ملامح صورته عليه السلام في تراث العهد القديم بعد أن تشوهت على أيدي الكتاب والنساخ عبر الاجيال، هل صورته عليه السلام في العهد القديم بكل المآثم التي خلعها عليه كتاب اليهود والنصارى قبل أن يلي الملك وأثناءه وبعد أن تنازل عنه في ظل صراعات ومؤامرات انعدم فيها كل أثر للنبوة، تتفق ومقام من أعطى من الله الحكمة وفصل الخطاب؟.

هذا.. ويطالعنا الذكر الحكيم في سورة الأنبياء بمشهد لم يعرفه كتاب تراث العهد القديم، ولم يتعرضوا له وهو دور النبوة والرسالة الآلهية التي منحها الله سبحانه لنبيه داود وسليمان عليهما السلام وكانا يعملان بها وعلى هديها بين الناس ارشاداً وتوجيهاً وحكماً، ومن فضل الله على داود وسليمان عليهما السلام أن آيات الذكر الحكيم التي تناولت نبي الله داود يأتي في سياقها ذكر ابنه سليمان عليه السلام من خلال وحدة الموضوع، وهذا بخلاف ما صنعه كتاب ونساخ تراث العهد القديم من التفريق بينهما بحكم وضعهم للتراث الاسرائيلي عبر أجيال وأجيال. يقول تعالى في ذلك: ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فعالين. وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون، ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين﴾[1].

وفي هذه الواقعة كما يقول الإمام أبي عبدالله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي في كتابه (الجامع لأحكام القرآن)[2] قوله تعالى: (ففهمناها سليمان) أي منحناه القضية والحكومة فكنَّى عنها إذ سبق ما يدل عليها، وفضل حكم

(١) سورة الانبياء: الآيات ٧٨، ٨١.

(٢) تفسير القرطبي: الجزء الحادي عشر- طبعة دار الكاتب العربي- القاهرة صفحة ٣٠٨ بتصرف.

سليان حكم أبيه في أنه أحرز أن يبقى ملك كل واحداً منهما على متاعه وتبقى نفسه طيبة بذلك، وذلك أن داود عليه السلام رأى أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث بعد أن نفشت فيه غنم القوم ليلاً، وبعد سماع سليان لحكم أبيه، وبأنه قضى في الغنم بأن تكون لصاحب الحرث قال لصاحب الغنم لعل الحكم غير هذا، ثم أتى أباه وقال يا نبي الله إنك حكمت بكذا وكذا، وإني رأيت ما هو أرفق بالجميع قال ما هو: قال: ينبغي أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث فينتفع بألبانها وسمونها وأصوافها وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه، فإذا عاد الزرع الى حاله التي أصابته الغنم فيه في السنة المقبلة رد كل منهما ما له إلى صاحبه، فقال داود: وفقت يا بني لا يقطع الله فهمك وقضى بما قضى به سليان.

وفي قوله تعالى: ﴿وكُلّاً آتينا حكماً وعلماً﴾.. يذهب قوم من علماء المسلمين كما يقول القرطبي إلى أن داود عليه السلام لم يخطىء في هذه النازله، بل أوتي الحكمة والعلم وحملوا قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمناها سُليمان﴾ على أنه فضيلة له وفضيلته راجعة الى داود، والوالد تسره زيادة ولده عليه، وفي هذا يروي أن الوليد لما هدم كنيسة دمشق كتب اليه ملك الروم: إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها فإن كنت مصيباً فقد أخطا أبوك، وإن كان أبوك مصيباً فقد أخطأت أنت، فأجابه (الوليد) بقول الله تعالى: ﴿وداود وسليان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهَّمناها سليان وكلا آتينا حكماً وعلماً﴾[1].

ويبين الله سبحانه وتعالى فضله على داود وابنه ويكشف عن أنهما كانا على علاقة قوية بربهما يشكرانه ويعبدانه، ويقران له بالفضل والنعمة والهداية، يقول تعالى: ﴿ولقد آتينا داود وسليان علماً وقالا الحمدلله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾[2] ولم لا يكون الأمر هكذا عند أنبياء الله، ولم لا تكون

---

(١) تفسير القرطبي (الجامع لآحكام القرآن) جـ ١١ صفحة ٣٠٩.

(٢) سورة النمل: الآية رقم ١٥.

صورتهم بهذا الإشراق والطهر وربهم هو الذي بعثهم واحداً بعد الآخر بأوامره وتوجيهاته فيقول تعالى عن داود: ﴿يا داود إنا جعلناكَ خليفةً في الأرضِ فاحكم بين الناس بالحق، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيلِ اللهِ، إن الَّذين يضلّون عن سبيلِ اللهِ لهم عذاب شديد بما نَسَوْا يوم الحساب﴾(١).

ويقول تعالى عن نبيه أيوب عليه السلام وهو يطهر وجهه الكريم مما قذفه به واتهمه به كتاب المفتريات في تراث اسرائيل في العهد القديم، يقول تعالى: ﴿واذكُرْ عبدنَا أيوبَ إذْ نادى ربه أني مسَّنى الشيطانُ بنصب وعذابٍ، اركُضْ برجلك هذا مُغتسل باردٌ وشرابٌ﴾(٢).

ويقول سبحانه عن مجموعة أخرى منهم: ﴿واذكرْ عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوبَ أولي الأيدي والأبصار، إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار، وإنهم عندنا لمن المصطفَيْنَ الأخيار، واذكر اسماعيل والْيسع وذا الكفل وكل من الأخيار﴾(٣).

هذه هي صور ونماذج محدودة أتينا عليها من مشاهد النبوة على أيدي بعض الأنبياء الذين تناولهم الذكر الحكيم بكل الأمانة والعفة والطهر والترقي محملين من قبل ربهم بأعباء ضخمة هم فيها للناس نعم القدوة والمثل، وحين اعتدى عليهم كتاب التراث الاسرائيلي بأن خلعوا عليهم ما وقعوا فيه من مآثم ومفاسد جاءت عناية الله تعالى في محكم الذكر الحكيم ورفعت عنهم وطهرتهم من كل ما قذفهم به اليهود والنصارى من مآثم ومفتريات.(٤)

---

(١) سورة ص: الآية رقم ٢٦.

(٢) سورة ص: الآية رقم ٤١.

(٣) سورة ص: الآية رقم ٤٥.

(٤) للوقوف على ما حدث في التوراة والانجيل من تغير وتحريف يمكن الرجوع للفصل الذي خصصه شيخ الاسلام ابن تيمية (فيما حدث في التوارة من تغيير) في كتابه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) جـ ٢ صفحة ١٨ وما بعدها.

ومن أقبح المآثم والمفتريات التي خلعها كتاب العهد القديم في سفري صموئيل[1] على وجه الخصوص حين جعلوا من نبي الله داود رجل مؤامرات سياسية، ما أن يفرغ ويصبح ملكاً نبياً إلا ويرسل الجيوش ليغزوا ويحارب، بينما هو في رواية التراث الاسرائيلي يتمشى على سطح قصره يتصيد عورات الناس، ثم يرسل الى زوجات رجال غائبين في الحرب فيوقعهن في جريمة الزنا- معاذ الله- ثم لكي يستر خطيئته- التي لم يستح كتاب العهد القديم أن يقبحوها في عيون الشعب ومع ذلك خلعوها بغير حياء على نبي الله داود- يؤكد في زعمهم بقتل (أوريا) الحثي زوج (بتشبع)، ثم لا تهزه في زعمهم جريمة زنا ولده (أمنون) في اخته (ثمار)، الى غير ذلك من مزاعم المؤامرات السياسية والقتل غيلة وغدراً، الى غير ذلك من ألوان الإثم الذي لم يقع فيه، فرداء النبوة كفيل بصد كل المآثم عنه وحمايته من مفتريات اليهود والنصارى وصدق رب العالمين حيث يكشف عن فضله على عبده داود في سورة ص: ﴿اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد أوَّابٌ﴾[2].

هذا.. ويطالعنا الذكر الحكيم في مواقف ومشاهد كثيرة طاهره مطهرة عن نبي الله سليمان عليه السلام بما يدحض كل المفتريات والآثام التي خلعها كتاب التراث الاسرائيلي عن نبي الله سليمان، بعد أن عطلوا عمل النبوة معه، فجعلوه يترك عبادة ربه الواحد الخالق الذي شرفه بالنبوة والرسالة ويعبد آلهة الشعوب الوثنية إرضاءا لزوجاته الاجنبيات لم يخجل واحد من كهانهم أو زعمائهم أو حتى ممن أدعوا النبوة والرسالة من أن يقف وقفة ضد زيف المفتريات التي الصقت بواحد من كبار أنبياء الله، أما القرآن الكريم فيكشف عن الوجه الحقيقي والدور الإيماني القائم على التوحيد لله رب العالمين، الذي كان عليه ودعا إليه نبي الله سليمان عليه السلام بقوله تعالى: ﴿واتّبعوا ما تتلو الشياطين على مُلك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا، يعلمون

---

(١) انظر سفر صموئيل الثاني لاصحاح ١١/١٢

(٢) سورة ص: الآية رقم ١٧.

الناس السحر وما أُنزل على الملكين ببابلَ هاروت وماروت، وما يعلّمان من أحد حتى يقولا إنَّما نحن فتنة فلا تكفر، فيتعلمونَ منهما ما يفرقون به بينَ المرءِ وزوجه وما هم بضارِّين بهِ مِنْ أحدٍ إلا بإذن الله، ويتعلمونَ ما يضرّهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرةِ من خَلاقٍ ولبئسَ ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾(١).

وفي النهاية أين هذا الطهر القرآني وهو يتناول سيرة الأنبياء ويكشف عن المهام الجليلة التي قاموا بها بأمر ربهم في مجال النبوة وعمل الرسالة الالهية من دنس كتاب اليهود والنصارى ومفترياتهم على أنبياء الله ورسله؟ نعتقد أنه بعد هذا الموجز من عرض القرآن لسيرة أنبياء الله ورسله في مجال العقيدة الدينية الإلهية وفيما يتعلق بالنبوة والرسالة الالهية فإن تراث بني اسرائيل في العهد القديم في مجالي النبوة والرسالة كما رأينا تنعدم فيه معالم النبوة وتضيع سيرة الانبياء.

---

(١) سورة البقرة: الآية رقم ١٠٢.

الفصل السابع:

(نبوة عيسى عليه السلام)

إن المتبع لسيرة نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام في القرآن الكريم، يجد أنها تختلف تماماً عما كتبه الكاتبون في الأناجيل، حول سيرته فضلاً عما في الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى المسمى بالعهد القديم، ذلك أن القرآن الكريم تناول سيرته بالطهر والتكريم الذي يليق بنبي من قبل رب العالمين. ورسمت الآيات القرآنية صورة صادقة، بينة المعالم، واضحة القسمات، له عليه السلام، ولولادته ولرسالته ولرفعه، وللشبه التي أثيرت حوله.

وقد تحددت معالم هذه الصورة فيما نورده من آيات الذكر الحكيم فيقول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إذْ قالت امرأة عمران ربِّ إني نذرتُ لكَ ما في بطني محرراً فتقبل مني إنَّكَ أنتَ السميع العليم، فلما وضعتها قالت ربي إني وضعتها أنثى، والله أعلم بما وضعت وليس الذكرُ كالأُنثى، وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتَها منَ الشيطان الرجيمِ، فتقبَّلها ربُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ، وأنبتها نباتاً حسناً، وكفلها زكريا، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً، قال يا مريم أنَّىٰ لك هذا قالت: هوَ منْ عندِ اللهِ إنَّ الله يرزقُ منْ يشاء بغير حساب﴾[1].

يكشف هذا النص القرآني عن قلب (إمرأة عمران) أم مريم وما يعمره من إيمان وما يغمره من يقين، إذ ابتهلت في دعاء خاشع تسأل ربها أن يقبل نذرها: وهو ذلك الجنين الذي لما ير النور... نذرته وهو في أحشائها، خالصاً لله ولخدمة بيت الله، محرراً من كل قيد إلا قيد العبودية لله، وظلت فترة حملها

(١) سورة آل عمران: الآيات ٣٥، ٣٧.

تعيش على الأمل، في أن يكون جنينها ولداً ذكراً، فالنذر للمعابد لم يكن معهوداً وقتئذ إلاّ للصبيان، ليخدموا المعبد وينقطعوا للعبادة، ووضعت حملها فألفته على غير ما أملت ورجت!! وفي دعاء حزين، ومناجاة تنضح بالأسى والإعتذار، تبتهل الى بارئها تقول: (رب إني وضعتها أنثى- والله أعلم بما وضعت- وليس الذكر كالأنثى- وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم)[١].

وكانت نتيجة هذه الرغبة الإيمانية وجزاء هذا الإيمان الذي عمر قلب الأم وغمر وجدانها أن تقبل الله الوليدة بقبول حسن، وخصها بمميزات لم تكن لغيرها، فأعدها لاستقبال نفخة الروح وكلمة الله بمولد عيسى بن مريم على غير مثال في الخلق، وأنبتها نباتا حسنا فجعلها تعيش في حضانة الطهر والسمو، حضانة النبي زكريا والد يحيى عليهما السلام، إذ توفي أبوها عمران وكانت مريم آئنذ صغيرة تحتاج إلى من يكفلها، ويقوم على عنايتها ورعايتها، فقدمتها أمها الى رعاة الهيكل فتنازعوا، أيهم يكفل مريم، ولما ألقوا القرعة على ذلك كان الكافل لها زكريا والد يحيى عليهما السلام[٢].

ثم تعطى السورة نفسها أبعاداً أخرى، لها ارتباط بإعداد الله لنبيه عيسى عليه السلام وذلك بتطهير أمه رضي الله عنها، يقول تعالى: ﴿إذْ قالتِ الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهّركِ واصطفاكِ على نساءِ العالمين، يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾[٣]. ويقول تعالى: ﴿إذْ قالتِ الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين، ويكلم الناس في المهد وكهلاً، ومن الصالحين، قالت رب أنَّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر، قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل﴾[٤]

(١) سورة آل عمران: آية ٣٥، ٣٧.
(٢) (الدعاء في القرآن) لمحمود بن الشريف. سلسلة (اقرأ) نشر دار المعارف ص ٧٤.
(٣) سورة آل عمران: آية ٤٢، ٤٣.
(٤) سورة آل عمران: آية ٤٥، ٤٨.

ويقول تعالى: ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، فاتخذت من دونهم حجابا، فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً، قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً، قالت أنَّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أكُ بغياً، قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً﴾[1].

هذه هي بعض ملامح نبي الله عيسى في القرآن الكريم: وجيه صالح، ونبي مقرب، وبارٌّ مبارك، هو رحمة للناس عند مبعثه وهو آية للناس عند مولده، وآية على كمال الله وتمام قدرته، فولادته تتم عن طريق غير مألوف، ينفخ الملك جبريل في جيب قميص مريم فتحمل، وبالقرب من مدينة (بيت لحم) على بعد عدة كيلو مترات من (بيت المقدس) جاءها المخاض، فاعتمدت على جذع نخلة.. والنخلة يابسة والزمن شتاء فمن من رجال الدنيا - ناهيك عن أمرأة جاءها المخاض - يستطيع أن يهز جذع نخلة، لكنها قدرة القوي القادر.

ومع آلام الوضع كانت هناك آلام نفسية تهزها وخواطر تملأ رأسها. كيف تأتي إلى هذا المكان فارغة وتؤوب حاملة؟ ماذا يقول قومها عنها آنئذ وهي العفيفة الطاهرة، وهتفت: ﴿يا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾[2].

وأحاطتها رعاية الله وعنايته فسرعان ما سكن روعها وسكت ألمها عندما وضعت ابنها، الذي ما أن لمس الأرض حتى ناداها من تحتها: ﴿ألاّ تحزني، قد جعل ربك تحتك سريا﴾ ماء من عين تفيض به، ومعه غذاء ودواء للنفساء رطب يتساقط عليها بدون عناء من النخلة التي ركنت اليها، فكان شفاء آلام الجسد من الأكل من ذلك الرطب، وآلام النفس اذ سيكفيها الله مؤنة ذلك وسيتولى سبحانه التدليل على براءتها وعفتها وحصانتها. وها هي القصة كاملة كما يحكيها القرآن الكريم:

---

(١) سورة مريم: آية رقم ١٦، ٢١.
(٢) سورة مريم: آية رقم ٢٣.

يقول تعالى: ﴿فحملتْهُ فانتبذتْ بهِ مكاناً قصياً، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً، فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً، هزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً، فكلي واشربي وقري عيناً فإما تَرَيِنَّ من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً، فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً، يا أخت هارون ما كان أبوك أمرأ سوء وما كانت أمك بغياً، فأشارت إليه قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبياً، قال إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً، وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً، والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمْترون﴾(١).

والقرآن يسوق مثلاً لهؤلاء المنكرين الذين أنكروا عيسى ورسالته متعللين بأن خلقه لم يكن وفق السنن الطبيعية، فقد خلق من غير أب، ويرد الله سبحانه عليهم في هذا المثل الآتي بأنه لا غرابة في ذلك. فإن كان عيسى قد خلق من غير أب فإن آدم عليه السلام قد خلق من غير أب، قال تعالى: ﴿إنَّ مثلَ عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾(٢) وفي تفسير هذه الآية يقول الطبري: (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أنزل هذه الآية حجة لنبيِّه ﷺ على الوفد من نصارى نجران. الذين حاجُّوه في عيسى، وذلك أن رهطاً من أهل نجران قدموا على محمد ﷺ فقالوا له: ما شأنك تذكر صاحبنا؟ فقال: من هو؟ قالوا: عيسى، تزعم أنه عبدالله!! فقال: هو عبدالله وروحه وكلمته، قالوا لا، ولكنه هو الله، نزل من ملكه فدخل في جوف مريم ثم خرج منها فأرانا قدرته وأمره، فهل رأيت إنساناً قط خلق من غير أب؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿إن مثلَ عيسى عندَ اللهِ﴾(٣)).

---

(١) سورة مريم: الآيات ٢٢، ٣٤.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٥٩.

(٣) تفسير الطبري الجزء ٣ صفحة ٢٠٧/٢٠٨.

وقال الامام العلامة ابن تيمية رحمه الله إن قوله تعالى ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ كلام حق. فإنه سبحانه خلق هذا النوع البشري على الأقسام الممكنة ليبين عموم قدرته، فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى وخلق زوجته حواء من ذكر بلا أنثى كما قال (وخلق منها زوجهَا)، وخلق المسيح من أنثى بلا ذكر، وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى. وكان خلق آدم وحواء أعجب من خلق المسيح، فان حواء خلقت من ضلع آدم، وهذا أعجب من خلق المسيح في بطن مريم، وخلق آدم أعجب من هذا وهذا، فهو أصل خلق حواء، فلهذا شبهه الله بخلق آدم الذي هو أعجب من خلق المسيح، فاذا كان سبحانه قادراً أن يخلقه من تراب والتراب ليس من جنس بدن الانسان، أفلا يقدر أن يخلقه من امرأة هي من جنس الانسان(١).

وقال الشيخ رحمة الله الهندي يحكي ما ورد في إنجيل لوقا عن نسب عيسى عليه السلام: (قال لوقا في الباب الثالث من إنجيله في بيان نسب المسيح عليه السلام إنه ابن يوسف وآدم ابن الله وظاهر أن آدم عليه السلام ليس إبنا لله بالمعنى الحقيقي، ولا الها، لكن لما ولد بلا أبوين نسبه الى الله، ولله در لوقا، لقد أجـاد هنا لأنه لما كان المسيح عليه السلام مولوداً بلا أب فقط نسبه إلى يوسف النجار ولما كان آدم عليه السلام مولوداً بلا أبوين نسبه إلى الله)(٢).

أما موقف الناس بعدما ولد، فإن مريم لما خرجت به على القوم كان ذلك مفاجأة لهم، سواء في ذلك من يعرف نسكها وعبادتها ومن لا يعرف، لأنها فاجأتهم بأمر غريب وهي المعروفة بينهم بأنها عذراء ليس لها بعل، فكانت المفاجأة داعية للإتهام، لأنه عند المفاجأة تذهب الروية، ولا يستطيع المرء أن يقابل بين الماضي والحاضر وخصوصا أن دليل الإتهام قائم وقرينته أمر مادي لا

(١) كتاب (الجواب الصحيح) لابن تيمية- مطبعة المدني جـ ٢ ص ٢٩٤.
(٢) رحمة الله بن خليل الهندي (اظهار الحق) جـ ٢ تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا- القاهرة ١٩٧٨ صفحة ٩.

مجال للريب فيه، ولكن الله سبحانه وتعالى رحمها في هذه المفاجأة، فجعل دليل البراءة من دليل الإتهام، لينقض الإتهام من أصله، ويأتي على قواعده، ويفجوءهم بالبراءة وبرهانها الذي لا يأتيه الريب، ليعيد إلى ذاكرتهم ما عرفوه في نسكها وعبادتها، ولذلك نطق الغلام، وهو قريب عهد بالولادة: نطق السيد المسيح في المهد ليكون كلامه إعلاناً صريحاً ببراءة أمه وأنه لم يكن إلاّ عبدالله ولد من غير أب.

والذي يرجع إلى أناجيل العهد الجديد حتى إنجيل برنابا وهي قد تحدثت عن ولادة المسيح، يرى الاناجيل جميعا تكاد تخلو من مثل هذه الصورة القرآنية التفصيلية التي سجلها القرآن لهذا الميلاد الفريد من الظروف المكانية التي أحاطت بالمولد وبمريم إبّان المخاض من عين تفيض ونخلة تساقط. ومن الظروف النفسية التي أحاطت بالوالدة، والتي ترتب عليها نذر الصوم، ومن الظروف الاجتماعية التي أدت الى تأنيب قومها لها وقتئذ، ومن الإعداد الالهي والإعجاز الذي جعل الوليد ينطق في مهده، بأنه عبدالله ورسوله، وبأنه النبي البار المبارك الحافظ على التعاليم المنفذ للوصايا، ولا مشاحة أن هذا القول من الوليد كان معجزة له، شاهدة على أنه نبي ورسول[1].

طبيعة المسيح في القرآن الكريم:

المسيح في القرآن الكريم عبدالله ورسوله، وليس فيه شيء يتميز به عن غيره من الرسل إلا أنه كلمة الله وروح منه يقول تعالى: ﴿إنَّما المسيحُ عيسى بن مريم رسول الله، وكلمته ألْقاها إلى مريم وروح منه﴾[2]. فلا غلو ولا أباطيل، ولا ناسوت ولا لاهوت، ولا أقانيم ثلاثة، فهو بشر مخلوق لا إله خالق وهو ابن مريم، لا ابن الله.

---

(١) (محمد أبو زهرة) محاضرات في النصرانية. منشورات معهد الدراسات الاسلامية- القاهرة عام ١٩٦٥ صفحة ١٠- بتصرف.

(٢) سورة النساء: آية ١٧١.

وبعد أن أثبت القرآن الكريم بنوة عيسى إلى مريم في الآية السابقة أثبت له بعد ذلك في نفس الآية صفات ثلاث هي:- (١) رسول الله، (٢) وكلمة الله، (٣) وروح منه، وقد جاء ذكر هذه الصفات وإثباتها كثيراً في القرآن الكريم.

فعن الرسالة تتحدث آيات كثيرة من القرآن الكريم: (ورسولاً الى بني إسرائيلَ)[١] ﴿ما المسيحُ بن مريم إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل﴾[٢]، ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض، منهم من كلَّم الله ورفع بعضهم درجات، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾[٣]، ﴿ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل﴾[٤]، ﴿وقفينا على أثارهم بعيسى بن مريم﴾[٥].

لقد حرَّف اليهود شريعة موسى وحرفوا التوراة، لذا بعث الله فيهم عيسى عليه السلام، لردهم للتوحيد ولعبادة الإله الواحد، كما في الآية الكريمة الآتية التي تحدد رسالة عيسى ومنهجه في الدعوة، ومعجزاته، وتعاليمه ووصاياه، قال تعالى: ﴿ورسولاً إلى بني اسرائيل: أني قد جئتكم بآية من ربكم، أني أخلقُ لكم من الطِّينِ كهيئة الطير، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وأبرىء الأكمه والأبرص وأُحيي الموتى بإذن الله، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنينَ، ومصدقاً لما بين يدي من التوراة، ولأُحلَّ لكم بعض الذي حرم عليكم، وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعونِ، إن الله ربي وربكم، فاعبدوه هذا صراط مسقيمٌ﴾[٦].

فهو إذا نبي رسول ومبلغ وداع الى الله كغيره من الرسل الذين سبقوه،

---

(١) سورة آل عمران: آية ٤٩.
(٢) سورة المائدة: آية ٧٥.
(٣) سورة البقرة: آية ٢٥٣.
(٤) سورة الحديد: آية ٢٧.
(٥) سورة المائدة: آية ١٦.
(٦) سورة آل عمران: آية ٤٩، ٥١.

ومبشر برسالة محمد الخاتم ﷺ، قال تعالى: ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد.... الآية﴾[١].

أما عن وصفه بكلمة الله فمعناه: أنه المكون بالكلمة من غير أب، أي أنه تكون بكلمته وأمره الذي هو «كن» من غير واسطة أب ولا نطفة. قال الله لعيسى كن فكان، كان عيسى بكن، وليس عيسى هو «الكن» ولكن بالكن كان، فعيسى بالكلمة «كان» وليس عيسى هو الكلمة، أي أنه كُوِّن بالكلمة.[٢]. قال تعالى: ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم﴾ قال معمر عن قتادة وكلمته ألقاها إلى مريم هو قوله: كن فكان[٣].

أما وصفه عليه السلام بأنه روح من الله فقد قال في تفسير الجلالين في قوله تعالى (وروحٌ منه) أي: ذو روح منه، أضيف إليه تعالى تشريفاً له، كما يقال (بيت الله)، (ناقة الله)[٤].

وساقت حاشية الجمل على تفسير الجلالين أن طبيباً نصرانياً جاء للرشيد فناظر علي بن الحسين الواقدي ذات يوم فقال له: إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى جزء من الله وتلا قوله تعالى: ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ فقرأ له ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعاً منه﴾ وقال: إذن يلزم أن تكون جميع تلك الأشياء جزءاً منه سبحانه، فانقطع النصراني وأسلم[٥].

على أن الروح ليس خصيصة اختص بها عيسى بل وردت لفظة «الروح» في القرآن لمعاني عدة، فأطلقت على آدم، وعلى القرآن، وعلى الوحي بمعناه

---

(١) سورة الصف: آية ٦.

(٢) جـ ١ ص ٤٥١ من تفسير الجلالين بحاشية الجمل.

(٣) (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) جـ ٢ ص ١٦.

(٤) تفسير الجلالين بحاشية الجمل جـ / صفحة ٤٥١.

(٥) تفسير الجلالين بحاشية الجمل جـ ١ صفحة ٤٥٢.

العام، وعلى من نزل بالوحي، وعلى النصر، فعلى آدم: ﴿فإذا سوَّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾[1]، وعلى القرآن: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾[2]، وعلى مطلق الوحي: ﴿ينزل الملائكة بالروح منْ أمرهِ على منْ يشاءُ منْ عبادِهِ﴾[3]، وعلى جبريل: ﴿فأرْسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً﴾[4]، ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكونَ من المنذرين﴾[5]، ﴿قلْ نَّزله روح القدس من ربّكَ بالحق ليثبِّتَ الذين آمنوا﴾[6] كما فسرت الروح بجبريل في قوله تعالى ﴿وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروحِ القُدُسِ﴾[7]، وعلى النصر: ﴿أولئِكَ كتبَ في قلوبهم الايمان وأيَّدهُمْ بروحٍ منْهُ﴾[8].

أما حقيقة الروح[9] وماهيتها ومفهومها فهي بهذه المعاني كلها من أمر الله لا يعلم حقيقتها إلا الله، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿ويسألونَكَ عن الرُّوح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم، الا قليلاً﴾[10].

---

(١) سورة الحجر: آية ٢٩.
(٢) سورة الشورى: آية ٥٢.
(٣) سورة النمل: آية ٢.
(٤) سورة مريم: الآية ١٧٣.
(٥) سورة الشعراء: الآية ١٩٣.
(٦) سورة النحل: الآية ١٠٢.
(٧) قال صاحب تفسير المنار (جـ ١ ص ٣٧٧) ذهب جمهور المفسرين الى أن المراد بروح القدس الملك المسمى جبريل الذي ينزل على الانبياء، ومنه يستمدون الشرائع عن الله تعالى: وذكر بعضهم وجها آخر وهو انها روح عيسى نفسه ووصفها بالقداسة والطهارة بمعنى اعاذته من الشيطان ان يكون له حظ فيه، أو لأنه انزل عليه الانجيل بالتعاليم التي تقدس بل ان بعضهم قال ان روح القدس هو الانجيل.
(٨) سورة المجادلة: آية ٢٢.
(٩) من أراد التوسع في هذا فله أن يرجع الى فصل في معنى الروح ص ١٢٦ جـ ٢ من كتاب الجواب الصحيح تحت عنوان «فصل في معنى الروح» و (فصل في عدم خصوصية روح القدس بالمسيح) والى كتاب قصص الانبياء ص ٤٦٢. لعبدالوهاب النجار.
(١٠) سورة الاسراء: آية ٨٥.

معجزات المسيح دليل على بشريته:

يقول الله تعالى عن معجزات عيسى عليه السلام: ﴿إذ قالَ اللهُ يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليكَ وعلى والدتكَ إذ أيَّدتك بروح القدس، تُكلّم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني، وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني، واذ تُخرج الموتى بإذني، وإذ كففت بني اسرائيل عنك، إذ جئتهم بالبينات، فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلاَّ سحرٌ مبين﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿إذْ قالَ الحواريُّون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أنْ ينزِّل علينا مائدة من السماء، قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين، قالوا نُريد أنْ نأكلَ منها وتطمئنَ قلوبنا ونعلم أنْ قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين، قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء، تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك، وارزقنا وأنت خير الرازقين، قال الله إني منزلها عليكم، فمن يكفر بعد منكم فإنِّي أُعذبه عذاباً لا أُعذِّبه أحداً من العالمين﴾(٢).

من خلال هذه الآيات الكريمة يظهر أن عيسى حصل له معجزات كثيرة حققها الله على يديه، دليلا على رسالته ونبوته، وأنها وقعت منه أمام أعين الناس، أما ما يقوله الشيخ عبدالوهاب النجار فيما نقله عن أبي مسلم قال أنه (لا يستلزم أنَّ تلك الخوارق حصلت منه بالفعل، وليس في آيات القرآن ما يدل على أنه فعل تلك العجائب، وغاية ما تدل عليه الآيات أنه كان عنده استعداد وفيه قوة على عمل ذلك)(٣) هكذا قال أبو مسلم ونحن لا نسلم بما قال لأن النفس مطمئنة إلى أنه عليه السلام قد عمل هذه العجائب أمام أعين بني

---

(١) سورة المائدة: آية ١١٠.

(٢) سورة المائدة: آيات ١١٢، ١١٥.

(٣) (عبدالوهاب النجار): (قصص الأنبياء) الطبعة الثالثة دار احياء التراث العربي صفحة ٤١٠.

إسرائيل، وذلك ظاهر من قوله تعالى: ﴿وإذْ كففت بني اسرائيل عنكَ إذْ جئتهم بالبينات فقال الَّذين كفروا منهم إن هذا إلاَّ سحرٌ مبينٌ﴾، ونقول أيضا: إن المعجزة لا تكون معجزة إلاَّ إذا وقعت بالفعل إذ كيف يؤمن بعض الناس باستعداد عند الرسول بأن تقع منه المعجزة وهي لم تقع؟؟ وما الحكمة من المعجزة آنئذ ما دامت لم تقع؟!! على أن الآية الكريمة السالفة قررت أن المعجزة وقعت بالفعل لا بالقول. وبذلك انهار اتجاه أبي مسلم ومن نقل عنه.

وما أحسن التعليل الذي ساقه الشيخ محمد أبو زهرة حول هذه المعجزات بعد أن ساق مع شيء من التفصيل أنواع هذه المعجزات العيسوية الخمسة من: ابراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، وإنزال المائدة من السماء، وإنبائه بأمور غائبة عن حسه لم يعاينها، وتصويره من الطين كهيئة الطير ينفخ فيه فيكون طيراً فقرر أن الخالق في كل ذلك إنما كان هو الله الذي أجرى الخلق على يد عيسىٰ[1].

وعند ما ساق الشيخ محمد رشيد رضا الرأى الذي أورده ابن كثير في كتابه (البداية والنهاية) من أن هذه المعجزات جاءت مناسبة لأهل الزمن الذي وقعت فيه، وأن معجزة المسيح كانت من نوع إبراء المرضى وإحياء الموتى لأن القوم كانوا على علم بالطب الطبيعي وكانوا فلاسفة في ذلك، فجاءت المعجزة من جنس ما يعرفون، ليكون عجزهم حجة عليهم، وعلى غيرهم لمن هم دونهم في معرفة الطب، قرر في النهاية رأيه الذي قال فيه: (وفي الحق الذي نراه تعليلاً مستقيماً لكون معجزات السيد المسيح عليه السلام جاءت على ذلك النحو، هو مناسبة ذلك النوع لأهل زمانه، لا لأنهم أطباء فناسبهم أن تكون المعجزة مما يتصل بالشفاء والادواء، بل لأن أهل زمانه كان قد سادهم إنكار الروح في أقوال بعضهم، وأفعال جميعهم فجاء عليه السلام بمعجزة هي في ذاتها أمر خارق للعادة، مصدق لما يأتي به الرسول، وهي في الوقت ذاته إعلان

(١) (محمد ابو زهرة) (محاضرات في النصرانية) صفحة ١٥.

صادق للروح، وبرهان قاطع على وجودها، هذا طين مصور على شكل طير، ثم ينفخ فيه فيكون حياً، وما ذاك الاّ لأن شيئاً غير الجسم وليس من جنسه فاض عليه فكانت معه الحياة، أخذت اشلاؤه في التحليل، وأوشكت أن تصير رمياً، يناديه المسيح عليه السلام فإذا هو حي يجيب نداء من ناداه، وما ذاك إلاَّ لأن روحاً غير الجسم الذي غيره البلى حلت فيه بذلك النداء ففاضت عليه بالحياة وهكذا، فكانت معجزة عيسى عليه السلام من جنس دعايته وتناسب أخص رسالته وهو الدعوة الى تربية الروح والإيمان بالبعث والنشور وأن هناك حياة أخرى يجازي المحسن فيها بإحسانه إن خيراً فخير وإنْ شرّاً فشر، وهل ترى أن معجزة إحياء الموتى تسمح لمنكر الآخرة بالإستمرار في انكاره؟ أو تسمح لمنكر البعث والنشور أن يستمر على جحوده، وقد أسلفنا القول في أن اليهود كان يسود تفكيرهم عدم الاعتراف بوجود الآخرة، وعدم الايمان باليوم الآخر، إن لم يكن ذلك منهم بالقول فبالعمل، فجاء إحياء الموتى صوتاً قوِّياً يحملهم على الايمان حملاً)[1].

هذا ما رأينا أن المرور عليه لازم في حديثنا عن نبوة عيسى عليه السلام وإلا فهناك جوانب أخرى هامة، لا يتسع المقام لذكرها.

---

(١) (محمد رشيد رضا) (تفسير المنار) جـ ١ ص ٣١٧.

الباب الخامس

الرد على منكري النبوة من الماديين

الفصل الأول:

التدين غريزة (فسيولوجية).

الفصل الثاني:

العلم الحديث ودلائل النبوة

الفصل الثالث:

العلم الحديث أسقط الفكر المادي.

الباب الخامس

الرد على منكري النبوة من الماديين

تمهيد:

بعد أن تناولنا في الأبواب الماضية قضايا النبوة والرسالة، وعرضنا لرأي علماء الإسلام في هذه القضية. واستعرضنا من خلال خطة البحث منهج كتب اليهود والنصارى في تناول هذه القضية، وترجمنا لبعض أنبياء الله ورسله وأردنا من تقديمنا لهم بالمنهاجين: المنهج الإسلامي والمنهج اليهودي المسيحي، أن نبرهن وندلل على مدى ما أصاب عقائد أهل الكتاب من انحراف، وما شاب إيمانهم من شوائب الحس الغريزي، والفكر المادي، الأمر الذي أدى إلى أن يقف تيار تاريخي كبير- هو تيار العلم- يعلن الكفر الصريح والجحود بما انتهت إليه الكنيسة من عقيدة وما تمثله من شعائر، حتى جاءت في مطلع القرن التاسع عشر موجة الإلحاد المادي الشيوعي الذي أراد أن يركب العلم، وحاول الملاحدة الشيوعيون أن يلبسوا دعواهم ثوب العلمية والتقدمية، وغير ذلك من شعارات الكذب والخداع.

هذا وقد أصبح من الحقائق العلمية المسلم بها الآن، بعد البحوث والدراسات المستفيضة أن منطلقات الفكر المادي ومقومات النزعات الإلحادية كلها تتلخص في تقديم معطيات تجافي الفطرة وتصطدم بقلب الإنسان. والهدف عند الجميع في الزمن القديم والحديث واحد وهو: إستبقاء الوجود الإنساني في قيود وأغلال الإلحاد، دون أن يتجه موحداً نحو الإله الواحد رب العالمين،

وبذلك يتيسر لقوى الشر وضع العراقيل والمعوقات في طريق البشر نحو ربهم الخالق وذلك برسمِ صور ونماذج للظلم والقهر والاستعباد يوقعون فيها الناس بعيداً عن ربهم.

ولما كان أنبياء الله ورسله دعاة حق وعدل وظيفتهم الأولى أن يخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. فقد كان لا بد لعناصر الشر أن تجهز نفسها وتشحذ فكرها وتشهر سلاحها ضد الأنبياء وتعلن الحرب على كل ما تمثله النبوة في دنيا الناس.

وبالرغم من أن الله سبحانه قد أعان كل نبي من أنبيائه ورسله بالسلاح الذي يمكنه من مجابهة أعدائه، وبالبراهين والمعجزات التي تؤيد دعوته، إلا أن خصوم الحق وأعداء الخير قد وقفوا لرسالات الأنبياء بالمرصاد وأرادوا النيل منها.

وبعد أن نفد لدى أعداء الحق على مدى التاريخ الطويل سلاح الحديد والنار، وجاءت العصور الحديثة بمعطيات العلم والفكر وتطور الآلة وتقدم العمران، اغتنمها أعداء الحق فرصة، وظنوا أن الظرف يواتيهم في الحملة والمطاردة من جديد لكل ما تمثله النبوة من معاني الحق والخير والعدل في دنيا الناس.

وجاء الفكر المادي الشيوعي هذه المرة وهو يحمل السلاح مستهدفاً الأصل والمصدر أعني مستهدفاً مصدر النبوة والرسالة الآلهية، وهو إعلان الكفر والإلحاد بالخالق سبحانه وإنكار وجوده، ومن ثم فيما تصوروا إذا ما تم لهم ترويج إنكار وجود الله تعالى فإنهم يكونوا قد أنكروا النبوة تماماً.

ومن أعجب العجب أنهم إذا ما جوبهوا بحقائق التاريخ، التي تروي أحداثاً جساماً، ووقائع مشهورة، غيرت مجرى التاريخ بالحق والعدل لصالح الناس جميعاً، قام بها أنبياء الله ورسله مثل: إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، قالوا في ركاكة ممجوجة إنها تجارب إنسانية خدمت التاريخ

مرحلة مؤقتة وانتهت، ويغفلون طبيعة العصر الذي كان فيه هؤلاء الرسل الكرام. ويغفلون عن التحديات التي قابلتهم وكيف قهروها ويجحدون الإنجازات التي حققوها لبني الإنسان

ونحن هنا في هذا الباب نناقش الماديين من خلال ثلاثة مسالك: أولها: إثبات أن التدين غريزة لدى الإنسان،تجريده منها تجريد لبعض مقومات وجوده. وثانيها: الإستدلال بما جاء به العلم الحديث مناقضاً لمزاعم الماديين حول وجود الله ودلائل النبوة والرسالة. وثالثها: أن النتائج العلمية أسقطت الفكر المادي من أصوله، فنقول وبالله التوفيق:.

الفصل الأول:

التدين غريزة (فسيولوجية)(*)

لا شك أن التدين غريزة طبيعية ثابتة ومستقرة في قلب الإنسان، لا يستطيع إنسان عاقل سوى أن ينكرها، وذلك لأن الله تعالى أودع في الإنسان حاجات عضوية ودوافع، هي في الحقيقة غرائز تنشىء عنده ميلا إلى شيء معين، فيقوم بالفعل تابعاً لذلك الميل، ومن أبرز هذه الغرائز والمقومات غريزة التدين. وهي التي ينشأ عنها ميل أو شعور بالحاجة إلى قوة أقوى من الإنسان، حتى ولو كان إنساناً عصرياً، يعيش في مجتمع إجتماعي فيه أمن وسلطة مدنية وغير ذلك، وهذا الشعور ينشأ عنه فعل هو التعلق بشيء تتمثل فيه القوة، سواء أكانت القوة خيرة أو شريرة، وهذا هو ما يفسر تدين الإنسان عبر العصور، وعبادته لأشكال مختلفة تتمثل فيها القوة المادية التي عبدها إشباعاً لغريزة التدين[1]، وإرضاء للميل إلى المعبود الناشىء عن فطرة الإنسان في شعوره بالحاجة إلى قوة أقوى منه، فقد عبد الإنسان النجوم والحيوانات، وعبد آلهة صنعها بيديه، وقرب لها القرابين، وما زال معظم الناس إلى يومنا هذا يعبدون أشياء مادية لا تنفع ولا تضر كالأصنام، والصور الحيوانية، لأنهم يعتقدون أنها مصدر للنفع كالبقر عند الهنود أو مصدر للشر كالتنين عند بعض اليابانيين[2]، وقد رأيت بعيني في جزيرة بالى بأندونيسيا نوعاً من ذلك[3] بل

(*) أي عضوية

(١) عباس محمود العقاد- الله- دار المعارف مصر عام ١٩٦٠ صفحة ١.

(٢) المجتمع المتكامل في الإسلام ٣٥/ د. عبد العزيز الخياط.

(٣) وذلك في سنة ١٣٩٧ هـ وكنا في رحلة طلابية، وشاهدنا القوم هناك يعبدون بوذا الذي قد عمل له تمثال عظيم في كهف مظلم يقدمون له القرابين، وعلى كل بيت تجد تمثالاً مصغراً للآله الكبير رمزاً للعبودية.

إن الماديين المحدثين يتقربون لرفات زعيمهم المحنت في تابوت الموت وقد أكله البلى.. ويقدمون له في سبات صلوات العرفان وانحناء الهامات والرجوع إلى الوراء حتىَ لا يولوه ظهورهم مثلما يفعل ملاحدة الكرملين في قتيلهم لينين.[1]

ولكن الإنسان حين يستعمل عقله، ويتأمل فيما حوله، ويتبصر في هذا الكون الفسيح، فإنه لا بد أن يصل إلى أن القوى المادية التي يراها لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها، ولا يمكن أن تكون قد وجدت بطريق الصدفة، ولا يمكن أن تكون أزلية لا أوَّل لها ولا يمكن أن تكون هي المتصرفة في الكون، المدبرة لشؤونه، وذلك أن الشعور الذي تولده غريزة التدين بالحاجة إلى قوة أقوى من الإنسان، لا يتجه إلى المادة المحسوسة المنظورة إلا إتجاهاً خاطئاً، فلا بد إذن أن يشعر الإنسان بالحاجة إلى الخالق المدبر، بغض النظر عن الإحاطة بهذا الخالق المدبر، وقد وجد هذا الشعور بوجود الإنسان، سواء كان مؤمناً بوجود الخالق أو كافراً به ومؤمناً بالمادة أو الطبيعة، وهذا الشعور لدى الإنسان حتمي لأنه يخلق معه، وهو جزء من تكوينه، لا يمكن أن يخلو منه أو ينفصل عنه، وهذا هو التدين، والمظهر الذي يظهر به هو التقديس لما يعتقد أنه الخالق المدبر، أو ما يتصور أن له صلة بالخالق المدبر[2].

فالتدين إذن، غريزة مغروسة في النفس بالبشرية منذ أو أوجد الله سبحانه وتعالى الإنسان على الأرض، فمن المعروف أن الإنسان عبد الشمس والكواكب والأصنام وغير ذلك، وحتى إن الشعوب التي أجبرها الحكام على ترك التدين أبت إلا أن تكون متدينة رغم القوة التي سلطت عليها، وتحملت الأذى في سبيل عبادتها ولم تستطع أية قوة أن تنتزع من الإنسان تدينه، أو تزيل تقديس الخالق من نفسه أو تمنعه عن العبادة، وإنما استطاعت أن تكبت ذلك إلى حين، لأن العبادة مظهر طبيعي لغريزة التدين.

---

(١) د. (رؤوف شلبي) التضليل الماركسي القاهرة عام ١٩٧٥ صفحة ٢٨٨.
(٢) الفكر الإسلامي ص ١١- ١٧- محمد محمد اسماعيل- وانظر طريق الإيمان ص ٤٣- ٤٤ سميح عاطف الزين.

أما ما يظهر على بعض الملحدين من الكفر أو الاستهزاء بالعبادة، فلا يعني الكفر المطلق بل تحويل غريزة التدين عن عبادة الله إلى عبادة المخلوقات، إلى تقديس الطبيعة أو الأبطال، أو ما شاكل ذلك، مستعملاً في سبيلها المغالطات والتفسيرات الخاطئة للأشياء، ومن هنا كان الكفر أصعب من الإيمان، لأنه تحويل للإنسان عن فطرته وعن مظاهره الحقيقية، وذلك يحتاج إلى جهد كبير، ومن الصعب أن ينصرف الإنسان عن خصائص طبيعته وفطرته.(١)

وإذا كانت الشيوعية قد قامت وتقوم في كل مكان على أساس طرح فكرة التدين والأديان، وما تدعو إليه، فإن هذا الأساس لا يمكن أن يدوم طويلاً لأن الإنسان بطبعه وبضعفه ميال إلى الخشوع لقوة فوق قوته، وهو نفسه من مادة وروح ولا يمكن أن تبقى روحه طويلاً بلا غذاء، وبلا نزوع إلى ما يقويها، ويدلل على وجودها، ومهما غالى الإنسان في ذلك، فإنه لا يلبث أن يعود إلى مكانه الطبيعي من هذه الحياة في ظلال المادة والروح معاً.

وقد بين القرآن الكريم في كثير من الآيات أن الإيمان بالله سبحانه وتعالى فطري في النفس البشرية، كذلك أن التوحيد حقيقة موجودة في فطرة الإنسان وفي هذا يقول سيد قطب في تصوير قضية الفطرة كما عرضها القرآن الكريم في تفسير قوله تعالى: ﴿وإذْ أخذَ ربُّك من بني آدمَ من ظهورِهِمْ ذريتهم وأشهدهم على أنفُسِهِمْ ألستُ بربِّكم قالوا بلى شهدنا، أنْ تقولوا يومَ القيامةِ إنَّا كنَّا عن هذا غافلين﴾(٢).

يقول: (إنَّهُ مشهد الذرية المكنونة في عالمِ الغيبِ السحيق، تؤخد في قبضة الخالق المربي فيسألها. ألست بربكم؟ فتعترف له سبحانه بالربوبية وتقر له سبحانه بالعبودية، وتشهد له سبحانه بالوحدانية وهي في عالم منثور كالذر وهي كذلك في قبضة الرحمن الخالق العظيم.

---

(١) إسلام لا شيوعية- دكتور عبد المنعم النمر القاهرة عام ١٩٧٥ ص ٦٨.

(٢) سورة الأعراف: آية رقم ١٧٢.

إنه لمشهد رائع باهر، لا تعرف اللغة له نظيراً في تصوراتها المأثورة وإنه لمشهد عجيب فريد يعجز عنه الخيال البشري، حينما يتصور تلك الخلايا التي لا تحصى- عند الإنسان- وهي تجمع وتقبض، وهي تخاطب خطاب العقلاء- بما ركبه الله فيها من الفطرة، فتعترف وتشهد أن الله واحد، ويؤخذ عليها الميثاق وهي ما تزال في الأصلاب[1]).

نعم إن الإيمان بالخالق المدبر فطري في كل إنسان، إلا أن هذا الإيمان الفطري الذي يأتي عن طريق الوجدان غير مأمون العاقبة، لذلك فالتدين في الإنسان يحتاج دائماً إلى صقل وتهذيب وتوجيه حتى لا ينحرف، أو يحول تحويلاً مادياً فيمسخ الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ويجعل من الإنسان عبداً لأشياء لا تنفع ولا تضر أو يقدس ما لا يحتاج إلى تقديس، أو يتحول في إرضاء الفطرة إلى عبادة الإنسان لأخيه الإنسان، كما تفعل الشيوعية في تحويل الميل الغريزي هذا إلى تقديس الإنسان باعتباره أرقى المخلوقات المحسوسة، وهم لا يؤمنون بغيرها، وإذا مسخت الفطرة في الإنسان اضطرب أمره وفقد الطمأنينة، وأحس بالفراغ الوجداني فلم يعد يسيطر عليه خوف الله، وبالتالي يصبح عبداً لشهواته وملذاته ويجري وراء تحقيقها ويعطيها أسماء مختلفة، ولا يستطيع أن يشبع من تحقيق الشهوات، وتكون النتيجة فقدان السكينة والطمأنينة وهذا هو تفسير ما نجده في المجتمعات التي فقدت الإيمان بالله وكفرت بهداية الرسل، فكثرت فيها جرائم القتل والسلب والإنتحار وسيطرت عليها الرغبة في إشباع الجنس من غير وازع من داخل النفس، أو رادع من عقل أو خوف من الله[2].

لذلك نرى أن الوجدان غير كاف للوصول إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له، فالوجدان كثيراً ما يضفي على ما يؤمن به، أشياء لا حقائق لها، مما يوصل إلى الكفر أو الضلال، وما عبادة الأوثان وما الخرافات والترهات إلاّ نتيجة

---

(١) في ظلال القرآن سيد قطب جـ ٩ ص ١٧٠ ط.
(٢) المجتمع المتكامل في الإسلام ص ٤٠ بتصرف.

لخطأ الوجدان، ولهذا لم يترك الإسلام الوجدان وحده طريقاً للإيمان، حتى لا يجعل لله صفات تتناقض مع الالوهية، أو يجعله ممكن التجسد في أشياء مادية، أو يتصور امكان التقرب إليه بعبادة أشياء مادية، فيؤدي إما إلى الكفر، أو الإشراك بالله سبحانه وتعالى، أو يؤدي إلى الأوهام والخرافات، التي يأباها الإيمان الصادق، ولذلك اهتم الإسلام باستعمال العقل مع إعمال الفطرة وأوجب على المسلم إستعمال عقله حين يؤمن بالله تعالى، ونهى عن التقليد ولذلك جعل للعقل حكماً في بعض القضايا التي تتصل بالإيمان بالله تعالى.[1] قال تعالى: ﴿إنَّ في خَلْقِ السّماوات والأرض واختلافِ الليلِ والنَّهار لآياتٍ لأولي الألباب﴾[2].

وقال تعالى: ﴿إنَّ في خلق السَّموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل اللهُ من السماء من ماءٍ فأحيا بِهِ الأرضَ بعد موتها، وبثَّ فيها من كل دابة وتصريفِ الرياح والسَّحاب المسخَّر بين السماءِ والأرض لآيات لقومٍ يعقلونَ﴾[3].

ولهذا كان واجباً على كل مسلم، أن يجعل إيمانه صادراً عن تفكير وبحث ونظر، وأن يحكم العقل في الإيمان بالله تعالى، داخل دائرة نصوص الشرع.

والدعوة إلى النظر في الكون لاستنباط سننه، وللاهتداء إلى الإيمان بارئه يكررها القرآن مئات المرات في سوره المختلفة، وكلها موجهة إلى قوى الإنسان العاقلة، تدعوه إلى التدبر والتأمل ليكون إيمانه عن عقل وبينه، وتحذره الأخذ بما وجد عليه آباءه من غير نظر فيه، وتحميص له، وثقة ذاتية بمبلغه من الحق، هذا هو الإيمان الذي دعا إليه الإسلام. وهو ليس هذا الإيمان الذي يسمونه إيمان العجائز، إنما هو إيمان المستنير المستيقن، لذلك كان إيمان هؤلاء الذين يستعملون عقولهم في الوصول إلى الإيمان بالله، إيماناً راسخاً قوياً،

---

(١) انظر الإسلام وثقافة الإنسان ٢٢ - ٣٣. بتصرف- وانظر معالم الثقافة الإسلامية ص ٤٣- ٦٤ للدكتور عبد الكريم عثمان.

(٢) سورة آل عمران: آية رقم ١٩٠.

(٣) سورة البقرة: آية رقم ١٦٤.

لأنه نابع من الإحساس المؤدي لليقين، لأن عقولهم ارتبطت بوجدانهم، فأدركوا إدراكاً يقيناً وجود الله، وشعروا شعوراً دقيقاً بوجوده، والتقت فطرتهم بعقلهم فكانت قوة الإيمان.

قلنا إن الإيمان عن طريق الوجدان، طريق غير مأمون العاقبة، وقلنا إنه لا بد من استعمال العقل في الوصول إلى الإيمان بالله تعالى.

لكن علينا أن نسأل، هل العقل الإنساني وحده كاف في الوصول إلى ما يفرضه الله علينا؟ قطعاً لا.

ذلك أن الإنسان لا بد أن يتصل بالخالق سبحانه وتعالى، فلا يتصل عن طريق الوجدان، ولا عن طريق العقل، وإنما عن طريق رسل الله، الذين أمروا بتبليغ شرع الله للبشر(١).

فالرسل - صلوات الله عليهم أجمعين - هم الذين فتحوا للبشر منافذ المعرفة لما لا تستطيع وسائل معرفتهم المحدودة أن تدركها، وأخبروهم بما لا يدركونه من الغيب، وحملوا إليهم شرائع الخير، ومقاييس العدالة التي لا تختل ولا تجور، وكانوا مثلا أعلى يحتذى، ومنارات يهتدي البشر بضيائها في غمار الحياة.

والرسل حجة الله على الخلق، فالله الذي أودع في الإنسان الفطرة وأكرمه بالعقل، أرسل إليه الرسل مبشرين ومنذرين، فبينوا له طريق الهداية، ورسموا له كل ما يصلح من شأنه في الدنيا والآخرة، وذلك كله مرتبط بعبادة الله وإقامة دينه.

وكما ثبت أن التدين فطري في الإنسان، لأنه غريزة من غرائزه، فهو بفطرته يقدس خالقه، وهذا التقديس هو العبادة، وهو العلاقة بين الإنسان والخالق، وهذه العلاقة إذا تركت دون نظام، يؤدي تركها إلى اضطرابها، وإلى عبادة غير الخالق، فلا بد من تنظيم هذه العلاقة بنظام صحيح، وهذا النظام لا

---

(١) انظر الإسلام وثقافة الإنسان: ص ٣٣- ٣٤.

يأتي من الإنسان، لأنه لا يتأتى له إدراك حقيقة الخالق، وبما أنه لا بد أن يبلغ هذا النظام للإنسان، لذلك كان لا بد من الرسل يبلغون الناس دين الله تعالى[1] قال تعالى: ﴿رسلاً مبشرينَ ومنذرينَ لئلا يكونَ للناس على الله حجة بعدَ الرسلِ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿هوَ الذي أرسلَ رسولَهُ بالهُدى ودين الحق ليَظهره على الدين كله﴾[3].

لذلك كان لا بد من أن يرسل الله الرسل لكي يعلموا الناس أمور دينهم ويرشدونهم إلى ما يرضى الله سبحانه وتعالى.

وكانت مهمة الرسل عليهم السلام تذكير الفطرة بخالقها، وتخويفها من عاقبة النسيان والإهمال، قال الله تعالى مخاطباً موسى وهارون بشأن فرعون ﴿فقولا له قولاً ليِّناً لعلَّهُ يتذكر أوْ يخشى﴾[4]، يتذكر ما في فطرته من العلم الذي يعرف به ربه، ويعرف إنعامه عليه وإحسانه إليه، وافتقاره إليه، فذلك يدعو إلى الإيمان، أو يخشى ما ينذره من العذاب، فذلك أيضاً يدعوه إلى الإيمان، وقد كان هذان الأمران قطباً دعوة كل نبي، يقول الله تعالى لسيدنا محمد ﷺ: ﴿فذكِّر إنْ نفعت الذكرى، سيذَّكَّر من يخشى، ويتجنبُها الأشقى الَّذي يَصلى النَّار الكبرى﴾[5]. ﴿وذكرِّ فإن الذكرى تنفعُ المؤمنينَ﴾[6] وعلى العكسِ من ذلك كان التحذير من النسيان. قال تعالى: ﴿ولا تكونوا كالَّذين نَسوا اللهَ فأَنْساهم أنفُسهم أولئكَ همُ الفاسقون﴾[7].

والتذكير هنا هو إيقاظ كل ملكات الحس والفكر والوجدان في الإنسان لتحصل على اليقين الذي به يستقر الإيمان في القلب، ويدفع إلى العمل بما جاء

(١) (انظر الإسلام يتحدى) وحيد الدين خان ص ١٠٧ - ١٢٣ بتصرف واختصار.
(٢) سورة النساء: آية رقم ١٦٥.
(٣) سورة التوبة آية رقم ٣٣، سورة الفتح آية رقم ٢٨، سورة الصف آية رقم ٩.
(٤) سورة طه: آية رقم ٤٤.
(٥) سورة الأعلى: آية رقم ٩ - ١٢.
(٦) سورة الذاريات: آية رقم ٥٥.
(٧) سورة الحشر: آية رقم ١٩.

به الأنبياء، فقصة الخلق والتدبير والأحكام والإبداع تذكر الإنسان بربه وخالقه، إنها تعرض عليه بصورة أخاذة رائعة[1]، حيث يقول الله تعالى: ﴿إنَّ ربَّكُمْ اللهُ الذي خلقَ السَّماوات والأرضَ في ستةِ أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخرات بأمره، ألا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ تبارَكَ اللهُ رب العالمينَ﴾[2]، وقد كثر في القرآن الكريم الآيات التي تخاطب فطرة الإنسان، لكي ترجعها إلى الإيمان بربها، وإقامة عقيدة الإيمان بالله على اليقين الثابت الذي لا يعتوره شك ولا ريب.

وبعد هذا هل استطاعت المادية الماركسية أن تغري الانسان بنظريتها المادية العلمية، إلى الإنحراف من فطرة الانسان، وهي الفطرة المؤمنة بالله سبحانه وتعالى؟؟ فالشيوعية كما يقول الدكتور محمد البهي: (تحول عبادة الانسان إلى وثن يسخر ولا يستطيع أن يسخر غيره، وتحول طبيعة الإنسان من طبيعة سائدة إلى طبيعة مسودة، ومن طبيعة حرة كريمة ذات مشيئة إلى طبيعة يتحكم فيها من لا مشيئة له ولا إرادة، وتسوي بين الخير والشر في التوجيه، وتحول القيم الانسانية إلى قوالب فارغة، تملؤها بما ترغب، لا بما يجب لصالح الإنسانية وحدها.[3]

وإله الشيوعية- وهو العلم- يتغير اليوم عنه بالأمس، وسيغيره الغد القريب، ثم الغد البعيد بعده، وقداسته بالأمس لم تكن إلا تخيلاً ووهماً، وعبادته عندئذ كانت خرافة، لأنه تغير اليوم عنا بالأمس، وقداسته اليوم ستصبح في الغد أيضاً تخيلاً ووهماً وستصبح عبادته أيضاً خرافة، لأنه سيتغير في الغد عنه اليوم وهكذا[4].

---

(١) الإسلام وبناء المجتمع ٧١ د. أحمد العسال.

(٢) سورة الاعراف: آية رقم ٥٤.

(٣) تهافت الفكر المادي والتاريخي بين النظر والتطبيق د. محمد البهي مطبعة وهبة ص ٤١.

(٤) الشيوعية اليوم وغداً ٣٢- ٣٣ مجموعة من المؤلفين. منهم عباس محمود العقاد، وأحمد فؤاد الأهوازي- مكتبة مصر دار مصر للطباعة.

والغريب في الأمر أن التدين وهو غريزة في النفس البشرية حتى عند دعاة الشيوعية، نجدهم يحاربونها في أنفسهم وحين يضطر جهازهم العصبي المجرد من الإيمان أمام موقف فيه برهان على الخالق جلا وعلا فإنهم لا يخجلون أن يكابروا ويجحدوا الحقيقة. تنقل بعض الصحف أخباراً حتى ولو لم تصح فإن لها دلالتها يقولون إنه: (حين حضرت الوفاة «لينين» زعيم الدولة الماركسية الأولى واشتدت عليه سكرات الموت، وقد أحاط به زعماء الحزب الشيوعي لم يتمالك نفسه من أن يصيح من الأعماق صيحة البائس المضطر قائلاً: (أي يومه) أي (يا الله) فلما أحس بدهشة المحيطين به من الزعماء تدارك الأمر فقال: (إن هذا من تأثير المرض)!![1] وفيما نقلته الأنباء أيضاً أن: (بنت «ستالين» بعد مغادرتها الإتحاد السوفيتي وخروجها من سيطرة الإرهاب الإلحادي فقالت: (لقد نشأت في بيت لا يعرف الله طبعاً، ولا تذكر فيه كلمة الله أبداً، ولكن بعد أن كبرت ونضجت عرفت أن الحياة صعبة وقاسية بغير الإيمان بالله)[2].

فالنزوع إلى الدين والاعتراف بوجود قوة عليا مهيمنة فوق قوة الإنسان أمر طبيعي حتى من قبل أن يمن الله على العبد بهداية الأنبياء والمرسلين، فكثيرون هم الذين أقروا بذلك، يقول تولستوى (الفيلسوف الروسي الشهير): (لقد نبذت تلك العقائد الدينية في أول الأمر ووجدتها عديمة المعنى، ثم قبلتها الآن وألفيتها مليئة بالمعاني، ذلك لأني كنت مخطئاً، وأدركتُ سبب الخطأ، وهذا السبب ليس ناشئاً عن تفكيري السيء فحسب بل لأني عشت في بيئة سيئة، وذلك أشد السببن خطأ. ويقول أيضاً: (ما الحياة وما الموت؟ أنني لا أعيش إذا فقدت العقيدة في وجود الله ولولا أنني كنت أتعلق بأمل غامض في وجود الله) ويقول: (أنني أحيا وأحيا حقيقة، حينما أحس به وأبحث عنه فقط، ويصيح من داخلي صوت يقول: عن أي شيء تبحث بعد هذا، هذا هو... إنه ذلك الذي لا يستطيع المرء بدونه أن يعيش، إنه الله وعندها اعتقدت في

(١) جريدة الأخبار القاهرية يوم ١٠/٥/١٩٦٧م.
(٢) المصدر السابق.

وجود الله، واعتقدت في الجانب الخلقي، وفي التقاليد التي تحمل معنى الحياة)[1].

وإذا نظرنا إلى ما قاله هذا الفيلسوف الروسي، نجد البرهان الصادق على حاجة النفوس الملحة إلى الإيمان بالقوة العظمى، إلى الإيمان بالله تعالى؛ ونجد أيضاً أن للإيمان مفعول السحر في النفوس البشرية، لذلك لم يستطيع الشيوعيون الملحدون أن يحاربوا الطبيعة الراسخة في النفس البشرية، لأن هذه النفوس في حاجة ملحة إلى الله، وإلى أنبياء الله ليبلغوا للناس دين الله.

---

(١) هذه الأقوال جميعها نقلت من كتاب (إسلام لا شيوعية) للدكتور/ عبد المنعم نمر- صفحتا ٦٨- ٦٩.

الفصل الثاني:

العلم الحديث ودلائل النبوة

في بداية كلامنا حول الرد على منكري النبوة من المدايين والملاحدة وغيرهم قلنا إننا سنناقشهم في ثلاثة مسالك منها: إثبات أن التدين غريزة فطرية وأن محاولة تجريد الإنسان من فطرته إنما هو تجريد له من بعض وجوده. وهذا قد انتهينا منه.

ومنها الاستدلال بما جاء به العلم الحديث مناقضاً لمزاعم الماديين حول الله تعالى والنبوة والأنبياء. وفي هذا نقول:-

قد يكون الأمر يسيرا إذا كان في الإعتبار أننا نعرض أفكاراً على قطاعات مؤمنة وفي مجتمعات غير ملحدة، لكننا نستهدف بعون الله وتأييده القطاعات العريضة من أولئك الذين استهواهم الفكر المادي، وما يسمى بالتجارب العلمية والمعملية وغير ذلك من الأسماء، فلو كانت القضية مطروحة في مجتمع المؤمنين فإن آية من كتاب الله تناولت ظاهرة من ظواهر خلق الله تكفي لقلب المؤمن في العودة ومزيد الخشية، لكن أصحاب الثقافات المادية، والتجارب الميدانية، قد يستهويهم أن يجادلهم خصومهم بالمنطق الذي يعرفون وباللغة التي يتقنون.

وبادىء ذي بدىء فإنا نستشهد بكلام مجموعة من علماء الطب والكمياء والفلك الذين أفنوا أعمارهم في بحوث علمية، كان من بين نتائجها أنها أوقفتهم أمام براهين في الخلق، لم يستطيعوا أمامها إلا أن يقرروا معترفين بأن هذا الكون العظيم محكوم بقوانين للخالق الأعظم.

ومن هؤلاء العلماء الطبيب الفرنسي الشهير موريس بوكاي الذي يتحدث

عن إعجاز بعض آيات القرآن الكريم، التي نزلت على قلب النبي الخاتم محمد ﷺ، كدليل على قدرة الله الخالق وصدق النبي المرسل: فيقول: بعد تمهيد طويل لتفسير آية سورة الذاريات ﴿والسَّماءَ بنيناها بأيـدٍ وإنَّا لموسعون﴾: إن توسع الكون هو أعظم ظاهرة اكتشفها العلم الحديث، وذلك مفهوم قد ثبت اليوم تماماً، ولا تعالج المناقشات إلا النموذج الذي يتم به هذا التوسع. وإذا كانت النسبية العامة هي التي أوحت به، فإن توسع الكون يعتمد على معطيات مادية ويظهر ذلك من خلال دراسات طيف المجرات، فالانتقال المنهجي نحو اللون الأحمر من الطيف يجد الباحث تعليلاً له في تنحى المجرات كل عن الأخرى، وعلى ذلك فامتداد الكون لا يكف عن الكبر، وهذا الإتساع يعطي أهمية خاصة هي أن المجرات تبتعد عنا. وأن السرعات التي تنتقل بها الاجرام السماوية قد تتراوح من أجزاء من سرعة الضوء إلى مقادير سرعته. ترى أيمكن أن نقابل الآية التالية، التي يتحدث فيها الله. بهذه المفاهيم الحديثة؟؟ ﴿والسَّماء بنيناها بأييد وإنا لموسعون﴾[1]، ألا تعني السماء بالتحديد الكون خارج الأرض؟ «وموسعون» اسم فاعل لفعل «أوسع» ويعني عرض وجعل الشيء شاسعاً وأكثر رحابةً)[2].

من وجهة النظر هذه فتوجد ثلاث آيات قرآنية تستحق كل الإنتباه، تتحدث إحداها وبشكل لا لبس فيه، عما على البشر أن ينجزوا في هذا الميدان وما سينجزونه بالفعل. وفي الآيتين الآخريين يذكر الله مثالاً يتوجه به إلى كفار مكة ليقول لهم كم تكون دهشتهم لو استطاعوا أن يرتفعوا نحو السماء، ويشير بذلك إلى فرض لن يتحقق. فنبدأ أولاً بالآية الأولى وهي قوله تعالى:- ﴿يا معشرَ الْجِنِّ والإنس إنْ استطعتم أنْ تنفذوا من أقطارِ السَّموات والأرض فانفذوا لا تنفذونَ إلا بسُلطان﴾[3].

(١) سورة الذاريات: الآية ٤٧.
(٢) موريس بوكاي (الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة آخر طبعة، دار المعارف القاهرة صفحة ١٩٢.
(٣) سورة الرحمن: الآية رقم ٣٣.

ويتطلب تفسير هذه الآية من وجهة نظر (موريس بوكاي) بعض تفصيلات منها: (أ): أن اللغة العربية قادرة على تمييز الظرف بشكل أكثر صراحة ووضوحاً عما هو الحال في لغات أُخرى، فهناك حرف للتعبير عن الإحتمال وهو «إذا» وحرف آخر للتعبير عن الفرض الجائز وهو «أن» وحرف آخر للتعبير عن الإمتناع وهو «ولو» وتقول الآية المعنية بفرض جائز معبر عنه بحرف «أن» القرآن إذن يتحدث عن إمكانية مادية لإنجاز ملموس، وهذا التمييز ينحى بشكل حاسم التفسير الصوفي الذي أراد البعض خطأ إعطاءه لهذه الآية.

(ب): يخاطب الله الجن والإنس جوهرياً، ليس في هذا التعبير استعارة رمزية.

(جـ): «نفذ من» كما يقول قاموس كازميرسكي، تعني عبر من وجهة إلى وجهة وخرج من الناحية الأخرى لجسم ما (ويقال ذلك عن السهم الذي خرج من الجهة المعاكسة مثلاً). تشير الآية إذن إلى ولوج عميق وخروج من جهة معاكسة للمناطق المعنية.

(د): السلطان الذي سيكون للبشر في تحقيق هذا المشروع يبدو سلطاناً نابعاً من الله القدير.[1]

وليس من شك في أن هذه الآية تشير إلى إمكانية البشر ذات يوم بأن يحققوا ما نسميه في عصرنا، ربما بشكل مخصص، بغزو الفضاء، ويجب ملاحظة ان النص القرآني لا يتنبأ فقط بالنفاذ عبر مناطق السماوات وإنما يتحدث أيضاً عن النفاذ عبر مناطق الأرض، أي استكشاف الأعماق.

أما الآيتان الآخريان فهما من سورة الحجر، وفيهما يحدث الله كفار مكة كما يشير إلى ذلك سياق السورة يقول تعالى: ﴿ولو فَتَحْنا عليهم باباً مِنَ السَّماءِ فظلوا فيه يعرجون، لقالوا إنَّما سُكِّرت أبصارنا بل نحن قومٌ مسحورون﴾[2]،

---

(١) ما يلي هذه الآية في باقي سورة الرحمن دعوة إلى الإعتراف بالله وذلك هو موضوع السورة.

(٢) سورة الحجر: آية رقم ١٤- ١٥.

وذلك تعبير الدهشة أمام مشهد غير منتظر يختلف عن ذلك الذي ما كان يمكن للإنسان أن يتخيله. وعليه وفيما يخص غزو الفضاء فإننا نجد أنفسنا في مواجهة هاتين الآيتين من القرآن لتشير إحداهما إلى ما سيتحقق يوماً بفضل السلطات التي سيخولها الله للفطنة والعبقرية البشريتين. في حين تشير الآية الثانية إلى حدث لن يشهده من كفر بمكة، ومن هنا كانت سمة هذا الفرض الذي لن يتحقق، ولكن هناك آخرين سيعيشون هذا الحدث كما تترك الآية الأولى ذلك الفرض، إنها تصف رد الفعل الإنساني أمام المشهد غير المنتظر الذي سيوهب لمسافري الفضاء: نظرات مضطربة وشعور بالإنحسار.[1]، وكذلك تماماً عاش رواد الفضاء تلك المغامرة الخارقة منذ عام ١٩٦١ وهو تاريخ أول طيران للإنسان حول الأرض.

هنا أيضاً. عندما نقابل نص القرآن بالمعطيات الحديثة، كيف لا ننبهر بتلك التحديدات الدقيقة التي لا يمكن افتراض أنها صدرت عن فكر إنسان عاش منذ أربعة عشر قرناً تقريباً..؟)

وهذا واحد من براهين القرآن الكريم في التدليل على قدرة الخالق، وصدق النبي الخاتم محمد ﷺ.

هذا ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن بعض المفكرين الملاحدة حاول طوال فترة التصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ومنذ مطلع القرن العشرين تجنيد بعض العلماء التجربيين لخدمة الالحاد. لكن جميع محاولتهم مع العلماء العمالقة أو العلماء الموثوق بضميرهم العلمي كلها باءت بالفشل وأصبح الحال منذ مطلع القرن العشرين بالنسبة للعلماء حول هذه القضية التي يريد الملاحدة أن ينكروا من خلالها الخلق والخالق والنبوة والرسالة وكل ما يمت لقضايا الحق والخير بصلة. أن من العلماء من أصبحت عقيدته تقرير وتوكيد، ومنهم من أصبحت عقيدته ترجيح ورغبة ومنهم من أصبحت عقيدته استعداد وانتظار،

---

(١) موريس بوكاي (المصدر السابق).

وحصة هؤلاء في تأييد العقيدة غير قليلة، لأنها بمثابة «فتوى علمية» بأن العلوم التي تفرغوا لها وبلغوا مبلغ الثقة فيها لا تعارض الإيمان في أساسه. ولا تمنع صاحبها أن يفتح صدره وضميره لعالم الغيب، فليس عالم الشهادة عندهم بالعالم الوحيد.[1]

ولا يعرف من علماء القرن العشرين من هو أبعد شوطاً في الإعتقاد من الدكتور الكسيس كاريل الطبيب المتخصص في بحوث الخلية ونقل الدم والأعضاء، والمشتغل بالطب علماً وجراحة وإشرافاً على معاهد العلاج والنظريات العلاجية وصاحب جائزة نوبل ١٩١٢ ومدير معهد الدراسات الإنسانية بفرنسا خلال الحرب العالمية الثانية.

وإذا عدت بواعث القلق النفساني في القرن العشرين لم يكن كاريل غريباً عن واحد منها. بل صح أن يقال إنه عاش حياته كلها في حومتها سواء في القارة الأوروبية أو القارة الأمريكية، فقد تولى علاج الجرحى والمرضى في الحرب العالمية الأولى، وتولى الإشراف على معهد روكفلر للتجارب العلمية، وتولى الإشراف على معهد الدراسات الإنسانية خلال الحرب العالمية الثانية، ولم ينقطع قط عن الإهتمام بالحياة في خلايا الجسد وفي أعماق الروح، وولد بفرنسا سنة ١٨٧٣ ومات فيها بعد رحلات كثيرة سنة ١٩٤٤ فكان مولده في غبار حرب السبعين وكانت وفاته في غبار الحرب العالمية.

وليس في العلماء المعتقدين من هو أبعد منه شوطاً في الإيمان بالله، وخلاصة إيمانه أن الله لازم للإنسان لزوم الماء والأكسجين وأنه راقب آثار المادية في تجاربه بالولايات المتحدة فعزا إليها كثيراً مما يعرض للشباب من الخلل العقلي والحطة الخلقية، فضلاً عن تعويد الفكر أن يتشبث بالآراء الحتمية حتى يفقد القدرة على صحة الحكم والتبصر في الأمور.

---

(١) عباس محمود العقاد (عقائد المفكرين في القرن العشرين) المطبعة العصرية- صيدا- بيروت ٦٧- ٧١ بتصرف.

ويؤمن كاريل بأن كل خلية في الجسم تهتدي بالعقل الأبدي إلى موضعها من البنية المرسومة، وتعمل في كل خطوة من خطواتها كأنها ترى تكوين الجسم كله مائلاً أمامها. ولهذا يعن له أن وجود الخلية الحية أبدي غير زمني، لأنها تحتوي الوجود المقبل قبل وجود الزمان[1]. ويعن له كذلك أن الكون على رحبه مملوء بعقول فعالة غير عقولنا، وإن العقل الإنساني هادٍ قاصرٍ بين دروب التيه التي حوله إذا كان معوله كله على هدايته. وأن الصلاة من وسائل الإتصال بالعقول التي حولنا وبالعقل الأبدي المسيطر على مقادير الأكوان قاطبة فيما هو ظاهر لنا وما هو متحجب عنا في طي الخفاء، وليست قوة الصلاة عنده مقصورة على صاحبها، ولا هي من قبيل الإيحاء النفسي الذي ينفع الإنسان لإقناعه به في صميم وجدانه بل هي قوة تسري من المصلي إلى غيره ويستطيع أن ينفع بها غيره إذا توجه إلى الغيب داعياً له ملتمساً له الهداية والفلاح.[2]

قال في رسالته الصغيرة عن الصلاة: (وليس من الضروري لحدوث هذه الظاهرة أن يصلي الإنسان لأجل نفسه. فقد شفي أطفال صغار لم يتكلموا بعد كما يشفى أناس لا يؤمنون لأن بجوارهم أناساً يصلون لهم. وكثيراً ما كانت الصلاة لغير صاحبها أنفع من صلاته لنفسه، وإنما تستمد الصلاة فعلها من عمقها وخلوصها.[3]

وقال قبل ذلك في تعريف الصلاة:« ... إن الصلاة على ما نرى تسام من النفس إلى أوج اللامادية من الدنيا. وهي على أكثر ما تكون شكاية أو ابتهال أو صرخة أو إستغاثة، وهي في بعض الآحايين تأمل خالص في أصول الوجود ومصادره، ويصح أن يقال إنها إرتفاع بالروح إلى المقام الإلٰهي عنواناً للتوجه بالحب والعبادة إلى الذي منه صدرت الأعجوبة التي هي الحياة... »

(١) لعله يريد بالخلية الحية (الخالق جل وعلا).
(٢) عباس محمود العقاد (عقائد المفكرين في القرن العشرين).
(٣) واضح أن عقيدة كاريل في الصلاة مستمدة من تأثير الكنيسة على عقله.

ويقول: « والشعور بالجانب « المقدس » من هذا الوجود حالة لا تنفصل من حالـة الخشوع الذي يلازم الصلاة، فلا صلاة مع الابتذال والجشع والتهافت على اللبانات، وإنما الصلاة تطلع من الحب وفزع مع الثقة، وهي بهذا نوعان: مناجاة وإبتهال، ومن الجهل بها أن يقال إنها أشبه شيء بأن يطلب الإنسان من الله أن يخل بنظام الكون ويغير الأسباب والمسببات، لأن المصلي وعقائده ومهلماته جزء من نظام الكون وسبب من الأسباب التي يحيط بها علم الله » ثم ختم الرسالة قائلاً:

« والخلاصة أن الشعور بالقداسة مع غيره من قوى النشاط الروحاني له شأن خاص في الحياة. لأنه يقيمنا على اتصال بآفاق الخفاء الهائل من عالم الروح. وبالصلاة يسمو الإنسان إلى الله ويداخل الله سريرته. وهي على ما نرى ضرورة لا غنى عنها لنمو الإنسان في أرفع حالاته، ولا ينبغي أن ننظر إليها كأنها عمل لا يلجأ إليه غير الضعاف والمتسولين والجبناء، كما قال نيتشه: إنها شيء مخجل. فما الصلاة بأدعى إلى الخجل من شرب الماء والتنفس. وأن الإنسان ليحتاج إلى الله حاجته إلى الماء والاكسجين. وهذا الشعور بالقداسة إلى قرائنه من الشعور بالبصيرة والحاسة الخلقية وذوق الجمال وضياء الفهم، هو تمام الإزدهار والنضج نشاط فينا يشمل الجسد والذهن والعطف والروح وما الروح خلو من العقل ولا من العاطفة. فمن واجبنا إذن أن نحب جمال العلم وجمال الله... »[١].

وقد كانت رسالة الصلاة زبدة آراء العالم الطبيب في مسائل العقيدة، وأجمع منها لآرائه كتابه عن « الإنسان المجهول » وهو في بابه أجرأ كتاب كتبه عالم بإسم الطب والعلم في مسائل العقيدة والروح لأنه أعلن فيه أن النظر إلى الإنسان كأنه إلـه جسدية هو « خطأ طبي » أو خطأ علمي تثبت للباحث جرائره الحسية كما يثبت كل محسوس يعتمده أصحاب التجارب

---

(١) انظر رسالة الصلاة (الكسيس كاريل).

الطبية والعلمية وختمه بنداء إلى ذوي الرأي والبصيرة كأنه توسل في محراب. ناشدهم فيه أن يعتقوا ضمائرهم من ربقة الكون المادي الذي بناه لهم الطبيعيون والفلكيون. وقال فيه إن الوقت قد حان لأن نعمل خلاصنا بأنفسنا. ثم قال: (إننا لا نضع للخلاص برنامجاً، لأن البرنامج يخنق الحقيقة الحية تحت غشاء متحجر، ويمنع تفتق المجهول عن وارد الغيب الذي لا ينتظر ولا يسبقه خبر، ويحبس المستقبل في حيز العقل المحدود. وإنما علينا أن ننهض ونتحرك وأن نطلق أنفسنا من المصطلحات العمياء ونقبل على طبائعنا بما أودعته من الغنى والذخيرة المركبة، وقد أشارت علوم الحياة إلى بني الإنسان نحو قبلهم، ووضعت تحت أيديهم الوسائل التي تبلغهم غايتها ولكننا لا نزال غائصين في الدنيا التي خلقتها علوم المادة الميتة غير ملتفتين إلى عوامل النمو والكمال التي في نفوسنا بين جدران دنيا لم تخلق لنا لأنها من صنع الخطأ في تفكيرنا والذهول عن حقيقتنا، ومثل هذه الدنيا لا يمكن أن تلائمنا ونلائمها فلا مناص لنا من الخروج عليها وأن نبدل قيمها ونعيد نشأتها وفاقاً لمطالبنا الصادقة وإن هذه العلوم الإنسانية اليوم لتخولنا أن ننمي كل قوة كامنة في أجسامنا فنحن نعلم الأسرار الآلية في وظائفها وفي ملكاتها القليلة ونعلم من ثم مواطن ضعفها، كما نعلم كيف تخطينا أوامر الطبيعة ولماذا عوقبنا وضللنا في الظلمات ولكننا على هذا نبصر خلال الضباب قبساً من الفجر خليقاً أن يهدينا سبلنا إلى النجاة.. »[1].

وقد جاء كتاب «الإنسان ذلك المجهول» في إبانة صريحة فتجاوبت به الأندية العلمية والدينية سنوات، وقيل إن وطأته على مذاهب الإنكار قد حملت دعاتها على تطويقه بسد خفي من المصادرة. فوقفت نشره عند حد محدود.

ويشبه «كاريل» في اطمئنانه إلى عقيدته المختارة طبيب آخر من الفرنسيين اشتغل مثله بمباحث التشريح والعلم الطبيعي وعمل مع الاستاذ «كوري» وقرينته، ثم تسامعت المعاهد بتقريراته العلمية والطبية فاستدعاه

(١) الإنسان ذلك المجهول (إلكسيس كاريل).

معهد روكفلر لمواصلة بحث مع أعضائه في خصائص وعلاج الجراح، ثم عاد إلى فرنسا بعد سبع سنوات فتولى رئاسة معهد باستير للمباحث البيولوجية الطبية واختير بعد عشر سنوات (١٩٣٧) مديراً لمعهد الدراسات العليا بجامعة السوربون، ونال في سنة ١٩٤٤ جائزة جامعة لوزان لفلسفة العلوم.(١)

هذا الطبيب العالم الذي قلنا إنه كان يضارع (كاريل) في إطمئنانه إلى عقيدته هو (ليكونت دي نوي) صاحب كتاب (القدر الإنساني أو قدر الإنسان) وفحوى رسالته فيه ان العقيدة لا تقاس بالمنطق والحساب ولا يقال عن الضمير الإنساني إنه يؤمن بجدول الضرب أو التجربة الكمية. وإنما طبيعة الإيمان من طبيعة الحياة. وهي سر لم توضحه حتى اليوم نظرية من نظريات العلوم. ومدار الإيمان عند (دي نوي) هو شعار الفيلسوف الاسباني (آنامونو) وهو (ان اعتقادك في الله هو أن ترغب في وجوده، وتزيد على هذا ان تبني عملك على انه موجود).(٢) إلى أن قال: (كثير من الأذكياء وذوي النية الحسنة يتخيلون أنهم لا يستطيعون الإيمان بإلـه لأنهم لا يستطيعون أن يدركوه على أن الإنسان الأمين الذي تنطوي نفسه على الشوق العلمي لا يلزمه أن يتصور الله إلا كما يلزم العالم الطبيعي أن يتصور الكهرباء. فإن التصور في كلتا الحالتين ناقص وباطل. وليس الكهرباء قابلاً للتصور في كيانه المادي... وليست الصورة التي تتمثلها للإلـه هي التي تثبت وجوده، وإنما يثبت وجوده ذلك الجهد الروحاني الذي نبذله لمعرفته، وكذلك الفضائل إنما يعول فيها على شعورنا بها لا على نتائجها)(٣).

وبعد أن أشار إلى فضل التدين العميق- حتى التعصب- في وقاية المسلم والبرهمي* من غوائل الجحود، مضى يطبق قوانين التطور على الضرورات

(١) عقائد المفكرين في القرن العشرين. (عباس محمود العقاد) طبعة القاهرة- مكتبة غريب ص ١٠٠.

(٢) المصدر السابق: صفحة ٦٦.

(٣) المصدر السابق: صفحة ٦٦.

(*) مع تحفظنا على دعواه بأن البرهمية دين صحيح!!

الروحانية والخلقية فقال: (إن انشاء بيئة جديدة لازم لوقاية الأنواع المهددة من عواقب الإنحلال والإنقراض، وأن النوع الإنساني تواجهه حالة كهذه الحالة في أمر العقيدة فلا بد من بيئة روحانية جديدة) إلى أن قال: (على الإنسان أن يفهم أن التطورات الآلية التي أدخلها في بيئته وراح يلائم بينه وبينها، لن تكون لها إلا نتيجة من نتيجتين وهما: التقدم أو الدمار حسب نجاحه في شفاعتها بالتطور في بيئته الخلقية. فواجب الإنسان إذن أن يزيح جانباً من معالم حضارته الباطلة ويقيم في مكانها معالمه الصادقة، وهي الكمال الذي يوافق من كرامة الإنسانية. وليس المطلوب منه أن يحارب التقدم الآلي، - ولا طاقة له بمحاربته لما يرجى من المزيد في تقدم العلم والطب - بل بتهذيب النفس والارتفاع بأمثلتها العليا)(١).

ومن العلماء المؤمنين (روبرت بروم) عضو الجمعية الملكية الانجليزية، و (وليام براون) استاذ علم النفس بجامعة اكسفورد وصاحب التجارب المشهورة في العلاج النفساني، وسير (آرثر تومسون) أستاذ التاريخ الطبيعي بجامعة ابردين والاستاذ (جوردون) عضو جماعة الأطباء الملكية بأدنبرة، وهم يتناولون مسألة العقيدة من نواح متفرقة.(٢)

سئل الأستاذ (بروم) عن عقيدته الدينية بإعتباره رجلاً من رجال العلم الحديث فأجاب في فصل خاص كتبه لمجموعة (الروح العصري نحو فلسفة الإيمان). ونشرت هذه المجموعة سنة ١٩٥١م.

قال الاستاذ: بروم (من نحو عشرين سنة اهتم بعضهم بأن يبحث عن الآراء المادية التي شاعت بين الدوائر العلمية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، هل لا تزال على شيوعها؟ أم أن الآراء الأخيرة عن بناء المادة ومذهب النسبية وعلوم الحيوان، قد عدلت على صورة من الصور، فلسفة رجال العلم في القرن العشرين؟ فتبين أن فئة مدهشة - بنسبة عددها إلى سائر أعضاء

(١) المصدر السابق: صفحة ٢٨.
(٢) المصدر السابق: صفحة ٢٨.

الجمعية الملكية- قد قررت بأسلوب واضح أنها تؤمن بعالم روحاني، وعناية ربانية مهيمنة، وأن كثيراً منهم يعتقدون بقاء الشخصية بعد موت الجسد، وظهر في امتحان الأسئلة أن عدداً كبيراً من الأعضاء لم يحفل بالإفصاح عن رأيه، مما قد يفهم منه أن بعضهم على شك وتردد. وقد يكون الشك والتردد خطوة في طريق الإيمان)[1].

فما رأي الملاحدة ممن أنكروا النبوة والرسالة الإلّهية فيما يقول علماء الكمياء والطب وغيرهم واعتقاد الكبار منهم بأن الكون مخلوق لرب العالمين وأنه خاضع لسننه ومشيئه، وضوابط الحياة فيها تتأتى وتستقيم من خلال ما أنزل الله على رسله وما شرع. هل هنك مجال للإنكار بعد ذلك؟؟.

---

(١) عباس محمود العقاد (عقائد المفكرين في القرن العشرين) مكتبة غريب القاهرة عام ١٩٦٨ م صفحة ٩٣.

الفصل الثالث:

العلم الحديث أسقط الفكر المادي

ان عالم الوراثة الشهير دكتور «جون وليام كلوفتسي» الحاصل على درجة الدكتوراة من جامعة بيتسبرج وأستاذ علم الاحياء والفسيولوجيا منذ عام ١٩٤٥ بكلية المعلمين بكونكورديا، يقول وهو في معرض التدليل على قدرة الخالق: (... إن هذا العالم الذي نعيش فيه قد بلغ من الارتقاء والتعقيد درجة تجعل من المحال أن يكون نشأ بمحض المصادفة أنه ملىء بالروائع والأمور المعقدة التي تحتاج الى مدبر والتي لا يمكن نسبتها إلى قدر أعمى. ولا شك أن العلوم قد ساعدتنا على زيادة فهم ظواهر هذا الكون المعقدة وهي بذلك تزيد من معرفتنا بالله. ومن ايماننا بوجوده)[١]. ومن يقرأ هذه الكلمات لعالم الوراثة عليه أن يتذكر أن علماء آخرين على نفس الدرب أصحاب تخصصات علمية مخبرية صرفة، قد وقفوا أمام براهين الله في خلقه، أشبه ما يكونوا بالمقرين بالوحدانية. لولا أنه لم ينته إلينا إسلامهم، لقلنا أنهم أمام جاهلية الماديين في زيف دعواهم العلمية والقانونية والحتمية وغير ذلك من شعارات الخداع بمثابة دعاة حق إلى الله فإن الله قد يقيض لهذا الدين من ينصره ولو لم يكن من اهله.

من هؤلاء عالم الحيوان الشهير عضو هيئة التدريس بجامعة (اوكلاهوما) دكتور (أدوين فاست)[٢] وعالم (البيولوجي) دكتور (سيسيل هامان) الذي يقول: (... أينما اتجهت ببصري في دنيا العلوم رأيت الأدلة على التصميم والابداع- على القانون والنظام- على وجود الخالق الأعلى، سر في طريق

---

(١) (الكسيس كارليل) (الانسان ذلك المجهول) ترجمة أسعد فريد صفحة ٨١.

(٢) المصدر السابق: صفحة ٨٢.

مشمس وتأمل بدائع تركيب الأزهار، واستمع الى تغريد الطيور، وانظر الى عجائب الاعشاش، فهل كان من محض المصادفة أن تنتج الازهار ذلك الرحيق الحلو الذي يجتذب الحشرات فتلقح الازهار وتؤدي الى زيادة المحصول في العام التالي؟، وهل هو محض مصادفة إذ تهبط حبوب اللقاح الرقيقة على مبسم الزهرة فتثبت وتسير في القلم حتى تصل الى المبيض فيتم التلقيح وتتكون البذور؟! أفليس من المنطق: أن نعتقد بأن يد الله التي لا نراها هي التي رتبت ونظمت هذه الأشياء تبعاً لقوانين: ما زلنا في بداية الطريق نحو معرفتها والكشف عنها؟!!)[1].

ثم يستمر هامان قائلا: عند ما نذهب الى المعمل، ونفحص قطرة من ماء المستنقع تحت المجهر لكي نشاهد سكانها، فإننا نرى إحدى عجائب هذا الكون، فتلك الأحياء تتحرك في بطء وتتجه نحو كائن صغير فتحوطه بجسمها، فإذا به داخلها)[2].

وحول نفس المعنى تقريبا يقول عالم آخر هو: (ميريت سنانلي كونجدن) الذي عمل أستاذاً بكلية (ترمينيتي) بفلوريدا، وكان عضوا للجمعية الامريكية الطبيعية وتخصصه الدقيق الفيزياء وعلم النفس وفلسفة العلوم والبحوث الانجيلية[3]:

(وتعالج العلوم كثيراً من الظواهر الطبيعية التي تحدث في هذا الكون، وبرغم أن العلوم لا تؤيد وجود عالم غير مادي تأييداً كاملاً، فإنها لا تستطيع أن تنفي بصورة قاطعة وجود عوالم أخرى غير مادية وراء العالم المادي، ونستطيع بطريقة الاستدلال والقياس بقدرة الانسان وذكائه، في عالم يفيض بالأمور العقلية أن نصل إلى وجوب وجود قوة مسيطرة مدبرة، تدير هذا

---

(١) المصدر السابق صفحة ٨٢.
(٢) المصدر السابق صفحة ٨٣.
(٣) المصدر السابق صفحة ٨٣.

الكون وتدبر أموره وتعيننا على فهم ما يغمض علينا من أمر منحنيات التوزيع، ودورة الماء في الطبيعة، ودورة ثاني اكسيد الكربون فيها، وعمليات التكاثر العجيبة، وعمليات التمثيل الضوئي ذات الأهمية البالغة في اختزان الطاقة الشمسية، وما لها من أهمية بالغة في حياة الكائنات الحية، وما لا يحصى من عجائب هذا الكون. إذ كيف يتسنى لنا أن نفسر هذه العمليات المعقدة المنظمة، تفسيراً يقوم على أساس المصادفة والتخبط العشوائي؟ وكيف نستطيع أن نفسر هذا الانتظام في ظواهر الكون، والعلاقات السببية، والتكامل، والتوافق، والتوازن التي تنتظم سائر الظواهر وتمتد آثارها من عصر الى عصر؟ كيف يعمل هذا الكون دون أن يكون له خالق مدبر، هو الذي خلقه وابدعه ودبر سائر أموره؟!)[1].

ونحن هنا من ثم نسأل الماديين الملحدين هل فيهم في القديم والحديث من قرأ قول الله تعالى في القرآن الكريم في سورة الزمر: ﴿خَلَقَ السَّماوات والأرضَ بالحقِّ يكوّر الليل على النهار، ويكوِّر النهار على الليل، وسخَّر الشمس والقمر، كلٌّ يجري لأجلٍ مسمى، ألا هو العزيز الغفار، خلقكم من نفس واحدة، ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعدِ خلْقٍ في ظلماتٍ ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلاَّ هُوَ فأنىٰ تصرفون﴾[2].

نقول هل في الماديين من يعلم أنه في الوقت الذي كان فيه رب العالمين ينزل آياته على قلب النبي الخاتم محمد ﷺ في مطلع القرن السادس الميلادي لم يكن أحد من البشر في كل مدارس الطب القديم. مصر والهند والصين واليونان، فضلا عن جيران العرب في الجزيرة يعلم شيئاً عن الظلمات الثلاث وهي: ظلمة البطن، وظلمة الرحم. وظلمة المشيمة وهي التي ذكرها الله سبحانه في هذه الآية[3].

(١) المصدر السابق صفحة ٨٣.
(٢) سورة الزمر: الآية رقم ٥، ٦.
(٣) انظر التفاسير عند آية الزمر السابقة.

إن جاهلية التفكير المادي الملحد يقف أصحابها وقد قطعت ألسنتهم امام قول الله: ﴿أمْ خُلقوا مِنْ غيرِ شيءٍ أم هم الْخالِقونَ، أم خَلَقوا السَّماواتِ والأرضَ بلْ لا يوقنونَ﴾(١)، لكنها المادية الخبيثة التي أضاعت مواهب الانسان التي منحها الله له، ولطخوا عقله بالأوحال الشريرة، وما علم الماديون أن الانسان لا يستطيع أن يكون حراً، أو أن يعيش معيشة إنسانية، إلاّ في عالم متحرر من قهر المادية، عالم يقوم على الأخلاق وعلى تحمل المسئوليات، تجاه الانسانية والانسان، فالناس متساوون وأحرار، لا لشيء: إلا لأنهم عباد الله، أي لم تقم المساواة بينهم إلاّ بوصفهم عباداً لله على سواء، فهي مساواة في حكم القرآن الكريم لا يتفاضلون فيها ولا يتمايزون إلاَّ في مجال التقوى والخشية من الله تعالى: ﴿يا أيُّها الناس إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارَفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾(٢).

إن الحقوق التي أعطاها الله للانسان لا يستطيع أن يستردها سواه، أما الحقوق التي يعطيها الإنسان لأخيه الإنسان، أو تعطيها له إحدى المؤسسات التي صنعها البشر، فليس منْ العسير إنكارها أو استردادها، فإذا لم تكن حقوقنا الثابتة صادرة عن المصدر الأعظم: عن الخالق، فمن الجهل والحماقة أن نظن: أن للبشر حقوقاً لا يستطيع انسان أو مؤسسة من المؤسسات التي صنعها الناس أن يتغافلها أو ينكرها، وعلى ذلك فإنه ليس للإنسان: الحق في أن يدَّعى أن له قيمة داخلية أو كرامة أو حقوقاً أو واجبات مطلقة أو مسؤوليات إلا بوصفه مخلوقاً من مخلوقات الله تعالى(٣).

أكذوبة أزلية المادة:

إن القول المادي حول ما زعمَهُ الماديون اللاحدة بأزلية المادة على ضوء ما

(١) سورة الطور: الآية رقم ٣٥- ٣٦.

(٢) سورة الحجرات: آية ١٢.

(٣) بين الإلهيين والماديين دكتور محمد الصادقي، منشورات مكتبة الصدق صفحة ١١٩.

ألف الملحد فيورباخ في مؤلفه «جوهر المسيحية» حيث قال: إن الدين نتاج خيال الانسان. هذا القول الذي طوره ماركس وجعله إلحاداً مادّياً بحتاً، لا يصمد للبحث العلمي في قليل أو كثير، بل إنه من الخطأ أن ينظر اليه إلا على أنه من قبيل الخرافة وأحاديث الهوى الجامح أمام العلم، فضلا عن مقومات الفطرة، أما العلم فهو الذي يقول على لسان أحد كبار المهندسين بقسم البحوث الهندسية بجامعة كاليفورنيا وهو المهندس (جورج هربرت لونت): (الأدلة الكونية تثبت: أن العالم متغير، إذاً فليس أزليا أبديا، لذلك فالضرورة الكونية تلجئنا إلى الإعتقاد: أن هناك وراء الكون المادي حقيقة سرمدية عالية، بإرادته وحكمته اللانهائية، يتغير الكون على نظام بارع)[1].

ويقول: أوسكار لنوبرايونر: ... (هناك فرضيتان بالنسبة للاجرام السماوية: ١- أنها لا بدء لها، أي أزلية. ٢- إنها مخلوقة حادثة.

إن الفرضية الأولى ساقطة مردودة، حيث المادة متغيرة، تنمو وتتسع ثم العلوم الطبيعية- على دقة عميقة- تقدر بداية كل جسم.

إن العلوم باستطاعتها أن تثبت: ان الكون مخلوق طاقة وحكمة عالية، ولكنها لا تستطيع أن تبين الكيفية العجيبة المرموزة والقوانين الطبيعية وعللها كما يحق..)[2]

البراهين العلمية في الاسلام:

من العجيب أن يأتي الملاحدة، بغير دليل او برهان، ويزعمون أن منهجهم في تناول قضايا الكون والانسان والعلم والمعرفة يقوم على العلم!!، والعلم مما يقولون ويهرفون براء، فقد كانوا بالأمس القريب كلما يجابهون بآية من آيات

---

(١) د. صابر طعيمة (الفكر المادي في ميزان الاسلام). صادر عن مكتبة المعارف الرياض عام ١٩٨٢ صفحة ٢١٠.

(٢) المصدر السابق.

الإيمان يقولون إنها ضد العلم، أو يقولون إن العلم لا يساعد على زعمها، وشاء الله سبحانه أن ينطق بالحق علماء لا علاقة لهم بالاسلام، لكن آيات الله الكونية التي شاهدوا- بالعلم- بعضها مما عرفوا، جاءت مصداقاً ودليلاً على آيات في قرآنه، فنطقوا بها دون أن يكون في تقديرهم مقولة الماديين أو نقض مزاعم الملحدين. وفي هذا المجال نستشهد ببحث في (وظائف الغدد الجنسية) اطلعت عليه للطبيب الفرنسي (الكسيس كاريل) الذي يذهب فيه إلى نتائج علمية، تلقم أفواه الماديين حجراً، فلا يستطيعون نطقاً.

أمام حكم القرآن على وظيفة المرآة في الحياة وقدرتها، والتي فاض بها الذكر الحكيم، حين جعل لها مجالا ورسم لها حدود لا تتعداها، وحفظ عليها آدميتها، وجعل لها مهام محددة يجب أن لا تتجاوزها، يقول الدكتور: (الكسيس كاريل): (للغدد الجنسية وظائف أخرى غير دفع الانسان لاتيان عمل من شأنه حفظ الجنس، فهي تزيد أيضا من قوة النشاط الفسيولوجي والعقلي والروحي، فليس هناك خصي أصبح فيلسوفاً عظيماً، أو عالماً خطير الشأن، أو حتى مجرماً عاتياً، لأن للخصيتين والمبايض وظائف على أعظم جانب من الأهمية.. إنها تولد الخلايا الذكرية والأنوثية، وهي في الوقت نفسه تفرز في الدم مواد معينة تطبع الخصائص الذكرية أو الأنوثية المميزة على أنسجتنا وأخلاطنا وشعورنا، وتعطي جميع وظائفنا صفاتها من الشدة، فالخصية تولد الجرأة والوحشية والقوة، وهي الصفات التي تميز الثور المقاتل، عن الثور الذي يجر المحراث في الحقل.. ويؤثر المبيض في جسم المرأة بطريقة مماثلة، ولكن عمله يستمر فقط إبان جزء من حياتها، فحينما تبلغ سن اليأس تضمر الغدد بعض الشيء، وحياة المبايض القصيرة تجعل المرأة المتقدمة في السن، أكثر ضعة من الرجل الذي تظل خصيتاه نشيطتين حتى سن متقدمة جداً.

إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لا تأتي من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية، ومن وجود الرحم والحمل، أو من طريقة التعليم، إذ أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك.. إنها تنشأ من تكوين الأنسجة ذاتها ومن

تلقيح الجسم كله بمواد كيائية محددة يفرزها المبيض. ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة الى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعلياً واحداً، وأن يمنحا قوى واحدة، ومسؤوليات متشابهة، والحقيقة ان المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل، فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها... والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها، وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي. فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين، مثل قوانين العالم الكوكبي.. فليس في الامكان احلال الرغبات الانسانية محلها. ومن ثم فنحن مضطرون الى قبولها كما هي. فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعا لطبيعتهن دون أن يحاولن تقليد الذكور، فان دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال، فيجب عليهم الاّ يتخلين عن وظائفهن المحددة)[1].

ألا يدل هذا الذي يقرره الدكتور (كاريل) على أن خبر القرآن الكريم وحكمه ليس كما يقول معلم الملاحدة: ماركس، وانجلز، ولينين المدعو (فيورباخ)، من أن الدين من نتاج خيال الانسان.

وبعد فأغلب الظن عندي أن أحدا من الفلاسفة الماديين، ومن دار حولهم ولف لفهم، لم يحاول توظيف ما أودع الله فيه من قدرة النظر والتدبر. كما أن اليقين عندي في أن المستوى العقلي للفلاسفة والمفكرين الملاحدة لا يسعفهم في تدبر آية من آيات الله الكونية، أو القرآنية، ولذا فإننا سنتقدم لهم باضافة علمية لما تعرضه من الآيات الكونية أو القرآنية، بالمنهج الذي ادعوا أنهم أعرف الناس به وهم في الحقيقة أبعد الناس عنه. فنقول:-

هل وقف أحد من الملاحدة أمام قول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إن الَّذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً، كلما نَضِجَتْ جلودهم، بدَّلناهُمْ جلوداً غيرُهّا لِيذوقوا العذاب إنَّ اللهَ كان عزيزاً حكياً﴾[2]، أعتقد أن قدرات العالم

(١) د. الكسيس كاريل (الانسان ذلك المجهول) ص ١٠٨- ١٠٩.

(٢) سورة النساء: آية رقم ٥٦.

أو الباحث المادي العقلية لا تنتبه لوحدات البناء اللفظي في الآية الكريمة ﴿نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾، ﴿لِيَذُوقوا العذابَ﴾.

إن القرآن الكريم باعتباره في المقام الاول عند المؤمنين به كتاب هداية، ودعوة ايمان بالله رب العالمين، لم يتعرض لقواعد ولا مقررات علوم الأحياء، ولكنه اعطى ومضات، وقدم دلالات حتى ينتبه من كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

إن الذي يريد أن يتعرف على بعض دلالات آية كتلك التي معنا، ويمتلىء يقينه بحكمة الله الخالق القادر حين يتوعد الذين كفروا بآياته سبحانه، وأنه سوف يبدل جلودهم كلما نضجت ليذقوا العذاب، إذا عرف ما انتهى اليه العلم حول الجلد ووظائفه، إن كان مؤمنا فيزداد ايماناً إن شاء الله، وان كان من الماديين والملاحدة فستصفعه الدلالات العلمية التي تقوم شاهداً على صدق واعجاز القرآن الكريم. فما الذي انتهى اليه العلم حول موضوع الجلد وجاء مصدقاً لما في كتاب الله تعالى؟ ودليلاً على بعض سنن الله في خلقه؟؟.

للنظر إلى ما يقوله واحد ممن لا خلاف على تضعله في البحوث والدراسات الطبية وهو: الكسيس كاريل الذي سبق التعريف به يقول[١]: (إن الجلد الذي يغطي السطح الخارجي للجسم غير قابل للاختراق بواسطة الماء والغازات كما أنـه لا يسمح للجراثيم التي تعيش على سطحه بالدخول إلى الجسم فضلاً عن أنه قادر على تحطيم هذه الجراثيم بمساعدة المواد التي تفرزها غدده، بيد أن تلك الكائنات القاتلة التي نطلق عليها اسم «فيروس» قادرة على عبوره، وسطح الجلد الخارجي معرض للضوء والريح والرطوبة والجفاف والحرارة والبرد، أما سطحه الداخلي فعلى إتصال بعالم مائي، ساخن، محروم من الضوء حيث تعيش الخلايا كما تعيش الحيوانات البحرية. وبالرغم من خفته فإن الجلد يحمي السوائل العضوية بكفاية من الاختلافات التي لا تنتهي في الأحوال الكونية،

(١) الإنسان ذلك المجهول: «الكسيس كارليل» ترجمة: شفيق اسعد فريد بيروت صفحة ٨٢.

فهو مندّى مرن، قابل للتمدد، قوي الاحتمال، وترجع قوة احتماله إلى طريقة تكوينه، وإلى طبقات مسامه المتعددة التي تتكاثر ببطء وبلا نهاية، وتموت هذه الخلايا بينما تظل متحدة إحداها مع الأخرى مثل أغطية السقف، ومثل الأغطية فإن الريح لا تفتأ تقذف بها بعيداً لتحل محلها أغطية أخرى جديدة.. ومع ذلك فإن الجلد يحتفظ ببلله ومرونته لأن غدداً صغيرة تفرز الماء والمواد الدهنية على سطحه، والجلد يتصل بالغشاء المخاطي ذلك الغشاء الذي يغطي السطح الداخلي للجسم وذلك فتحتي الأنف والفم والشرج ومجرى البول والمهبل.. وجميع هذه الفتحات فيما عدا فتحتا الانف مغلقة بحلقات مطاطه قابلة للانكماش هي العضلات العاصرة ومن ثم فإنها، أي هذه الفتحات تكون أشبه بحدود محصنة لعالم مغلق.

وعن طريق سطحه الخارجي يتصل الجسم بالعالم الكوني، وحقيقة الأمر أن الجلد هو مأوى كمية هائلة من أعضاء الاستقبال يسجل كل منها تبعاً لتكوينه الخاص، التغييرات التي تحدث في البيئة، فالخلايا القابلة للمس والمبعثرة على سطحه تحس بالضغط والألم والحرارة والبرد... الخ/ انتهى كلامه.

فهل يدرك الماديون بعد نموذج كهذا من بلايين النماذج التي عرف العلماء بعض وظائفها - وما لم يعرفوه في كون الله وخلقه كثير - لماذا توعد الله سبحانه في قرآنه بتعذيب الذين كفروا بآياته في هذا الموقع من الجسم، مجددا إياه سبحانه كملا نضج؟!!

وصدق الله العظيم القائل: ﴿وإن يَرَوْا آيةً يعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمر. وكذبوا واتبعوا أَهواءَهُمْ وكل أمرٍ مُستقر﴾[١].

ذلك أن الجاهليات التي تتعاقب على مر السنين معطلة لفطرة الله في الناس إنما تتوارث صفات مشتركة هي القاسم الأعظم فيما بين جاهلية الأمس واليوم جاهلية الأمس التي كانت ممثلة في عنت مشركي مكة وكفار اليهود والنصارى،

---

(١) سورة البقرة: آيتا ٢، ٣.

وجاهلية اليوم في دعاوى أصحاب الفكر المادي، من الماركسيين والملحدين ومن لف لفهم، من الاشتراكيين والوجوديين والعلمانيين والماسونين إلى آخر قائمة الجاهليات المتعددة السلوك والموحدة الضلالة:

وهذه الصفات المشتركة هي: الأنانية وهي مصدر رئيسي لأنكار القيم الإنسانية والإيمانية، والطمع في مال الغير والتلاعب في المعاملات المالية والتجارية واحتضان الشرك وانكار وجود الله الخالق، إذ الاعتقاد في وحدانية الله يجعل المؤمن ثابتاً عند الكمالات التي أمر الله بها. والجدل بالباطل وانكار البعث والحياة الأخروية عقيدة الملحد المادي لأن المادية تضع هدف الحياة في المتعة الحسية القائمة على شهوة البطن، والمتع المادية في نظر الماركسيين هي أساس الحياة والمدنية، ومن لا يملك هذه المتع فيما يعتقدون يمكن له أن يستعين بالشيطان في الأهتام بالقيم الانسانية كما يقول زعيم الالحاد في العصر الحديث كارل ماركس[1].

وبهذا العرض الموجز الذي أتينا فيه على بعض مقررات العلم الحديث، نعتقد ان الزعم الواهي والادعاء المغرور الذي تغنَّى به الماركسيون قد سقط وليس له من قواعد العلم المدعى إلا التطاول والمراء.

وعلى ضوء ما سبق فقد استبان لنا أن قوانين الجدلية المادية في معرض الجدل النظري لا تصمد للجدل لأنها تستند إلى قوانين تقوم على الجهل بالقوانين التي أودعها الله الخالق خواص الأشياء.

ومن الخداع الرخيص الذي يقوم به الماركسيون محاولتهم تضليل العامة من الشعوب الفقيرة أو النامية حين يقدمون التفسير «الخرافي» للتاريخ، والذي يسمونه (بالتفسير المادي للتاريخ) فهل يوجد عالم واحد في الدنيا من علماء الطب أو الفلك أو التاريخ أو الاحياء أو الآثار غير معتل الادراك، وغير فاقد لفطرته السوية، قال بما قال به الماركسيون من أن التاريخ محكوم بمراحل:

---

(١) د. محمد البهي (القرآن في مواجهة المادية) مكتبة وهبة عام ١٩٧٨م صفحة ٤١.

تبدأ بالشيوعية مارة بالرق فالاقطاع، فالرأسمالية الى أن تنتهي عند المطاف المزعوم وهو: الشيوعية.

إن أكثر الدلائل التي تستند إليها الماركسية في هذا الزعم نظرية: «روبرت تشارلز دارون» والتي كان يقدمها داروين وهو مشفق على نفسه من الخلل والثغرات التي تقوم عليها ولذلك ظل أكثر من عشرين عاماً غير قادر على الجهر بها حتى جاء العلم الحديث وكشف عن منهج داروين الخاطىء في القول: «بالنشوء والارتقاء[1]» ومع ذلك فإن كارل ماركس تلقف قواعد التطور في عالم الأحياء ليطبقه في عالم الاجتماع والاقتصاد وعلى ما بين المجالين من هوة سحيقة في طبائع الاشياء وقابلية التطبيق.

إن أتفه ما يقرأ المرء عن الماركسيين هو عدوانهم الفكري على الاسلام فيما كتب المدعو «موريس كورنفورت» في كتابه: (مدخل إلى المادية الجدلية) حين يقول في ركاكة رخيصة وحذلقة خسيسة[2]: (بعض الناس يعتقدون أن هذا العالم ليس سوى واد للدموع وأن حياتنا فيه ليست سوى تحضير لحياة أفضل في عالم آخر أفضل، فعلينا أن نتحمل كل ما نتعرض له بجلد دون ان نكافح ضده).

ألم أقل أن العلم مجرد العلم سواء منه ما كان تفسيراً صحيحاً وسويا لحقائق خلق الله في كونه، أو ما كان مسطوراً ومدوناً من كلام رب العالمين في قرآنه، قد أسقط الفكر المادي، وبالأمثلة والنماذج التي عرضنا لبعضها ما يكفي في التدليل على عقم النظر المادي لعلاقات الأشياء وتكاملها.

أما هذه الفرية التي لم يقل بها أحد منذ دعوة الاسلام وإلى اليوم، غير الملاحدة الماركسيين، فاليهود والنصارى هم أقدر بحكم طول العداء للاسلام من الماركسيين ولم يقولوا بهذا الزعم. لم يقولوا إن الاسلام واد للدموع وذلك لأن

---

(١) عباس محمود العقاد: عقائد المفكرين في القرن العشرين مكتبة غريب صفحة ٧١.
(٢) موريس كونفورت: مدخل الى المادية الجدلية- جـ ١ صفحة ١٠.

من آيات الله في قرآنه والتي تتلى صباح مساء مع المصلين في صلواتهم ودعائهم حيثما كانوا ما يدحض هذا الافتراء ويسقطه.

ولو أطلع أدعياء العلم ودارسوا التاريخ من الماركسيين على كتاب الله تعالى لكان عليهم- لو جاز زعمهم في الدين الذي رأوْه في الكنائس والأديرة وعبر مظالم محاكم التفتيش وجاهلية العصور الوسطى- أن يستثنوا الاسلام وتعاليمه من عموم كعموم العبارة التي ساقها: (موريس كورنفورت) لكنها الدعوى بغير دليل والنظرية بغير منهج والفكر بغير عقل، مع أن آيات الله في قرآنه قبل مقررات العلم قد أسقطت قواعد الفكر المادي القديم منه والحديث.

وفي هذا المجال يجدر بنا أن نسوق بعض آيات الله التي تدحض زيف دعوى صاحب «المدخل الى المادية الجدلية» يقول رب العالمين: ﴿والعصرِ إنَّ الانسانَ لفي خُسْرٍ، إلاَّ الَّذينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ وتَوَاصَوْا بالْحَقِّ وتَوَاصوْا بالصَّبْرِ﴾[1] ويقول سبحانه: ﴿وقل اعملوا فسيرى اللهُ عملكُمْ ورسولُهُ والمؤمنُونَ وستردون إلى عالمِ الغيبِ والشهادةِ فينبِّئكُمْ بما كنتُمْ تعملُونَ﴾[2] ويقول سبحانه: ﴿لا يَستوي القاعدون من المؤمنينَ غير أولي الضَّررِ والمجاهدُون في سبيلِ اللهِ بأموالِهِمْ وأنفسهِمْ. فضَّل اللهُ المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً وكُلّاً وعدَ اللهُ الحُسنى وفضَّل اللهُ المجاهدين على القاعدين اجراً عظيماً﴾[3]، ويقول سبحانه: ﴿إلاَّ تنفروا يعذِّبكم عذاباً أليماً ويستبدلْ قوماً غيركُمْ ولا تضرُّوهُ شيئاً واللهُ على كلِّ شيءٍ قدير﴾[4]، ويقول سبحانه: ﴿قُلْ ياقوم اعملوا على مكانتم إني عاملٌ فسوفَ تعلمونَ مَنْ تكون له عاقبة الدَّار إنه لا يفلحُ الظالمونَ﴾[5]، فهذه النصوص وغيرها كلها تأمر بالعمل والسعي

---

(١) سورة العصر: آية ١- ٣.
(٢) سورة التوبة: آية ١٠٥.
(٣) سورة النساء: آية ٩٥.
(٤) سورة التوبة: آية ٣٩.
(٥) سورة الأنعام: آية ١٣٥.

والجهاد والحركة والايجابية، وتحارب الخمول والتخاذل، ولكن علماء المادية الجدلية في مستوى من الأمية الفكرية في منتهى الهبوط والانحدار بحيث لا يدركون هذه الدلالات، فيوم قال أحدهم قولته التي أتينا عليها في الصفحات السابقة، والتي قال فيها (... بعض الناس يعتقدون أن هذا العالم ليس سوى واد للدموع)، ويقصد بالقطع بهؤلاء الناس كل المؤمنين بالله تعالى، لم يكن بقادر، ولا هو بمستطيع بحكم الطبع الملتوى والخلق النهاز والحس المتبلد، أن يقف أمام قول الله تعالى في سورة (المنافقون) ﴿ولله العزّةُ ولرسولِهِ وللمؤمنينَ ولكنَّ المنافقينَ لا يعلمونَ﴾(1)، وهو بالقطع لم يعرف شيئا عن السنة النبوية المطهرة ولم يعرف أن ما ترك رسول الله محمد ﷺ في المؤمنين من قول أو عمل، إنما هو رصيد الحياة الاسلامية المتجدد.

ولكنا ونحن في معرض الرد والحكم بأن العلم فضلا عن الإيمان- قد أسقط الفكر المادي نسوق ما أخرجه مسلم في صحيحه باسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه من قول الرسول ﷺ: (المؤمنُ القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خير)(2) فأين المسلم وهو في موقع العزة والسيادة التي أحاطه الله بها من أولئك الذين ليس لهم إلا واد الدموع.. إن الفرق لجد عظيم بين الذين هم في واد الدموع وبين الذين أعزهم الله بالاسلام. وأمرهم بالبحث والارتقاء الى مواقع العزة والكرامة.

ان الحروب الشرسة التي شنها أعداء الاسلام ضد المسلمين، حتى لا تكتسح تعاليم هذا الدين وقواعده في الحق والعدل صروح الظلم والظالمين، هذه الحروب المدمرة الشرسة التي خاضها الاسلام دفاعاً عن حرية المؤمنين، ونصرة للمظلومين والمضيعين عبر التاريخ الطويل، منذ غزوات التحرير التي خاضها المسلمون لإنقاذ الناس من عبادة العباد الى عبادة رب العباد، لتؤكد بالتضحية التي قدمها المسلمون جهاداً في سبيل الله، أن النصر والغلبة ستكون

(1) سورة المنافقون: آية ٨.

(2) مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري صفحة ٤٨٦.

إن شاء الله لأمة الإسلام، وما بشائر الصحوة الاسلامية التي ابتدأت في معظم ديار المسلمين بالرغم من ضراوة الحصار وتضييق الخناق، إلا إرهاصات الظفر والعودة إلى الله.. والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون[١].

(١) د. صابر طعيمة (الفكر المادي في ميزان الاسلام) مكتبة المعارف الرياض. ٢٤.

الباب السادس

دعوة الرسول محمد ﷺ وخصائصها

الفصل الأول:

دراسة لأحوال أهم الرسالات السابقة، وصلة الدعوة الاسلامية بها.

الفصل الثاني:

البشارة بالنبي محمد ﷺ في التوراة والإنجيل.

الفصل الثالث:

العالم كان ينتظر محمداً ﷺ.

الفصل الرابع:

خصوصية دعوة الرسول محمد ﷺ.

الباب السادس

دعوة الرسول محمد ﷺ وخصائصها

الفصل الأول:

دراسة لأحوال أهم الرسالات السابقة، وصلة الدعوة الاسلامية بها

إذا ما أعلمنا المنظور التاريخي والاجتماعي في رؤية الأحداث الجسام التي مرت بالتاريخ الإنساني، فإن قواعد البحث العلمي تطالعنا بالقول بأن وجهة دعوة أي نبي من الأنبياء تتبين من نشأة النبي، التي أعده الله بها للقيام بتلك الدعوة، فإذا عرفنا نشأة النبي بين قومه عرفنا رسالته فيهم وعمله في هدايتهم وعرفنا وجهة النبوة من وجهة النبي منذ هيأه الله تعالى لرسالته.

ولكن غرائب التاريخ في أمر الأنبياء كثيرة، ومنها هذه الغريبة التي تكاد تشمل الأنبياء أجمعين، وهي الجهل التام بتفاصيل نشأتهم بين ذويهم وأقوامهم، فلا يحصي التاريخ شيئاً من هذه التفاصيل عن نشأة نبي من كبار الأنبياء غير محمد عليه السلام، وكل من عداه من جلة الأنبياء فالعلم بأنباء طفولتهم مستفاد من سيرتهم بعد النبوة أو مأخوذ مأخذ الاستقراء والاستنباط.

وعلى هذا يقل عدد الأنبياء الذين نحاول اختيارهم للمقابلة بين نشأتهم ومقاصد دعوتهم، ولا نستطيع أن نزيد على ثلاثة من كبارهم، وهم ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، في مناسبات ظهورهم، وبعض هذه المناسبات يدل على النشأة التي نشؤوها والوجهة التي اتجهوا اليها.

(أ): نبوة خليل الرحمن:

مهما يكن من بداءة الخليل ابراهيم عليه السلام، فالأقوال التي في العهد القديم متواترة على زعامته لقومه، حين هاجر بهم من جنوب العراق إلى شماله ومن شماله الى ارض كنعان، كما أشرنا الى ذلك في حديثنا في الفصل الثاني من الباب الرابع.

كانت مهمته إذن كما يقول عباس محمود العقاد[1] مهمة الزعامة المفروضة على الزعيم، وكان عليه ان يتولى هدايتهم في شئون دنياهم وشئون دينهم، وبخاصة حين يخشى الخطر عليهم من غضب الله ونقمته العاجلة من جراء المخالفة والعصيان.

وينبغي أن نذكر هنا أن الوعيد بالغضب الالهي كان خطرا محذوراً قريبا، ممن تعبدوا لجميع الأرباب في الديانات الأولى، وأن إيمان الناس بالإله في العهود الأولى إنما كان- على أقواه- إيمانا بحماية الرب الذي يعبدونه دون سائر الأرباب فلم يكن لزعيم مؤمن أن يغزو بقومه إلاّ وهو يعلم سبيل نجاتهم. وقد كان ابراهيم الخليل مع كل اعتبارات النبوة زعيم أسرته الذين هاجروا معه، فكان عليه أن يهديهم كل طريق في هجرة الجسد والروح.

وتتفق الأقوال على أن ابراهيم خالف أباه، حين أنكر أرباب القوم ودعا قومه الى الكفر بالاصنام، وليس في هذا ما ينفي زعامته على الذين هاجروا معه من أسرته وذوي قرباه وتابعيه، فربما كان الخلاف على الاقامة والمصانعة وارضاء السلطان بشيء من المداراة، فاستكان الشيخ للواقع ونفر الكهل القوي من هذه الاستكانة، فلعل المفترق بين إبراهيم وأبيه إنما كان على عبادة جديدة اقحمت على القوم من هذا القبيل، فنجا المؤمنون بأنفسهم وتبعوا الخليل في طريقه وأدى لهم أمانة الزعامة بهذه النبوة وبهذه الرسالة التي كلفه الله بها.

---

(١) (عباس محمود العقاد) (طوالع البعثة المحمدية) دار المعارف صفحة ١٣٤.

فهذه النبوة مهمة زعيم أمين، تميزت معالم النبوة على يديه بين قومه بهذه السمة التي عرف بها نبي الله ابراهيم في الرحلة الطويلة التي قطعها من أوركلدان الى أرض كنعان مرورا بمصر، وانتهاء بالأردن[1].

ب: نبوة موسى:

إن سيرة موسى عليه السلام من المراجع الدينية ليس فيها ما يدل على زعامة معترف بها بين بني اسرائيل، بل فيها انكار الزعامة بالقول الصريح، لأنه أراد أن يحكم بين خصمين من العبارنيين فقال له احدهما: (من جعلك رئيساً وقاضياً علينا؟ ألعلك تريد قتلي كما قتلت المصري بالأمس؟)[2].

ويرجح برستيد[3]- أحد الثقات في التاريخ المصري القديم- أن موسى قد تخرج من المدارس المصرية الكبرى. واطلع على مكنونات علم الكهنة والحكماء، وكانت له منزلة فاضلة عند ولاة الامر، لعله كان يستخدمها في الشفاعة لقومه، والعلم بنيات الولاة وأوامرهم فيما يمس شئونهم، فتعود عقلاؤهم أن يلجأوا إليه ويوسطوه ليستشفعوا به فيما ينوبهم من الظلم وسؤ الحال، وأصبح له حق الشورى عليهم كلما ارتبط الامر بمشيئة الدولة ومطالب بني اسرائيل.

ولم يخطر له- عليه السلام- بادىء الرأي أن يقود قومه في خروجهم من مصر، ولم يكن على أهمية للرسالة الدينية قبل هجرته الى صحراء سيناء ولقائه في أرض مدين للنبي العربي، الذي يرجح الأكثرون أن هو نبي الله شعيب[4] ولكنه على مختلف الروايات قد تعلم من ذلك النبي علوما شتى في

---

(١) (عباس محمود العقاد) أبو الأنبياء- المكتبة العصرية- بيروت صفحة ١٣٨.

(٢) د. صابر طعيمة (اليهود بين الدين والتاريخ) القاهرة عام ١٩٧٢ ص ٤١.

(٣) (هنري برستيد): (فجر الضمير) ترجمة سليم حسن. الألف كتاب القاهرة عام ١٩٦٠م صفحة ٩٢.

(٤) د. عبدالفتاح شحاتة (تاريخ الأمة العربية قبل الاسلام) جـ ٢ القاهرة عام ١٩٦٨م صفحة ١٢٣.

شؤون التبليغ والقيادة، ولم يزل يتعلم منه كما جاء في كتب العهد القديم بعد عودته الى مصر وخروجه منها مع قومه، وكان يثوب اليه كلما ساورته المخاوف وأوشك أن ييأس من هداية القوم، أو يضيق ذرعاً بما يسمونه من شهوات الطعام، ولدد الخصومة، والمنافسة بين العشائر على صغائر الأمور.

فالسنوات التي قضاها الى جوار نبي مدين، كانت هي فترة الإستعداد، والرياضية الروحية، والتدبر الطويل فيما يمكن عمله لإخراج بني اسرائيل من مصر، وإحلالهم حيث حلّ على مقربة من سيناء وكنعان، ولا بد أنه قد جاس خلال تلك الصحراء، ووطىء بقدميه أماكن الرحلة التي لا بد منها قبل المقام على استقرار في ذلك الجوار.

ولا شك أنه كان يصغي الى نبي مدين فيما يبسطه له من أمر عقيدته وعبادته، وأنه حكي له ما عرفه من العقائد المصرية وعبادات الهياكل والكهان، ووازن طويلاً بين هذه العبادات وعبادة البادية، كما تلقاها من هداية الوحي والالهام[1].

فلما عاد الى مصر ليخرج بقومه منها، كان هذا الخروج حيلة من لا حيلة له في البقاء ودعاهم اليه باسم الله، فأطاعوه بعد لأيٍ ومجاهدة، ولم يظهر من سلوكهم معه أنهم خفوا الى الخروج من مصر طواعية بغير دعوة ملحة وإقناع عسير.

ولا يفهم من حادث واحد من حوادث الرحلة أن القوم كانوا يؤثرون الفرار حرصا على عقيدة دينية، بل انهم كثيرا ما أسفوا على ما تعودوه من الممارسة الدينية في مصر، وودوا لوا أنهم يعودون اليها، أو يعيدونها منسوخة في الصحراء (إجعل لنا الها كما لهم آلهة....) وخطر لهم أن الإله الذي دعاهم موسى إليه إنما غرر بهم ليهلكهم ويعفي على آثارهم، واحتاجوا في كل خطوة الى توكيد الوعد بالأمان ورغد العيش، بعد أعوام التيه والانتظار.

(١) (عباس محمود العقاد) (طوالع البعثة المحمدية) دار المعارف القاهرة صفحة ٨١.

فمهمة الرسالة الموسوية بين هذه العوارض الطبيعية، لا تفهم إلا على خطة واحدة، ترتسم أمامنا كما كانت، لأنها هكذا ينبغي أن تكون.

فقد هجر موسى (مصر) بعد مقتل المصري، وتهديد بني إسرائيل- قبل غيرهم- بالإبلاغ عنه، فضلاً عما يخشاه من ملاحقة ولاة الأمور.

ولم يخطر له قبل تلك الهجرة أن يقنع قومه بالرحيل من الديار المصرية فلما اختبر الصحراء وسمع ما سمع من هداية نبي مدين، ولمح بعينيه مطارح الرحلة والقرار بين مدين وسهوب سيناء وكنعان، وطاب له مقام البادية، تدبر الأمر، وصحح العزم على التحول بالقوم من مصر إلى أرض كنعان، وصرف الجهد الذي لا جهد بعده في إقناعهم باسم الآله الذي اختارهم للنجاة، ولم يزل يحذرهم من ترك هذا الاله عند أيسر دعوة، وبغير إغراء على الترك في أكثر الاحيان[1].

وحذرهم من الأخ والإبن والزوج والصاحب أن يغويهم قائلا: (نذهب ونعبد آلهة أخرى.. فلا ترضى منه، ولا تسمع له، ولا تشفق عينك عليه، بل قتلا تقتله).[2].

وحذرهم من المدن التي يدخلونها أن يدعوهم اللئام إلى عبادة أربابها: (فضرباً تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرسها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف)[3]

واذا سمع عن أحد من إسرائيل (أنه يذهب ويعبد آلهة أخرى ويسجد لها أو للشمس والقمر أو لكل من جند السماء... فأخرج ذلك الرجل أو تلك المرأة.. وارجمه بالحجارة حتى يموت)[4].

---

(١) المصدر السابق: صفحة ٨٥.

(٢) سفر التثنية الاصحاح الثامن.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

فشعب بني إسرائيل لم يستغن قط عن الإقناع المتتابع للإيمان بالآله الواحد الذي دعاهم اليه موسى عليه السلام، ولم يتحرك من مصر فراراً بعقيدته، بل كانت هذه العقيدة هي وسيلة الإقناع لحمله على النجاة بنفسه من عواقب البقاء حيث طاب له البقاء، ولم يزل في الطريق يحتاج إلى تجديد هذا الإقناع في كل مرحلة، ويحن الى العودة بعد كل نقلة، وظل كذلك بعد انتهاء أيام التيه، وإيوائه عند الفرار إلى أرض كنعان[1].

ونشأة موسى التي عرفناها من مصدرها الذي لا مصدر لنا غيره- وهو القرآن الكريم[2]- هي التي تطابق بين هذه النشأة وبين الرسالة الموسوية كما هو واضح من الكتب المنسوبة الى موسى، والكتب التي نسبت إلى الأنبياء من بعده، فخلاصة هذه النشأة أن كليم الله تربى في مصر، وخرج منها خفية بعد مقتل المصري الذي صرعه موسى إنتصاراً لرجل من بني إسرائيل،. ولم يكن خاطر الخروج ببني اسرائيل قد خطر له أو لأحد من ذوي الزعامة بين عشائر قومه، ولكنه عاش في البرية في أرض مدين، وأرض نفسه على حياة النسك والاستلهام، وهو يفكر في أسرته وقومه، ويزور الأرض من جوله، وتلقى الدعوة الالهية بعد طول التدبر والرياضة، فعاد إلى مصر لاقناع قومه بدعوته؛ واقناع السادة الحاكمين بها- إن تيسر له ذلك- دفعاً للخطر عن ملته وعقيدته، ولم يكن يرضيه- فيما بدا من طوالع السيرة وخواتيمها- أن يبقى شعب بني إسرائيل حيث استطاب البقاء، لأنه رأى لهم مصيراً في البادية اكرم من هذا المصير، ورأى أن العقيدة التي دعاهم إليها كفيلة بحمايتهم من الضياع بين العشائر والملل في أرض الحضارة.

هذه هي الحال بين النشأة والرسالة في دعوة الكليم عليه السلام.

---

(١) (ابكار السقاف) (اسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة) عام الكتب ص ١١٨.

(٢) كما مر بنا في الفصل الخامس من الباب الرابع.

(جـ): نبوة عيسى عليه السلام:

لقد اختتم عهد النبوة والرسالة في بني اسرائيل بظهور عيسى عليه السلام، ولا نعرف عن نشأته في طفولته غير القليل، ولا نعرف شيئا عن أيامه من الثانية عشرة الى الثلاثين ساعة مبعثه إلى قومه من بني اسرائيل، ولكن نشأة العصر كله من وجهه الاستعداد لتقبل النبوة معروفة ببعض التفصيل، كما يتضح من السياق العام لتاريخ بني اسرائيل. الذي عرضنا لبعضه في حديثنا عن أحوال نبوة موسى عليه السلام.

ففي عصر الميلاد: (ترقبت النفوس بشائر الدعوة الالّهية من كل جانب، كما يترقب الراصدون كوكباً حان موعد طلوعه). وكان موعد الألف الرابعة من تاريخ الخليقة فيما اعتقدوا موعداً مقدوراً في عرف الأكثرين لظهور المخلّص الموعود.

وكان اليهود في عصر الميلاد فريقين: فريق يترقب الخلاص على يد رسول من ذرية داود عليه السلام، وفريق آخر وهم السامريون، بنوا لهم هيكلاً خاصاً في جرزيم: (ومن المحقق أن هؤلاء السامريين كان لهم شأن في تطور الفكرة المسيحية، أو فكرة الخلاص المنتظر على يد الرسول الموعود... وهم ينتسبون الى يعقوب، ويدعون أنهم دون غيرهم الجديرون باسم الاسرائيليين...)[1].

وقد تكاثر النذيرون قبل مولد السيد المسيح، وهم المنذرون لصحبة المخلص المنتظر، لأن مولده عليه السلام (وافق نهاية الألف الرابعة من بدء الخليقة على حساب التقويم العبري) وهو الموعد، لأنهم كانوا ينتظرونه على رأس كل ألف سنة، ومنهم من كان يقول إن اليوم الإلهي كان ألف سنة كما جاء في المزامير، وان عمر الدنيا أسبوع الهي، تقتضي ستة ايام منه في العناء والشقاء، ويأتي اليوم السابع بعد ذلك كما يأتي اليوم السبت للراحة والسكينة،

(١) (عباس محمود العقاد) (حياة المسيح) القاهرة عام ١٩٦٥م صفحة ٨٣.

فيدوم ألف سنة كاملة هي فترة الخير والسلام قبل فناء العالم، ولا يزال الغربيون يعرفونها باسم الألفية ويطلقونها على كل عصر موعود بالسعادة والسلام، والذين قد روا ان القيامة تقوم بعد سبعة آلاف سنة من بدء الخليقة، كانوا يؤجلون قيام ملكوت السماء على الأرض إلى نهاية الألف السادسة، ويومئذ تسود دولة المسيح الموعود، ولكنهم كانوا كغيرهم في انتظار رسول من عند الله كلما انتهت ألف سنة من بدء الخليقة، وكانت بداءة الالف الخامسة موعدا منظوراً أو منذورا يكثر فيه النذيرون، لعلهم يحسبون من جند الخلاص، أو لعل واحداً منهم يسعده القدر فيكتب الخلاص على يديه، والمهم في أمر النذيرين بالنسبة الى السيد المسيح أن النبي يحيى المغتسل- يوحنا المعمدان- كان علما من أعلامهم المعدودين، وكان السيد المسيح يتعمد على يديه، أو يأخذ العهد عليه. وأن بعض المؤرخين يحسب السيد المسيح من النذيرين، ويلتبس عليه الأمر بين النذيري والناصري، وهما في اللفظ العبري متقاربان، ومن هؤلاء المؤرخين من يزعم أنه لم يكن من الناصرة، بل يزعم أن الناصرة لم يكن لها وجود، لانها لم تذكر قط في كتب العهد القديم، ولكن الأرجح في اعتقادنا ان الناصرة نفسها كانت تسمى نذيرة بمعنى الطليعة، وعند ما كانت على تخوم الارض التي فتحها العبريون قديماً، وأنها كانت مرقباً صالحاً للاستطلاع. لأن التلال التي تحيط بها تكشف جبل الشيخ والكرمل والمرج المعروف باسم مرج بن عمير(١).

ولا شك ان السيد المسيح قد اتجه بدعوته الى إسرائيل، وابتغى منها الهداية «لخراف بيت إسرائيل الضالة» ولكنه عمم الدعوة بعد تكرارها على القوم ولجاجتهم في الإعراض عنها، فوجهها الى كل مستمع لها مقبل عليها، وقال لهم إن العاملين بالخير ذرية لإبراهيم الخليل أقرب وأوفى ممن يدعون النسبة اليه بالسلالة لأنهم هم أبناؤه بالروح، وضرب لهم المثل بوليمة العرس التي لم يحضرها المدعوون اليها... فغضب السيد وقال لعبده: إذهب عجلاً الى

(١) عباس محمود العقاد. (حياة المسيح) صفحة ٨٧.

طرقات المدينة وأزقتها وهات إلي بمن تراه من المساكين، فعاد العبد وقال لسيده: قد فعلت كما أمرت ولا يزال في الرحبة مكان. قال السيد فادع غيرهم من أعطاف الطريق وزواياه حتى يمتلىء بيتي، فلن يذوق عشائي أحد من أولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء)[1].

ولم تكن رسالة السيد المسيح رسالة تشريع، لأن الشريعة الدينية كانت في أيدي أحبار الهيكل، والشريعة الدنيوية كانت في أيدي أتباع قيصر، ولكنه قد جاء بالفتح المبين الذي لم يسبقه سابق من المرسلين في تصحيح الشرائع بجملتها، فقد وضع عنها قيود النصوص، ونقلها إلى مقياسها الصحيح. وهو مقياس الضمير، ومن تحطيم النصوص أن يكون أبناء النبي هم أتباعه بالروح، وإن لم يكونوا من ذريته بالجسد، ومن تحطيم النصوص كذلك أن يكون الخير في ضمير الإنسان لا في مظهر من مظاهر العالم، فإن ملك ضميره فقد ملك كل شيء، وإن ضيع ضميره لم يغن عنه العالم وما وسع من أناس وحطام[2].

(د): رسالة النور الجديد[3]:

مما مضى تتجلى المطابقة بين النشأة والرسالة النبوية عن مقاصد ثلاثة تنطوي في هذه الرسالات:

فمنها الرسالة التي تنطوي في تكاليف الزعامة، فتأتي الدعوة الآلهية لتمكين زعيم القوم من هدايتهم الروحية، لأنه مطالب بقيادتهم في جميع الشئون.

---

(١) عباس محود العقاد. (حياة المسيح) صفحة ٨٧.

(٢) عباس محمود العقاد. (حياة المسيح) صفحة ٨٨.

(٣) اتبعت في ترتيب عناوين هذا الفصل طريقة الاستاذ عباس محمود العقاد، في كتابه مطلع النور طبعة دار الكتاب العربي بيروت سنة ١٩٧٩م ونقلت بعض عباراته التي استحسنتها- بتصرف- انظر ص ١٠٣ وما بعدها من الكتاب المذكور.

ومنها الرسالة التي تقوم على منفعة أمة من الأمم لحراستها في وجه الأمم الأخرى، والمثابرة على تذكيرها بحاجتها إلى تلك الحراسة. ونقلها من حياة إلى أخرى أيسر وأرحب.

ومنها الرسالة التي ينتظرها القوم تحقيقاً لوعود متعاقبة، يفسرها كل منهم بما يبتغيه.

ولكن الحال يتغير بالنسبة للرسالة الخاتمة فرسالة محمد عليه الصلاة والسلام رسالة إلهية فحسب، قوامها أن الله حق وهدى، وأن الإيمان به جل وعلا مطلوب لأنه حق وهدى، هذا الإيمان أعلى وأقدس من كل إيمان، لأنه إيمان بالحق والهدى.

فلم تكن زعامة محمد على قومه مناط تلك الرسالة أبدا، لأنه جاء بها بشرا كسائر البشر، عليه من أمانة الهداية ما على الإنسان للإنسان، زعيماً كان أو غير زعيم.

ولم تكن منفعة الأمة العربية مناط تلك الرسالة، لأنها إيمان برب العالمين، ولا فضل فيها لعربي على أعجمي، ولا لقرشي على حبشي إلا بالتقوى.

ولم تكن مقاضاة لوعود، لأن الاسلام لم يعد أحداً من العالمين بغير ما وعد به الناس كافة في جميع البقاع والأرضين.

بل جاءت مكملة مهيمنة وناسخة وخاتمة للرسالات السابقة لها، وداعية إلى إثباتها والتصديق بها وبرسلها السابقين، وحافظة لهم ذكراً حسناً وتاريخاً صادقاً. ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكُمْ نعمتي ورضيتُ لَكُمُ الإسلامَ ديناً﴾(١).

جاءت هذه الرسالة بكل الأصول التي نادت بها الشرائع قبلها من توحيد العبادة للآله الحق وهو المبدأ الذي من أجله أرسلت الرسل وأنزلت الكتب

---

(١) سورة المائدة: آية ٣.

﴿وما أَرسلنا مِنْ قبلكَ مِنْ رسولٍ إلاَّ نُوحي إليهِ أنَّهُ لا إله إلاَّ أنا فاعبدون﴾[1].

وجاءت بالدعوة لفضائل الأخلاق في نفوس الناس، وترتيب مبدأ الثواب والعقاب حافزا، ومانعا للناس حتى ينقادوا لله رب العالمين. ﴿وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين﴾[2]. و﴿مَنْ يقتلْ مؤمناً متعمِّداً فجزاؤهُ جهنَّم خالداً فيها وغضبَ اللهُ عليهِ ولَعَنَهُ وأعدَّ لهُ عذاباً عظيماً﴾[3].

هذه رسالة الإسلام، جاءت بعد أن مهد الله لها بالرسالات السابقة، لينتهي عندها مطاف حركة النبوة والرسالة، ولا يمكن أن تتجاوزها أبداً لأنه لا يوجد داعٍ لتتابع النبوات بعدها فهي الكاملة الشاملة الباقية إلى يوم القيامة ﴿إنَّا نَحْنُ نَزَّلنا الذِّكرَ وإنَّا لَهُ لحافظونَ﴾[4]، و(لا تزالُ طائفةٌ من أمتي على الحقِّ ظاهرينَ، لا يضُّرهم مَنْ خالفهم إلى أن يأتي أمرُ اللهِ...)[5].

هذه الرسالة جاءت لربط العباد بربهم بفرائض يتوجهون بها إليه سبحانه مباشرة وبدون وساطة بين العبد وربه، لكنها مقيدة ومحفوظة بعقيدة التنزيه. التي ارتفعت إلى غايتها في الاسلام، فالإله في العقيدة الاسلامية منزه عن المشابهة والمقارنة والرمز والمحاكاة، وليس كمثله شيء ولا وسيلة لإنسان إلى رؤيته في الدنيا وهذه هي العقيدة التي ترقى ببني الانسان وتسوي بينهم في علاقتهم بربهم ثواباً وعقاباً.

---

(١) سورة الانبياء: آية ٢٥.
(٢) سورة آل عمران: آية ١٣٢.
(٣) سورة النساء: آية رقم ٩٣.
(٤) سورة الحجر: آية رقم ٩.
(٥) الحديث رواه البخاري.

الفصل الثاني:

البشارة بالنبي محمد ﷺ في التوراة والإنجيل

إنه مما ورد في القرآن الكريم أن الانبياء قبل محمد ﷺ قد بشروا به وأشاروا إلى قدومه، وسنعرض لبعض منها، ثم نذكر بعض ما ورد في السنة المطهره والسيرة، ثم نذكر ما ورد من نصوص في التوراة والإنجيل، حتى يتضح الحق في هذه المسألة التي صارت الأن عند كثير من العلماء المنصفين حقيقة مسلمة.

لقد جاء في القرآن الكريم في معرض الحديث عن موسى والسبعين المختارين من قومه لميقات الله، بعد أن طلب بنو إسرائيل من موسى أن يروا الله جهرة ليصدقوه فيما جاءهم به من الفرائض في الألواح. قوله تعالى: ﴿واختارَ مُوسى قومه سبعينَ رجلاً لميقاتِنا فلمَّا أخذتْهم الرجفةُ قالَ ربِّ لو شئتَ أهلكتهم من قبلُ وإيايَ، أَتُهلكنا بما فعل السُّفهاءُ مِنَّا، إنْ هي إلاَّ فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي منْ تشاءُ أنْتَ وليُّنا فاغفرْ لنا وارْحمنا وأنْتَ خَيْرُ الغافرينَ، واكتب لنا في هذهِ الدُّنيا حسنة وفي الآخرةِ، إنا هدنا إليك، قال عذابي أصيبُ بهِ من أشاءُ ورحمتي وسعتْ كلَّ شيءٍ، فسأكتبها للذين يتَّقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون، الذين يتبعون الرسولَ النبي الأمي الذي يجدونَهُ مكتوباً عندهم في التوارةِ والإنجيل، يأمُرُهُمْ بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزَّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحونَ﴾(١).

---

(١) سورة الاعراف: الآيات ١٥٥، ١٥٧.

قال الإمام القرطبي[1] في قوله تعالى: (الأمي) هو منسوب إلى الأمة العربية الأمية التي هي على أصل ولادتها لم تتعلم الكتابة ولا القراءة قاله ابن عزيز، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان نبيكم ﷺ أمياً لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب، قال تعالى: ﴿وما كنتَ تتلو من قبلهِ من كتابٍ ولا تخطُّه بيمينِكَ﴾[2].

وقال القرطبي أيضا في قوله تعالى: ﴿الَّذي يجدونَهُ مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾. روي البخاري قال حدثنا محمد بن سنان، قال حدثنا فليح، قال حدثنا هلال بن عطاء بن يسار لقيت عبدالله بن عمرو ابن العاص قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن، يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا اله الا الله، ويفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً[3].

وروى الطبري قال: (حدثني ابن المثنى قال حدثنا أحمد بن عمر، قال حدثنا فليح عن هلال ابن علي عن عطاء بن يسار قال:

لقيت عبدالله بن عمرو فقلت: اخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل. والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، اسميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء. بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح به قلوباً غلفاً وآذاناً صماً، وأعيناً عمياً.

---

(١) الجامع لاحكام القرآن للقرطبي (جـ ٧ ص ٢٩٨).
(٢) سورة العنكبوت: آية رقم ٤٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (جـ ٧ ص ٢٩٩).

وقال الطبري أيضا: حدثنا بشر، قال حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد عن قتادة، قال الله: الذي يجدونه مكتوباً عندهم. يقول: يجدون نعته وأمره ونبوته مكتوباً عندهم)[١].

وجاء في معرض الحديث عن عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قوله تعالى: ﴿وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾[٢].

قال القرطبي عند قوله تعالى: ﴿يأتي مِنْ بعدي اسمُهُ أحمد﴾. (أحمد) إسم نبينا ﷺ وهو اسم علم منقول من صفة لا من فعل، فتلك الصفة أفعل التي يراد بها التفضيل، فمعنى أحمد أي أحمد الحامدين لربه، والأنبياء صلوات الله عليهم كلهم حامدون لله ونبينا أكثرهم حمدا وأما محمد فمنقول من صفة أيضا، وهي في معنى محمود، ولكن فيه المبالغة والتكرار فالمحمد هو الذي حمد مرة بعد مرة وهذا الاسم مطابق لمعناه. والله سماه قبل أن يسمي به. وفي الصحيح: (لي خمسة أسماء أنا محمد وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي تحشر الناس على قدمي وأنا العاقب والعاقب الذي لا نبي بعده)[٣].

وقال الطبري: (حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: أخبرني معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد عن عبدالاعلى بن هلال السلمي عن العرباض بن سارية قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: إني عبدالله مكتوب بخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم بأول ذلك: دعوة أبي ابراهيم وبشارة عيسى بي، والرؤيا التي رأت أمي، وكذلك أمهات النبيين ترين، إنها رآت حين وضعتني أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام)[٤].

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن للطبري (جـ ٩ ص ٥٣).

(٢) سورة الصف: آية رقم ٦.

(٣) الجامع لاحكام القرآن للقرطبي (جـ ١٢ ص ٨٣- ٨٤) والحديث أخرجه البخاري.

(٤) (جامع البيان للطبري) (جـ ٢٨ ص ٥٣).

وقال الإمام أحمد : (حدثنا حسن بن موسى سمعت خديجاً أخا زهير بن معاوية عن أبي إسحاق عن عبدالله بن مسعود قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن نحو من ثمانين رجلاً منهم عبدالله بن مسعود وجعفر وعبدالله بن رواحة وعثمان بن مظعون وأبو موسى ، فأتوا النجاشي وبعثت قريش عمرو بن العاص[١] وعمارة بن الوليد بهدية فلما دخلا على النجاشي سجدا له ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ثم قالا له: إن نفراً من بني عمنا نزلوا ورغبوا عنا وعن ملتنا قال: فأين هم؟ قالا: هم في أرضك فابعث اليهم. فبعث اليهم. فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم. فاتبعوه. فسلم ولم يسجد. فقالوا له: ما لك لا تسجد للملك؟ قال: إنا لا نسجد إلاّ لله عز وجل. قال: وما ذاك؟ قال: إن الله بعث إلينا رسوله فأمرنا ألاّ نسجد لأحد إلاّ لله عز وجل وأمرنا بالصلاة والزكاة. قال: عمرو بن العاص: فإنهم يخالفونك في عيسى بن مريم. قال: ما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه؟ قال نقول كما قال الله عز وجل: هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسها بشر. ولم يتعرضها ولد. قال: فرفع عوداً من الأرض ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان: والله ما يزيد على الذي نقول فيه ما يساوي هذا ، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذي نجد في الإنجيل ، وأنه الذي بشّر به عيسى بن مريم ، إنزلوا حيث شئتم ، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه ، وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما)[٢].

وروى ابن سعد قال: (أخبرنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك المدني عن موسى بن يعقوب الزمعي عن سهل مولى عثيمة أنه كان نصرانياً من أهل

---

(١) كان ذلك قبل اسلامه. وكان موفدا من قبل قريش لتأليب النجاشي على المهاجرين في الحبشة. انظر سيرة ابن هشام في الكلام عن هجرة الحبشة جـ ١ ص ٣٥٨/٣٥٩/٣٦٠

(٢) تفسير ابن كثير (جـ ٤، ص ٣٤٢).

مريس وكان يقرأ الانجيل فذكر أن صفة النبي ﷺ في الإنجيل، وهو من ذرية إسماعيل اسمه أحمد)[1].

وعلى الرغم من اندثار كل من التوراة والإنجيل اللذين نزلا من عند الله على كل من موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، وقيام بعض أتباعهما بكتابة الكتابين على تباعد الأزمان واختلاف المشارب، وعلى الرغم من تعدد النسخ بتعدد المعطيات الفكرية للكاتبين فإن بقايا من البشارة بخاتم المرسلين محمد نجدها في إشارات لم تستطع الأيادي والأفاعيل طمس مدلول الحق فيها. وإليك بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر.

ففي التوراة ورد نص يقول (جاء من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران...)[2].

ومعروف بالتحقيق أن جبل فاران هي جبال مكة. كما ذكر ذلك العقاد في كتابه (مطلع النور) في نقله عن عبدالحق فديارتي، وقال إن الشواهد القديمة جميعا تنبيء عن وجود فاران في مكة)[3].

وورد عن موسى الكليم في التوراة (إن نبياً مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم أبناء ابراهيم)[4].

ولا مجال للكلام بعد هذا النص الصحريح جداً من التوراة في أن المقصود هو محمد ﷺ.

أما في الإنجيل فقد جاء قول يوحنا حكاية عند المسيح عليه السلام: (وأما الآن فأنا ماض إلى الذي أرسلني، وليس أحد منكم يسألني أين تمضي، لكن لأني قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم، لكني أقول لكم الحق أنه خير لكم أن

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (جـ ١ ص ٦٤) طبعة الشعب.

(٢) سفر التثنية من التوراة الاصحاح الثالث والثلاثين.

(٣) مطلع النور، عباس محمود العقاد ط ١٩٦٩ بيروت ص ١٧.

(٤) مطلع النور، عباس محمود العقاد ط ١٩٦٩ بيروت ص ١٧.

أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم (الفارقليط)، لكن إن ذهبت أرسله اليكم، ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطيئته، وعلى بره، وعلى دينونة، أما على الخطيئة فلانهم لا يؤمنون بي، وأما على بره فلأني ذاهب الى أبي ولا ترونني أيضاً، وأما على دينونة فلان رئيس هذا العالم قد دين، إن لي أموراً كثيرة أيضا لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا، وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية، ذاك يمجدني لأنه لا يأخذ مما لي ويخبركم)[1].

هذا نص ما هو وارد عن (يوحنا). ونستخلص منه أموراً هامة مع إغفال التعرض للصياغة التي لا نملك من أمرها شيئاً:

الأمر الاول: التبشير برسالة نبينا ﷺ (الفارقليط) وفي بعض النسخ (المعزىّ) وترجمة اللفظ بالعربية (أحمد)[2]، وهذا مطابق لقوله تعالى ﴿ومبشِّراً برسولٍ يأتي منْ بعدي أسمُهُ أحمد﴾. ويلاحظ ان (الفارقليط) تكتب احياناً بارقليط وأحياناً باركليت إذ تصرف المترجمون في اللفظة لدى نقلها عن اللغات الاصلية الثلاث العبرية والكلدانية واليونانية.

وقد سأل المرحوم الاستاذ/ عبدالوهاب النجار الدكتور (كارلونيليو) المستشرق الايطالي عن معنى هذه الكلمة فقال: ان معناها الذي له حمد كثير. وهذا يوافق أفعل التفضيل في أحمد[3].

الأمر الثاني: انه لا يتكلم من عند نفسه، بل كل ما يسمعه ويوحى اليه به من ربه يبلغه، وهذا يلتقي مع قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ ما كنتُ بِدعاً منَ الرَّسُلُ، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلاَّ ما يُوحى إليَّ وما أنا إلاَّ

---

(١) انجيل يوحنا- الاصحاح السادس عشر فقرات ٥- ١٠.

(٢) انظر (البشارة بني الاسلام في التوراة والانجيل) للدكتور أحمد حجازي السقا طبعة دار التراث، مصر.

(٣) (محمد رسول الله) للاستاذ محمد رضا الطبعة الثانية- بيروت ص ٤٦.

نذيرٌ مبينٌ﴾(١)، وقوله عز وجل: ﴿وكذلكَ أوْحينا إليكَ روحاً مِنْ أمرنا، ما كنتَ تدري ما الكتابُ ولا الإيمان، ولكن جعلناهُ نوراً نهدي بهِ من نشاءُ منْ عبادِنَا، وإنَّكَ لتهدي إلى صراطٍ مستقيمٍ﴾(٢).

الأمر الثالث: انه يمجد عيسى عليه السلام، وليس هناك تمجيد أمجد ولا أرفع مما جاء في القرآن الكريم، وقد جاء فيه كثيرا، ثناء على عيسى، وتبرئة لعرضه وعرض أمه مما اتهمها به اليهود، فقال تعالى فيما قال:﴿وإذْ قالتِ الملائكةُ يا مريمُ إنَّ الله اصطفاكِ وطهَّركِ واصطفاكِ على نساءِ العالمينَ يا مريمُ اقنتي لربِّكِ واسجدي واركعي مع الراكعين ذلك من أنباءِ الغيبِ نوحيه إليكَ وما كنتَ لديهم إذ يلُقون أقلامهُمْ أيُّهم يكفل مريم وما كنتَ لديهم إذ يختصمونَ، إذ قالتِ الملائكةُ يا مريم إنَّ اللهَ يبشِّرُكِ بكلمةٍ منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومِنَ المقرَّبينَ، ويكلِّمُ الناسَ في المهدِ وكهْلاً ومنَ الصالحينَ﴾.

الأمر الرابع: أن شريعة الرسول المبشرْ به باقية إلى قيام الساعة ولا يأتي بعده نبي، وهذا يلتقي مع قوله تعالى: ﴿ما كانَ محمدٌ أبا أحدٍ منْ رجالِكُمْ ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً﴾(٣). وقوله ﷺ فيما حدث به الإمام البخاري فقال: (حدثنا قتيبة بن سعد حدثنا اسماعيل بن جعفر عن عبدالله بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال:«إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بيتا فأحسنه وأجمله إلاّ موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة، قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»(٤).

---

(١) سورة الاحقاف: آية رقم ٩.

(٢) سورة الشورى: آية رقم ٥٢.

(٣) سورة الاحزاب: آية رقم ٤٠.

(٤) صحيح البخاري (جـ ٨ ص ٢٢٦) طبعة الشعب.

وغير هذه النصوص التي نقلناها، كثير في الاسفار العديدة لكلا العهدين القديم والجديد، واللذين كتبتها أقلام عديدة، وأعطت مفاهيمها ثقافات متنوعة على مختلف الأزمان والامكنة، بيد أنها مضت عبر الأجيال يجري فيها الله قدره بحفظ أدلة البشارة بخاتم المرسلين بين ثناياها. وقد جمعها وتتبعها بعض الباحثين، في مؤلف خاص حتى يسهل الرجوع اليها، كما فعل الدكتور أحمد حجازي السقا في كتابه البشارة بنبي الاسلام في التوراة والإنجيل، حيث ذكر فيه الكثير والكثير من هذه البشارات التي استخرجها من الكتاب المقدس الحالي برغم تحريفه، الذي لا يخالف فيه أحد من العلماء والمؤرخين.

ونذكر أيضاً مثالاً آخر من البشارات ورد في إنجيل متّى على لسان المسيح يخاطب بني إسرائيل (هو ذا بينكم يترك لكم خراباً لأني أقول لكم إنكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب)[1]، فهذا النص يدل- كما ذكر الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله- على أن هناك من يأتي بعده مباركاً باسم الرب، ولم يأت بعده إلاّ محمد ﷺ[2]. وهذا يوافق قول الله في القرآن الكريم عن عيسى ﴿ومبشّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾[3] وفي الختام نذكر نبوءة وردت في إنجيل متّى تقول: (لذلك أقول لكم إن ملكوتَ الله ينزع منكم، ويعطي لأمة تعمل أثماره، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه)[4].

ولو أردنا الاستقصاء لطال بنا الحديث، ولكن فيما أوردنا كفاية للإشارة إلى هذه البشارات، ومن أراد التوسع فعليه الرجوع إلى الكتب التي أفردت لذلك، مثل ما كتبه (عبدالحق فديارتي) الهندي وسماه (محمد في الأسفار الدينية العالمية)[5] إضافة إلى كتاب الدكتور السقا الذي أشرنا إليه من ذي قبل.

---

(١) انجيل متى الاصحاح الثالث والعشرين.

(٢) (خاتم النبيين) محمد أبو.

(٣) سورة الأحزاب: آية رقم ٤٠.

(٤) صحيح البخاري (جـ ٨ ص ٢٢٦) طبعة تى الاصحاح الحادي والعشرين.

(٥) ذكره العقاد في كتابه مطلع النور ص ١٤ ط دار الكتاب العربي سنة ١٩٦٩م.

الفصل الثالث:

العالم كان ينتظر محمداً ﷺ

دأب كثير من المؤرخين والكاتبين في حياة سيدنا محمد ﷺ أن يمهدوا لكتاباتهم بعرض الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في شبه الجزيرة العربية، تلك المنطقة التي ولد فيها رسول الله ﷺ، ويفرغون طاقاتهم في الوصف حتى ليخيل للقارىء أن ما دون هذه المنطقة كان يتمتع باستقرار الأوضاع، ولكن الحقيقة أن العالم كله كان يشكو مختلف العلل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

فالطبقية ووراثة الأعراق كانت منطق الحياة الإجتماعية، والحكم المطلق والحق الآلهي للملوك كان يحتل موضع القداسة في الحياة السياسية، واستعباد المحكومين والمقهورين، وامتصاص دمائهم وعرقهم المتدفق من الإجهاد، والعنت كان المظهر السائد والمسيطر على الحياة الاقتصادية... وحيثما ولى الإنسان وجهه آنذاك وجد هذه الظواهر قاسماً مشتركاً يعاني منه العالم في مشرق الأرض ومغربها.

ومرت القرون بطيئة متثاقلة، ليلا مدلهما مشحونا بالهموم والأسى يتنفس فيه البشر - إلا قليلا ممن لهم الهيمنة والسيطرة - آلاماً مبرحة وأشجاناً لافحة، حتى كادوا ينسون إنسانيتهم، فاستغلق لدى الفرد آنذاك الفكر، واستمرأ الوثنية في أشكالها المتنوعة، وتبلد الشعور لديه واستطاب العبودية في شتى ألوانها.

وبين استغلاق الفكر وتبلد الشعور توارت إنسانية الانسان، وكانت قافلة الحياة كذلك خائرة العزيمة، والعالم الانساني يكابر في هيكله المنحل عوامل

البلى، من وثنية توبق الروح، وجاهلية توثق العقل، ومادية ترهق الجسد، وكانت الولاية على الدنيا في ذلك الحين لأعقاب من الروم شفهم الفسوق والترف وأخلاف من الفرس هدهم الغلول والطمع، والناس عدا هؤلاء أوزاع وهمج[1].

لقد كان عالماً متهالكاً متداعياً قد شارف النهاية. خلاصة ما يقال فيه أنه عالم فقد العقيدة كما فقد النظام أي أنه فقد أسباب الطمأنينة في الباطن التي تنبع من امتلاء القلب بالإيمان وفي الظاهر التي تنتج من الإستناد إلى سلطة مادية قوية.

ومن هنا سقطت روما في القرن الخامس الميلادي، وبقيت بيزنطة تعاني شيخوخة وعجزاً، ولعل المؤرخ الكبير (جيبون) صاحب كتاب (سقوط الإمبراطورية الرومانية واضمحلالها) من أصدق من يرسم صورة بيزنطة في هذه الفترة فيقول: فيما نقله عنه الاستاذ أنور الجندي:

(وفي أواخر القرن السادس وصلت الدولة الرومانية في ترديها وهبوطها آخر نقطة وكان مثلها كمثل دوحة عظيمة كانت أمم العالم في حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف ولم يبق منها إلاّ الجذع الذي لا يزداد كل يوم إلاّ ذبولا)[2]، ويقول (درابر): (لما بلغت الدولة الرومية من القوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات، هبطت في فساد الأخلاق وفي الإنحطاط في الدين والتهذيب إلى أسفل الدركات. بطر الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض واستهتروا استهتاراً، وكان مبدؤهم أن الحياة فرصة للتمتع ينتقل فيها الإنسان بين نعيم وترف ولهوة ولذة)[3].

وبلغ الإنحلال الإجتماعي غايته في الدولة الرومية والشرقية، وعلى كثرة

---

(١) وحي الرسالة للأستاذ أحمد حسن الزيات (جـ ١ ص ٣٠).
(٢) (الاسلام وحركة التاريخ) للاستاذ أنور الجندي (ص ١٣).
(٣) المصدر السابق صفحة ١٣.

نكبات الرعية ازدادت الاتاوات، وتضاعفت الضرائب حتى أصبح أهل البلاد يتذمرون من الحكومات، ويمقتونها مقتاً شديداً، ويفضلون عليها أية حكومة أجنبية. وذابت الفضيلة وانهارت دعائم الأخلاق، حتى صار الناس يفضلون العزوبة على الحياة الزوجية، ليقضوا مآربهم في حرية في منأى من تكاليف الحياة الأسرية وتبعاتها وكان العدل كما يقول (سيل) يباع ويساوم عليه مثل السلع وكانت الرشوة والخيانة تحظيان بالتشجيع والاطراء!!!(١).

ويقول مؤلفو (تاريخ العالم) كما ذكر الأستاذ الندوي عنهم:
(إن المدن العظيمة التي أسرع اليها الخراب ولم تسترد مجدها تشهد بما أصيبت به الدولة البيزنطية في هذا العهد. من الإنحطاط الهائل الذي كانت نتيجته المغالاة في المكوس والضرائب، والإنحطاط في التجارة، واهمال الزراعة وتناقض العمران في البلدان)(٢).

وخرجت بيزنطة من الدين إلى الجدل العقيم، الذي أصبح بعد ذلك علماً عليها، وتضاءلت سطوتها في البر والبحر، حتى طمع فيها من كان يحتمي بجوارها(٣).

أما الأمم الأوروبية المتوغلة في الشمال والغرب فكانت تضرب في ظلال الجهل المطبق، والحروب الدامية.. منعزلة عن قافلة الحياة الانسانية بعيدة عنها. لا تعرف عن العالم ولا يعرف عنها العالم إلاّ قليلا، ولم تكن في الشرق أو في الغرب مما يأبه له التاريخ في عير ولا نفير، وكانت بين نصرانية وليدة ووثنية متخبطة(٤).

وفارس التي شاطرت الروم في حكم العالم وقتئذ. كانت هي الحقل القديم والخصب لنشاط كبار الهدامين الذي عرفهم التاريخ. اذ ظهر (ماني) في القرن

---

(١) د. صابر طعيمة (الاسلام ومشكلات السياسة) دار الجيل- بيروت عام ١٩٧١م صفحة ٦٣.
(٢) (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) للاستاذ (أبو الحسن الندوي) (ص ٣٠، ٣١).
(٣) (عبقرية محمد) للاستاذ (عباس محمود العقاد) (ص ١٢).
(٤) انظر (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) للاستاذ الندوي) ص ٣٤.

الثالث الميلادي، وكان ظهوره رد فعل عنيف غير طبيعي للنزعة الشهوية السائدة في البلاد، ونتيجة منافسة النور والظلمة الوهمية، فدعا إلى حياة العزوبة لحسم مادة الفساد والشر من العالم، وأعلن أن امتزاج النور بالظلمة شر يجب الخلاص منه، فحرم الزواج استعجالا للفناء، وانتصاراً للنور على الظلمة بقطع النسل. وبعد (ماني) قامت دعوة (مزدك) الذي ولد عام ٤٨٧م فأعلن أن المال والنساء هما أهم ما تجب فيه المساواة والاشتراك- يعني أن كلاهما شائعاً بين الناس مثلما فعلت الشيوعية المعاصرة، حينما استباح قادتها أعراض الناس وأموالهم،قال (الشهرستاني) عن (مزدك) (أحل النساء وأباح الأموال، وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ)[١].

ولعل هذا هو المناخ الفكري الذي نبتت فيه (الشيوعية) إذ كان (مزدك) يعتبر أن المال والنساء مما حرصت النفوس على رعايته وحراسته، وأن الناس قد ولدوا سواء لا فرق بينهم، فينبغي أن يعيشوا لا فرق بينهم، والمال والنساء أهم ما يجب فيه المساواة والاشتراك..!!

وحظيت هذه الدعوة برضا الشبان والمترفين والمنحلين، وصادفت هوى من قلوبهم وسعدت كذلك بحماية البلاط، فأخذ (قباذ) يناصرها، ونشط في تأييدها حتى انغمست الدولة والشعب في الفوضى الخلقية وطغيان الشهوات[٢].

يقول الطبري في تاريخه: (ارتضى السفلة ذلك واغتنموه وكاتفوا (مزدك) واصحابه وشايعوه، فابتلى الناس بهم، وقوي أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله لا يستطيع الإمتناع منهم، وحملوا (قباذ) على تزيين ذلك، وتوعَّدوه بخلعه فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ولا المولود أباه، ولا يملك الرجل شيئا مما يتسع به)[٣].

---

(١) الشهرستاني (الملل والنحل) جـ ١ ص ٢٤٩- طبعة دار المعرفة بيروت.

(٢) (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ص ٣٨ وما بعدها.

(٣) تاريخ الطبري (جـ ٢ ص ٨٨).

وإجمالاً فقد كان المجتمع الفارسي قائماً على قواعد النسب والحرف، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها، ولا تصل بينها صلة، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقاراً لأمير أو كبير، وكان من نظم السياسة الفارسية أن يقنع كل واحد بمركزه الذي منحه إياه نسبه ولا يستشرف لما فوقه، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي وجد نفسه فيها وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها من بعض تميزا واضحا، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع لا يتعداه(١).

ذلك كان أمر الدولتين اللتين كانتا تتمتعان بالمركز المرموق في تلك الفترة من فترات التاريخ وتتداولان حكم الأمم من حولها.

وأما أمر غيرهما من بقية أمم العالم المعمور فكان يشارك هاتين الدولتين الإنحراف، ويقاسي العلل أيضا على اختلاف ألوان هذه العلل وتعدد أشكالها.

وهكذا انتهت البشرية في حياتها إلى أبعد مهاوي الإضطراب الأمر الذي كان منذراً بالخطر المحدق بالإنسانية في فكرها وعقيدتها ونظامها... وكان لا بد من دعوة تتمثل في أهدافها انسانية الإنسان وتعيد إليه صوابه، وتتيح له حياة يصوغ فيها فكره وحضارته ويعبر عن وجوده تعبيراً متناغماً مع فطرته التي فطره الله عليها.

وبين آلام المخاض التي عانتها الإنسانية كانت تومض في أفق الجزيرة العربية المجهدة بشرى الرسالة الخاتمة التي تناقلتها بقايا الصدق من التوراة والإنجيل فتهيأ لها نفر من الناس وانتظروها واستشرفوا لها، وقد ذكر (ابن سعد) من تسمى في الجاهلية بمحمد رجاء أن تدركه النبوة، لما كان من خبرها فقال: (أخبرنا علي بن محمد بن عبدالله بن أبي سيف سلمة بن عثمان عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال: كانت العرب تسمع من أهل الكتاب، ومن الكهان أن

(١) (ايران في عهد الساسانيين) (ص ٤٢) من كتاب الاستاذ الندوي السابق (ص ٤٢) و(ص ٤٠).

نبياً يبعث من العرب إسمه (محمد) فسمى من بلغه ذلك من العرب ولده (محمداً) طمعا في النبوة. وأخبرنا علي بن محمد عن سلمة بن الفضل عن محمد بن اسحاق قال: سمي محمد بن خزاعي بن حزابة من بني ذكوان من بني سليم طمعاً في النبوة، فأتى أبرهة باليمن فكان معه على دينه حتى مات، فلما زّجه قال أخوه قيس بن خزاعي:

فذلكم ذو التاج منا محمد ورايته في حومة العرب تخفق

وأخبرنا علي بن محمد عن مسلمة بن علقمة عن قتادة بن السكن العرني قال: كان في بني تميم محمد بن سفيان بن مجاشع وكان أسقفاً، قيل لأبيه أنه يكون في العرب نبي اسمه محمد فسماه محمداً، ومحمد الجشمي في بني سواءة ومحمد الأسيدي. ومحمد الفقيمي، سموهم طمعاً في النبوة)[1].

وتمر الايام.. والتاريخ منتبه يترقب، والقدر يطوي سره في ضمير الغيب ينتظر الميقات في علم الله، وبقايا الصدق من آيات الكتب السابقة المبشرة بالرسول المنتظر تتردد في إباءٍ مع الأحداث والأفاعيل، يحفظها الأمناء من أهل الكتاب ويعرفونها كما يعرفون أنفسهم وأبناءهم، فيورثها السابقون منهم للاّحقين حفظاً في الصدور، وتسجيلاً بالأقلام، وتومض في خضم الحياة العاتي ببوارق الأمل فيهوى إلى مصدرها الباحثون عن الحق، ويمضون لا يلوون على شيء إلاّ أن يحاولوا الوصول. ومن هؤلاء سلمان الفارسي الذي جدَّ في الطلب. حتى وصل الى الحق.

ففي قرية قريبة من (أصبهان) ولد وشب، وكان أبوه دهقان[2] القرية نشأ على المجوسية حتى صار (قطن)[3] النار التي يوقدها، لا يتركها ساعة تخبو، مما وجب معه أن تظل هذه النار المقدسة في سماء فارس، لتكون شاهدة ليل نهار

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (جـ ١ ص ١١١- ١١٢).

(٢) الدهقان: شيخ القرية العارف بالفلاحة وما يصلح الأرض والشجر وهو المرجع في ذلك.

(٣) قطن النار: خادمها الذي يخدمها ويمنعها أن تنطفىء.

على مكافحة النور والحياة لقوى الشر المظلمة، هكذا كان حال سلمان وحال فارس معه.

وكان الشاب سلمان يسبح بحمد الآلهة ويقدس لها. يطهر نفسه ببول البقر ويتعلم أحكام (زرادشت) ولكنه كان يشعر باحتياجه إلى أمر آخر فيضطرب قلبه أحياناً. وفي رحلة للصيد مرَّ سلمان بشيخ جالس أمام خيمة من وبر الجمل يقرأ كتاباً وعيناه تدمعان.. كان الشيخ نصرانياً نسطورياً يقرأ الإنجيل وكان للنصرانية في بلاد فارس أتباع....، وأثر ذلك الشيخ الكتابي في سلمان الفارسي كثيراً، وعرف رجالاً من النصارى فصار يذهب إلى كنيستهم ويستمع إلى صلواتهم ويسر منها ويود لو يشاركهم فيها وقال: هذا خير من الدين الذي نحن عليه، ولم يبرح الكنيسة ذات مرة حتى غربت الشمس مهملاً القيام بما أوصاه به أبوه. ثم باح لأبيه بسر ما يساوره فقال له أبوه: أي بني: ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه وعمل الأب جهده ما استطاع أن يمنع إبنه من الاتصال بالنصارى.

وعنّ لسلمان أن يلحق بالشام بعد أن سمع بازدهار ذلك الدين الذي انجذب إليه كثير فيها، فسافر إليها مع ركب أنبأه به من بقي في البلاد من النصارى، ووصل سلمان الى دمشق فسأل عن أفضل أهل هذا الدين علماً، فدل على أسقف باحدى الكنائس، فجاءه وقال له: (إني قد رغبت في هذا الدين، فأحببت أن أكون معك وأخدمك في كنيستك، فأتعلم منك وأصلي معك). ورضى الأسقف بذلك.. ولكن سلمان لم يلبث أن خاب أمله، فقد وجد الاسقف رجل سوء، يأمر بالصدقة ويرغب فيها، فإذا جمع القوم إليه شيئاً فيها أكنز لنفسه ولم يعطه المساكين. ثم مات الأسقف، فاجتمع إليه النصارى ليدفنوه، فثار سلمان الفتى، فدل القوم على كنزه، فلما رأوه اشتاطوا غيظاً ورجموا جثته بالحجارة.

ثم جاء القوم برجل آخر فجعلوه مكانه فقَرَّ سلمان به عيناً، ولم يرَ من هو أفضل منه صلاة، ولا من هو أزهد منه في الدنيا، فأحبه حباً جماً وأقام معه زماناً، وأراد سلمان أن يقلده فبلغ من التقشف ما نصحه معه مولاه ذات يوم

قائلاً: (ارفق بنفسك وخفف عنك. فضرر الغلو في التقشف أكثر من نفعه أحياناً..).

ثم سافر سلمان إلى القدس حاجاً... وحضرت الأسقف الوفاة فقال له سلمان: (إني كنت معك وأحببتك حباً جماً، لم أحبه شيئاً قبلك وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟) فقال الأسقف: أي بني! والله ما أعلم أحداً على ما كنت عليه.. فقد هلك الناس وبدلوا.. وتركوا أكثر مما كانوا عليه، إلا رجلا بالموصل فالحق به.

فلما مات الأسقف لحق سلمان بصاحب الموصل الهرم وأقام عنده فلم يلبث أن مات فلما حضرته الوفاة قال له سلمان: (إن أسقف دمشق أوصى بي إليك. وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من الأمر ما ترى، فإلى من توصي لي؟ وبم تأمرني؟ فأمره صاحب الموصل، باللحوق برجل صالح في (نصيبين) فوجده خير رجل على أمر صاحبه. فلما حضرت الوفاة هذا الرجل الصالح أشار على سلمان بأن يلحق برجل (بعمورية).

قال سلمان: (فأتيته بعمورية فأخبرته بخبري فأمرني بالمقام وثاب لي شيئا. واتخذت غنيمة وبقرات، فحضرته الوفاة فقلت إلى من توصي بي؟ فقال الرجل: (لا أعلم أحداً اليوم على مثل ما كنا عليه، ولكن قد أظلك نبي يبعث بدين إبراهيم الحنيفية.. مهاجره بأرض ذات نخل، وبه آيات وعلامات لا تخفى، بين منكبيه خاتم النبوة يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، فإن استطعت فتخلص إليه) ثم توفي الرجل.

قال سلمان: فمر بي ركب من العرب من بني كلاب، فقلت: أصحبكم واعطيكم بقراتي وغنمي هذه وتحملوني إلى بلادكم؟؟ فحملوني إلى وادي القرى فباعوني من رجل من اليهود، فرأيت النخل فعلمت أنه البلد الذي وصف لي. فأقمت عند الذي اشتراني، وقدم عليه رجل من بني قريظة فأشتراني منه وقدم

بي المدينة فعرفتها بصفتها فأقمتُ معه أعمل في نخله[1]. وظل سلمان الفارسي يخدم مولاه اليهودي وهو ينتظر ويترقب على شوق ولهفة، إطلال الفجر الصادق وبزوغ شمس الدين إلى صراط مستقيم يدعو إليه ذلك الذي بشرت به التوراة وبشرَّ به الأنجيل، وما درى سلمان أنه على موعد مع القدر، وأنه قاب قوسين أو أدنى ويتطلع إليه، وأنهما في الغد القريب يلتقيان[2]. ولله الأمر من قبلُ ومن بعدْ.

---

(١) قصة سلمان مشهورة معروفة في كتب السيرة والتواريخ والتراجم وكتب الحديث ونحن نقلناها - بتصرف - من كتاب سيرة الرسول ﷺ لابن هشام جـ ١ ص ٢٢٨/٢٣٢ طبعة مصورة عن الحلبي نشر دار احياء التراث العربي بيروت.

(٢) - أ- حياة محمد لإميل در منجم ترجمة عادل زعيتر (ص ٢٠- ٢٦).- ب- محمد رسول الله- تأليف محمد رضا- ص ٥٠- ٥١.

الفصل الرابع:

خصوصية دعوة الرسول محمد ﷺ

سبق وأن أشرنا إلى أن وجهة الدعوة تتبين من نشأة النبي الذي أعده الله بها للقيام بتلك الدعوة. وهنا نقول أن خصوصية دعوة الرسول محمد ﷺ تتحدد في خلودها وعالميتها.

الخلود:

أما خلودها فيكمن في كونها تقوم على القرآن الكريم الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو معجزة هذه الدعوة، ويعتبر في حد ذاته خصوصية تختص بها هذه الدعوة أيضاً من بين الدعوات الأخرى. وفي هذا المقام نقرر أنه إذا كان لكل نبي آية ومعجزة دلت على صدقه في دعواه وعاونته على تبليغ دعوته، فإنها جميعاً لم تكن من جنس القرآن، وليس لها التأثير الإستمراري في بقاء الدعوة وخلودها مثل القرآن، ذلك أن كل دعوة من دعوات الرسل الكرام لازمتها عوامل نجاحها وانتشارها، واذا كان الله سبحانه قد خلق الكون وجعله يسير وفق سنن قد سنت، ونظم قد أحكمت، وارتباط بين الأسباب والمسببات العادية لا يتخلف وإن تخلفت المسببات عن أسبابها ووجدت الأمور منفكه عن علتها، كالولد يولد من غير أب وكالحركة تجيء من جامد لا يتحرك كعصا. ونار تنكفيء وقد أوقدت، حكم العقل بأن الذي فعل ذلك فوق الأسباب العادية ومسبباتها، ولو ساير العقل منطقه إلى أقصى مداه، وليس بعيداً في حكم المنطق العقلي المستقيم الذي يصل الى المدى من أقربه، فإنه لا بد واصل إلى أن خرق العادات ومخالفة أسبابها ومسبباتها لا بد أن يكون بأمر خالقها وموجودها. وإذا كان القصور

العقلي لا يصل إلى هذه الغاية، فإنه لا بد واصل إلى أن خرق هذه العادات لا بد أن يكون لغاية، وأنه إذا وجدت هذه الغاية وبينت مقاصدها، وعلم أن ذلك الخرق لهذه الغاية تبين معه صدق ما يدعى وأنه يُعْلَم من وراء ذلك الخالق الحكيم، المسيطر على كل شيء الذي يفعل ما يريد

لذلك كان الأمر الخارق للعادة حجة الصدق لمن يعي أنه يتكلم عن الخالق الحكيم الفعال لما يريد، لأنه لا يغير العادات سواه وإن الصادق يعلن دعواه ويقيم ذلك برهانا عليها، ويتحدى الناس أن يفعلوا مثلها ويسمى في هذه الحال معجزة.

ولذلك عرفوها - أي المعجزة- بأنها الأمر الخارق للعادة الذي يدعي به من جرى على يديه انه نبي من عند الله تعالى، ويتحداهم أن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين. والمعجزة الخارقة للعادة تكون فعليه وقتيه يراها ويعايشها أهل زمانها، ولا يبقى تأثيرها لمن بعدهم إلاّ الذكر فقط. وذلك كناقة صالح، وعصا موسى، ومعجزات عيسى عليه السلام ونحوها.

وإلى جانب المعجزة المادية الفعلية الوقتية، معجزة هي شيء قائم بذاته ثابت، ولكن الأعجاز فيه أمر لا يدرك بالحس المباشر، ولكن يدرك بالدراسة والفحص، وقد يدعي بعض من لا يسبر غوره ويعرف أمره أنه يستطيع أن يأتي بمثله وما هو بمستطيع، وأنه في قدرته، وليس بقادر عليه، وذلك يكون في المعجزة التي تكون من نوع الكلام، وذلك في معجزة محمد ﷺ التي هي القرآن الكريم، فقد كان الغرور يوهم بعض المخاطبين به أن عندهم القدرة على الإتيان بمثله، فكان لا بد من كشف هذا الغرور، وإزالة تلك الدعوى الباطلة، ليتبين وضح الحق، ولذلك طالبهم الله تعالى بأن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريبٍ مما نَّزلنا على عبدِنا فأتوا بسورةٍ مِنْ مثلِهِ، وادعوا شهداءَكُمْ مِنْ دونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صادقينَ﴾[١]،

---

(١) سورة البقرة: آية رقم ٣٢.

وتحداهم في آياتٍ أخرى أن يأتوا بعشرِ سور مثله مفتريات، بل وقرر سبحانه أن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثله، فقال تعالى: ﴿قل لئن أجتمعتْ الإنسُ والجن على أَنْ يأتوا بمثلِ هذا القرآن لا يأتُونَ بمثلِهِ ولو كانَ بعضُهُمْ لبعضٍ ظهيراً﴾(١).

وهنا يسأل سائل لماذا كانت معجزة إبراهيم ناراً موقدة صارت برداً وسلاماً عليه، ومعجزة موسى عليه السلام كانت عصاً صارت حية تسعى، وغيرها مما أيده الله به الى تسع آيات كلها كانت مادية حسية، وكذلك كانت معجزة عيسى عليه السلام إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى باذن الله، وإنزال مائدة من السماء، بل كانت ولادته ذاتها معجزة حسية إذ ولد من غير أب، وتكلم في المهد صبيا إذ قال: ﴿إنِّي عبدُ اللهِ آتانِيَ الكتابَ وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أينما كُنْتُ وأوصاني بالصَّلاةِ والزكاةِ ما دمتُ حَيّاً، وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً، والسَّلامُ عليَّ يَوم وُلِدْتُ ويومَ أموتُ ويومَ أُبعثُ حياً﴾(٢). لماذا كانت معجزات الأنبياء السابقة حسية على ذلك النحو، ومعجزة محمد ﷺ معنوية فقد كانت بياناً يتلى، وذكراً حكيماً، يحفظ فيه بيان الشرائع المحكمة الخالدة؟؟؟؟.

قبل أن نخوض في الإجابة عن السّؤال الوارد في موضعه، نقرر أن كون المعجزة مادية حسية تبهر الأعين بادىء الرأي لا يدل على علو المنزلة، أو عكسها، ولكنها حكمة الله تعالى العليم بكل شيء، القادر على كل شيء، والله تعالى قد فضل بعض الرسل على بعض، فمنهم من كلم الله ورفع بعضهم فوق بعض درجات، قال تعالى: ﴿تلكَ الرُّسُلُ فضَّلنا بعضَهُمْ على بعضٍ، منهمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ ورفعَ بعضَهُمْ درجاتٍ﴾(٣)، ولكن ليست الرفعة بكون الآيات مادية حسية، بل بأمور قدرها الحكيم العليم الذي له وحده حق التفضيل والرفعة.

---

(١) سورة الاسراء: آية رقم ٨٨.
(٢) سورة مريم: آية رقم ٣٠، ٣٣.
(٣) سورة البقرة: آية رقم ٢٥٣.

ونعود بعد ذلك إلى الإجابة عن السؤال الوارد، فنقول: إن العلماء قالوا إن كل معجزة مناسبة للعصر الذي أرسل فيه النبي ﷺ اذ تكون هادية ومرشدة، وخرقها للعادات الجارية يكون أوضح، ومناسبتها لرسالة النبي المبعوث يكون دليلاً على كمال الرسالة وعموم شمولها لكل الازمنة(١).

وقد نخالفهم في بعض ما ذكروا أو نوافقهم، فنرى أن إبراهيم جاء في قوم كانوا على مقربة من عبدة النار، فكان في إطفاء الله تعالى للنار من غير سبب ظاهر، بيان بعجز النار التي تعبد.

ونوافقهم في أن معجزات موسى عليه السلام كانت مناسبة لأهل مصر، لأن السحر والكهانة كانا فيهم، وقد كان للسحرة مكانة عندهم، وبقية معجزاته كانت متعلقة بالزرع وآفاته، وهم أهل زرع وضرع من أقدم العصور، كما قال تعالى: ﴿فأرْسلنا عليهمُ الطُّوفان والجرادَ والقُّمل والضفادِعَ والدمَ آيات مفصلات، فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمينَ، ولما وقعَ عليهمُ الرِّجزُ قالوا يا موسى ادعُ لنا ربَّكَ بما عَهِدَ عندَكَ لئنْ كشفتَ عنا الرجزَ لنؤمنن لكَ، ولنرسلنَّ معكَ بني إسرائيلَ، فلما كشفنا عنهم الرجزَ إلى أجلٍ هم بالغوهُ إذا هُمْ ينكثونَ﴾(٢)، وهكذا كانت تسع آيات حسية مناسبة لأهل مصر، وبني إسرائيل، فكانوا يقولون إنه سحر. واقرأ قوله تعالى: ﴿ولقدْ آتينا موسى تسعَ آياتٍ بيناتٍ فاسأل بني إسرائيلَ إذ جاءهم، فقالَ له فرعونُ إني لأظنُّكَ يا موسى مسحوراً قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلاَّ رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً﴾(٣).

هذه معجزات ابراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام وهي مناسبة لزمنهما، وكذلك معجزة عيسى عليه الصلاة والسلام كانت مناسبة لعصره، لا لأن

---

(١) محمد ابو زهرة: (المعجزة الكبرى القرآن الكريم) دار الفكر العربي الطبعة الثانية عام ١٩٧٢ ص ١٠- ١٣ بتصرف.

(٢) سورة الاعراف: آية رقم ١٣٣، ١٣٥.

(٣) سورة الاسراء: آرية رقم ١٠١، ١٠٢.

عصره شاع فيه علم الطب كما يقول بعض علماء الكلام، لأن علم الطب لم يكن رائجا بين بني إسرائيل، فلم يكن بينهم علم أبقراط، كما قرر رينان في كتابه «حياة يسوع» بل إن معجزاته كانت من ذلك النوع لسبب أخر يجب أن نتلمّسه من غضون التاريخ. ومن حال بني إسرائيل، ذلك أن العصر كان عصراً مادياً يؤمن بالمادة ولا يؤمن بالغيب، بل كان من اليهود من لا يؤمن باليوم الآخر، وإنك لترى أن التوراة التي بأيدينا - وهي ميراثهم من التوراة التي حرفت - ، تقرر أن نفس الإنسان هي دمه، وكان بجوار هذه الروح المادية التي سادت بني إسرائيل إستجابة لما هو سائد في عصرهم الروماني الذي كان يؤمن بالمادة، وكان بجوار هذا إيمانٌ بالأسباب العادية والمسببات، بحيث يعتقدون أنه لا يمكن أن ينفك السبب عن مسببه، واللازم عن ملزومه، فلا توجد نتائج من غير سبب عادي، فلا ولد من غير والد، ولا حياة تكون بعد موت من يموت، فلا يرتد حيا، وقد عجزت الأسباب عن أن يرتد حياً من يموت، وعجزت الأسباب عن أن يرتد بصيراً من يولد أعمى، لقد سادت الفلسفة الأيونية، والفلسفة اليونانية التي تقرر لزوم الأسباب المادية، حتى لقد فرضوا أن الأشياء نشأت عن الخالق لها بقانون السببية، فقالوا إن الكون نشأ عن المنشىء الأول نشوء المسبب عن سببه بلا إرادة مختارة منشئة. لقد قرروا أن قانون الأسباب هو الذي يحكم كل شيء[1].

لذلك كانت معجزات عيسى عليه السلام متضمنة الرد والتنبيه في أمرين: أولهما:

بيان سلطان الروح، فقد ظهرت الروح مسيطرة موجهة مرشدة في أنه كان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وفي أنه عليه السلام أحيا الموتى بإذن الله، وأخرجهم من قبورهم بإذن الله، وأنزل عليه مائدة من السماء بإذن الله تعالى.

(١) محمد أبو زهرة المصدر السابق صفحة ١٤.

وثانيهما: أنه كانت معجزاته عليه السلام هادمة لارتباط الاسباب العادية بمسبباتها، لقد ولد من غير أب، والأسباب العادية تقرر أنه لا مولود من غير والد، وتكلم في المهد صبيا، وذلك غير المقرر في الأسباب والمسببات وأخبر عن بعض المغيب عنه، وذلك غير الأسباب العادية التي توجب المعاينة في صدق الأخبار، وأحيا الموتى بإذن الله، وذلك ما لا يتحقق في الأسباب العادية.

وهكذا كل معجزات الأنبياء إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم- سواء أكانت مادية في كونها، أم كانت متضمنة معانى روحية- كانت من النوع الذي يحس بالرؤية، ويكون من بعدها التأمل، وليس من النوع الذي يكون بالتأمل، ولا يدرك إلاّ بالتأمل وإن كان قائماً ثابتاً في الوجود من غير ريب، وكانت حوادث تقع، ولا تبقى، ولا يبقى منها إلاّ الأخبار بها، فلا يعرفها على اليقين إلاّ من عاينها.

ولكن معجزة محمد عليه السلام كانت من نوع آخر، فلم تكن حادثة تقع وتزول من غير بقاء لها إلاّ بالخبر، بل كانت قائمة تخاطب الأجيال، يراها ويقرؤها الناس في كل عصر، وهي مناسبة لرسالة النبي محمد ﷺ، لعمومها في الأجيال، ولمكانته بين الرسل، ومقامه في هذا الوجود الإنساني إلى يوم القيامة.

إن معجزات الأنبياء السابقين لا يعلم وقوعها على وجه اليقين إلاّ من القرآن الكريم، فهو الذي سجل معجزات نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام. ولولا أنه سجلها ما علمها الناس. وإذا كانت بعض الكتب القائمة اليوم ذكرت بعضها فقد ذكرته مشوبا بأمور غير صادقة كإخبارهم بأن لوطاً كان مخموراً فوقع على ابنتيه،.وما يكتب فيه مثل هذا عن بعض النبيين، لا يمكن أن يكون مقبول الخبر عن سائرهم ومعجزاتهم[1].

---

(١) يمكن الرجوع الى: أ - د. صابر طعيمة في: (التراث الاسرائيلي في العهد القديم وموقف القرآن الكريم منه) وعند الحديث عن سفر نشيد الانشاد.
ب- (جيمس فويزر) في كتابه (الفلكلور في العهد القديم).
جـ- (د. حسن ظاظا) (الفكر الديني الاسرائيلي أطواره ومذاهبه).

ونقول: إن معجزة محمد عليه السلام كانت القرآن الكريم، وقد أجرى الله تعالى معها على يديه خوارق عادات أخرى، مثل إخباره عن بعض ما يغيب عن حسه، ومثل حنين الجذع اليه، ومثل بكاء الناقة عنده، ومثل الإسراء والمعراج ولكن لم يتحد إلاّ بالقرآن الكريم، ولم ير المشركون صرحا شامخا يتحداهم به سوى القرآن الكريم، وما كان يرجو كثرة الأتباع إلاّ به، ولقد روى أنه ﷺ، قال: (ما مِنْ نبيٍّ إلاّ أوتي، ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحي إلي، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)[1]. وهذا لأن رسالة النبي ﷺ خالدة وفي خلودها وبقائها ختم للنبوات، فهو ﷺ خاتم النبيين، ولا نبي بعده، فلزم أن تكون معجزته مناسبة لهذه الرسالة الخالدة الباقية التي لا يحدها زمان في المستقبل، بل تبقى إلى يوم القيامة ولا تكون معجزته واقعة تنقضي، وتنتهي بانتهاء الزمن الذي وجدت فيه بل تبقى الحجة ما بقيت الشريعة، وذلك محقق في القرآن الكريم، فهو حجة قائمة على العرب والعجم إلى يوم الدين. قال تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[2]، وقال ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم إلى أن يأتي أمر الله...)[3]، وما يشاهد الآن بعد مرور أربعة عشر قرنا من الزمان من بقاء هذه الدعوة صافية كما هي من غير تغيير لأكبر دليل على خلودها وبقائها.

العالمية:

إن عالمية رسالة محمد ﷺ أمر واضح لا يحتاج إلى دليل إلاّ إذا احتاجت الشمس إلى دليل. ذلك أنه يلزم من كونه هذه الرسالة هي خاتمة النبوات أن تكون عامة للعالمين جميعا لأنه لن يبعث بعدها نبي لأحد منهم، ومعلوم أن الله

---

(١) صحيح البخاري.
(٢) سورة الحجر: آية رقم ٩.
(٣) رواه الشيخان.

سبحانه قد ختم النبوات برسالة محمد ﷺ لقوله تعالى: ﴿ما كانَ محمدٌ أباً أحدٍ من رجالِكُمْ ولكن رسول الله.وخاتم النبيينَ﴾[1] ولقوله: ﷺ (إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلاّ موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين)[2].

إذاً فرسالته عليه الصلاة والسلام عامة للعالمين جميعا الإنس والجن لقوله تعالى: ﴿وما أرسلناكَ إلاَّ رحمةً للعالمينَ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿تبارَكَ اَّلذي نَّزلَ الفُرقانَ على عبدِهِ ليكونَ للعالمينَ نذيراً﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ يا أُيها الناسُ إنِّي رسولُ اللهِ إليكم جميعاً﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وما أرسلناكَ إلاّ كافةً للناسِ بشيراً ونذيراً﴾[6]، وما ورد عنه ﷺ في الحديث المتفق عليه (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نصرت بالرعب من مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً. فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لإحدٍ قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة)[7].

وقد ذكر الإمام القرطبي عند قوله تعالى: ﴿تباركَ الذي نَّزَلَ الفرقانَ على عبدِهِ ليكونَ للعالمينَ نذيراً﴾ والمراد بالعالمين هنا الإنس والجن، لأن النبي ﷺ قد كان رسولا اليهما، ونذيرا لهما، وأنه خاتم الأنبياء، ولم يكن غيره عام

(١) سورة الاحزاب: الآية رقم ٤٠.
(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين.
(٣) سورة الانبياء: الآية رقم ١٠٧.
(٤) سورة الفرقان: الآية رقم ١.
(٥) سورة الاعراف: الآية رقم ١٥٨.
(٦) سورة سبأ: الآية رقم ٢٨.
(٧) متفق عليه، في مسلم كتاب المساجد الحديث الثالث، في البخاري كتاب التيمم الحديث الثاني.

الرسالة إلاّ نوح، فانه عم برسالته جميع الإنس بعد الطوفان، لأنه بدأ به الخلق[1].

وقال أيضا عند قوله تعالى: ﴿وما أرسلناكَ الاَّ كافةً للناسِ بشيراً ونذيراً﴾: أي وما أرسلناك إلاّ للناس كافة أي عامة، في الكلام تقديم وتأخير. وقال الزجاج أي وما أرسلناك إلاّ جامعاً للناس بالإنذار والإبلاغ. والكافة بمعنى الجامع[2].

ويقول الأستاذ سيد قطب عند قوله تعالى ﴿وما أرسلناكَ إلاَّ رحمةً للعالمينَ﴾: ولقد أرسل الله رسوله رحمة للناس كافة ليأخذ بأيديهم إلى الهدى...، إلى أن قال: لقد جاء الاسلام لينادي بإنسانية واحده، تذوب فيها الفوارق الجنسية والجغرافية، لتلتقي في عقيدة واحدة، ونظام إجتماعي واحد...، إلى أن قال:- وغير هذا وذلك كثير يشهد بأن الرسالة المحمدية كانت رحمة للبشرية وأن محمدا ﷺ إنما أرسل رحمة للعالمين، من آمن به ومن لم يؤمن به على السواء فالبشرية كلها قد تأثرت بالمنهج الذي جاء به طائعه او كارهه،[3].... ويقول أيضا عند قوله تعالى ﴿ليكونَ للْعالمينَ نذيراً﴾: وهذا النص مكي وله دلالته على إثبات عالمية هذه الرسالة منذ أيامها الأولى. لا كما يدعى بعض المؤرخين- غير المسلمين- أن الدعوة الاسلامية نشأت محلية، ثم طمحت بعد اتساع رقعة الفتوح أن تكون عالمية، فهي منذ نشأتها رسالة للعالمين، طبيعتها طبيعة عالمية شاملة، ووسائلها وسائل إنسانية كاملة، وغايتها نقل هذه البشرية كلها من عهد إلى عهد، ومن نهج إلى نهج. عن طريق هذا الفرقان الذي نزله الله على عبده ليكون للعالمين نذيراً[4].

---

(١) (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي جـ ١٣ ط القاهرة ١٣٨٧هـ.

(٢) المصدر السابق جـ ١٤ ص ٣٠٠.

(٣) في ظلال القرآن- سيد قطب جـ ٥ ص ٥٦٨- ٥٧٠ ط ٧ بيروت ١٣٩١هـ.

(٤) في ظلال القرآن- سيد قطب جـ ٦، ص ١٣٨ ط ٧ دار احياء التراث بيروت سنة ١٣٩١هـ.

وهكذا يتضح لنا أن عموم رسالة محمد أمر جلي مجمع عليه من خلال الأدلة الواضحة من كتاب الله والتي آمن بها المسلمون جميعا كما رأينا من هذه النقول السابقة لبعض المفسرين، وحتى تتضح المسألة نعرض هنا الى ما قاله بعض المحدّثين.

فقد قال الإمام ابن حجر عند قوله ﷺ (أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي.... إلى أن قال: وبعثت إلى الناس عامة): وأما نبينا محمد ﷺ فعموم رسالته من أصل البعثة فثبت اختصاصه بذلك[1].

وقال الإمام النووي أيضا عند هذا الحديث الذي رواه مسلم بلفظ (وبعثت إلى كل أحمر وأسود..): قوله ﷺ (وبعثت إلى كل أحمر وأسود) وفي الرواية الأخرى (إلى الناس كافة) قيل المراد بالأحمر البيض من العجم وغيرهم، وبالأسود العرب لغلبة السمرة فيهم وغيرهم من السودان، وقيل المراد بالأسود السودان وبالأحمر من عداهم من العرب وغيرهم، وقيل الأحمر الأنس، والأسود الجن، والجميع صحيح، فقد بعث إلى جميعهم[2].

ولعل فيما سقناه الكفاية إن شاء الله، والواقع أكبر دليل على عموم هذه الرسالة، فقد انتشرت في جميع بقاع الدنيا وآمن بها الناس على اختلاف الألوان والأصول واللغات والبلدان، ومه هذا وجدُوا فيها بغيتهم من الهداية والصلاح والاستقامة، والسعادة والطمأنينة.

ورسالة الإسلام يتجلى عمومها في كل أجزائها وعباداتها، فلم ترد عبادة أو فرض خاصاً بجنس من الناس دون آخر، ومصداق ذلك يظهر واضحاً في فريضة الحج التي تتكرر كل عام وتجمع نماذج شتى من البشر قد انضووا تحت لواء هذه الرسالة العظيمة، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

---

(١) فتح الباري جـ ١ ص ٤٣٦ ط دار الفكر ترتيب محمد فؤاد عبدالباقي بدون سنة طبع.

(٢) شرح النووي على مسلم جـ ٥ ط ٢ دار الفكر بيروت سنة ١٣٩٢هـ.

خاتمة البحث

بعد الحمد لله، والشكر له على توفيقه، لعلي أستطيع القول أنني بعد رحلة البحث، مع هذا الموضوع الواسع المتعدد الجوانب، قد أوجزت بعض معالمه في عدة قضايا رئيسية، بعضها اتسم بالبحث العلمي العقدي الصرف، مثلما جاء في الباب الثاني حيث انحصر بحثي في الفصول الخمسة حول دلالة النبي والرسول والفرق بينهما؛ وخلافات العلماء حول هذا الموضوع وترجيح الرأى الصواب إن شاء الله، كما عرضنا للمعجزة وأنواعها ودلالتها في النبوة، كما توسعنا في عرض مذاهب العلماء في النبوة والرسالة، متناولين ما جاء في أهم كتب العقائد حول وجوب الإيمان بالأنبياء والمرسلين.

وبعضها جاء فكريا ومنهجيا، مثلما ذهبنا في الباب الأول بفصوله الثلاثة حيث كانت عنايتنا وتركيز البحث حول دراسة الإنسان والإيمان والحياة، مسترشدين بآيات الله الكونية في التدليل على إثبات عجز العقل البشري عن أن يستوعب بعضا مما خلق الله، فضلا عن أن يتعرف على سنن الله في الخلق ولقد برهنا في دائرة الإيمان بالغيب- والتي هي دائرة واسعة شغلت بال الانسان وعقله عبر التاريخ الطويل- من خلال الفصل الثاني (علم الغيب في الاسلام وموقع الانسان منه). أن الايمان بالغيب في الاسلام (علم يقيني) برهنت على صحة دلالته•براهين الله الكونية وآياته القرآنية.

هذا وقد كانت قضية القضايا. وهي التي لا تزال تشغل بال العلماء التجريبيين اليوم، حول ما جاء في الباب الثالث الذي خصصناه: لآدم عليه السلام بين الخلق والنبوة مستهدفين طرح قضية نبوة آدم عليه السلام بمنظور إسلامي والتدليل على خلقه خلقاً مستقياً، كما جاء في خبر القرآن الكريم،

مستدلين بالبراهين العلمية التي أنبأ بها القرآن الكريم وبأخبار السنة المطهرة عن بعض مكونات عناصر خلق آدم عليه السلام وخصائص أطوار هذه العناصر في أخبار الوحي الالهي لنبرهن على أن الفكر المادي الدارويني في القول بالتطور باطل علمياً، أبطله خبر القرآن الكريم، فضلاً عن إنكار العلم الحديث له.

ولقد اقتضى منا البحث في هذا الباب أن نأتي على اختلاف العلماء حول نبوة آدم ورسالته، وهل هو نبي رسول أم نبي فقط، ورجحنا الرأي الذي تقوى أدلته حول نبوة آدم فقط.

هذا وقد اقتضت طبيعة البحث، وهو بالأصل يعالج قضايا النبوة والرسالة، أن أذهب فأعالج سير بعض أنبياء الله ورسله، فعقدت مقارنة بين ما جاء في كتب أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وبين ما جاء في القرآن الكريم حول بعض أنبياء الله، واخترت من هؤلاء الكرام أولى العزم وقد توسعت بعض الشيء حول سيرة نوح عليه السلام لشدة ما يحيط بسيرة هذا النبي من غموض، وكثرة ما اختلف العلماء حول دوره الديني، هل كان نبياً رسولاً أم نبياً فقط، وهل كانت النبوة والرسالة، قبل الطوفان أو بعده، ورجحت الرأي الذي يرى أن نوحاً عليه السلام كان نبياً رسولاً. وكان علي أن أتعامل مع مصادر التاريخ وكتب السيرة، فضلا عما قصه الكتاب المقدس وما جاء بأقلام الباحثين والدارسين حول هذا الموضوع.

هذا ولقد خصصت فصلا مستقلاً لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، لأني وجدته بين تراث اليهود والنصارى يتنازع عليه، فضلا عن مكانته الخاصة في تاريخ الايمان التي تبوأها عليه السلام في عقيدة المسلمين.

ومن هنا كان مبحث: نبي الله إبراهيم بين زيف الدعوى وحقيقة الإنتماء مناخا خصبا، أفرغت فيه ما انتهيت إليه من مطالعات في كتب اليهود والنصارى، ومباحث كتاب التاريخ ونبأ القرآن الكريم.

هذا ولما كان مفترق الطرق تاريخياً في مسار أتباع الأنبياء والمرسلين، قد

بدأ من عصر إسماعيل وإسحق، فإني قد خصصت مبحثا لدور إسماعيل وإسحق عليهما السلام في مسار النبوة والأنبياء وبنهج الدراسة المقارنة، أي برؤية العهد القديم ونبأ القرآن الكريم، وذلك لأكشف مدى الزيف الذي قام به كاتبوا التاريخ في مرحلة ما قبل الاسلام.

وقد اقتضى البحث حول نبوة إسماعيل وإسحق أن أرد على مجموعة من المستشرقين ومنهم «موير» في زعمه عدم مجيء نبي الله إسماعيل إلى مكة ومساهمته مع أبيه في بناء بيت الله الحرام ورفع قواعده كما أنبأ القرآن الكريم وأخبر.

ونظراً لما لنبي الله يعقوب عليه السلام في تاريخ النبوة والأنبياء من قضايا شائكة، بين مصادر سيرته، وخاصة حول ما جاء عنه من مزاعم اليهود، فاني قد أفردت له مبحثا، لكي يحدد مكانه عليه السلام بين تزييف التوراة وصدق القرآن الكريم.

هذا وقد خصصنا الفصل الخامس من الباب، لقصص القرآن الكريم حول النبي موسى عليه السلام، وذلك لكي نرفع عن سيرته عليه السلام مفتريات المؤرخين التي زعموها حول ثقافته المصرية، وتأثير الديانة الفرعونية عليه، ولقد حددنا علاقة نبي الله موسى عليه السلام بالتوراة، وحكمنا على مضمون ما نزل عليه، على ضوء ما أخبر القرآن الكريم عنها وعنه، لا على ضوء ما هي عليه في أسفار العهد القديم في مجال النبوة والرسالة الآلهية، ولقد رفضنا في علاج هذا المبحث أن يكون الإله الحق جل جلاله الذي أرسل موسى وجميع الأنبياء بالحق والهدى، هو الإله الذي جسمته التوراة المحرفة وجعلته حيزا محدودا ينزل إلى الأرض ليجلس بين حكماء إسرائيل فيصطفيهم، ثم يعدل عن قراره، كما تقول التوراة، ثم يأمر موسى أن يبلغ الحكماء عدوله عن النزول الى الأرض للجلوس معهم، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

هذا ومن خلال الفصل السادس، استعرضت دور داود وسليمان عليهما السلام، ولقد أوضحت أنهما عليهما السلام أديا دورا مهما في تاريخ النبوة والأنبياء.

وذهبت أنقي سيرتهما عليهما السلام مما شابها عند اليهود والنصارى، وحكّمت القرآن الكريم وأقوال علماء السلف رضوان الله عليهم في هذين النبيين على ضوء ما في السنة المطهرة أيضا، وانتهيت الى أن كلا من داود وسليمان بمعيار النبوة وضوابطها قد أدى دوره الحقيقي الذي أناطه الله به دون تحريف أو عدوان، كما برهنت على أن نبي الله سليمان لم يسجد لغير الله سبحانه، ولم يعتقد فيما سواه وليس أمره كما افتريت عليه كتب اليهود والنصارى.

هذا وقد كان من دواعي التتبع التاريخي لمسار عمل النبوة والأنبياء في دنيا الناس، أن أذهب فاخصص فصلا لنبوة عيسى بن مريم عليه السلام، خاصة وأن الجدل حول ميلاده وحياته ونبوته وموته لا يزال عند غير المسلمين موضع خلاف يتدارسونه بالنقد فيما بينهم.

وكما قلت فان المتتبع لسيرة نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام في القرآن الكريم يجد أنها تختلف تماماً عما كتبه الكاتبون عنه في الأناجيل حول سيرته، فضلا عما في الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى، ذلك أن القرآن الكريم تناول سيرته عليه السلام بالطهر والتكريم الذي يليق بنبي من قبل رب العالمين.

كما كان عليّ أن أتناول في مبحث عيسى بن مريم قضايا ميلاده وطهارة أمه ومعالم نبوته وسيرته، وبشارته بالنبي الخاتم، وأوضحت الفرق الجوهري بين رواية الأناجيل، وخبر القرآن الكريم في كثير من القضايا، الأمر الذي يؤكد انفراد القرآن الكريم بأنباء عن نبي الله عيسى بن مريم لم يكن أهل الكتاب حتى ظهور الاسلام على علم بها.

هذا ومما يجدر ذكره أنني استهدفت بهذا الجانب التفصيلي من الدراسة حول نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام دحض زيف ومفتريات القدامى والمحدثين من أعداء الاسلام واليهود والنصارى، الذين قالوا: عن القرآن الكريم وعن النبي الخاتم محمد ﷺ: أساطير الأولين أكتتبها فهي تملي عليه بكرة وأصيلاً.

هذا وقبل أن أتناول دلائل النبوة والنبي الخاتم محمد ﷺ والبشارة به في التوراة والأنجيل وجدت نفسي أمام قضية لا بد منها. ومع إدراكي لصعوبة الخوض فيها إلاّ أنها في هذا الزمان، وفي ضوء المتغيرات المادية والاجتماعية والمذهبية التي يعيشها العالم المعاصر، رأيت أنه من الضرورة بمكان أن أرد عليهم وأن أتناولها بالبحث: وأعني بهذه القضية الباب الخامس الذي خصصته للرد على الماديين والملاحدة فيما زعموه من إنكار النبوة وجحودهم لدور الأنبياء الحضاري في تاريخ الإنسانية، واقتضى البحث أن نأتي على مقررات بعض العلوم التجريبية وهو مجال وعر بالنسبة لغير المتخصصين، لكن الله سبحانه أعان على دراسة بعض قضايا العلم الحديث، والتي انتهت بنا الى طرح مقررات بعض العلوم التجريبية التي انتهى منها البحث العلمي ولا تصطدم مع الفطرة، وكانت هذه المقررات بمثابة المقدمة الفكرية التي قدمت عليها نبأ القرآن الكريم وصدق خبره في كل ما أنبأ به.

ومن هنا جاء مبحث العلم الحديث ودلائل النبوة دحضاً لأقوال الملاحدة من الماديين والشيوعين الذين وصفوا الإيمان: بأنه واد للدموع.

هذا ولقد استطردت في الإستشهاد بأقوال بعض علماء البحوث الطبيعية مثل: جون وليام كلوفتش، ودكتور (أدوين فاست) ودكتور (سيسل هامان) للبرهنة على أن العلم الحديث في مجال علوم الاحياء والفسيولوجيا (وظائف الأعضاء) والنبات والطب قد أسقط دعائم الفكر المادي في إنكاره النبوة والأنبياء.

هذا وقد جاء الباب السادس والأخير حول دعوة الرسول محمد ﷺ، وذلك لابراز خصائصها، التي تميزت بها عن الرسالات السابقة، وأوضحت من خلال عرض موجز لمعالم النبوة عند النبي: إبراهيم والنبي موسى والنبي عيسى بحكم تأثير معطيات اتباعهم في التفكير والمعتقد عند المؤرخين الذين كتبوا عن النبوة والرسالة من غير المسلمين، ولقد أوضحت في هذا الباب بفصوله المختلفة الى أنه إذا كان لكل نبي من هؤلاء الكرام سمة معينة عرفت بها الدعوة

وعرف بها النبي ، كأن يكون منهم من كل منهج الرسالة وسلوك النبي لديه يتسم بصفة الزعيم بين قومه ، أو من كان منهم جامع الإرادة وموحد الجماعة بين قومه ، أو من كان منهم محاربا للشهوات واللذات وموقظاً للقلوب الهامدة ، ومحيياً للضمائر الميتة ، فإن نبي الاسلام ﷺ قد جمع الله له كل هذه الخصائص حفاظاً على عالمية الرسالة ودوامها الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

هذا وقد انتهيت إلى تقديم البراهين تاريخياً واجتماعياً وعقدياً لأدلل على ان العالم قبل بعثه النبي محمد ﷺ كان ينتظره ، وما كان من إنسان غيره ، أو نبي سواه بقادر على أن يخلِّص الإنسان من استغلاق الفكر وتبلد الشعور الذي ضاعت فيه الإنسانية وضلت ، وتوارت خشية القلوب لرب العالمين واندثرت . فكان مجيء الخاتم محمد ﷺ بمثابة الفجر الذي انبثق بعد الليل الطويل .

هذا خلاصة ما انتهيت إليه ، والله سبحانه أرجو أن يتقبل جهدي وأن يغفر لي خطئي وزلتي إنه على كل شيء قدير .

والله أعلم ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه .

بيان بأهم المراجع مرتبة حسب أولية ذكرها في البحث

١ - هنري برستيد- فجر الضمير- ترجمة سليم حسن- الألف كتاب القاهرة ١٩٦٩م.

٢ - د. محمود حجازي- اللغة العربية عبر القرون- سلسلة اقرأ- القاهرة ١٩٦٩م.

٣ - د. جلال نجم- جلال اللغة العربية في وجه التحديات- القاهرة عام ١٩٦٤م.

٤ - ادوار سبنسر كولز- لا تخف- دار الهلال القاهرة عام ١٩٥٨م.

٥ - الكسيس كاريل- الانسان ذلك المجهول- تعريب شفيق فريد- مكتبة دار المعارف بيروت.

٦ - احمد البطراوي- الجنس البشري في معرض الأحياء- سلسلة الألف كتاب القاهرة عام ١٩٦٦م.

٧ - عبدالرزاق نوفل- دين وفكر- القاهرة عام ١٩٦٨م.

٨ - ارسطو طاليس- الكون والفساد- ترجمة لطفي السيد- طبعة دار الكتب المصرية عام ١٩٣١م.

٩ - د. محمد الصادقي- بين الآلهيين والماديين- مكتبة الصدق- بغداد.

١٠ - احمد قدامة- قاموس الغذاء والتداوي بالنبات- دار النفائس بيروت عام ١٩٨١م.

١١ - ابو حنيفة الدينوري- كتاب النبات- القاهرة عام ١٩٥٠م.

١٢ - الأصمعي- كتاب النبات والشجر- القاهرة بدون تاريخ.

١٣ - عز الدين رشاد- كتاب النباتات الطبية والعطرية- القاهرة عام ١٩٥٨م.

١٤ - د. جمال الدين الرمادي- قصة السماوات- القاهرة عام ١٩٥٦م.
١٥ - محمد المبارك- نظام الاسلام- دار التكرير عام ١٩٧٠م.
١٦ - ابو جعفر محمد بن جرير الطبري- جامع البيان في تفسير القرآن- دار المعرفة بيروت عام ١٩٨٠م- طبعة الاميرية ببولاق.
١٧ - ابن منظور- لسان العرب- طبعة بيروت في ثلاثة مجلدات ترتيب نديم مرعشلي ويوسف خياط.
١٨ - عبدالكريم عثمان- معالم الثقافة الاسلامية- الرياض عام ١٣٩٤هـ- الأنوار.
١٩ - عفيف طبارة- مع الانبياء في القرآن- بيروت الطبعة الثالثة.
٢٠ - ابو الاعلى المودودي- الحضارة الاسلامية- الطبعة الثانية بيروت ١٣٩٠هـ.
٢١ - عبدالقادر شيبة الحمد- الأديان والفرق والمذاهب- طبعة جدة.
٢٢ - محمد بن أبي بكر الرازي- مختار الصحاح عام ١٩٦٧م.
٢٣ - القاضي عبدالجبار بن احمد- المغني- طبعة بيروت.
٢٤ - ابو العز الحنفي- شرح العقيدة الطحاوية- الرياض ١٣٩٦هـ.
٢٥ - محمد علي الصابوني- النبوة والأنبياء- طبعة بيروت.
٢٦ - الحاكم- المستدرك على الصحيحين- طبعة بيروت.
٢٧ - احمد بن حنبل الشيباني- المسند- طبعة دار صادر والمكتب الإسلامي
٢٨ - محمود بن عبدالله التويجري- فتح المعبود في الرد على ابن محمود- الطبعة الأولى عام ١٣٩٩هـ.
٢٩ - الألوسي- روح المعاني- طبعة بيروت.
٣٠ - أحمد بن تيمية- النبوات- طبعة الرياض.
٣١ - د. صابر طعيمة- العقل واليقين في الاسلام- دار الجيل بيروت عام ١٩٧٩م.
٣٢ - الامام مسلم- الجامع الصحيح- بترتيب محمد فؤاد عبدالباقي- وطبعة الشعب القاهرة.

٣٣ - الامام البخاري- الجامع الصحيح- ترتيب محمد فؤاد عبدالباقي- وطبعة دار الشعب ١٣٧٨هـ.
٣٤ - وهبي سليمان الالباني- اركان الايمان- طبعة بيروت.
٣٥ - محمد عبدالله دراز- الدين- طبعة المعارف مصر عام ١٩٦٨م.
٣٦ - عباس محمود العقاد- الله- دار المعارف مصر.
٣٧ - الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) طبع رابطة الكتاب المقدس.
٣٨ - احمد بن تيمية- الايمان- طبعة بيروت المكتب الاسلامي.
٣٩ - د. صابر طعيمة- التراث الاسرائيلي في العهد القديم وموقف القرآن الكريم منه- طبعة دار الجيل بيروت.
٤٠ - الشرتوني- اقرب الموارد في فصح العربية والشوارد- طبعة الاستانة ١٨٨٨م.
٤١ - السيد علوي عباس المالكي- العقد المنتظم في أقسام الوحي المنظم- طبعة الحلبي القاهرة.
٤٢ - ابو بكر الباقلاني- اعجاز القرآن- المكتبة الثقافية- بيروت على هامش الاتقان.
٤٣ - ابن سيناء- النجاة- الطبعة الثانية بيروت.
٤٤ - القاضي عبدالجبار بن احمد- شرح الأصول الخمسة- تحقيق دكتور عبدالكريم عثمان- مكتبة وهبة.
٤٥ - معزالدين محمد المهدي القزويني- قلائد الخرائد في أصول العقائد- مطبعة الارشاد بغداد.
٤٦ - الآمدي- غاية المرام في علم الكلام- تحقيق حسن عبداللطيف- القاهرة ١٩٦٨م.
٤٧ - الامام ابن كثير تفسير القرآن العظيم- طبعة الحلبي مصر.
٤٨ - الشهرستاني- نهاية الاقدام في علم الكلام- مخطوط بدار الكتب المصرية- توحيد.

٤٩ - ابن سيناء- القانون- الطبعة الثانية بيروت عام ١٩٨٠م.
٥٠ - د. عبدالمنعم نور- المجتمع الانساني- مكتبة القاهرة الحديثة عام ١٩٧٢م.
٥١ - عبدالرحمن بدوي- مذاهب الاسلاميين- دار العلم للملايين بيروت.
٥٢ - علي بن محمد الجرجاني- شرح المواقف- طبعة السعادة بالقاهرة عام ١٣٢٥هـ.
٥٣ - محمد بن حمد السفاريني- لوائح الأنوار البهية- مطبعة المنار ١٣٢٣هـ مصر.
٥٤ - البهي الخولي- آدم- الطبعة الثالثة القاهرة عام ١٩٧٦م.
٥٥ - د. محمد بن فتح‌الله بدران- الفلسفة الحديثة في الميزان وتأسيس القواعد من القرآن- طبعة القاهرة عام ١٩٦٩م.
٥٦ - محمد فؤادعبدالباقي - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - طبعة بيروت.
٥٧ - موريس بوكاي- الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة- طبعة دار المعارف القاهرة.
٥٨ - الامام النسفي- تفسير النسفي- طبعة الحلبي بمصر.
٥٩ - محمد رشيد رضا- تفسير المنار- طبعة حجازي بالقاهرة.
٦٠ - احمد الصاوي- حاشية الصاوي على الجلالين- الطبعة الثانية.
٦١ - مجاهد محمد هريدي- منهج القرآن والسنة.
٦٢ - الامام القرطبي- الجامع لأحكام القرآن- طبعة دار الشعب القاهرة- وطبعة مصورة عن دار الكتب ١٣٨٧هـ.
٦٣ - الامام ابن حجر العسقلاني- فتح الباري شرح صحيح البخاري- ترتيب عبدالباقي.
٦٤ - محمد بن فتح‌الله بدران- العقيدة والفطرة- مطبعة مخيمر القاهرة عام ١٩٦٥م.
٦٥ - عبدالقاهر البغدادي- اصول الدين- طبعة بيروت عام١٤٠٠هـ.

٦٦ - النيسابوري- رغائب القرآن وغرائب الفرقان- على هامش الطبري- الطبعة الثانية دار المعرفة بيروت ١٩٨٠م.
٦٧ - الفخر الرازي- تفسير الفخر الرازي- المطبعة الاميرية ببولاق مصر - والمطبعة البهية المصرية.
٦٨ - السيوطي- انباه الأذكياء في حياة الأنبياء- طبعة الدكن الهند ١٩٦١م.
٦٩ - محمد عزة دروزة- تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم- بيروت المكتبة العصرية.
٧٠ - د. صابر طعيمة- بنو اسرائيل في ميزان القرآن الكريم- بيروت دار الجيل.
٧١ - ابراهيم زيدان- رسالة نوح عليه السلام- اطروحة دكتوراه بجامعة الأزهر كلية أصول الدين. لم تطبع.
٧٢ - الثعالبي- قصص الأنبياء- المطبعة اليوسفية.
٧٣ - النويري- نهاية الأرب في فنون الأدب- طبعة مصورة- عن طبعة دار الكتب- المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر.
٧٤ - نسيب وهيبة الخازن- من الساميين الى العرب- منشورات الحياة بيروت.
٧٥ - محمد عرة دروزة- تاريخ الجنس العربي- المكتبة العصرية بيروت.
٧٦ - ذكي شنوده- المجتمع اليهودي- مكتبة الخانجي القاهرة.
٧٧ - محمد ابراهيم الشاعر- جغرافية فلسطين العسكرية- معهد البحوث والدراسات العربية عام ١٩٧٠م.
٧٨ - د. صابر طعيمة- التاريخ اليهودي العام- طبعة بيروت.
٧٩ - عوض سمعان- المدخل الى الكتاب المقدس- مطبعة جزيرة بدران- القاهرة.
٨٠ - ابكار سقاف- اسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة- عالم الكتب القاهرة ١٩٧٠م.

٨١ - ابو الحسن السامري- التاريخ مما تقدم عن الآباء- مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٠ تاريخ.
٨٢ - زكريا الحجاوي- حكاية اليهود- القاهرة.
٨٣ - عباس محمود العقاد- ابو الأنبياء- دار الهلال القاهرة.
٨٤ - د. صبري جرجس- التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي- القاهرة عام ١٩٦٧م.
٨٥ - محمد عزة دروزة- تاريخ الجنس العربي قبل العروبة الصريحة- المكتبة العصرية بيروت.
٨٦ - د. صابر طعيمة- اليهود بين الدين والتاريخ- مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٢م.
٨٧ - ل. سيديو- تاريخ العرب العام- ترجمة عادل الزعيتر- القاهرة.
٨٨ - اسبتينيو مسكاني- الحضارات السامية- ترجمة د. السيد يعقوب بكر- الألف كتاب مصر.
٨٩ - د. عبدالفتاح شحاته- الأمة العربية قبل الاسلام- القاهرة ١٩٦٨م.
٩٠ - ابو الحسن الاشعري- مقالات الاسلاميين واختلاف المصليين- تحقيق محي الدين عبدالحميد- الطبعة الثانية عام ١٩٦٩م.
٩١ - عبدالكريم الخطيب- التفسير القرآني للقرآن- دار الفكر العربي القاهرة.
٩٢ - د. القس وليم مارش- السنن القديم في تفسير اسفار العهد القديم- الطبعة الثانية بيروت عام ١٩٧٥م.
٩٣ - د. صابر طعيمة- الدين الحق وبنو اسرائيل- بيروت دار الجيل.
٩٤ - د. صابر طعيمة- قصة الذكر الحكيم تدوينا وتفكيرا- طبعة دار الجيل. بيروت عام ١٩٧٩م.
٩٥ - عبدالمنعم ابو بكر- اخناتون- سلسلة اقرأ القاهرة عام ١٩٦٩م.
٩٦ - محمد فؤاد شبل- موسى- القاهرة عام ١٩٧٠م.

٩٧ - احمد بن تيمية- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح- مطبعة المدني القاهرة.
٩٨ - رحمة الله بن خليل الهندي- اظهار الحق- تحقيق د. احمد حجازي السقا- القاهرة عام ١٩٧٨م.
٩٩ - محمد ابو زهرة- محاضرات في النصرانية- القاهرة عام ١٩٦٥م.
١٠٠- عبدالوهاب النجار- قصص الأنبياء- الطبعة الثالثة بيروت.
١٠١- عبدالعزيز الخياط- المجتمع المتكامل في الاسلام.
١٠٢- د. رؤوف شلبي- التضليل الماركسي- القاهرة عام ١٩٧٥م.
١٠٣- د. محمد عبدالمنعم النمر- اسلام لا شيوعية- القاهرة عام ١٩٧٥م.
١٠٤- سيد قطب- في ظلال القرآن- طبعة بيروت.
١٠٥- د. احمد العسال- الاسلام وبناء المجتمع.
١٠٦- د. محمد البهى- تهافت الفكر المادي- مطبعة وهبة.
١٠٧- عباس محمود العقاد- عقائد المفكرين في القرن العشرين- بيروت.
١٠٨- د. محمد البهى- القرآن في مواجهة المادية- مكتبة وهبة عام ١٩٧٨م.
١٠٩- عباس محمود العقاد- مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية- دار الكتاب العربي بيروت عام ١٩٧٩م.
١١٠- عباس محمود العقاد- أبو الأنبياء- بيروت.
١١١- محمد فؤاد شبل- موسى ليس اسرائيليا- سلسلة اقرأ القاهرية عام ١٩٦٥م.
١١٢- عباس محمود العقاد- حياة المسيح- القاهرة عام ١٩٦٥م.
١١٣- ابن سعد- الطبقات الكبرى- طبعة الشعب.
١١٤- د. احمد حجازي السقا- البشارة بنبي الاسلام في التوراة والأنجيل- طبعة القاهرة.
١١٥- محمد رضا- محمد رسول الله- بيروت.

١١٦- محمد ابو زهرة- خاتم النبيين- دار الفكر العربي.
١١٧- أنور الجندي- الاسلام وحركة التاريخ.
١١٨- د. صابر طعيمة- الاسلام ومشكلات السياسة- بيروت دار الجيل ١٩٧١م.
١١٩- ابو الحسن الندوي- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.
١٢٠- الشهرستاني- الملل والنحل.
١٢١- الطبري- تاريخ الأمم والملوك.
١٢٢- ابن هشام- سيرة الرسول ﷺ- طبعة دار احياء التراث بيروت.
١٢٣- اميل درمنجم- حياة محمد- ترجمة عادل زعيتر.
١٢٤- محمد أبو زهرة- المعجزة الكبرى القرآن الكريم- دار الفكر العربي ١٩٧٢م.
١٢٥- الامام النووي- شرح صحيح مسلم- دار الفكر بيروت ١٣٩٢هـ.

فهرس المحتويات

الموضوع الصفحة

الموضوع